قصص

ليف تولستوي

سوناتة لكروتزر

وقصص أخرى

@ketab_n
Follow Me
31.12.2016

ترجمة: صياح الجهيم

ليف تولستوي

سوناتة لكروتزر

وقصص أخرى

ترجمة : صياح الجهيم

Twitter: @ketab_n

سوناتة لكروتزر

وقصص أخرى

Twitter: @ketab_n

قصص

المؤلف: ليف تولستوي
عنوان الكتاب: سوناتة لكروتزر
وقصص أخرى
ترجمة: صياح الجهيم
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 1997
الطبعة الثانية: 2016

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Author: **Лев Николáевич Толстóй**
Title: **Крейцерова соната**
и другне рассказы
Translator: **Sayah Al jhayem**
cover designed by: **Majed Al Majedy**
P.C.: **Al - Mada**
First Edition: **1997**
Second Edition: **2016**

Copyright © Al - Mada

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

Twitter: @ketab_n

مقدمة

موت إيفان ايليتش ١٨٨٥: هذه القصة البالغة القصر، هي مع ذلك، واحدة من أعظم القصص التي كتبها تولستوي نفاذاً إلى النفس. وقد زوّد الكاتب بموضوعها حدث واقعي: ففي ٢ تموز ١٨٨١ مات، بالفعل، في تولا المدعوٌّ إيفان ايليتش ميتشنيكوف، عضو المحكمة والأخ الأكبر لعالم الجراثيم الشهير «ايليا ميتشنيكوف» (١٨٤٥ - ١٩١٦) الذي كان مدير معهد باستور في باريس وقام بزيارة مؤلف «آنا كارينينا». وكان تولستوي قد سمع بالمرض العضال الذي أصاب القاضي وبالموت الذي نجم عنه. إن هذا الحديث، المبتذل في الظاهر، حرّضه كما صرّح في إحدى رسائله، على أن يكتب «وصفاً لموت رجلٍ عادي، لكنه وصفٌ كأنه معمولٌ من داخله». وفي السنة نفسها نجد بالفعل، في كرّاسات تولستوي، ملاحظات ورسوماً إجمالية تحت عنوان شديد الغموض هو: موت قاضٍ. وكانت هذه الحكاية، في روايتها الأولى، مكتوبةً بضمير المتكلم: ذلك أن زميلاً لإيفان ايليتش زار أرملة القاضي وتسلّم من يديها «اليوميات» التي كتبها المتوفّى في أواخر أيامه. فهذه اليوميات هي التي تخيّلها تولستوي. لكنه لما كان منهمكاً بمهمته ككاتب مروّجٍ للعقيدة الجديدة، فإنه كتب في هذه الفترة: «ماذا ينبغي أن نفعل؟»، وهجر مؤقتاً هذه القصة فلم ينقّح

Twitter: @ketab_n

مسوّدتها إلا في ١٨٤٨، منتقلاً من «اليوميات» إلى استحضار حياة البطل ومرضه وموته يرويها الراوي. وفي آب ١٨٨٥ أنجز تولستوي نصه وأتمّه في بضعة شهور. وقد أهدى القصة لزوجته التي ساعدته، مرة أخرى، على إعادة نسخ رواياته الكثيرة المخطوطة.

نحن نعلم مدى القلق الذي كان يثيره في تولستوي التفكير في الموت، ولاسيما منذ «ليلة أرزاماس» الشهيرة. وبعض صفحات «الحرب والسلم» تظل الصدى المأثور لهذا التفكير. لكن وصف احتضار القاضي وموته هنا يُقدَّم للقارئ بدقة فائقة حتى إن الأطباء، في تلك الحقبة، لم يجدوا مشقة في التعرّف على أعراض السرطان في المنطقة البطنية. إن ظهور الداء وتفاقمه وتطوره الغاشم قد عُبِّرَ عنها هنا بقوة ودقّة لا مثيل لهما. لكن المسألة ليست مسألة موت إيفان ايليتش فقط؛ فنحن نحسّ في هذه القصة بالأزمة الميتافيزيكية التي عاشها تولستوي. إن سرَّ الموت مرتبط بشعور حاد بتفاهة الحياة، ولاسيما الحياة التي يحياها أشخاصٌ من المجتمع الذي يُدعى «مجتمعاً مثقّفاً». أفلا تحمل الرواية الأولى، على كل حال، هذه العبارة التصديرية ذات الدلالة: «من غير الممكن، لا، من غير الممكن الاستمرار في حياتي كما حييتُ حتى الآن، وكما نعيش نحن جميعاً. هذا ما أوحاه إلي موت إيفان ايليتش واليوميات التي تركها. وأنا أريد إذن أن أقدّم تصوّري للحياة والموت قبل هذا الحدث، وسوف أنقل يومياته كما وصلتني، مكتفياً فقط بأن أضيف إليها، هنا وهناك، بعض التفصيلات التي اطلعت عليها من ألأفه».

والحياة التي غدا من غير الممكن أن يحياها، هي إذن حياة الطبقة

Twitter: @ketab_n

العُليا في تلك الحقبة. لقد كان تولستوي خبيراً بهؤلاء المُلاّك العقاريين الكبار، بأولئك الموظفين المدقّقين، وكان يعلم أية هُوى من الضعف وفقدان الشعور والرخاوة تخفيها غالباً مظاهرهم المحترمة. إيفان ايليتش عاش هو أيضاً حياة محترمة: دراسة الحقوق، بداية موفقة لعمله، زواج بلا حب لامرأة لا هي بالجميلة ولا هي بالبشعة، لا هي مفرطة الغنى ولا هي مفرطة الفقر: امرأة كما ينبغي أن تكون المرأة تماماً. زوجة صالحة، من جهة أخرى، وأم صالحة، لكنه لم يعش حياةً متّحدة بها أيّ اتحاد. مجرّد علاقات «الواجب الزوجي». وعلى ذلك، ترفّع إيفان إيليتش في وظيفته وما لبث أن عُيِّن في منصب هام؛ كان زملاؤه يحترمونه، وكان كل شيء على مايرام. فاستطاع منذئذ أن يرتّب مسكناً فسيحاً له ولأسرته! وإذا بعثرة تبرز: لقد أثارت صدمةٌ فجأةً مرضاً خبيثاً أدرك خلاله القاضي المحترم أن هذه الحياة المنتظمة، المنظّمة تبعاً للتقدّم الاجتماعي وحده، هي أفقر حياة، وهي خالية من المعنى خلواً تاماً. كما أدرك مدى نفاق العلاقات الاجتماعية والأسرية وزيفها، ومدى غياب أي شعور حي بين الناس الذين يدّعون القرابة بينهم. ولم يحس إيفان ايليتش قط بنفسه وحيداً هذه الوحدة إلا أمام شبح الموت: صار غريباً عن زوجته وعن ابنته التي كانت مقبلةً على الزواج، وعن ابنه، لأن لكل منهم حياته الخاصة به، بل لقد كان كل منهم يحاول أن يتحاشى إيفان ايليتش الذي عُدَّ مُربكاً منذ مرضه. إن تأمل القاضي يجري بصفاء ذهني وبمرارة. فهو يهمس بينه وبين نفسه: «كل ما يجعلك تحيا ليس سوى أكذوبة تخفي عنك الحياة والموت».

وبالمقابل، فإن الكائن الوحيد الذي غدا قريباً منه هو خازن المؤن «جيراسيم» الذي لا يخاف المرض ولا الموت والذي يقبل بتقلباتهما

Twitter: @ketab_n

وامتحاناتهما بنفس راضية. ونحن نجد هنا فكرة عزيزة على تولستوي وهي أن ابن الشعب وحده يملك سبلَ مجابهة الحياة الحقة. وشخصية «جيراسيم» تضاهي شخصية «بلاتون كراتيف» في الحرب والسلم، و«فوكا نيتش» في «آنا كارينينا».

لكن ها هو ذا شاهدٌ يشهد على بواعث الإلهام التهذيبية لدى تولستوي: إن البائس «إيفان ايليتش» في نهاية آلامه يُحسّ فجأةً أنه يستنير بنورٍ داخلي. ويشعر بحبٍ مكوّن من الرحمة والمحبة الحقيقية لأفراد أسرته، وأنه كذلك بحاجة كبيرة إلى الملاطفة. وتحت وطأة هذه النعمة يتساءل: والموت، أين هو؟ وإذا بالخوف يتلاشى فيه. وبدلاً من الموت، أخذ يشاهد الضياء منذئذ. ويفهم: يا للفرح! الحب وحده فينا يمكن أن يهزم الخوف من الموت.

لاحظ «رومان رولان»: «إن موت إيفان ايليتش عملٌ من الأعمال التي هزّت أكثر من غيرها الجمهور الفرنسي. ولقد كنتُ شاهداً على الهزّة التي سبّبتها هذه الصفحات لقُراء برجوازيين في المقاطعات الفرنسية. قرّاء كانوا يبدون غير مُبالين بالفن. ذلك أن هذا العمل يُرينا، بأمانة مثيرة، نموذجاً من هؤلاء الرجال المتوسطين، الموظفين المخلصين لعملهم، الخالين من الدين ومن المثل الأعلى، بل ومن الفكر، الذين تستغرقهم أعمالُهم، وحياتُهم الآلية، حتى ساعة الموت، التي يبصرون فيها برعب أنهم لم يعيشوا. إن إيفان ايليتش هو ممثل تلك البورجوازية الأوربية التي تقرأ «زولا» والتي ستسمع «ساره برنار»، والتي لا تملك الايمان إلا أنها ليست معادية للدين: لأنها لا تكلّف نفسها الايمان ولا عدم الايمان، إنها لا تفكر في ذلك البتّة».

Twitter: @ketab_n

ما يحتاج إليه الإنسان من الأرض ١٨٨٥: هذه الحكاية المكتوبة في بداية ١٨٨٥ هي أيضاً نموذجية في دلالتها على النزعة التهذيبية: إن الفلاح «باكوم» يعيش على أرضه، لكنه لا يملك من الأرض ما يكفي. ولذلك أوحى إليه الشيطان بالصفقة المشؤومة: سوف يعطيه أرضاً أكثر بكثير مما عنده مقابل هلاك نفسه. ويستسلم «باكوم» الذي أغرته الصفقة، لشيطان التملّك. فيشتري بادئ ذي بدء، بعد أن جمع بجهد، المبلغ اللازم، خمسة عشر هكتاراً من سيّدة قصر فاضلة. ويغتاظ جيرانُه ويسيئون معاملته: حسدُ الفلاحين الفقراء للفلاح المالك، الفلاح الميسور. غدا «باكوم» مماحكاً فلم يكفّ عن محاكمة جيرانه الذين كانت حيواناتهم تهيم على وجهها فوق أراضيه. وذات يوم يعلم أن وراء الفولغا أراضي كثيرة جاهزة، وأن الأراضي البكر تُخصَّص هناك للمهاجرين. فلم يتردد إذ ذاك في بيع أرضه ومنزله ليذهب إلى بلاد «الكوكايني». ويحصل على خمسين هكتاراً، ويبتني بيتاً ويُلفي نفسه أغنى مرتين مما كان وهو في مسقط رأسه. لكن طمعه يزداد تبعاً لغناه. فيقصد بلاد «البشكير» - التي كان تولستوي يعرفها جيداً لأنه قضى الصيف فيها مرّاتٍ واشترى فيها ملكيةً بسعر زهيد - ويقترح البشكيريون على باكوم أن يبيعوه بألف روبلاً من الأرض ما يستطيع أن يقطعه في يوم واحد. ويفكر: سأبتني مملكة صغيرة. الأيام طويلة، وأستطيع أن أقطع خمسين فرسخاً وذلك يمثّل بالتأكيد عشرة آلاف هكتاراً. ويعود من يومه منهكاً من جولته في الساعة التي تغيب فيها الشمس، ويسقط جثة هامدة. العظة من هذه الحكاية المكتوبة بكثير من الرقة: لا يحتاج المرءُ إلى أكثر من مترين من الأرض لقبره. كل ملكية فهي زائدة عن اللزوم.

Twitter: @ketab_n

لكن تولستوي ظل يعيش في «اياسنايا بوليانا»!

حكاية إيفان الغبي ١٨٨٥ - ١٨٨٦: هذه الحكاية التي يُزعَم أنها حكاية شعبية تعبّر كأقوى ما يكون التعبير عن «اتجاه» تولستوي. إنها هجوم منظّم على الملكية الكبيرة والرأسمالية والنزعة العسكرية. وقد دُفع مذهب عدم مقاومة الشر هنا إلى أقصى نتائجه.

هذه الحكاية التي ظهرت في خريف ١٨٨٥ في المجلد الثاني عشر من أعمال تولستوي كُتبت في سنة ١٨٨٦. لكن عندما أرادت، في السنة التالية، دارُ النشر «الوسيط» أن تُهيّء إصداراً كبيراً مستقلاً لها، تدخّلت الرقابةُ. ولم يُسمح بنشرها منفصلة إلا بدءاً من ١٩٠٦. وموضوعها يقارب، لأول وهلة، موضوعات الحكايات الشعبية حيث نرى ثلاثة إخوة آخرهم إيفان الغبي وهو فتى وديع هادئ. كان في سنواته الأولى سيّء الحظ، لكن الحظ ما لبث أن ابتسم له في نهاية الأمر. إن طموح الشعب الروسي إلى السعادة، وهو طموح بالغ القدم، يجد هنا تعبيره في نجاح الفتى المضطهد الذي لا يملك ما يدافع به عن نفسه سوى طيبه وتواضعه. لقد اعتنق أخوه الأكبر «سيميون» السلك العسكري، وأصاب فيه ثروة، لكن عطشه للثروة لا يرتوي. أما الأخ الثاني، تاراس، الذي أصبح تاجراً فكان يربح كثيراً من المال، لكنه كان كأخيه يطلب دائماً المزيد منه. وعندما حانت ساعةُ اقتسام ميراث الأب، لم يتركا لإيفان سوى حقل وفرس شهباء. لكنه يُسَرّ بما قُسم له. غير أن الشيطان الذي يريد أن يبذر الشقاق بين الإخوة يتدخّل في حياتهم، ويوكل ذلك إلى صغار الشياطين الذين يُفقدون الأخوين الكبيرين مالهما. وبالمقابل فإن هذه الشياطين تعجز عن إيذاء

Twitter: @ketab_n

«إيفان» الحرّاث المثابر. وبينما كان يحصد الشيلم، ذات يوم، يقترح عليه الشيطانُ أن يحوّل كل سنبلة إلى جندي، ويبرهن له على ذلك. لكن إيفان يرفض الاستماع. وفي يوم آخر، بينما كان يقطع أشجاراً، يقترح عليه «الشرّيرُ» أن يصنع ذهباً من كل ورقة. ويوافق إيفان على أن يصنع جنوداً لسيميون وذهباً لتاراس، لكنه يأبى أن يأخذ شيئاً لنفسه. ويوافيه الحظُّ مع ذلك: لقد أفلح في أن يشفي ابنة القيصر فيتزوجها ويرث المملكة. لكنه يظل أميناً لبساطته، فيتخلّى عن كلِ أبهة وينكبّ على حراثة أرضه كما كان يفعل من قبل ليكسب قوته. وتعجّ مملكته «بالأغبياء» مثله الذين يرفضون أن يصبحوا جنوداً، وأن يجمعوا المال، والذين يؤثرون أن يعملوا في الريف، هذا هو مثل تولستوي الأعلى في تلك الفترة. وفي حين هُزم أخو إيفان الأكبر على أيدي جيش القيصر الهندي، ورأى تاراس نفسه وقد نزل به الدمارُ، ظلَّ الأخُ الأصغر يعيش سعيداً بين أتباعه، وفي اليوم الذي يجتاح فيه أحدُ الجيوش مملكتهم، فإنهم لا يقاتلون ولا يُبدون أية مقاومة. هذا الخضوع غير المنتظر من جانب الأغبياء سوف يُنفّر الغازي من الحرب. كيف يُقاتل الذين لا يُقاومون؟ ومن الملاحظ أخيراً أن التابعين للملكة «الغبية» لا يعرفون سوى العمل اليدوي، لا العمل الفكري. إن شريعتهم هي: هل في يدك ندوب؟ اجلس إذن إلى «المائدة» لأن عمل الرأس ليس سوى هذرٍ! نحن نرى إلى أيّ حد يمضي تولستوي بالاتجاه: عدم مقاومة الشر، وذلك مثلٌ أعلى ضبابي، لمجتمع من الشغّيلة الزراعيين ليس غير، فوضى مثالية، إلغاء كل ملكية، كل جيش، كل سلطان للمال بل لكل علم! ضربٌ من الشيوعية البدائية أساسها التواضع المسيحي. كل ذلك مقدَّمٌ بشكل «شعبي».

Twitter: @ketab_n

العامل إيميليان والطبل الفارغ ١٨٨٦ - ١٨٩٢: هذه الحكاية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحكاية السابقة هي أيضاً تمجيد لروح التواضع. ونحن نحسّ فيها ببروز النقد المعادي للروح العسكرية، وإن قُدِّم هنا على نحو غير مؤذٍ. بيد أن الرقابة لم تنخدع، وحذفتْ هذا النص من المجلد الثاني عشر من أعمال تولستوي، بينما كان مُدرجاً فيه وجاهزاً للطباعة في ١٨٨٦. ومع ذلك ظهرت الحكاية في ١٨٩٢ - وإن تعرّضت لحذف بعض المقاطع - في المجموعة المسماة «مساعدة الجياع»، بعنوان «حكاية» وبالعنوان الفرعي التالي: مأخوذة من الحكايات الشعبية أنشأها على الفولغا في الأزمنة القديمة وصحّحها ليف تولستوي. وطبعت سنة ١٩٠٣ في «الأعمال الكاملة» بعنوان حكاية الطبل الفارغ. وظهرت أخيراً كاملةً - ومنفصلةً - في «الوسيط بعنوانها الحالي في ١٩٠٦، و١٩٠٨، و١٩١٠.

الحبّة العجيبة - ١٨٨٧: العنوان الصحيح لهذه الحكاية هو: الحبّة التي بحجم بيضة الدجاجة. وقد أُلِّفت ونُشرت في ١٨٨٧. وهي تشكل هجوماً على مفهوم الملكيّة، وتروي، كيف أنه قد حُملت إلى القيصر حبّة حنطة ضخمة وُجدت في مكانٍ ما، وكيف أن القيصر لجأ إلى الشيوخ ليفسّروا له مصدر مثل هذه الحبّة. وأول هؤلاء الشيوخ الذي يمشي على عكازتين، يصرّح بأنه لم ير قط شبيهاً لذلك في زمانه، ويقترح أن يُسأل والدُه. ويروي والده الذي يسير على عكازة أن المال في زمانه كان غير معروف، ولكن كل واحد كان يملك حقله. وهو من جهته لم ير قط حبة بهذه الغرابة ويقترح أن يُسأل والده. ويعرض الجدُّ الذي يُقبل بخفة، أنه لم يكن في زمانه مالٌ ولا تملّكٌ، وأن الأرض كانت حرّة لأنها كانت أرض الله. «فحيث كنتُ أفلح،

Twitter: @ketab_n

هناك كانت أرضي». وفي هذا الزمن بالذات، كانت المواسم خصبة بحيث كانت تعطي حبوباً عجيبة. نحن نرى مقصدَ تولستوي... إنه يدافع عن الحقّ الطبيعي لكل إنسان في الأرض، وعن حق كلٍ أحد في فائدة عمله (وهو ما سيتوسّع فيه في «الثورة الروسية»). وحلّه؟ «تُعلَنُ الأرضُ ملكيةً قوميةً، وناتج عمل كل واحد هو ملكيته الخاصة به». وتلك فكرةٌ خرجت مباشرة من «العقد الاجتماعي» لروسو الذي يدين، كما هو معلوم، الملكية العقارية، ويُخضع الملكية «للقانون الذي للجماعة على الجميع». وهي أيضاً فكرة الاقتصادي الأمريكي هنري جورج الذي أحدث كتابُ «التقدم والفقر ١٨٧٩» في تولستوي أثراً قوياً جداً، وقد أظهر المؤلفُ فيه أن الفقر نتيجةٌ للملكية الكبيرة التي أشاد بتأميمها، أو إن لم يمكن ذلك، بضريبة على فضل القيمة لهذه الملكية. وقد غدا تولستوي نصيراً متحمساً لجورج، وأسهم بكتاباته في نشر أفكار الاقتصادي الأمريكي.

ثلاث أبناء ١٨٨٧: في هذه الحكاية القصيرة التافهة حقاً، الأبُ هو الله، والأبناء هم الناس، والثروة هي الحياة. والذين يظنون إمكانَ الاستغناء عن الله ينتهون نهاية سيئة؛ والذين يظنون أن الحياة إنما أُنشئت من الدراسة والمعرفة ليس بأفضل من أولئك: يعتقدون أنهم يحسّنون الحياة فيضيعونها؛ وتقول الفئة الثالثة أخيراً: «كل ما نعلمه عن الله هو أنه يمنح الناس الخير ويأمرهم أن يصنعوا مثله». يجب إذن أن نفعل الشيء نفسه مثله: الخير للناس.

نيكولا بالكين ١٨٨٧: استوحى تولستوي، من أجل هذه القصة حدثاً واقعياً. لقد تعرّف إلى فلاحٍ في التسعين من عمره، جندي قديم

Twitter: @ketab_n

خدم خدمته العسكرية خمسة وعشرين عاماً في مطلع القرن، في عهد الاسكندر الأول ونيكولا الأول. وقد راعت قصصُ هذا الشيخ العجوز خيالَ الكاتب الذي كانت له أيضاً ذكرياته عن الحملات العسكرية. أفلم يخدم في جيش القوقاز حيث كانت العلاقات بين الضباط والجنود أكثر إنسانية من تلك التي نشأت بعد ذلك، وكان النظام أشد صرامة، وإن لم يمنع ذلك من اللجوء، في أفواج تلك الحقبة، إلى العقاب الفظيع، عقاب الجَلْد بين الصفين الذي تحدّث عنه دستويفسكي في القسم الثاني من «ذكريات بيت الموتى». إن استخدام هذا النوع من التعذيب الذي أنشئ في الجيوش المرتزقة الألمانية انتشر كثيراً في ألمانيا والنمسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر. كان المحكوم يُمرّر، وهو عاري الجذع حتى الزنّار، بين صفين من زملائه ينهال عليه كل واحد منهم بضربة على ظهره. كان البائس يُمرَّر هكذا، وقد يتلقى آلاف الضربات حتى يستتبع ذلك الموت أحياناً. ومن بروسيا، انتقل هذا التعذيب في القرن الثامن عشر إلى روسيا حيث مورس بشدّة. ولم يُلغه الوزير الليبرالي «فون ستين» سنة ١٨٠٧ في بروسيا، الذي كُلِّف إعادة تنظيم الجيش، إلا بعد هزيمة «ابينا». أما في روسيا، فلم يُلغ، مع الأسف، إلا في سنة ١٨٦٣ بناءً على أمر الاسكندر الثاني.

كان غضب تولستوي على هذا الأسلوب البربري بالغاً. وهو غضبٌ يُطلق شتائم حانقة على نيكولا الأول الذي يدعوه نيكولا بالكين (أي العصا)، وعلى الخدمة العسكرية، وعلى الجيوش، وعلى النواب العامين، وعلى الشرطة. فهو يهتف: «ليس القانون الإنساني سوى خدعة مخرّبة، حقيرة». ويأبى أن يعترف بغير قانون واحد هو

Twitter: @ketab_n

قانون المحبة بين البشر. وهو يثور، بكل قواه، على الحرب، ويشعر بذعرٍ مؤلم أمام هذه الفكرة وهي أن الروس الودعاء الطيبين المتشرّبين للعقيدة المسيحية، يمكنهم أن يقبلوا بالحرب على أنها ضرورة. إنه يصرّح، هو الذي مجّد النضال في سبيل الدفاع عن الوطن في عهد الاسكندر الأول في الحرب والسلم، وفي عهد نيكولا الأول في «حكايات سيباستوبول»، إنه يصرّح تصريحاً قاطعاً: «لو كان الناسُ يؤمنون بالله لما أمكنهم تجاهل أول واجب نحوه وهو ألاّ يعذّبوا القريب، ألاّ يقتلوه». وهذه الحكاية، شأنها شأن سابقتيها، منعتها الرقابةُ، ولم تر النور إلا في الخارج، في برلين، وعلى الخصوص في جنيف. وتُرجمت إلى الفرنسية في ١٩٠١. وإنما ظهرت في روسيا لأول مرة سنة ١٩١٠ في الأعمال المطبوعة بعد موته. ومما يسترعي النظر أنها لم تظهر في الطبعة السوفييتية سنة ١٩٥٨ في اثني عشر مجلداً.

سيروا مادام النور معكم ١٨٨٧ - ١٨٩١: لعل هذه القصة البالغة الطول، هي الوحيدة التي يخرج فيها تولستوي عن إطار الحياة الروسية. تقع في آسيا الصغرى وفي عهد «تراجان». لكن ليس فيها أي بحث تاريخي مدقّق في هذه الحالة. وإنما بعض ملامح اللون المحلي، وحيوات القديسين والكثير من سير الأتقياء. إن همّه قبل كل شيء تهذيبي. وجمع الموضوعات المعهودة في تبشير تولستوي موجودة ها هنا: التفاوت بين أسلوب حياتنا ومتطلبات وجداننا والعذاب الذي ينجم عن ذلك؛ التباين بين حياة «ذوي الامتياز»، تحت شعار الغرور والدعارة، وحياة المسيحيين الحقيقيين الذين تخلّوا عن خيرات هذا العالم، الملكية واللذة: مشكلات الحياة الزوجية... نسيج القصة بسيط: إن شاباً وغنياً من أسرة ثرية، جوليوس، يبحث عن السعادة

Twitter: @ketab_n

الحقّة. ويتأثر بأمثولة رفيقه «بامغيل»: إن ابن العبد هذا الذي انقلب إلى الايمان. يعرض له في الواقع نمط حياة المسيحيين، وروح التواضع والمحبة فيهم، ونظام حياتهم الجماعية الكثيفة... لكن الشاب الغني يجد مشقةً في سلوك هذه الطريق، ولاسيما أن شيخاً حكيماً بيّن له الجوانب الضعيفة في المسيحية، ونصحه بالزواج. وهو ما بادر إليه جوليوس. لكنه أحسّ، بعد عشر سنوات من الحياة السعيدة التي حصل فيها على كل شيء، على الثروة والأمجاد، أحسّ إحساساً أقوى بتفاهة حياته. وإذ مرض، اطّلع على رسالة كتبتها امرأته التي تحوّلت إلى العقيدة الجديدة. وقد تحدّثت فيها عن طريقي الحياة، الأولى التي تقود إلى الحياة والثانية إلى الموت. الطريق الأولى هي أن تحبّ الله والقريب، وأن تهرب من الشر بكل تجلياته. والثانية - الخطايا. الغرور، الأنانية، الملذّات - هي الهلاك. ولابد من الاختيار. لكنه ما إن أَبلَّ من مرضه حتى عاد بعد أن نصحه طبيب وثني، إلى سابق حياته. بيد أن اضطهاداً للمسيحيين انطلق بعد سنة. فيقصد «بامفيل» جوليوس، ويسأله أن يتوسّط لتكون محاكمة المتهمين والحكم عليهم علنيّين. ويدور حديثٌ طويل بين الصديقين حول العدالة الإنسانية. لا يُفلح في إقناع جوليوس الذي ظلّ يعدُّ المسيحيين مجانين تقودهم روحُ التكبر الذي ينسف أسس الحياة الاجتماعية. وكان لابد من اثنتي عشرة سنة لكي يُدرِك جوليوس معنى الحياة الحقيقي كما تكشف عنه العقيدةُ المسيحية. وبناء على ذلك يعتنق الدين الجديد ويتبنى نمط حياة المؤمنين الأوائل... ونحن نعثر دون مشقة على هموم تولستوي الشخصية. إن «بامفيل» وجوليوس هما مرآة أزمته الدينية. وهذه القصة، مثلها مثل سابقتها لا توجد أيضاً في الطبعة السوفييتية ١٩٥٨.

Twitter: @ketab_n

سوناته لكروتزر ١٨٨٩ - ١٨٩١. هذا النص الشهير والذي أثار كثيراً من المجادلات، تخيّله تولستوي بعد أن تجاوز الستين. والمؤلّف يتّخذ فيه موقفاً تجاه المشكلة الزوجية وتجاه الفن الموسيقي على حد سواء. وقبل أن نتصدّى للمشكلة الأولى لِنُشر إشارةً عابرة إلى أن تولستوي أحبّ الموسيقا كثيراً منذ شبابه وفي كل زمان من حياته. لكنه بعد أزمته الدينية والأخلاقية الكبيرة التي حملته على كره الفن والأدب، ونبذ أعمال معاصريه الرئيسية، انتهى إلى الحقد على الموسيقا نفسها التي عدّها مفرطة الانفعالية. وفي «ما الفن» يسخر من أوبيرات «فاغنر»، ويتنكّر لبيتهوفن مؤكّداً أن السمفونية التاسعة «تفرّق بين البشر بدلاً من أن تجمعهم». إن ما يخشاه بخاصة هو سلطان السحر في الموسيقا التي ليس تأثيرها، في رأيه، قائماً على السموّ بالنفس، ولا الهبوط بها، بل كل ما هنالك هو أنها تهيّجها وتوقظ شياطينها. ولذلك «فيا لها من شيء مروّع، تلك الموسيقا!» كما يهتف بطل سوناته لكروتزر.

ولادة هذا العمل معروفة: فخلال صيف ١٨٨٧، عزف ابن الكاتب، بصحبة عازف الكمان فلاديمير لاسوتا، سوناته بيتهوفن. وقد اهتز تولستوي من سماعها حتى بكى واضطرّ إلى النهوض والدنوّ من النافذة ليحاول إخفاء اضطرابه. وبعد بضعة أشهر روى له الفنان الدرامي «اندريف بورلاك» كيف أن مجهولاً، قصّ عليه، في قطارٍ، أثناء الليل، قصة شقائه الذي مردُّه خيانةً زوجته. فجمع تولستوي بين هذا الموضوع وبين قدرة الموسيقا شبه المجرمة. وفي تشرين الأول من السنة نفسها خطّ الخطوط الأولى لروايته الأولى لـ «سوناتا كروتزر». وفي الربيع التالي، في موسكو هذه المرة، عزف الفنانون أنفسهم

Twitter: @ketab_n

عمل بيتهوفن في بيت الكاتب نفسه وأمام حلقةٍ من المدعوين. وقد كان الانطباع الذي أحدثته السوناته في تولستوي أشد قوةً، في هذا المساء. والتفت إلى أصدقائه قائلاً: أقترح أن يُخرج كلٌ واحد منا بفنّه سوناته لكروتزر. سأكتب حكاية يقرؤها «اندريف بورلاك» على رؤوس الأشهاد، وسيصنع لكم «ريبين» (الرسام المعروف الذي رسم صورة تولستوي) لوحةً تُعرَض في أثناء قراءة اندريف لعملي. و لم يُنفّذ هذا المشروع الثلاثي. لكن سرعان ما انتشرت إشاعةً وهي أن تولستوي سيكتب رواية جديدة. وفي ١٢ آذار ١٨٨٩ يبوح الكاتب لـ «روسانوف» في رسالة له: «إن الشائعات التي تتحدث عن قصة سأكتبها لها أساسٌ. فقد ألقيتُ على مسودة منذ نحو سنتين، حكايةً موضوعها الحبُّ الجنسي، لكنها مكتوبة بقليل من العناية، فلم أرضَ عنها حتى إني لا أكلّف نفسي مراجعتها. وإذا ما أردتُ أن أهتم بها فعلي أن أعيد كتابتها كلها. وهذا ما سيفعله بالذات تولستوي. فهو يمضي إلى الريف ضيفاً على الأمير «اوروسوف» حيث يكبّ على العمل مؤلّفاً في الوقت نفسه تلك الملهاة التي ستُدعى: «ثمار الحضارة». وقد انتهت روايتها النهائية في ٥ كانون الأول ١٨٨٩. وطُبع على الحجر منها ثلاثمئة نسخة. لكن الرقابة عارضت طبع العمل باعتباره لا أخلاقياً. وسرعان ما أحدث دوياً خارج روسيا وظهر في ترجمة فرنسية مبكّرة في ١٨٩٠.

لقد وجدت «صوفي تولستوي» التي وضعت ولدها الثالث عشر، في ٣١ آذار ١٨٨٨، «فانيا» والتي كانت تهتم بشؤون المنزل، وبحسن إدارته، وجدت متّسعاً من الوقت لإعادة نسخ مخطوطات زوجها التي لا تكاد تُقرأ ولتهيّئ طباعة المجلد الثالث عشر من أعمال

Twitter: @ketab_n

تولستوي. وفي ٢٩ كانون الثاني ١٨٩١، سجلت في يومياتها: «فكرتُ، في هذا المساء، وأنا أصحح التجارب المطبعية «لسوناته لكروتزر» أن المرأة في شبابها، تحب بقلبها وتمنح نفسها بطيب خاطر للكائن المختار لأنها ترى مدى فرحه بذلك، وعندما تُلقي، في سنّ النضج، نظرةً خاطفة إلى الوراء، تدرك فجأةً أن الرجل لم يحبها إلا عندما كان بحاجة إليها، وتتذكر أنه ما إن يُشبِع رغباته حتى يكفّ عن رقّته ليصبح فظاً خشن اللهجة قاسيها. حينئذ تبدأ المرأة التي أغمضت عينيها عن كل هذه الأشياء، تحسّ هي نفسها بالرغبات الحسيّة، حينئذ ينتهي أمر الحب الذي يأتي من القلب، الحب – العاطفة. وكالرجل، تصبح المرأة بصورة دورية، شهوانيةً، مشبوبة العاطفة، وتطلب من زوجها أن يُشبع رغباتها. ويا ويلها إذا كان زوجها قد كفّ عن حبها في هذه اللحظة، والويل له إذا لم يكن بمقدوره إشباع متطلبات زوجته. ومن هنا كل تلك المآسي العائلية الشنيعة وكل ذلك الطلاق غير المتوقع في سنٍ متقدّمة. ولا تدوم السعادة إلا حيث تنتصر النفس والإرادةُ على الجسد والأهواء. إن سوناته لكروتزر غير صحيحة في كل ما يخصّ المرأة في شبابها. المرأةُ الشابة، ولاسيما تلك التي تنجب أطفالاً وترضعهم، فهي تجهل هذه الأهواء الحسّية. وهي، من جهة أخرى، ليست امرأة إلا مرّة كل سنتين. وإنما يستيقظ الهوى في نحو الثلاثين فقط.

إن هذا النقد الثاقب البصيرة شاهدٌ على سوء التفاهم العميق الذي انسلّ بين الزوجين. لم يكن ليف تولستوي الكاتب الكبير المستغرّق في إبداعه «ومشكلاته»، ليحتاج في الزواج إلا إلى الحب الجنسي. ولم يكن يفهم الحب – العاطفة الذي كانت تحلم به امرأتُه. وكان

Twitter: @ketab_n

يخفض من مستوى هذه إلى مستوى الأم - الأنثى» (التعبير من عند ميريجكوفسكي)، ويتجاهل مطامح القلب الأنثوي، وفضلاً عن ذلك، كان يبدو فظاً ويغار غيرة فظيعة. كل هذه المأساة نجدها بوضوح في سوناته لكروتزر التي بدت لجميع القرّاء - وفي نظر صوفيا تولستوي قبل كل شيء - وكأنها سيرةٌ ذاتية مرواةٌ. ونحن نتصور المعاناة التي عانتها زوجةُ الكاتب التي لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تسجّل في يومياتها، في ١٢ شباط، على أثر خصام مع زوجها: «لقد جرحني جرحاً عميقاً جداً بقصته الأخيرة، أمام أعين الناس جميعاً... بأية طريقة ولماذا يريدون أن يروا علاقة بين سوناته لكروتزر وحياتنا الزوجية؟ لست أدري، لكن هذا مؤكد. فكل واحد، بدءاً من الامبراطور وانتهاء بأخي ليف، دون أن ننسى خير صديق له «دياكوف»، كل الناس مجمعون على الرثاء لي. أحسست في أعماق قلبي أن هذه القصة موجّهة ضدي، وأنها تجرحني جرحاً عميقاً، وأنها حقّرتني في أعين الناس جميعاً، وأنها دمّرت كل ما احتفظنا به من حب كلانا للآخر. وهذا، دون أن آتي طوال حياتي الزوجية، بأية حركة، ودون أن ألقي أية نظرة يمكنهما أن يجرّماني في عيني زوجي...».

وتبدو «سوناته لكروتزر»، كأي عمل أدبي رئيسي، وكأنها هجاء اتهامي، وتحدٍّ يُرمى به المجتمع المعاصر. لقد بدأ بوزدنيشيف الذي ليس سوى الناطق بلسان تولستوي، بأن وصَفَ، بعبارات بالغة القسوة، «تلك الهوّة التي انفتحت بين الزوجين الشابين». ليس بينهما أي اتّحاد روحي؛ التعلق بالملذات الحسية وحدها هو الذي يجمع بينهما، في رأيه، لكن «هذا الحب الجسدي ليس سوى قذارة،

Twitter: @ketab_n

سوى حقارة». الحبُّ والكره، أي قطبا الشعور الحيواني، قد حرَّكا الزوجين. وليس الزوجان سوى محكومين بالأشغال الشاقة مقيّدين بالسلسلة ذاتها، ولا تحمل إليهما ولادةُ الأولاد أيّ تخفيف، بل هي مصدرٌ لهموم جديدة: الخوف من المرض، مشكلات التربية، الخ. وزادت البغضاءُ والشقاقُ وضعَ الزوجين تفاقماً. لكن يوزدنيشيف، وراء هذا النقد للحياة الزوجية يهاجم أسس المجتمع البرجوازي: دعارة الشباب، تربية الفتيات اللواتي ليس لهن سوى هدف واحد: صيد الزوج؛ مؤسسة الزواج نفسها وهي التي لا يرى، من جهته، فيها سوى ضرب من البغاء المنزلي؛ التعبّد للفنون، ولاسيما الموسيقا التي تهيج الجانب الحسّي. ليس بيتهوفن، في نهاية الأمر، سوى مُغوٍ للجانب الحسي».

لاشك أن هناك قدراً كبيراً من الحقائق المرّة في هذه الشتائم الموجّهة للمجتمع البرجوازي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الذي برز فيه «زولا» و«موباسان»، ذلك المجتمع الذي في أحضانه نُحّيت المرأةُ (البرجوازية) عن كل نشاطٍ اجتماعي، وكان همّها الوحيد الاستعداد للزواج، ومن ثم، إدارة المنزل، تربية الأطفال، مع المَهْرب الوحيد وهو الزنى، الذي أصبح، لا بالمصادفة، الموضوع الأثير لدى مؤلّفي القرن التاسع عشر الفرنسيين. لكن هذه الطريقة التي يردّ فيها تولستوي بصورة مطلقة الحياة الزوجيّة إلى الدعارة المنظمة والتي يبحث فيها عن العفّة التامّة في أحضان الزواج تنطوي على الكثير من المبالغة وربما الكثير من العناصر البسيكولوجيّة المشكوك فيها. والحق أن تلك الدعوة إلى العفة ظهرت بشكل غير منتظر وأدهشت المؤلف نفسه. فلقد اعترف في ذيل الكتاب: «لم أكن أتوقع أن يقودني التفكير إلى حيث وصلتُ.

Twitter: @ketab_n

ولقد هالتني استنتاجاتي. أردتُ ألا أؤمن بها فلم أُفلح. ومهما تكن هذه الاستنتاجات متناقضةً مع النظام القائم، مع ما آمنتُ به وقلتهُ من قبل، فأنا مضطرٌ إلى الاعتراف بصحتها». وقبل سنة، وكانت صوفيا قد وضعت طفلها الثالث عشر، وكان تولستوي يعتذر إلى تشيركوف، تلميذه المتشدّد، الذي دعا إلى العفة التامة في الزواج. كتب إليه بلا استحياء: «ليس ذلك من الفجور... كان المسيح يحب الأطفال». لكنه لم يلبث أن اعتبر نفسه «شيخاً حقيراً فاجراً». (هذه هي الألفاظ التي استخدمها في يومياته). لقد استبدّ به ندمٌ شديد فكأنما أراد أن يلغي، دفعة واحدة، ذلك الماضي الذي لم يميّز فيه سوى الحب الحسّي.

إن مثال العفة المطلقة شيءٌ قديم جداً، كما يعلم كلٌّ واحد: فهو في العالم المسيحي يستند إلى كلمات المسيح الشهيرة التي نقلها «متّى» (الإصحاح ١٩ - ١٠ - ١٢) والتي وضعها في صدر الكتاب. وهو في أساس مؤسسة الرهبنة. وهو ممجّد في سيرة القديس «الكسي» الشعبية في روسيا. وكان قاعدةً إجبارية لدى «الكاملين» عند المانويين، وعند البوغوميليين البلغار والكاتار في جنوب أوروبا. وفي القرن الثامن عشر استأنفه «السكوبتزي» الروس الذين دعوا إلى الخصاء الاختياري، و«الشاكرز» في شمال أمريكا. وقد أذهل تولستوي بشدّة كتابٌ عن هذه الشيعة المسيحية أعاره إياه تشيركوف، كتابٌ (أعضاء هذه الشيعة عن الذين يدعون إلى العفة التامة في الزواج).

أما تشيركوف فلم تفته الفرصةُ لإرشاد معلمه بصدد سوناته لكروتزر. كتب إليه يقول: «لا يمكنها، في الحالة الراهنة، إلا أن تبذر الريبة في عقل القارئ، دون أن تحلّ شكوكه، في حين كان من

Twitter: @ketab_n

الممكن تحقيق ذلك لو مُحَوَرْتَه حول بعض الأفكار المسيحية»[1]. وهو ما حاول تولستوي فعله كيفما كان في ذيل الكتاب حين شرح أنه لم يكن يعتبر العفة: «قاعدةً أو أمراً، بل بالأحرى مثلاً أعلى قلّما يبلغه أحدٌ». و لم يستطع هو بالفعل بلوغه... لقد استطاع تولستوي بالفعل أن يغدو نباتياً، وهجر الكحول والدخان والصيد، لكنه لم يستطع قط أن يروّض مزاجه. وبعد أن نشر تذييله لسوناتا كروتزر بقليل، سجّل في يوميّاته. «وإذا ما وُلد لي ولدٌ آخر؟ فأيّ عار سيلحق بي أمام أولادي على الخصوص. لأنهم سوف يقابلون بالتأكيد بين تاريخ الولادة وتحرير سوناته لكروتزر.

بعد بضع سنوات، في ١٨٩٧، لم يفلح أكثر من ذي قبل في السيطرة على غيرته. فعندما وجد الكونتيسة صوفيا تولستوي، (وقد غدت جدّة)، بعد موت فانيا، شيئاً من العزاء لألمها، في الموسيقا؛ وفي الاجتماع بالمؤلف سيرج تانييف، استبدّت بتولستوي، وقد شارف على السبعين، نوبةٌ من الغيرة الشرسة إزاء هذا الرجل المسنّ، المتّزن، الخجل، سيرج تانييف. فشاحن امرأته مشاحنة رهيبة ومنعها أن ترى الموسيقيَّ إلى الأبد.

١- إن تشيركوف هذا قد تزوج هو نفسه طالبة شابة، «آن ريتريش» وهي مخلوقة مغمومة، متشيّعة، مخلصة كل الإخلاص لأفكار زوجها. وكان تشيركوف يفتخر أمام تولستوي بأنه يعيش معها في وحدة روحية خالصة: لكن ذلك لم يمنعهما من أن ينجبا ولداً بذلا وسعهما لينشئاه كرجل «من الطبيعة» فلم يمنحاه أية تربية. وقد غدا هذا الولد الذي كان يُرجى أن يغدو «خيّراً بصورة طبيعية» أصبح شخصاً خاملاً لا يفكر إلا في ملاحقة فتيات القرية. وقد نجح أبوه أخيراً في توظيفه غسالاً للأواني في مطعم في موسكو.

Twitter: @ketab_n

وإذا كان تبشير سوناته لكروتزر لم يجد له صدىً، فقد كان مفرط التناقض وخالياً من الدعم الذي يوفّره كونُ المبشّر مثلاً يُقتدى به. إلا أن هذا العمل، من وجهة النظر الأدبية، بالمقابل، وبسبب من «قوة التأثير، والتركيز الانفعالي، وبروز الرؤى الخشن، وامتلاء الشكل ونضجه» يصدق فيه رأيُ رومان رولان: إنه لا يضاهيه أي عمل آخر لتولستوي.

الكسندر. ف. سولوفييف

Twitter: @ketab_n

موت إيفان ايليتش

- ١ -

في المبنى الواسع لقصر العدل، اجتمع النائب العام وأعضاء المحكمة، أثناء رفع جلسة محاكمة ميلفنسكي، في مكتب إيفان ايرغوفيتش شيبيك: انتهى بهم الحديث إلى قضية كراسوف الشهيرة، فأصر فيودور فاسيليفيتش بحرارة على عدم اختصاص المحكمة، وتشبّث إيفان إيرغوفيتش برأيه: أما بيير إيفانوفتش فهو لم يشارك في النقاش فأعرض عنه وأخذ يتصفّح الجريدة التي حُملت إليه. قال:

- يا سادة، مات إيفان إيليتش!

- غير ممكن؟

- اقرأ بنفسك.

قال ذلك وهو يمدّ إليه الجريدة التي ماتزال تفوح برائحة حبر المطبعة.

قرأ فيها الأسطر التالية التي يؤطّرها خطٌّ أسود دقيق: تعلن

Twitter: @ketab_n

«براسكوفيا فيودوروفنا غولوفين». بمزيد من اللوعة، لذويها وأصدقائها وفاة زوجها المحبوب، إيفان إيليتش غولوفين، المستشار في محكمة الاستئناف الذي تُوفّي في ٤ شباط ١٨٨٢. وسيتم نقل الجثمان نهار الجمعة، الساعة الواحدة بعد الظهر.

كان إيفان إيليتش زميلاً لهؤلاء السادة الذين كانوا يحبّونه كثيراً. وقد ألمّ به المرض منذ عدة أسابيع وتأكّد أنه لا يمكن أن يشفى. كان مايزال يحتفظ بمركزه لكن كان من المقدّر أن الكسييف، في حالة الوفاة، سيُعين في هذا المركز الشاغر، وسيحلّ «فينيكوف» أو «ستابيل» محل الكسييف. إذن عندما علم جميع الذين كانوا مجتمعين في المكتب، بموت إيفان إيليتش فكروا قبل كل شيء بالآثار التي سيتركها هذا الحدث على ترقيتهم وترقية أصدقائهم.

فكّر فيودور فاسيلييفيتش: «سأحصل الآن بكل تأكيد على مركز «ستابيل» أو مركز فينيكوف. فقد وُعدتُ به منذ زمن بعيد، وبفعل هذه الترقية سأحصل على زيادة مقدارها ثمانمئة روبلاً، ماعدا نفقات المنصب.

وقال بيير إيفاتوفتش في نفسه: يجب أن أحصل الآن على نَقل صهري إلى جنبنا. وستُسّر زوجتي بذلك كثيراً. ولن يُقال بعد اليوم أنني لا أنوي أن أفعل شيئاً لأهلها. وقال بيير إيفانوفتش بصوت عالٍ:

– كنتُ أعتقد أنه لن يقوم من مرضه. خسارة كبيرةٌ!

– لكن ماذا أصابه، على الإجمال؟

Twitter: @ketab_n

- لم يستطع الأطباء تحديد مرضه؛ أو على الأصح، عالجه كلٌّ منهم على طريقته. وعندما رأيته آخر مرة ظننت أنه سينجو من دائه.

- أما أنا، فلم أَعُدْهُ منذ الأعياد. على أني كنتُ أفكر دائماً في زيارته.

- أكانت له ثروةٌ؟

- أظن أن لامرأته ثروة ليست ذات شأن.

- لابدّ من الذهاب الآن. وهما يسكنان بعيداً جداً.

- تريد أن تقول: بعيداً عنك. كل شيء بعيد عنك.

قال بيير إيفانوفتش وهو يبتسم لشيبيك:

- لا يمكنه أن يغفر لي أنني بقيتُ في الجهة الأخرى من النهر. حينئذ أخذوا يتحدثون عن امتداد المدينة، ثم عادوا إلى الجلسة.

فضلاً عن الأفكار بصدد تعيينات القضاء وتغييراته التي قد تنتج عن هذه الوفاة، فإن الحدث ذاته، موت صديق، أيقظ، كشأنه دائماً، في جميع الذين اطلعوا على النبأ، شعوراً بالفرح: لم أمت أنا، وإنما هو الذي مات.

كان كل واحد يفكر ويحسّ: هلاّ نظرتم! لقد مات وأنا ماأزال أحيا! أما معارف إيفان إيليتش المقرّبون، الذين يُدْعون أصدقاءه، فقد كانوا يفكرون فوق ذلك، بصورة لا إرادية، أنه مايزال عليهم

Twitter: @ketab_n

أن يقوموا بواجبات من المجاملة المملّة جداً، وأن عليهم أن يحضروا الجناز وأن يقدّموا للأرملة تعازيهم.

كان أخلص صديقين له: فيودور فاسيلييفتش وبيير إيفانوفتش.

كان بيير إيفانوفتش رفيق إيفان إيليتش في مدرسة الحقوق[٢]، وكان يعتبر أسير فضله.

وبعد أن أطلع امرأته، أثناء العشاء، على موت إيفان إيليتش وعن الدواعي التي تجعل ممكناً تعيين أخيها في منطقتهم، ارتدى ثيابه ومضى، دون أن يستريح، إلى منزل إيفان إيليتش.

أمام درج المدخل اصطفت عربة سيّد وعربتا جياد. في الأسفل، في البهو، قرب المشجب استند إلى الجدار غطاءُ النعش، المزيّن بالنسيج المقصّب. وبالشرابات والشرائط الفضيّة الملمّعة جداً. كانت سيدتان بثياب سوداء تخلعان فروتيهما. كانت إحداهما أخت إيفان إيليتش، وكان بيير إيفانوفتش يعرفها. كان ينزل الدرج زميلُ بيير إيفانوفتش، «شوارز»؛ فلما شاهده من فوق، توقف وغمز بعينه، وكأنه يريد أن يقول له: ما عمله «إيفان إيليتش» ليس بالأمر العسير، أما نحن فكنا أشطر».

نمّ وجهُ «شوارز» الذي زانه عارضان على الطريقة الإنكليزية، وكلُّ شخصه الهزيل بالملابس الرسمية، نمّ كعهده دائماً، على رصانة رشيقة؛ وهذه الرصانة التي تناقض طبعه المرح، اكتسبت هنا شيئاً مثيراً أشد إثارة. هكذا كان يفكر بيير إيفانوفتش.

٢- مدرسة الحقوق: مؤسسة ارستقراطية في بطرسبرج.

Twitter: @ketab_n

ترك بيير إيفانوفتش السيدات يمررن وصعد الدرج خلفهن ببطء. لم ينزل «شوارز» وانتظره فوق. أدرك بيير إيفانوفتش لماذا: كان يريد بالطبع أن يتفق معه على المكان الذي يلعبان فيه «الويست» هذا المساء. صعدت السيدات إلى حيث الأرملة. أشار «شوارز» لبيير إيفانوفتش بحركة من حاجبيه، وشفتاه مزمومتان، ونظرته فرحة، إلى اليمين حيث غرفة الميت.

دخل بيير إيفانوفتش وهو لا يعلم جيداً كما يحدث ذلك في مثل هذه الحالة، كيف ينبغي له أن يتصرف. لم يكن يعلم سوى شيء واحد وهو أن إشارة الصليب في مثل هذه الظروف لابأس بها أبداً. لكنه لم يكن على يقين إن كان ينبغي فوق ذلك أن يحيّي الجثمان؛ فقرّر أن يوفّق بين الأمرين: إذا أنه رسم إشارة الصليب، عند دخوله، وحنى رأسه قليلاً. وفي الوقت نفسه تفحّص الغرفة، بقدر ما سمحت له بذلك حركات رأسه وذراعيه. كان يخرج من الغرفة شابان أحدهما طالب معهد، وربما كانا ابني أخي الفقيد، وهما يرسمان إشارة الصليب. وكانت امرأةٌ عجوز تقف بلا حراك؛ وكانت سيدةٌ مرتفعة الحاجبين على نحو غريب تكلمها بصوتٍ خافت. وكان المرتّلُ بسترته الرسمية وهيئته الحازمة الواثقة، يقرأ بصوتٍ عالٍ وبلهجة تستبعد كلّ اعتراض. وكان خازن المؤن يروح ويجيء بخطىً خفيفة أمام بيير إيفانوفتش وهو ينشر شيئاً على أرض الغرفة. وقد أحسّ بيير إيفانوفتش على الفور، عند رؤية حركته، برائحة خفيفة لجثة في طور التحلّل. وأثناء زيارته الأخيرة لإيفان إيليتش لاحظ «جيراسيم» هذا وهو يقوم بمهمة الممرّض؛ وكان إيفان إيليتش يكنّ له مودة خاصة. ظلّ بيير إيفانوفتش يرسم إشارة الصليب وينحني انحناء خفيفاً باتجاه

Twitter: @ketab_n

النعش والمرتّل والإيقونات الموضوعة على الطاولة في زاوية من الغرفة. ثم لما بدا له أن التشوير بيديه قد دام طويلاً جداً توقّف وأخذ يتفرّس في الميت.

كان مُمدّداً كما يمدّد الأموات على نحوٍ شديد الثقل، شأن الجثث. وقد غرقت أطرافه المتصلّبة في أعماق تنجيد النعش، واستراح رأسه إلى الأبد على الوسادة؛ وعرض، ككل الأموات، جبيناً أصفر شمعياً، بصدغين غائرين عاريين من الشعر، وأنفاً بارزاً بدا كأنه يُثقل الشفة العليا. لقد تغيّر إيفان إيليتش كثيراً وأصابه الهزال أيضاً منذ زيارته الأخيرة لبيير إيفانوفتش؛ لكن وجهه، ككل وجوه الأموات، غدا أجمل وأبلغ دلالةً. وكان وجهه يعبِّر عن أن ما ينبغي فعلُه قد أُنجز وأُنجز على نحوٍ حسنٍ. وأكثر من ذلك، كان يعبر عن لومٍ أو تنبيه للأحياء. بدا لبيير إيفانوفتش أن هذا التنبيه في غير محلّه، أو على الأقل إنه لا يعنيه شخصيّاً. بيد أنه أحسّ بشيء كريه، فرسم بسرعة إشارة الصليب مرةً أخرى، وبادر إلى النكوص واتجه إلى الباب بسرعة مفرطة، كما خُيِّل إليه، خلافاً لأصول اللياقة. كان «شوارز» ينتظره في الغرفة المجاورة، منفرج القدمين، عابثاً بقبعته التي كان يمسك بها خلف ظهره. إن نظرةً واحدة تُلقى على شخص «شوارز» المرح والنظيف والأنيق تكفي لإنعاش بيير إيفانوفتش. وقد أدرك على الفور أن «شوارز» فوق ذلك لا يستسلم للمشاعر المؤلمة. كانت هيئته كلها تقول: إن القداس على روح إيفان إيليتش ليس سوى أمرٍ عارض، وما من مبرّر يصحّ معه أن تؤجّل الجلسة؛ وبعبارة أخرى لا شيء يجوز أن يمنعنا، هذا المساء بعينه، من فضّ ورق اللعب وهو يطقطق، بينما يرتّب الخادمُ على الطاولة أربع شمعات جديدة. وعلى العموم، ما من داعٍ

Twitter: @ketab_n

يدعو إلى افتراض أن هذا الأمر العارض يمكنه أن يحول بيننا وبين قضاء سهرة اليوم بسرور كسائر السهرات. ولقد أسرّ بذلك لبيير إيفانوفتش الذي كان يمرّ أمامه. واقترح عليه أن يأتي من أجل لعبةٍ في منزل فيودور فاسيلييفتش. لكن كان مقدّراً بالطبع أن بيير إيفانوفتش لن يلعب بالورق هذا المساء. خرجت براسكوفيا فيودوروفنا، وهي امرأة قصيرة، سمينةٌ، ذاهبةٌ عرضاً بدءاً من الكتفين حتى القاعدة، بالرغم من جميع الجهود التي تبذلها لتتحاشى ذلك، ولها حاجبان مرتفعان على نحو غريب كحاجبي السيدة التي شوهدت قرب النعش، خرجت من شقّتها مع سيدات أخريات، وأدخلتهن غرفة الميت وقالت:

- سيبدأ الجنّازُ؛ هيا ادخلوا، أرجوكم.

انحنى «شوارز» على نحوٍ غير واضح، ولم يتحرك؛ ومن البديهي أنه لم يقبل هذه الدعوة ولم يرفضها. تنهّدت براسكوفيا فيودوروفنا حين تعرّفت بيير إيفانوفتش، فدنت منه وأمسكت بيده وقالت:

- أنا أعلم أنك كنتَ صديقاً حقيقياً لإيفان إيليتش.

ونظرت إليه منتظرةً حركة تطابق أقوالها. وكان بيير إيفانوفتش يعلم أنه كان ينبغي له أن يرسم هناك إشارة الصليب، فعليه الآن أن يشدّ على يدها وأن يتنهد ويقول: «صدقّيني...» وهذا ما فعله. وإذ فعله أحسّ أن النتيجة المرغوبة قد بُلغْت: أحس أنه انفعل وأنها أيضاً انفعلت.

قالت الأرملة:

Twitter: @ketab_n

- تعال معي قبل بدء الجنّاز[٣]: فعندي ما أقوله لك. أعطني ذراعك.

أعطاها ذراعه واتجَها إلى شقتها ومرّا أمام «شوارز» الذي رمى بيير إيفانوفتش بطرفة عين مشفقة.

كانت نظرته الحادة تقول: ها قد طارت منك لعبةُ «الهويست». فلا تحقد علينا إذا اخترنا لاعباً رابعاً. ربما جئت لتكون الخامس إذا صرتَ حرّاً...».

تنهّد بيير إيفانوفتش تنهّداً أكثر عمقاً، وأكثر حزناً وشدَّت براسكوفيا فيودوروفنا على ذراعه اعترافاً بالجميل. دخلا صالونها المفروش بالكريتون الوردي والذي كان يضيئه مصباحٌ بشكل ضعيف؛ جلسا قرب الطاولة، جلست هي على الأريكة، وجلس هو على غرفة منخفضة هبطت نوابضها تحت ثقله. أرادت براسكوفيا فيوردوروفنا أن تعرض عليه أن يتّخذ له مقعداً آخر، لكنها رأت هذا العرض في غير مكانه وهي في مثل وضعها، فلم تقل شيئاً. وعندما جلس بيير إيفانوفتش على النمرقة تذكّر أن إيفان إيليتش قد رتّب هو نفسه هذا الصالون وأنه استشاره بصدد هذا الكريتون الوردي ذي الأوراق الخضراء. وعندما مرت الأرملة قرب الطاولة لتجلس على الأريكة (كان الصالون مليئاً بالأثاث وبمختلف التحف) علق حريرُ طرحتها السوداء بحَفْر الطاولة، عندئذ نهض بيير إيفانوفتش ليخلّص طرحتها فأخذت نوابضُ النمرقَة تتحرك وتدفعه. خلّصت الأرملة

٣- الجنّاز: كانت العادة أن يقام، في اليوم الذي يسبق الدفن، جنّازٌ قصير في منزل الميت وأمام الجثمان الموضوع في تابوت مكشوف.

Twitter: @ketab_n

حرير الطرحة بنفسها، وعاد بيير إيفانوفتش إلى الجلوس وهو يسحق النمرقة المتردّدة مرةً أخرى. لكن براسكوفيا لم تتخلّص تماماً؛ نهض بيير إيفانوفتش من جديد، ومن جديد اضطربت النموقة وطقطقت. وعندما انتهى كل شيء، أخرجت منديلاً رقيقاً ونظيفاً وأخذت تبكي. لكن حادثة الطرحة والصراع مع النمرقة برّدا بيير إيفانوفتش الذي ظلّ جالساً، متجهّماً.

هذا الوضع المُحرج قطعه «سوكولوف» مدير خدم إيفان إيليتش الذي جاء يعلمهما أن الأرض التي اختارتها في المقبرة براسكوفيا فيودوروفنا تكلّف مئتي روبلاً. كفّت عن البكاء ونظرت إلى بيير إيفانوفتش نظرة الضحيّة فقالت له بالفرنسية: إن ذلك كله يؤلمها. لم ينبس بيير إيفانوفتش بكلمة، وبدرت منه حركةٌ تعبّر عن قناعته العميقة أن الأمور لا يمكن أن تكون غير ذلك.

قالت بلهجة شهمة ومهدودة في الوقت نفسه: دخِّنْ.

وأخذت تحادث سوكولوف حول سعر الأرض.

سمعها بيير إيفانوفتش، وهو يشعل سيجارته، تناقش بالتفصيل مختلف الأسعار، وتختار في النهاية الأرض التي أرادت شراءها. وبعد أن انتهت من هذه المسألة أعطت تعليماتها بصدد المرتّلين. خرج سوكولوف.

قالت لبيير إيفانوفتش وهي تدفع الألبومات التي كانت على الطاولة:

Twitter: @ketab_n

– إني أفعل كلَّ شيء بنفسي.

وعندما لاحظت أن رماد السيجارة يوشك أن يوسخ الطاولة قدّمت على الفور منفضة سجاير لبيير إيفانوفتش، وأردفت:

– أرى من النفاق التأكيد على أن ألمي يمنعني من الاهتمام بالمسائل العملية. على العكس، إذا كان هناك شيء ممكن – لا أقول – أن يعزّيني... بل على الأقل أن يسرّي عني... فهو بالضبط أن أهتم به.

وأخرجت مرة أخرى منديلها، وبدت كأنها ستجهش بالبكاء من جديد، لكنها سيطرت على نفسها فجأة وكأنها بذلت جهداً عنيفاً لذلك وقالت بهدوء:

– عليّ أن أحدثك في أمرٍ خطير.

انحنى بيير إيفانوفتش وهو يجهد في تثبيت نوابض النمرقة التي بدأت على الفور تهتزّ.

– لقد تألم آلاماً مبرّحة في الأيام الأخيرة.

– تألم كثيراً؟

– أواه! بشكل فظيع. لم يكفّ عن الصراخ لا خلال الدقائق الأخيرة فقط، لكن خلال ساعات كاملة. لقد صرخ دون انقطاع ثلاثة أيام متوالية. لم يكن ممكناً تحمّل ذلك. لا أدري كيف استطعت أن أقاوم ذلك. كنا نسمعه عبر ثلاثة أبواب. أوه! كم قاسيتُ!

Twitter: @ketab_n

سأل بيير إيفانوفتش:

- لكن هل كان بكامل وعيه؟

همست:

- نعم، حتى آخر لحظة. ودّعنا قبل ربع ساعة من النهاية، بل وطلب إخراج «فولوديا».

إن آلام رجلٍ عرفه منذ الطفولة معرفة حميمة، رجل أصبح فيما بعد شريكه في لعب الورق، هذه الفكرة ملأت بيير إيفانوفتش فجأة بالرعب، مع أنه شاعر بنفاقه ونفاق هذه المرأة. رأى من جديد تلك الجبهة، وذلك الأنف الذي يسحق الشفة العليا، فخاف على نفسه.

وفكّر: «ثلاثة أيام من الآلام المبرّحة ثم الموت. لكن ذلك يمكن أن يقع لي أيضاً. في كل لحظة، وفي الحال» واستولى عليه الخوف. لكنه سرعان ما أنجدتْه هذه الفكرة العادية جداً، دون أن يتبيّن ذلك، أن ذلك كله وقع لإِيفان إيليتش لا له، وأن ذلك لن يقع ولا يمكن أن يقع له، وأنه إذا فكر في هذه الأشياء، استسلم لتلك الأفكار السوداء، وهو ما ينبغي أن يتحاشاه، كما عبّر عن ذلك بوضوح وجهُ «شوارز». وبعد أن خطرت لبيير إيفانوفتش هذه المحاكمة هدأ روعه واستفهم باهتمام عن تفاصيل موت إيفان إيليتش، وكأن الموت شيء لا يمكن أن يقع إلا لإيفان إيليتش ولا يعنيه بشيء هو، بيير إيفانوفتش.

بعد أن روتْ براسكوفيا فيودوروفنا جميع تفاصيل الآلام الجسدية والفظيعة حقاً والتي تحمّلها إيفان إيليتش (وهذه التفاصيل لم يعرفها

Twitter: @ketab_n

بيير إيفانوفتش إلا بمقدر ما آلمت أعصاب أرملته) رأت من البديهي أن الوقت قد حان للكلام عن الأعمال.

- آه! بيير إيفانوفتش، ما أشقّ ذلك، ما أشد مشقّة ذلك!

وعادت إلى البكاء.

تنهد بيير إيفانوفتش وانتظر حتى تمتخط، حتى إذا امتخطت قال:

- صدّقيني...

عندئذ استأنفت كلامها وعرضت تلك القضية التي كانت بالطبع تشغلها فوق كل شيء: كان المطلوب معرفة ما ينبغي الشروع به للحصول على مالٍ من الخزينة بمناسبة وفاة زوجها. تظاهرت بأنها تسأل بيير إيفانوفتش المشورة بصدد النفقة؛ لكنه رأى أنها كانت تعلم كل شيء حتى أدنى التفاصيل، وخيراً منه، عمّا يمكن أن تنال من الخزينة بمناسبة هذا الحادث. لكنها كانت تريد أن تعلم إن كان من الممكن أيضاً أن تحصل على بعض المال الإضافي. حاول بيير إيفانوفتش أن يعثر على وسيلةٍ للوصول إلى ذلك، ولكنه بعد أن فكّر وبعد أن لام، على سبيل المجاملة، الحكومة على شحّها، أعلن أن لا حيلة له في ذلك. حينئذ تنهّدت واتّضح أنها تفكر بالوسيلة التي تتخلص بها من زائرها. أدرك ذلك فأطفأ سيجارته، ونهض، وشدّ على يدها، وخرج من الغرفة.

في غرفة الطعام حيث رأى الساعة الجدارية التي عثر عليها إيفان إيليتش بفرحٍ غامر لدى بائع سلعٍ من سقط المتاع. صادف الكاهن وبعض المعارف الذين وصلوا لحضور الجنّاز، ورأى أيضاً فتاةً جميلةً

Twitter: @ketab_n

جداً، ابنة إيفان إيليتش، التي كان يعرفها. كانت بثياب سوداء. وكانت قامتها الرشيقة تبدو أرشق. كانت ملامحها متجهّمة، حازمة، بل وغضبى. حيّت بيير إيفانوفتش وكأنه مذنب بشيء ما. وخلفها، كان يقف فتى غني، بادٍ غضبه أيضاً، هو قاضي التحقيق، خطيبها، كما قيل، وكان بيير إيفانوفتش يعرفه أيضاً. حيّاهما الاثنين تحية كئيبة وتهيّأ لدخول غرفة الميت، حين ظهر، من تحت الدرج، طالب معهد صغير، هو ابن إيفان إيليتش الذي كان يشبه أباه شبهاً مدهشاً. كان الابن إيفان إيليتش كما تذكّره بيير إيفانوفتش في مدرسة الحقوق. كانت عيناه حمراوين لفَرْط ما بكى وكانتا تعبّران هذا التعبير الذي غالباً ما نجده في عيون الفتيان الفاسدين أبناء الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. تجهّم لدى رؤيته وبدا عليه الارتباك والعبوس في آن واحد. حياه بيير إيفانوفتش بإيماءة من رأسه ودخل غرفة الميت. بدأ القدّاس: الشموع والتنهدات والدموع والنحيب ورائحة البخور... ظلّ بيير إيفانوفتش واقفاً، مقطّب الحاجبين، مثبتاً نظرته بقدميه. لم يرفع مرة واحدة نظره إلى الجثمان، ولم يُسلم نفسه للمشاعر الموهنة وانصرف بين أوائل المنصرفين.

كان البهو خالياً. خرج موزّع المؤن مسرعاً من غرفة الفقيد، ورمى بذراعيه القويتين يمنةً ويسرة جميع الفرويات ليعثر على فروية بيير إيفانوفتش ومدّها إليه:

خاطبه بيير إيفانوفتش ليقول شيئاً ما:

أترى، يا صاحبي جيراسيم؟ ما أعظم المصيبة!

Twitter: @ketab_n

أجاب جيراسيم وهو يكشف عن أسنانه البيضاء، المتراصّة، أسنان الفلاح:

- هذه هي مشيئة الله.

فتح الباب بحركة سريعة، شأنه شأن الرجل الذي أثقلته أشغالُه. ونادى الحوذيَّ، وساعد بيير إيفانوفتش على صعود العربية وقفز إلى درج المدخل، مسرعاً، ليجد، كما يبدو، مهمة أخرى تشغله أيضاً.

أحسّ بيير إيفانوفتش بسرور خاص في تنشّق الهواء النقي بعد روائح البخور والجثة والفينول.

سأله الحوذي:

- أين ينبغي أن أذهب؟

- لم يتأخر الوقتُ، وسأذهب إلى منزل فيودور فاسيلييتش.

بلغ المنزل. ووجد اللاعبين وهم يُنهون جولتهم الأولى، بحيث استطاع أن يشارك في اللعب كلاعب خامس.

- ٢ -

كانت قصة إيفان إيليتش من أبسط القصص، وأكثرها عادية، وأشدها فظاعة.

لقد مات إيفان إيليتش، المستشار في محكمة الاستئناف، في سن

Twitter: @ketab_n

الخامسة والأربعين. وكان ابن موظف قضى خدمته في بطرسبرج، في وزارات شتّى، وبلغ ذلك الوضع الذي يبدو بوضوح أن الذين بلغوه عاجزون عن ملء أية وظيفة ذي شأن، لكنهم لا يمكن أن يُطردوا بسبب خدمتهم الطويلة ودرجتهم. فهم يحصلون إذن على مراكز صورية ومرتّبات غير صورية بتاتاً، تتراوح بين ستة آلاف روبلاً وعشرة آلاف ويحتفظون بها حتى شيخوختهم.

كذلك كان المستشار الشخصي «إيليا إيفيموفتش غولوفين» العضو الذي لا حاجة إليه في عدة إدارات لا حاجة إليها.

أنجب ثلاثة أولاد، ثانيهم إيفان إيليتش. سلك الأكبر مهنةً كمهنة أبيه، لكن في وزارة أخرى، واقترب من ذلك الوضع الذي تثبت فيه مرتّبات الموظفين بقوة العطالة وحدها. وكان الثالث مخفقاً، فلم يوفّق في مختلف أعماله وعمل في سكة الحديد. وكان أبوه وإخوته وأزواجهم لا يتحاشون فقط التقاءه، لكنهم لم يكونوا يتذكرون وجوده، ما لم تكن هناك ضرورةٌ مطلقة. تزوجت أخت إيفان إيليتش البارون «غريف» وهو موظف من بطرسبرج كأنه حموها. كان إيفان إيليتش فذاً في الأسرة. كان أقل برودة ودقة من الأكبر، وأقل اندفاعاً من الأصغر. وكان في الوسط بينهما: رجلاً ذكياً، حيوياً، مقبولاً ومستقيماً، درس في مدرسة الحقوق مع أخيه الأصغر؛ وبينما لم يستطع هذا أن ينهي تعليمه وطُرد من الصف الخامس، أنهى إيفان إيليتش دروسه بتفوق. ومنذ مدرسة الحقوق ظهر كما كان دائماً: رجلاً موهوباً، مرحاً، اجتماعياً، لكنه كان يؤدي دائماً وبصرامة ما يعتبره واجباً؛ وكان الواجب عنده ما يعتبره رؤساؤه واجباً. لم يكن يتذلّل وهو صبيّ، ولم يتذلل فيما بعد؛ لكنه

Twitter: @ketab_n

كان منذ مستهلّ شبابه، يحسّ بانجذابه إلى الأشخاص الذين يشغلون مراكز اجتماعية رفيعة، شبيهاً بالذبابة التي يجتذبها النور؛ كان يتمثّل تصرّفاتهم وتصوّراتهم للحياة ويصادقهم. وقد مرّت انجذابات الطفولة والصبا دون أن تترك فيه آثار عميقة. أسلم نفسه لملذّات الحسّ، وللغرور، وفيما بعد، في أواخر دراسته، لليبيرالية، لكنه أمسك نفسه ضمن بعض الحدود التي حدّدها له ذوقه الطبيعي.

ولما كان في مدرسة الحقوق ارتكب أعمالاً بدت له دنيئة، وكان يشمئز منها حتى وهو يقوم بها. لكنه عندما شاهد، فيما بعد، أن أناساً في المراكز العليا يرتكبون الأعمال نفسها ولا يعدّونها سيّئة، نسيها تماماً دون أن يراها حسنة، و لم تعد ذكراها تعذّبه.

تخرّج من مدرسة الحقوق بمرتبة الفئة العاشرة[٤]. وتلقّى من أبيه المال الضروري لتجهيزه الكامل، وأوصى على بزةٍ من عند «شارمر»، وعلّق بسلسلته ميداليةً نُقشَ عليها المثل اللاتيني: «توقّع النهاية»، وودّع المدير والأساتذة، وتعشّى مع أصدقائه عند «دونون»، وتزود بحقيبة جميلة وجديدة، وبثياب داخلية، وبملابس، وبلوازم الزينة، وبموس الحلاقة، وبمعطف السفر، - أوصى على ذلك كله واشتراه من خير المخازن - وسافر إلى المقاطعة حيث عُين بفضل والده، موظفاً لمهمات خاصة لدى المحاكم[٥].

٤- كان أفضل الحائزين على شهادة مدرسة الحقوق (وكذلك الحائزون على شهادة كلية الحقوق) يدخلون الخدمة المدنية بهذه المرتبة.

٥- موظف... لدى الحاكم: هو موظف شاب مرتبط بحاكم المقاطعة يكلّف بمهمات شتّى.

Twitter: @ketab_n

في المقاطعة، توصّل إيفان إيليتش مباشرة إلى أن يُوجِد لنفسه وضعاً سهلاً ومقبولاً كوضعه الذي ضمنه بمهنته، وكان في الوقت نفسه يلهو لهواً ساراً ومحتشماً. وكان رؤساؤه يرسلونه أحياناً ليفحص المناطق؛ كان يتصرف دائماً بكرامة، إزاء من هم فوقه ومن هم دونه على حد سواء، ويقوم بالمهمات التي تُعهَد إليه والتي تتعلق بالطوائف المنشقّة بدقة وأمانة صارمتين لا يمكنه هو نفسه إلا أن يفخر بهما.

بالرغم من شبابه وطبعه المرح، كان متحفّظاً أشدّ التحفظ في قضايا الخدمة، رسمياً بل وقاسياً؛ لكنه كان يبدو في المجتمع بشوشاً، خفيف الروح، لبقاً، رقيقاً، طيّب الخلق، كما كان يقول عنه الحاكم وزوجته وكان يتردّد عليهما.

وكانت له في المقاطعة علاقة بسيدة ارتمت على هذا الشاب الأنيق؛ وكانت له مغامرة غرامية مع تاجرة قبّعات. كما حدث له أن مجن مع مرافقين عسكريين عابرين وقصد برفقتهم بعد العشاء شارعاً متطرّفاً. وحدث له أن تملّق رئيسه وزوجة رئيسه؛ لكن ذلك كله طُبع بطابع نبيل، متميّز إلى حدٍّ لا يمكننا معه أن نصفه بقسوة: «يجب أن نغفر للشباب طيشهم»، كما يقول المثل الفرنسي وكانت هذه الأشياء تُعمل بأيدٍ نظيفة، وثياب جديدة، وصحبة حسنة، على الخصوص؛ ومن ثم، بموافقة الأشخاص الرفيعي المكانة.

خدم إيفان إيليتش هكذا خمس سنوات، ثم خدم في المؤسسات القضائية الجديدة حيث كانت تحتاج إلى رجال جدد.

كان إيفان إيليتش أحد هؤلاء الرجال الجدد.

Twitter: @ketab_n

عُرض عليه مركز قاضي التحقيق فقبله، مع أن ذلك أجبره على الذهاب إلى حكومة أخرى، وقطع العلاقات التي أنشأها، وخلق علاقات أخرى. رافقه أصدقاؤه إلى المحطة وأهدوه علبة سجائر فضيّة؛ صُوِّرت الجماعة كلها، والتحق إيفان إيليتش بمنصبه الجديد.

بدا إيفان إيليتش، بصفته قاضياً للتحقيق، كما ينبغي للقاضي أن يكون، دقيقاً، ماهراً في قضايا الخدمة عن العلاقات الخاصة وتصرّف بالجدارة نفسها عندما كان في مهمة غير عادية بجنب الحاكم. بل إن وظائف قاضي التحقيق ظهرت لإيفان إيليتش أكثر تشويقاً وجذباً من التي كان يقوم بها سابقاً. كان يجد اللذة فيما مضى في أن يمرّ، خفيف الخطى، ببزته التي من عند «شارمر»، أمام ذوي الحاجات والموظفين المرتجفين الذين كانوا ينتظرون المقابلة ويحسدونه على أنه يستطيع أن يدخل مباشرة مكتب الحاكم ويجلس إلى طاولته ليشرب الشاي ويدخن. لكن عدد الأشخاص التابعين لمشيئته كان قليل الأهمية: كانوا، في معظمهم، مفوّضي شرطة ومنسقين عندما كان يُرسل بمهمة: وكان يحب كثيراً أن يُعامل بلطفٍ، وكرفيق، هؤلاء التابعين له؛ كان يجب أن يشعرهم أنه يستطيع أن يسحقهم، فيعاملهم ببساطة معاملة الصديق. لكن هؤلاء الناس كانوا قلّة. أما الآن، وبعد أن أصبح قاضي تحقيق، فقد أخذ يحسّ أنهم جميعاً، دون أي استثناء، حتى أكثر الشخصيات أهميةً وكبرياء، وأنه يكفيه أن يكتب بضع كلماتٍ على ورقة بعنوانه حتى يُؤتى بأية شخصية مهمة أو متكبرة باعتبارها متّهمة أو شاهدة مجبرة على الوقوف إذا لم يدعُها هو، إيفان إيليتش، إلى الجلوس، ومجبرة على الإجابة على أسئلته. لكن إيفان إيليتش لم يتعسّف قط في استخدام سلطته. على العكس، كان يبذل وسعه في

Twitter: @ketab_n

تلطيف الأشكال. بيد أن الشعور بهذه السلطة وإمكان تخفيفها كانا يكوّنان في نظره الأهمية الرئيسية والجاذبية لوظيفته الجديدة. ولقد اكتسب إيفان إيليتش بسرعة، أثناء قيامه بوظيفته في تحقيقه في القضايا الجنائية، هذا النهج الذي يقوم على تنحية جميع الظروف الغريبة على الخدمة، وعلى إعطاء كل قضية، مهما تكن معقّدة، مظهراً تكون معه صالحةً لأن يُعبَّر عنها على الورق، بما أن آراءه الشخصية مستبعَدَةٌ، مع حرصه على أن تُراعى جميع الشكليات. كان هذا الشيء جديداً كل الجدّة. كان من الأوائل الذين طبّقوا أنظمة ١٨٦٤ [٦].

في المدينة التي كان يشغل فيها مركز قاضي التحقيق، عقد علاقات جديدة، واتّخذ هيئة جديدة، وغيّر لهجته. ظلّ على مسافة من السلطات الإدارية، وخلف حلقةً من الأصدقاء بين القضاة والنبلاء الأغنياء الذين يقطنون المدينة: أخذ ينتقد الحكومة انتقاداً خفيفاً وعُدَّ ليبيرالياً معتدلاً، رجلاً ذا أفكار على شيء من التقدم. ولقد كفّ عن حلق ذقنه وترك لحيته تطول كما يحلو لها، دون أن يغيّر، مع ذلك، شيئاً من أناقة ملبسه.

مرّت حياة إيفان إيليتش في مقرّه الجديد، بسرور عظيم؛ فالوسط الناقدُ الذي دخله كان موحّداً توحداً كبيراً؛ ومرتّباته أكبر من ذي قبل؛ ثم كانت هناك متعة أخرى هي «الهويست». لقد أخذ يلعب بالورق، وبما أنه كان يلعب بمهارة وبمرح، مع الحذر، فإنه كان يربح دائماً تقريباً.

٦- أنظمة ١٨٦٤: الأنظمة المتعلقة بالمؤسسات الجديدة الإجراءات القضائية الجديدة.

Twitter: @ketab_n

بعد سنتين من إقامته في هذه المدينة، تعرّف على المرأة التي ستغدو امرأته. كانت «براسكوفيا فيودوروفنا ميكيل» أكثر الفتيات سحراً وذكاءً وتألقاً في تلك الحلقة التي ينتمي إليها إيفان إيليتش. وبين التسليات التي أوجدها لنفسه ليستريح من مشاغله كقاضٍ للتحقيق، تلك الصلات البهجة، السارة، التي أقامها مع براسكوفيا فيودوروفنا.

ولما كان مايزال مرتبطاً بالحاكم، رقص كثيراً. أما عندما أصبح، فيما بعد، قاضياً للتحقيق فلم يكن يرقص إلا استثناءً. كان يرقص كأنه يقول: إني وإن أكن قاضياً من الفئة الخامسة، فإني أستطيع أن أُدلّل على أني لا أقلّ عن غيري، فيما يتعلق بالرقص. وهكذا كان يرقص أحياناً، في آخر السهرة، مع براسكوفيا فيودوروفنا! وأثناء هذه الرقصات فاز بقلبها. غدت عاشقة له. لم يكن في نيته أن يتزوج، لكن عندما أُغرمت به. طرح على نفسه بصراحة السؤال التالي: لما لا أتزوج؟

كانت براسكوفيا فيودوروفنا من أسرة نبيلة محترمة؛ لم تكن بشعة وكانت تملك شيئاً من الثروة. كان بوسع إيفان إيليتش أن يطمح بامرأة أكثر تألقاً، لكن هذه كانت مع ذلك شريكاً حسناً. كان لإيفان إيليتش مرتّبه وكان يأمل أن يكون لها دخلُها المعادل. كانت الفتاة لطيفة جداً، مقبولةً، ملائمة جداً، ومن أسرة كريمة.

إن القول بأن إيفان إيليتش تزوّج لأنه أُغرم بخطيبته ولأنه وجد أن ميولها تتوافق توافقاً مع ميوله، قول خالٍ من الصحة كقولنا إنه تزوّج لأن الناس الذين من عالمه وافقوا على هذا الزواج.

وتزوّج إيفان إيليتش.

Twitter: @ketab_n

مرّ الزواج نفسه، والأزمنة الأولى من الحياة الزوجية بمداعباتها وأثاثها الجديد، وأوانيها الجديدة، وبياضها الجديد، بسرور عظيم حتى حَبَل براسكوفيا فيودوروفنا، بحيث أن إيفان إيليتش قال في نفسه إن الزواج لا يقتصر على عدم تعكيره هذه الحياة السهلة، اللطيفة، الفرحة، الصحيحة دائماً، التي يُقرّها المجتمع، والتي هي الحياة الوحيدة التي يعتبرها إيفان إيليتش ممكنة، بل إن الزواج سيجعل هذه الحياة أكثر سروراً. لكن ها إن الأشهر الأولى من حبل براسكوفيا فيودوروفنا تشهد حدوث شيء جديد، كريه، مؤلم وغير لائق، يمكن توقعه، ولا يمكن التخلص منه.

لقد أخذت امرأته، دون أي داعٍ - كما خُيِّل إلى إيفان إيليتش - ومن كل قلبها، كما كان يقول، تعكّر مجرى حياته المقبول والصحيح: بدت غيرى دون مبرر، وطلبت إليه أن يُعنى بها باستمرار، وسعت إلى مماحكته وشاحنته مشاحنات كريهة وفظّة.

في البداية، كان إيفان إيليتش يرجو أن يتفادى مُزعجات هذا الوضع بموقفه المتجرّد والصحيح الذي كان ناجحاً حتى الآن في حياته: تظاهر بتجاهل سوء مزاج امرأته وظل يعيش عيشة خفيفة بهجة كسابق عهده؛ كان يدعو أصدقاءه إلى لعب الورق عنده، كان يذهب إلى النادي أو إلى منازل زملائه. لكن امرأته شرعت، ذات يوم، تسبّه سبّاً غليظاً، وظلت تخاصمه بعنف شديد كلما رفض الخضوع لمتطلّباتها حتى لقد ارتعب إيفان إيليتش من ذلك. كان واضحاً أنها قررت بحزم الاستمرار في ذلك ما لم يخضع، أي مادام لم يرتضِ البقاء في البيت، ومادام لم يضجر فيه كما تضجر هي. أدرك أن حياة

Twitter: @ketab_n

الأسرة - مع زوجته على الأقل - لا تجعل الحياة دائماً أكثر سروراً وملاءمة، بل إنها، على العكس، تعكّر انسجامها، ومن ثمّ كان لابد من حماية الذات إزاء عناصر التعكير هذه.

فكّر إيفان إيليتش في حماية نفسه. الشيء الوحيد الذي كان يوهم براسكوفيا فيودوروفنا كانت مشاغل زوجها؛ ولذلك أخذ إيفان إيليتش يقاوم امرأته بالتذرّع بواجبات أعبائه، محافظاً هكذا على استقلال عالمه الخاص.

برزت ضرورة الاستقلال هذه بروزاً أكبر بعد ولادة ولدهما، أثناء المحاولات غير المجدية للإرضاع وأثناء أمراض الأم والطفل الحقيقية والوهمية، وهي أمراض كانت تقتضي تدخُّل إيفان إيليتش وإن كان لا يفهم شيئاً منها.

كلما كانت امرأة إيفان إيليتش تغدو أكثر نزفاً وتطلّباً، كان يحوّل كلّ اهتمام حياته أكثر فأكثر إلى أعمال خدمته. كان يزداد حباً لمشاغله ويغدو أعظم طموحاً.

وسرعان ما أدرك، بعد مضيّ نحو سنة من زواجه، أن حياة الأسرة، وإن كان لها بعض المزايا، إلا أنها شيء شديد التعقيد، ومؤلم جداً، وعليه أن يقف إزاءها موقفاً محدّداً بدقة، شأنه إزاء خدمته، لكي يتسنّى له القيام بواجبه، أي لكي يتسنّى له أن يحيا حياة صحيحة، وكما يوافق عليها المجتمع.

قاعدة السلوك هذه، إزاء حياته الأسرية، أفلح إيفان إيليتش في

Twitter: @ketab_n

تهيئتها. وكان لا يتطلب من الأسرة إلا رغد العيش الذي يمكن أن تمنحه إياه: المائدة، السرير، نظام المنزل، وفوق كل شيء، تلك اللياقة التي يحدّد أشكالها الرأي العام. كان يود لو يلقى أيضاً المجاملة والمرح؛ فإذا حصل عليهما اعترف بحسن الصنيع، أما إذا وجد معارضة، وسوء مزاج، لجأ فوراً إلى عالمه الخاص، إلى مشاغله، فأحس فيها بالرضا.

كان إيفان إيليتش يُعدّ موظفاً ممتازاً، وبعد مضي ثلاثة أعوام، عيّن وكيلاً للنيابة. إن واجبات هذا العبء الجديدة، وأهميتها، وقدرته على إخطار أي كان وإيداعه السجن، والمرافعات التي عليه أن يلقيها أمام الجمهور، ونجاحاته كخطيب، كل ذلك زاد من تعلّقه بخدمته.

وجاءه أولاد آخرون أيضاً؛ غدت براسكوفيا فيودوروفنا أشد نزقاً ومشاكسة؛ لكن قاعدة السلوك التي اصطفاها إيفان إيليتش إزاء أسرته جعلته ممتنعاً تقريباً على تقريع امرأته.

بعد إقامة سبع سنوات في هذه المدينة، عُيِّن إيفان إيليتش نائباً عاماً في حكومة أخرى. فانتقل إليها. لكن المال لم يتوافر له، ولم يرق المكان لبراسكوفيا فيودوروفنا. ارتفع مرتّب إيفان إيليتش عن ذي قبل، لكن الحياة كانت أغلى، وفضلاً عن ذلك فقد مات اثنان من الأولاد وغدت الحياة لا تطاق أكثر مما كانت عليه.

جعلت براسكوفيا فيودوروفنا من زوجها مسؤولاً عن جميع المصائب التي حلّت في إقامتها الجديدة. إن معظم المحادثات التي جرت بين الزوج والزوجة، ولاسيما عند تعلّق الأمر بتربية الأولاد،

Twitter: @ketab_n

كانت تحيي ذكرى الخصام القديم وتجرّ إلى مناقشات جديدة. وفي لحظة نادرة كان العشق يسوق الزوجين أحدهما إلى الآخر، لكن هذه اللحظات كانت قصيرة الأمد. كانت هذه اللحظات جُزيراتٍ يسيران على شواطئها زمناً ليغرقا بعدها في بحر كرههما الكامن الذي كان يتجلّى في البعد الذي يشعر به كلٌ منهما تجاه الآخر. كان هذا البعدُ جديراً بأن يُحزن إيفان إيليتش لو اعتقد أنه غيرُ طبيعي؛ لكنه لم يكن طبيعياً فحسب بل إن طريقته في التصرف كانت تتجه بالذات إلى هذا الهدف. كان هدفه يقوم دائماً على التخلص أكثر فأكثر من المضايقات الأسرية وعلى أن يعزو إليها طابعاً غير مؤذٍ وسليماً. وكان يتوصل إلى ذلك بتقليص الزمن الذي يقضيه في أسرته قدر المستطاع. فإذا اضطر إلى أن يعود إلى المنزل حمى نفسه من الهجوم بفضل حضور الغرباء. ثم إن إيفان إيليتش كانت له مهماته، وهذا هو الشيء الرئيسي. كان اهتمامُ حياته كله منصباً على ذلك وكان هذا الاهتمام يستغرقه استغراقاً تاماً. كان شعوره بسلطته، والإمكان الذي هو فيه أن يدمّر أياً كان ويقضي عليه وأمارات الاحترام التي كان يُقابَل بها في المحكِمة، ومراعاة مرؤوسيه له، ونجاحاته بين من هم فوقه ومن هم دونه، ولاسيما مهارته في الأعمال، وهي مهارة تبينها هو نفسه، كل ذلك كان يفتنه ويملأ حياته، مع الهويست، والولائم وأحاديثه مع زملائه. هكذا كانت إذن تجري حياةُ إيفان إيليتش كما يليق برأيه، أي بسرور وعلى نحوٍ صحيح.

عاش هذه العيشة سبع سنوات. كان عمرُ ابنته البكر ستة عشر عاماً. فَقَد ولداً آخر؛ وبقي له صبيٌّ، طالب معهد كان موضوعاً لنقاشات مستمِرّة. كان إيفان إيليتش يريد أن يدرس في مدرسة الحقوق، لكن

Twitter: @ketab_n

براسكوفيا فيودوروفنا أدخلته المعهد، بروح المشاكسة. وكانت ابنته تدرس في المنزل وتتقدّم في دروسها؛ وكان الولد مجتهداً أيضاً.

- ٣ -

هكذا عاش إيفان إيليتش على مدى سبعة عشر عاماً من زواجه. كان نائباً عاماً منذ زمن طويل، وقد رفض عدة مرات تغييره انتظاراً لمنصب أفضل. عندما وقع فجأة حادثٌ كريه كاد يعكّر هذه الحياة الوادعة من أعماقها. كان إيفان إيليتش يتوقّع أن يُعيَّن رئيساً لمحكمة في مدينة جامعية؛ لكن لا يُدرى كيف حصل «هوب» على المكان. غضب إيفان إيليتش وأنحى عليه باللوم وساءت علاقاته مع رؤسائه، فأبدوا تجاهه شيئاً من البرودة، وعند الترفيع التالي استُبعد مرة أخرى.

كان ذلك في ١٨٨٠. وكانت هذه السنة أشد سنيه مشقّة. فمن جهة، تبيّن أن مرتبه لا يكفيه ليعيش، وأن الجميع من جهة أخرى، أخذوا ينسونه، وأن ما كان يعده ظلماً صارخاً وشنيعاً، لم يكن في نظر الآخرين سوى شيء جد طبيعي. حتى إن أباه نفسه لم ير من واجبه أن يمدّ إليه يد المعونة. أحسّ أن الجميع شرعوا يهجرونه معتبرين أن ثلاثة آلاف وخمسمئة روبلاً مرتبٌ طبيعي بل رفيع. هو وحده كان يعلم أنه عندما يحسب حساب الظلم الذي ارتُكب بحقه، وأن مشاحنات امرأته المستمرة، وأن الديون التي يحملها وهو يعيش فوق وسائله المادية، هو وحده كان يْعلم أن هذا الوضع بعيدٌ عن أن يكون طبيعياً.

Twitter: @ketab_n

في هذه السنة، نال إجازته في الصيف، لكي يخفّف من أعباء النفقة، وذهب مع امرأته ليقضي تلك الإجازة في الريف، عند والد براسكوفيا فيودوروفنا.

في الريف، أحسّ إيفان إيليتش، بعد أن خلا من مشاغله، ولأول مرة في حياته، لا بالضجر العميق فحسب بل وبالقلق الذي لا يُطاق. فقرر أنه لا يستطيع أن يستمر في حياته على هذا المنوال وأن عليه حتماً أن يتخذ تدابير حاسمة.

وبعد ليلة من السهادة قضاها يذرع السطح، عزم على السفر إلى بطرسبرج والقيام بالمساعي الضرورية لكي يحاول الدخول في وزارة أخرى فيعاقب بذلك الذين لم يحسنوا تقديره.

في اليوم التالي سافر إلى بطرسبرج، رغم اعتراضات زوجته وحميه.

كان هدفه الوحيد من هذا السفر أن يحصل على مركز مرتّبه خمسة آلاف روبلاً. لم يكن يحرص حرصاً خاصاً على هذه الوزارة أو تلك؛ كان طابع المهمات التي عليه أن يقوم بها ونوعها قليلي الأهمية عنده. لم يكن يلزمه سوى مركز، مركز بخمسة آلاف روبلاً، في الإدارة، في المصرف، في الخطوط الحديدية، في مؤسسات الامبراطورة ماري[٧]، حتى في الجمارك، على شرط أن ينال خمسة آلاف روبلاً وأن يترك هذه الوزارة التي لم يُقدَّر فيها حق قدره.

٧- مؤسسات الامبراطورة ماري: أنشأت الامبراطورة ماري أم الاسكندر الأول ونيقولا الأول، مؤسسات للإحسان والتربية. وبعد موتها سنة ١٨٢٨ ظلت هذه المؤسسات تحمل اسمها وتكوّن دائرة خاصة.

Twitter: @ketab_n

وتُوِّج سفر إيفان إيليتش بنجاح غير عادي وغير متوقع. أحدُ أصدقائه، «إيلين» دخل مقصورته في «كورسك»، مقصورة من الدرجة الأولى وأعلمه عن البرقية التي تلقاها حاكم كورسك والتي تدول حول تغيّر سيحدث في الوزارة في مدى بضعة أيام. سوف يُعيَّن إيفان إيليتش مكان بيير إيفانوفتش.

فضلاً عن التأثير الذي ربما يكون لهذا التغيير في مصائر روسيا، فقد كان له أهمية خاصة لدى إيفان إيليتش. وصل إلى السلطة رجلٌ جديد، هو بيير بيتروفتش، ومعه صديقه، زاكار إيفانوفتش؛ وكان هذا صديقاً ورفيقاً لإيفان إيليتش.

في موسكو، تأكّد النبأ. فلدى وصول إيفان إيليتش إلى موسكو، ذهب للقاء زاكار إيفانوفتش، وحصل منه على وعدٍ بتعيينه في مركز حسن في وزارة العدل.

بعد أسبوع، أبرق لزوجته:

زاكار في مكان «ميلر» وسوف أُعيَّن عند أول قرار.

بفضل هذا التغير حصل إيفان إيليتش فجأة في وزارته القديمة على مركز رفعه مرتبتين فوق زملائه القدامى؛ خمسة آلاف روبلاً المرتّب وثلاثة آلاف وخمسمئة روبلاً نفقات الانتقال. كان إيفان إيليتش سعيداً كل السعادة ونسي الغيظ الذي كان يكنّه لأعدائه القدامى وللوزارة.

عاد إيفان إيليتش إلى الريف، مرحاً، راضياً كما لم يكن من قبل.

Twitter: @ketab_n

وكانت براسكوفيا فيودوروفنا سعيدة أيضاً، وسادت هدنةٌ بين الزوجين. روى إيفان إيليتش كيف لقي الترحيب في بطرسبرج. وكيف أُهين أعداؤه، فهم يتملّقون الآن ويحسدونه، كما روى كما كان محبوباً في بطرسبرج.

أصغت إليه براسكوفيا فيودوروفنا، وتظاهرت بأنها صدَّقت كلّ ما قاله، واكتفت بتخطيط المخططات حول إقامتهم في المدينة حيث سيسكنون. ولاحظ إيفان إيليتش بفرح أن هذه المخططات هي أيضاً مخططاته، وأنهما اتَّفقا من جديد، وأن حياته استأنفت، بعد الأزمة، مجراها السار والصحيح كلّ الصحة.

لم يُقم إيفان إيليتش طويلاً في الريف. كان عليه أن يتسلّم واجبات منصبه في العاشر من أيلول، وفضلاً عن ذلك، كان عليه أن يترك منزله ويستقرّ في مقرّ جديد، وأن يشتري كثيراً من الأشياء، وأن يعطي أوامره، وبالاختصار، عليه أن ينظّم حياته وفقاً لمشروعاته التي تتوافق تماماً تقريباً مع رغبات امرأته.

الآن وقد سُوِّي كلُّ شيء بنجاح، الآن وقد تفاهم جيداً من امرأته التي لم يكن يراها إلا قليلاً، غدت علاقاتهما أفضل مما كانت عليه منذ السنة الأولى من زواجهما. كان إيفان إيليتش يستعدّ لاصطحاب أسرته معه، لكنه سافر وحده بناءً على إلحاح أخت زوجته وزوجها اللذين أصبحا على حين غرة لطيفين، وودودين نحوه.

سافر، ولم يفارقه طيبُ مزاجه الذي سببه نجاحه ووفاقه مع امرأته. عثر على شقة فاخرة، كالتي حلم بها الزوجان بالضبط: غرف استقبال

Twitter: @ketab_n

واسعة عالية بحسب الأسلوب القديم، مكتب للعمل مريح ورسمي، غرف لبراسكوفيا فيودوروفنا وابنتهما، غرفة دراسة لطالب المعهد. كان كل شيء كأنما أقيم من أجلهم. اهتم إيفان إيليتش نفسه بترتيب المنزل؛ اختار الورق واشترى الأثاث ولاسيما الأثاث القديم اللائق المظهر، وشيئاً فشيئاً وجد كلُّ شيء مكانه المناسب، وقارب المجموع من المثال الذي وضعه لنفسه إيفان إيليتش. وعندما استقرّ نصف استقرار تبيّن أن النتائج تجاوزت توقّعاته، وأدرك الطابع اللائق، الأنيق من غير أن يكون مبتذلاً في الوقت نفسه، الطابع الذي سيتخذه المجموع عندما يتمّ كل شيء. كان إذا نام تصوّر مظهر صالة الاستقبال. وإذا مرّ بعينيه على الصالون رأى مسبقاً المدفأة والحاجز والرفّ والكراسي الصغيرة متفرّقة هنا وهناك، والصواني والصحون على الجدران، والبرونزيات. كان يبتهج حين يفكر بمفاجأة «باشا» و«ليزا» اللتين تملكان هما أيضاً حسن الذوق في هذه الأشياء. لم تكونا تنتظران مثل ذلك، بالتأكيد. لقد نجح في أن يكتشف ويشتري بسعر رخيص أشياء قديمة تعطي الشقة طابع النبل. وفي رسائله، كان يقلّل من جمال إقامته عن قصد عما هي عليه، وذلك لكي يفاجئهما. كان ذلك كله يشغله إلى كد كبير حتى إن وظيفته الجديدة التي كان يحبها مع ذلك، أخذت تهمه أقل مما كان يتوقع. وأثناء الجلسات، كان فكره يشردُ لحظاتٍ، كان يفكّر في ستائره: أتكون مثنّاةً أم مستقيمة؟ كان نفاد صبره عظيماً حتى إنه كان يغيّر هو نفسه أمكنة الأثاث ويرخي الستائر. وذات يوم، بينما كان صاعداً السلم ليرى المنجّد الذي لم يُفهمه، كيف كان يريد أن توضع الستائر، زلّت قدمه وسقط، لكنه لما كان قوياً وحاذقاً، تماسك واصطدم جانبه بغلاّقة النافذة. توجّع قليلاً، لكن هذا الألم سرعان ما زال.

Twitter: @ketab_n

كان إيفان إيليتش يحسّ طوال هذا الوقت بأنه مرحٌ ومُعافىً. كان يكتب: «أحسّ أن لي خمسة عشر عاماً أقل من عمري». كان يعتقد أنه سينتهي في أيلول، لكن الأشياء امتدت حتى أواسط تشرين الأول. وبالمقابل، كان ذلك فتّاناً: و لم يكن هذا رأيه وحده، بل كان الجميع يقولون له ذلك.

في الواقع، كانت شقته شبيهة بشقق جميع الناس الذين لم يكونوا وافري الغنى والذين يبذلون وسعهم ليتشبّهوا بالأغنياء، لكنهم لا يُفلحون إلا في أن يتشبّهوا بعضهم ببعض: الصِبغ والأبنوس والأزهار والسجاد والبرونز، والألوان القاتمة أو اللامعة، جميع الأشياء التي يستعملها أناسٌ من طبقة معينة ليتشبهوا بأناس من طبقة أعلى. كان هذا الشبه، لدى إيفان إيليتش، تاماً جداً حتى إن لا شيء منه جذب الانتباه؛ لكن كل شيء بدا له في منتهى الأصالة. كان يحسّ بالسعادة الكاملة عندما يذهب للقاء ذويه في المحطة، وعندما يصطحبهم إلى منزله فيفتح باب البهو المزدان بالورود، الخادم بربطته البيضاء، وعندما يدخلون الصالونات ثم مكتب العمل وهم يطلقون صرخات الإعجاب؛ قادهم إلى جميع الأماكن، متذوّقاً ثناءهم، مشرقاً بالفرح. وفي المساء، أثناء تناول الشاي، عندما سألته براسكوفيا فيودوروفنا بين أسئلة أخرى، كيف سقط عن السلم، انفجر ضاحكاً وقلّد سقوطه وارتعاب صاحب النجد.

– إني لا أمارس الرياضة عبثاً؛ غيري كان سيُقتل أما أنا فلم أُصَبْ إلا بضربةٍ خفيفة تؤلمني إذا لُمست. لكن ذلك أخذ يزول و لم يبق سوى آثار اللطمة.

Twitter: @ketab_n

أخذوا يعيشون إذن في مسكنهم الجديد الذي تبين أنه تنقصه غرفةٌ، كما يظهر دائماً عندما يستقرّ الناس في سكناهم نهائياً. و لم يكن ينقص المرتّب الجديد سوى القليل من الأشياء، نحو خمسمئة روبلاً؛ لكن الأمور تسير سيراً حسناً. ولاسيما في الأزمنة الأولى عندما لم يكن كل شيء قد انتهى بعد، وكان لابد من الانشغال بالشراء، والتوصية والنقل. كان كلا الزوجين جد سعيد وإن وقعت بعض الاختلافات الطفيفة، فقد كان هناك أشياء كثيرة يجب أن تنجز بحيث كانت الأمور تُسوّى دون كبير خصام. فإذا لم يكن بينهما ما ينبغي أن يُسوَّى دبَّ المللُ وشعرا بشيءٍ ينقصهما. لكن العلاقات والعادات الجديدة ملأت حياتهما.

كان إيفان إيليتش يقضي الصباح في المحكمة ويعود للغداء؛ في الآونة الأولى كان حسن المزاج، مع أنه بدا منشغلاً بكل ما يمسّ المسكن (أقل بقعة على غطاء الطاولة أو على قماش الأثاث، حبل الستارة المنزوع، كل ذلك كان يغيظه: لقد كلّفه تجهيز المنزل كثيراً من الجهد حتى إن أدنى تلف كان مؤلماً له؛ لكن حياة إيفان إيليتش كانت، على العموم تجري وفقاً للمثل الأعلى الذي خطّه لنفسه: بيسرٍ وسرور وسلامة. كان ينهض في التاسعة، ويتناول قهوته، ويقرأ صحيفته، ويرتدي بعد ذلك بزّته ويقصد المحكمة ويستأنف عمله الذي تعوّده والذي كان يفرغ إليه بسهولة. الملتمسون، طلبات الاستعلام، الرئاسة، الجلسات العامة، المؤتمرات الإدارية... كان عليه أن ينحّي عن هذه المشاغل الواقع الحي الذي يأتي باستمرار فيشوّش المجرى النظامي لأعمال الوظيفة: كان عليه أن يحرص على ألا يكون له مع الناس من علاقات غير التي تدخل في نطاق

Twitter: @ketab_n

الوظيفة. مثلاً، يجيئه شخص يطلب معلومات. لا يمكن لإيفان إيليتش، خارج وضعه الرسمي، أن تكون له أية علاقة معه، لكن إن أمكن لعلاقاتهما المتبادلة أن تعبّر عن نفسها على ورقة بعنوان، فإن إيفان إيليتش، في حدود هذه العلاقات سيفعل ما يستطيع، كل ما يستطيع حتماً، مراعياً شكليات الصداقة، أي التهذيب. فإذا ما انتهت علاقاتهما الرسمية، انتهت بينهما جميع العلاقات الأخرى.
كان إيفان إيليتش يملك إلى أعلى درجة موهبة الفصل الواضح بين شؤون الخدمة وشؤون الحياة الواقعية؛ وتوصل جيداً بفضل ممارسة طويلة، إلى تنمية هذه الموهبة، حتى إنه كان يستبيح أحياناً، كالعازف الماهر، أن يخلط بين العلاقات الإنسانية والرسمية وكأنه يتلاعب تلاعباً. كان يستبيح ذلك لأنه كان يشعر دائماً أنه قادر على تمييز حدود العلاقات الإنسانية إن لزم ذلك، وعلى استبعادها. كان إيفان إيليتش يفعل ذلك بيسر وسرور وسلامة عظيمة، بل وبحميّة. كان يدخّن في أوقات فراغه، ويشرب الشاي، ويتحدث قليلاً في السياسة وفي المسائل العامة، وفي اللوائح ولاسيما التعيينات. كان يعود إلى منزله متعباً جداً، لكن مع رضا العازف الماهر الذي نفّذ تنفيذاً حسناً دوره كعازف قيثار في الأوركسترا. وكانت الأم وابنتهما تخرجان، من جهتهما، وتستقبلا الزوار، وكان الولد يذهب إلى المعهد، ويعمل في المنزل مع مدرّسيه، ويحفظ جيداً ما يُعطى في المعهد. كان كل شيء يسير سيراً حسناً.

بعد الغداء، كان إيفان إيليتش إن لم يكن عندهم ناسٌ، يقرأ أحياناً كتاباً كثر الكلام عليه، وفي المساء، كان يعكف على العمل، أي أنه كان يدرس الإضبارات، باحثاً عن القانون الذي يجب تطبيقه، ويقارن بين

Twitter: @ketab_n

الشهادات. كان يفعل ذلك دون ضجر ولا لذة. فإذا ضجر أمكنه اللعب بالورق، وإذا لم يلق شركاء في اللعب آثر أن يعمل على أن يبقى عاطلاً أو آثر أن يتحدث مع براسكوفيا فيودوروفنا. وكانت لذته الكبرى تلك الأغذية التي يدعو إليها بعض السيدات وبعض الرجال من علية القوم: كانت هذه الاجتماعات شبيهة بجميع الاجتماعات التي من هذا النوع، كما أن صالون إيفان إيليتش كان شبيهاً بجميع الصالونات.

بل إنه دعا مرةً إلى سهرةٍ رقَص الناسُ فيها. كان إيفان إيليتش مسروراً جداً، لكن جرى خلافٌ بينه وبين امرأته حول الحلوى والسكاكر. كانت لبراسكوفيا فيودوروفنا خطّتها، لكن إيفان إيليتش أصرّ أن يشتري ذلك كله من عند بائع حلوى غالي الثمن؛ وأوصى على كمية زائدة من الحلوى فبقي منها وبلغت قائمة البائع خمسة وأربعين روبلاً. كان الخلاف شديداً وكريهاً حتى إن براسكوفيا فيودوروفنا نعتت زوجها بأنه غبي ومغفّل، حينئذٍ أمسك رأسه بيديه، وذكر في فَوْرته الطلاق. لكن السهرة نجحت. حضرتها نخبةُ المجتمع، وراقص إيفان إيليتش الأميرة تروفونوفا، أخت المؤسسة الشهيرة لجمعية الإحسان «أَزِلْ عنائي».

كانت المتعة التي يستشعرها إيفان إيليتش في ممارسة واجباته الوظيفية متعةً قائمة على حب الذات؛ كانت مخالطاته الاجتماعية ترضي غروره، لكن أفراحه الحقيقية كانت تلك التي يتذوقها في «الهويست». وكان يقرّ بأنه مهما يحدث، ومهما تكن المكدّرات، يرى فرحه الأقصى الذي يسطع كالشمعة فوق جميع الأفراح

Twitter: @ketab_n

الأخرى، هو أن يجلس إلى مائدة اللعب مع لاعبين ماهرين، شركاء مستقيمين، للعبة «هويست» بأربعة لاعبين (لأن من الصعب، إذا كانت بخمسة لاعبين، الانسحاب عندما يأتي دورك وإن تظاهرت بالرضا) وأن يلعب لعباً جاداً وذكياً (إذا كان محظوظاً). ثم أن يتعشى وأن يشرب كأساً من الخمر. وبعد الهويست، ولاسيما إذا كان الربح قليلاً (كار الربح الكثير كريهاً عليه). كان إيفان إيليتش ينام وهو في استعداد مزاجي بالغ السعادة.

هكذا كانت تمرّ حياتهما؛ كانا يريان نخبة المجتمع، ويستقبلان شخصيات هامة، وشباباً.

كان الأب والأم والبنت متفقّين كل الاتفاق فيما بينهم حول اختيار علاقاتهم، وحتى دون أن يتشاوروا بهذا الصدد، كانوا يستبعدون أولئك الأقرباء الفقراء، وأولئك الأصدقاء الرقيقي الحال الذين يُهرعون إلى صالونهم المزدان بالأواني الصينية، وهم ممتلئون باللطف. وسرعان ما كفّ هؤلاء الناس الصغار عن تراكضهم إليهم، ولم يعد لآل غولوفين من علاقة سوى علاقتهم بنخبة مختارة. كان الشباب يغزلون «ليزا» وأخذ «بيتر بشتييف» ابن «دمتري بيتريشييف» الوارث الوحيد لثروته، وقاضي التحقيق، يغازلها بمثابرة شديدة حتى إن إيفان إيليتش تشاور هو وبراسكوفيا فيودوروفنا: ألم يحن الوقت لتنظيم نزهات بالعربات أو عرضٍ للهواة؟

هكذا كانوا يعيشون. كان كل شيء يجري بانتظام ويسير سيراً حسناً.

Twitter: @ketab_n

كان الجميع في صحةٍ حسنة. ولا يمكننا في الواقع أن نعدّ مرضاً ذلك المذاق الغريب الذي كان يحسّ به أحياناً إيفان إيليتش في فمه وذلك الضيق الذي يشعر به، كما يقول، في الجهة اليسرى من صدره.

لكن كان يقع أن هذا الإحساس بالضيق يغدو أشد إجهاداً، لم يكن ألماً بعد لكنه كان ثقلاً مستمراً، وساء مزاج إيفان إيليتش. وسوء المزاج هذا الذي لم يكفّ عن التنامي، ما لبث أن كدّر الحياة السائغة والسهلة التي كانت تحياها أسرةُ «غولوفين». غدت المخاصمات بين الزوج والمرأة أكثر تكراراً، ولم يكن التواصل إلى إنقاذ المظاهر على الأقل ممكناً إلا بشقّ النفس. وتكررت المشاحنات ولم يبق بينهما سوى جزيرات صغيرة لا يقربها الزوجان إلا في لحظات قصيرة من الراحة. أخذت براسكوفيا فيودوروفنا تقول، ولا يخلو ذلك من الحق الآن، إن زوجها ذو طبعٍ صعب. كانت تضخم الأشياء على عادتها وتقول: إن طبعه كان كريهاً دائماً وأنها كان لابد من طيبتها لتتحمّله طوال عشرين عاماً. والحق أنه هو الذي أصبح الآن يشرع في المشاحنات. كان يبدأ تذمّره قبل أن يجلس إلى المائدة، وغالباً قبل أن يتناول حساءه. فتارةً من صحن مثلومٍ، وتارة أخرى من طبقٍ يبدو له سيئاً، وتارةً من ابنه الذي وضع مرفقيه على المائدة، وتارة أخرى من زينة شعر ابنته. كان يتصدّى دائماً لبراسكوفيا فيودوروفنا. كانت هذه تردّ عليه في البدء وتقول له أشياء غير مستحبّة؛ لكنه استشاط غضباً مرة أو مرتين في بداية الغداء إلى حد أدركت معه أن ذلك نتيجة حالة مرضية أثارها الطعام، فتمالكت نفسها: لم تعد تجيب واكتفت بتعجيل الغداء. كانت

Twitter: @ketab_n

تعتز اعتزازاً عظيماً بصبرها. وإذ قرّرت أن لزوجها طبعاً كريهاً وأنه سبّب شقاء حياتها، تحنّنت على مصيرها هي. وكانت كلما أشفقت على ذاتها ازدادت كرهاً لزوجها. فأخذت تتمنى موته، لكن هذا الموت كان سيحرمها من مرتّبات إيفان إيليتش، فتزداد حنقاً. كانت تعدّ نفسها شقية إلى حد هائل لأن موت زوجها لم يكن ليخلّصها. كانت تغتاظ وتخفي غيظها فلا يجعله ذلك إلا أشدّ لذعاً.

بعد مشاحنة بدا إيفان إيليتش أثناءها ظالماً شديد الظلم، وأقرّ بعدها، عند الاستيضاح الذي تلا المشاحنة، أنه أصبح في الواقع سريع التهيّج، وأن ذلك مَرَضيّ، قالت له إن عليه أن يعالج نفسه لأنه مريض، وطلبت إليه أن يذهب ويستشير طبيباً شهيراً.

وقصد الطبيب. جرى كل شيء كما كان يتوقّع وكما يجري ذلك دائماً. انتظار طويل، ملامح رسمية، متصنّعة، يعرفها جيداً، فكذلك كان يتصرّف في المحكمة؛ كشف الصدر، أسئلة اعتيادية، تتطلب بعض الأجوبة المحدّدة سلفاً والتي لا جدوى منها، مظهر الوقار المتعالي الذي يعني: أنتم ما عليكم إلا أن تطيعونا وسنسوّي كل شيء؛ نحن نعلم جيداً، دون أدنى شك، كيف نسوّي الأشياء، بالطريقة نفسها دائماً، مهما يكن المريض. كل شيء كان يجري تماماً كما يجري في المحكمة. فكما أنه كان يمثّل ملهاةً أمام المتهمين، كان الطبيب هنا يمثّلها أمامه.

قال الطبيب:

– هذا وذاك يدلاّن على أنك مصاب بهذا الشيء وذاك، لكن في

Twitter: @ketab_n

الحالة لا يُثبت فيها التحليل ذلك؛ ينبغي الافتراض أنك مصاب بهذا الشيء وذاك، وإذا افترضنا... حينئذٍ... الخ.

لم يكن إيفان إيليتش مشغولاً إلا بمسألة واحدة: هل كان في ذلك خطرٌ أم لا؟ لكن الطبيب تجاهل هذه المسألة التي في غير مكانها، فهي من وجهة نظره مسألةٌ لا جدوى منها ولا مجال لبحثها: كان المقصود فقط أن يزن الاحتمالات: كلية عائمة، نزلة مزمنة، زائدة دودية... لم تكن حياة إيفان إيليتش موضع الخلاف، بل كان المقصود هو النقاش بين الكلية العائمة والزائدة الدودية. لكن الطبيب حسم النقاش ببراعة لمصلحة الزائدة، مشيراً من ناحية أخرى أن تحليل البول يمكن أن يقدّم معطيات جديدة وأن القضية في هذه الحالة سيُعاد النظر فيها. كان ذلك العملية نفسها تماماً، كلمة كلمة، العملية التي نفّذها إيفان إيليتش آلاف المرات ببراعة عظيمة على المتهمين الذين كانوا يمثلون أمامه. لم تكن خلاصة الطبيب أقل تألقاً، ورمى المتّهم، من فوق نظارته، بنظرة منتصرة، فرحةٍ تقريباً. استنتج إيفان إيليتش من هذه الخلاصة أن الأمور سيئة. بالنسبة إلى الدكتور، وبالنسبة إلى جميع الناس ربما، لم يكن لذلك من أهمية، أما بالنسبة إليه شخصياً فالأمور سيئة جداً. وهذا الاستنتاج أذهل إيفان إيليتش بألم وأيقظ فيه شعوراً عميقاً بالشفقة على نفسه وبالكره للدكتور الذي لم يكترث لشيء بهذه الأهمية.

لكنه لم يقل شيئاً؛ نهض ووضع المال على الطاولة، وتلفّظ وهو يتنهّد:

- نحن المرضى، غالباً ما نطرح عليكم أسئلة ناشزة... ومع ذلك، هل هذا المرض خطيرٌ أم لا؟

Twitter: @ketab_n

رماه الدكتور بنظرة عبر نظارته وكأنه يقول: «أيها المتهم، إذا لم تلزم حدود الأسئلة التي نطرحها عليك، فسوف أُضطر إلى إخراجك من صالة الجلسات». قال الطبيب:

قلتُ لك ما رأيتُ قوله ضرورياً ومناسباً. وسوف يكمّل التحليلُ فحصي.

حيّاه الدكتور.

خرج إيفان إيليتش ببطء، وصعد بحزن زلاجته وأمر بإيصاله المنزل. وطوال الطريق كلها لم يكفّ عن التفكير في كلمات الطبيب، جاهداً في ترجمة العبارات العلمية المعقدة والغامضة، إلى لغة سهلة لكي يعثر فيها على الجواب عن سؤاله: هل حالتي خطيرة، خطيرةٌ جداً، أو أنها ليست شيئاً حتى الآن؟ وبدا له أن كلمات الدكتور كانت تعني أن حالته سيئة جداً. بدت الشوارع حزينة لإيفان إيليتش؛ كانت العربات حزينة، والبيوت والمارّة والدكاكين حزينة. وبدا الألم الذي كان يستشعره، ذلك الألم البهيم، العنيد، الذي لم يتركه لحظةً، بدا له أنه يتّخذ، من جرّاء جُمل الدكتور الملتبسة، دلالةً جديدة، أكثر جدّية. أخذ إيفان إيليتش الآن يلاحظ هذا الألم بشعور جديد، مؤلم.

روى كل شيء لامرأته عند عودته إلى المنزل. أصغت إليه هذه؛ لكن ابنتها دخلت، في منتصف روايته، وقبّعتها على رأسها: كانت ستخرج مع أمها. جلست وبذلت وسعها لتصغي إلى هذه القصة المملّة، لكنها لم تطق صبراً، لا هي ولا أمها أيضاً.

Twitter: @ketab_n

قالت هذه لزوجها:

- حسناً! أنا مسرورة جداً، وعليك الآن أن تأخذ الدواء بانتظام. أعطني الوصفة، سوف أُرسل جيراسيم إلى الصيدلية.

وخرجت ترتدي ثيابها.

تكلم دون توقف مدة بقائها في الغرفة، تنفس الصعداء عندما خرجت. قال:

- حسناً! لعل ذلك مازال شيئاً غير ذي بال، في الواقع.

تناول الأدوية، ونفّذ تعليمات الدكتور التي عدّلها على كل حال بحسب نتائج تحليل البول. لكن حدث حينئذ التباس في هذا التحليل وفي التدابير التي يجب أن تتلوها. إذ لم يكن ممكناً بلوغ الدكتور نفسه؛ وبدا أنه قد نُفِّذ شيء آخر غير ما أمر به الدكتور، أو أنه أخطأ، أو أنه لم يقل كلّ شيء.

مهما كان الأمر، فقد أخذ إيفان إيليتش ينفّذ بدقة جميع التعليمات ووجد في ذلك بعض العزاء، في الآونة الأولى.

كان همّ إيفان إيليتش الرئيسي، منذ زيارته الدكتور، هو أن يتبع بدقة توصياته المتعلقة بالصحة والأدوية وأن يراقب بإمعانٍ ألمه وجميع وظائف عضويّته. تركزت اهتمامات إيفان إيليتش في الأمراض والصحة: كان إذا جرى الكلام بحضرته عن المرضى أو الموتى أو الذين شفوا من أمراضهم، ولاسيما عندما يجري الكلام على مرضٍ

Twitter: @ketab_n

شبيه بمرضه، يصيخ السمع وهو يجهد في إخفاء انفعاله، فيسأل ويربط على الفور ما يُقال بمرضه هو.

لم يتناقص الألم؛ لكن إيفان إيليتش كان يقنع نفسه بأنه يتحسّن. وتوصل إلى الكذب على نفسه، إلى حدّ إنه صار لا يضطرب لشيء. لكنه ما إن يحسّ بما يزعج في البيت أو في الوظيفة، أو في الهويست إذا لم يحالفه الحظ حتى يتفاقم وضعه على الفور. كان يتحمل قديماً هذه المتاعب قائلاً في نفسه إنه سيسويّ الأشياء ويقاوم وينجح، ويفوز فوزاً ساحقاً في اللعب، أما الآن فإن أقل مضايقة كان تهزّه هزّاً وتغرقه في الأسى. كان يقول في نفسه: «كنت في طور الإبلال من مرضي؛ وأخذت الأدوية تفعل فعلها، وها إن هذه المصيبة الملعونة أو هذه المزعجات!..» فتثور ثائرتُه على المتاعب وعلى الناس الذين يسبّبون له هذه المزعجات ويقتلونه؛ ومع أنه أحسّ أن هذا الغضب كان يقتله فإنه لم يستطع مقاومته. كان جديراً به، كما يبدو، أن يرى بوضوح أن هذا السخط على الظروف وعلى الناس يعزّز مرضه وأن عليه، بالتالي، ألا يُعير المتاعب التي تطرأ أي انتباه؛ لكنه كان يحاكم بالضبط ويراقب بانتباه كل ما يمكن أن يشوّش هذا الهدوء، وكانت أقل معاكسة تثير حنقه. وما فاقم من حالته أيضاً قراءة كتب الطب وزيارة الأطباء. كان مرضه يزداد سوءاً بانتظام شديد حتى إنه توصل إلى الكذب على نفسه عندما كان يقارن بين يوم وآخر: إذ يبدو الفرق حينئذ طفيفاً. لكنه عندما كان يستشير الأطباء كان يبدو له أن حالته تزداد سوءاً، بل وبسرعة كبيرة، وبالرغم من ذلك، لم يكفّ عن استشارة الأطباء.

في أثناء الشهر نفسه، قصد طبيباً شهيراً آخر، قال له الشيء نفسه

Twitter: @ketab_n

الذي قاله الطبيب الشهير الأول، لكنه طرح الأسئلة على نحو مختلف. وهذه الاستشارة عزّزت تعزيزاً شكوك إيفان إيليتش ومخاوفه. حدّد صديقُ أحد أصدقائه، وهو طبيبٌ ممتاز، مرضه على نحو مختلف، لكنه، وإن وعده بالشفاء، إلا أنه شوّشه أكثر بأسئلته وافتراضاته وزاد من شكوكه وحدّد الطبيب التجانسيُّ مرضه أيضاً بطريقة أخرى وأعطاه دواءً تناوله مدّة أسبوع سراً عن الجميع. لكن بعد مضي أسبوع لم يشعر بأي تحسّن، وفقد الثقة في العلاج القديم وفي هذه الطريقة الجديدة، فأحسّ بأن عزمه قد هُدَّ أكثر من ذي قبل. وذات يوم حدّثته سيدة عن الشفاء الذي تحدثه الأيقونات. وفاجأ إيفان إيليتش نفسه وهو يصغي إليها بانتباه ويتحقق من حقيقة الحدث. رُوِّع من ذلك وتساءل... «هل تدنّى ذكائي إلى هذه الدرجة؟ كل ذلك حماقات! ينبغي ألا نستسلم للخوف، لكن بما أنني اخترتُ طبيباً فينبغي أن أقتصر على علاجه. وهذا ما سأصنعه منذ الآن. انتهى الأمر الآن. لن أفكر في ذلك بعد الآن وسأتّبع بدقة علاجاً وحيداً. وسأرى فيما بعد. كفى تردّداً!».

كان سهلاً أن يقول ذلك لكن كان مستحيلاً أن يحقّقه. لم يتخلَّ عنه الوجعُ في جنبه. وبدا الوجع كأنه قد غدا أشد حدّة وإرهاقاً؛ وغدا المذاقُ الذي يحسّه في فمه أشد غرابة، وخُيّل إليه أن فمه تفوح منه رائحةٌ أنتنُ: وانحطت قواه وتناقصت شهوته إلى الطعام. كان من غير الممكن أن يُخطئ في ذلك: كان يجري فيه شيء رهيب، شيء جديد أهمُّ من كل ما وقع حتى الآن لإيفان إيليتش. وكان وحده يعلم ذلك؛ أما الذين كانوا يحيطون به فلم يكونوا يفهمون ذلك أو لم يكونوا يريدون أن يفهموه، وكانوا يتصوّرون أن كل شيء يسير في العالم كما كان يسير في الماضي. وهذا ما كان يؤلم إيفان إيليتش أكثر من أي شيء آخر.

Twitter: @ketab_n

كانت أسرته وزوجته وابنته جد منهمكين في موسم الحياة المدنية فلم يفهموا شيئاً، كان يرى ذلك، وكانوا يغضبون حين يرونه شديد التطلّب والحزن، وكأن ذلك من غلطه. كان يستشف أنه يضايقهم وإن كانوا يجهدون في إخفاء ذلك، وأن امرأته اتخذت إزاء مرضه قاعدة للسلوك تراعيها مهما قال أو فعل ويتجلى موقفها كالآتي:

كانت تقول لأصدقائها: «تعلمون أن إيفان إيليتش عاجز عن المتابعة الدقيقة للعلاج الموصوف، كما يفعل سائر الناس، فهو يتناول اليوم الدواء ويأكل ما أمر به الطبيب وينام؛ أما في اليوم التالي فهو ينسى أن يتناول دواءه، إذا لم أسهر على ذلك، ويأكل سمك الحَنَش (وهو ممنوع عليه) ويظل يلعب بالورق حتى الواحدة صباحاً».

فيردّ إيفان إيليتش:

– متى وقع لي ذلك؟ مرة واحدة، عند «بيير إيفانوفتش».

– مالك! ومع «شيبيك»!

– لم أكن أستطيع النوم لشدّة الألم.

– هناك دائماً، بالطبع، سببٌ ما. ولكنك لن تشفى أبداً هكذا وأنت تعذّبنا.

كان موقف براسكوفيا فيودوروفنا إزاء مرض زوجها يتلخّص في أن تُعلن للجميع، ولإيفان إيليتش نفسه، أن مسؤولية هذا المرض إنما تقع عليه، وأن هذا المرض ما هو إلا واحد من تلك المكدّرات العديدة

Twitter: @ketab_n

التي يسبّبها لامرأته. وكان إيفان إيليتش يرى أنها تتصرف هكذا دون أن تريد، لكنه لم يكن يشعر من جرّاء ذلك بأنه أحسن.

في المحكمة، كان إيفان إيليتش يلاحظ، أو خُيِّل إليه أنه يلاحظ موقفاً لا يقلّ غرابة إزاءه: فتارةً يبدو له أن الناس يمعنون النظر إليه وكأنه رجل سيترك مركزه عمّا قريب؛ وتارة أخرى يأخذ أصدقاؤه في السخرية من مخاوفه وكأن ذلك الشيء الفظيع والمروّع، ذلك الشيء الغريب الذي استقرّ فيه، الذي ينخره أبداً والذي يجرّه جرّاً إلى حيث لا يدري، كأن ذلك الشيء لم يكن سوى موضوع مسلّ للمزح. وكان «شوارتز» على وجه الخصوص هو الذي يثير ثائرته، «شوارتز». الذي كان يذكّره، بهيئته المرحة، وحيويته، ومظهره اللائق، ما كأنه هو نفسه قبل عشر سنوات.

يأتي الأصدقاء ليلعبوا جولةً بالورق، فيجلسون إلى مائدة اللعب، ويُوزَّع الورق؛ يجمع إيفان إيليتش أوراق الديناري: معه سبع. قال الشريك:

– بلا أوراق رابحة.

ويعلن عن ورقتين ديناري.

ماذا يلزمه أيضاً؟ ينبغي أن يشعر أنه مرحٌ، مفعمٌ بالطاقة: إنه فوزٌ ساحق. لكن إيفان إيليتش يحسّ فجأة بذلك الألم العُضال، ذلك المذاق الشنيع في فمه. ويبدو له أن من الغباء أن يبتهج بفوزه في الوضع الذي هو فيه.

Twitter: @ketab_n

وينظر إلى ميشيل ميخايلوفتش، شريكه، الذي يضرب المائدة بيد صلبة، ويمتنع بأدب وتسامح عن لمّ المحصول، لكنه يدفعه نحو إيفان إيليتش ليتيح له لذّة تناوله دون أن يتعب، بل دون أن يكلّف نفسه مدَّ يده. ليفكّر إيفان إيليتش: «هل يتصوّر أنني بلغت من الضعف حداً لا أقدر معه على مدّ يدي». وينسى أن يعدّ الأوراق الرابحة، ويقاطع شريكه ويفوته الفوز بضربات ثلاث. الأسوأ أن نرى كم تألّم ميشيل ميخايلوفتش من ذلك بينما ظلَّ هو غير مبالٍ. والرهيب أن يفكّر في سبب هذه اللامبالاة.

يلاحظ الجميع أنه يتألم فيقولون له:

- إن كنتَ متعباً فنحن نستطيع أن نوقف اللعب. استرح.

يستريح؟ لا، إنه ليس متعباً البتّة. وسوف تُنهى اللعبة. الجميع مقطّبون، صامتون. ويدرك إيفان إيليتش أنه هو الذي يشيع ذلك فيهم، لكنه لا يستطيع أن يُبدّد هذا الجو الكئيب. فيتعشّون ويتركونه. ويبقى إيفان إيليتش وحده، مع هذا الشعور الواضح وهو أن حياته قد ذبلت وأنه يسمّم حياةَ الآخرين وأن السم ينفذ إليه على نحو يزداد عمقاً.

عليه أن يمضي إلى السرير بهذا الشعور وبذلك الألم الجسدي، وبرعبه، وأن يظل، في الغالب، دون أن ينام، جزءاً كبيراً من الليل. وعليه، في صباح اليوم التالي، أن ينهض من جديد، وأن يرتدي ثيابه، وأن يقصد المحكمة ويتكلم ويكتب، أو أن يبقى في بيته ليراقب جريان الساعات التي كلٌّ ساعةٍ منها عذاب. كان مضطراً أن يعيش هكذا على حافة الهاوية، وحيداً تماماً، دون أي كائن يفهمه ويرثي له.

Twitter: @ketab_n

دام ذلك شهراً، شهرين. وقبل رأس السنة، زارهم أخو براسكوفيا فيودوروفنا الذي نزل عندهم لبضعة أيام. كان إيفان إيليتش في المحكمة وامرأته في السوق تتبضّع. وعندما دخل مكتبه وجد أخا زوجته، وهو رجل متين البنية، دموي المزاج، يفك حقائبه. ولدى سماعه خطوات إيفان إيليتش، رفع رأسه ونظر إليه لحظة دون أن يفوه بكلمة. كشفت هذه النظرةُ الوجيزة كلَّ شيء لإيفان إيليتش. فتح أخو زوجته فمه، لكنه حَبَس التعجّب الذي كان سينبعث من شفتيه. هذه الحركة أكّدت النظرة.

- مالكَ! هل تغيرت؟

- نعم... قليلا.

وبالرغم من كل ما فعله بعد ذلك إيفان إيليتش ليسوق الحديث إلى هيئته، فإن أخا زوجته كان يتملّص من أسئلته. عادت براسكوفيا فيودوروفنا فلحق بها أخوها. أغلق إيليتش الباب بالمفتاح وأخذ يتفرّس في نفسه، في المرآة، يتفرّس في وجهه كاملاً أولاً، ثم في صفحة وجهه. وتناول إحدى صوره التي تصوّرها مع زوجته وقارنها بوجهه في المرآة. كان الفرقُ عظيماً. ثم عرّى ذراعيه حتى المرفقين، وفحصهما، وردّ كمّيه، وجلس على الديوان، وغدا أكثر تجهّماً من الليل.

قال أخيراً:

Twitter: @ketab_n

– لا ينبغي ذلك، لا ينبغي ذلك!

نهض فجأة، واقترب من الطاولة. وفتح ملفّاً وأخذ يقرأ، لكنه لم يستطع أن يستمر في قراءته. فتح الباب ودخل غرفة الاستقبال. كان باب الصالون مغلقاً؛ اقترب منه على رؤوس أصابعه وأصغى.

كانت براسكوفيا فيودوروفنا تقول:

– كلا، أنت تبالغ.

– أنا، أنا أبالغ؟ ألا ترين أنه ميت؟ انظري إلى عينيه؛ إنهما منطفئتان. لكن ماذا أصابه؟

– لا أحد يعرف. قال نيكولاييف (وكان هذا طبيباً آخر أيضاً) شيئاً لم أفهمه. وقال ليتسيتيتزكي (وكان طبيباً مشهوراً) العكس...

عاد إيفان إيليتش إلى غرفته، واستلقى وأخذ يفكّر: «الكلية، الكلية العائمة». تذكّر كل ما شرحه له الأطباء: كيف انفصلت وكيف أخذت تعوم. وحاول بجهد خياله أن يمسك بها، أن يبقيها في موضعها، أن يثبتها: لا يلزم سوى القليل من أجل ذلك، كما بدا له. قال في نفسه: سوف أذهب لأرى بيير بيتروفتش (كان زميلاً صديقُه طبيب). قرع الجرس وأمر بإعداد العربة وتهيّأ للخروج.

سألته امرأته وقد عبّر وجهها تعبيراً حزيناً هادئاً على نحو فريدٍ غير مألوف:

– أين تذهب، يا جان؟

Twitter: @ketab_n

غاظه هذا الطبيب الذي لم يتعوّده.

- سأذهب إلى منزل بيير بيتروفتش.

قصد هذا الزميل الذي صديقُه طبيب، وذهبا معاً إلى ذلك الطبيب. وجداه في منزله وتحدّثا طويلاً.

وحين فحص بالتفصيل من وجهة النظر التشريحية والفيزيولوجية ما كان يجري فيه بحسب رأي الطبيب، فهم.

هناك شيء صغير، شيء صغير جداً في زائدته. لكن يمكن تسوية ذلك. ينبغي أن تُدعِّم طاقةُ عضوٍ، ويُنقَص نشاطُ عضوٍ آخر، وحينئذ تُحَلُّ المشكلة ويعود كلٌّ شيء إلى نصابه. تأخّر قليلاً عن الغداء. أكل، وتحدّث بمرح، لكنه لبث طويلاً و لم يستطع أن يزمع على البدء بالعمل. وأخيراً مضى إلى مكتبه وشرع على الفور في العمل. أخذ يقرأ الملف ويدرسه، لكن الشعور بأن له قضية هامة تمسّه عن كثب، سيعكف عليها بعد ذلك، هذا الشعور لم يُفارقه. وعندما انتهى من عمله، تذكّر أن هذه القضية الشخصية هي حالة زائدته. لكنه لم يَجْر وراء هذه الفكرة وذهب إلى الصالون لتناول الشاي كان ثمّة مدعوّون: كانوا يتحدّثون، ويعزفون على البيانو، ويغنّون؛ وكان قاضي التحقيق، الخطيب المنتظر، هنا أيضاً. قضى إيفان إيليتش، كما لاحظت امرأته، هذه الأمسية، بمرحٍ أكثر من عادته؛ لكنه لم ينس لحظةً واحدة أن عليه التفكير جدياً بزائدته. وفي الحادية عشرة استأذن المدعوين وانسحب إلى غرفته. كان ينام وحده منذ مرضه، في غرفة صغيرة قرب مكتبه. خلع ثيابه وتناول روايةً لزولا؛ لكنه لم يقرأها. أخذ يفكّر. كان شفاء

Twitter: @ketab_n

الزائدة الذي شدّ ما أمّله يتمّ في خياله، بالامتصاص والتمثّل، فيعود عملُ أعضائه إلى سابق عهده. قال في نفسه: نعم، هذه هي الحال بعينها، لكن يجب أن تمدّ يد العون إلى الطبيعة». تذكّر الدواء الذي ينبغي أن يأخذه، فنهض وأخذه واستلقى على ظهره، وهو يبذل جهده في مراقبة آثاره السعيدة ومقاومته للداء. «يكفي أن أتناوله بانتظام وأن أتحاشى كل تأثير مؤذٍ؛ أحسّ أني تحسنتُ قليلاً، بل كثيراً». وجسّ جانبه، فلم يشعر بأي ألم تحت يده. «نعم، إني لا أحسّ بشيء؛ تحسنت الأمور كثيراً، في الحقيقة». أطفأ الشمعة، وانقلب على جانبه. «نعم، إن ذلك يُمتص، وكل شيء ينتظم.

لكنه عاد فأحسّ فجأة بذلك الألم المعود، القديم، المألوف، الخفيّ، النافذ، العنيد، المقيم، الجسيم. فأصابه غثيانٌ ودار رأسُه. قال: «يا إلهي! يا إلهي! هوذا الألمُ من جديد، ولن يكفّ أبداً!» وعلى حين غرة، تمثّل له الأمر بمظهر مختلف تماماً. فكّر: «الكلية، الزائدة، كلا، الأمر لا يتعلّق بها، بل بالحياة... وبالموت. نعم كنت أحيا، وحياتي تمضي؛ إنها تمضي، ولا يمكنني أن أستبقيها. نعم، لماذا أكذب على نفسي! أليس واضحاً للناس جميعاً ولي أيضاً أنني أموت. وأن المسألة مسألةُ أسابيع، أيام... وربما في هذه اللحظة بالذات؟ كان النورُ قبل ذلك، والآن جاءت الظلماتُ. كنتُ هنا؛ والآن إلى أين أنا ذاهب؟ إلى أين؟» تملكه البرد، وتوقّف نفسه. ولم يعد يسمع سوى دقّات قلبه.

«أنا لن أكون، فما الذي سيكون حينئذ؟ لن يكون شيء. لكن أين سأكون حين تنقضي كينونتي؟ أهو الموتُ حقاً؟ لا، لا أريد». استوى

Twitter: @ketab_n

جالساً وأراد أن يشعل شمعته، وتلمّسها بيدٍ مرتجفة، فقلب الشمعدان وارتمى على وسائده. «لماذا؟ وما أهمية ذلك!» كذلك كان يفكّر وعيناه محدّقتان في العتمة. الموت. نعم، هو الموت. وجميعهم لا يعلمون ذلك، لا يريدون أن يعلموه. إنهم يلعبون (كان يسمع من خلال الباب دويّ أصواتهم وأغانيهم). سيّان عندهم، لكنهم سيموتون أيضاً يا للأغبياء! أنا ذاهب قبلهم، وسيلحقون بي. سيموتون جميعاً أيضاً. لكنهم يتهجون الآن، فيا لهم من حيوانات بلهاء!» «خنقه الغيظ. كان ثقلٌ هائلٌ يسحقه. وليس ممكناً أن يُقدَّر على الجميع معرفة هذا الرعب الفظيع!» فنهض.

هناك شيءٌ لا يسير سيراً حسناً. يجب أن أهدأ وأن أتذكر جيداً كيف وقع ذلك. وأخذ يفكر.

«نعم، بدءُ المرض. صدمتُ علاّقة النافذة. لكن لم يتغيّر شيء: ظللتُ كما كنت. ثم آلمني ذلك قليلاً، وبعد ذلك اشتدّ الألمُ. ثم جاءت الآلام، والمزاج السيئ، والقلق، ثم الآلام أيضاً. واقتربتُ شيئاً فشيئاً من الهاوية. تضاءلت قواي. وتزايد قربي من تلك الهاوية. لم يبق في عيني من ضوء إنه الموت وأنا أفكر في الزائدة. أنا أفكر في إصلاحها. وهذا هو الموت. أهو الموتُ حقاً؟».

غمره الخوف مرة أخرى. أخذ يلهث. انحنى وفتّش عن علبة الكبريت، وصدم بمرفقه، طاولة الليل. كانت تضايقه وأوجعته الصدمة. وفي حركة غضبى دفعها وقلبها. وارتمى على ظهره وهو يائس، يلهث، منتظراً الموت.

Twitter: @ketab_n

انسحب الزوّار في هذه الآونة؛ كانت براسكوفيا فيودوروفنا تشيّعهم. سمعت صوت الوقعة ودخلت.

– ما بكَ؟

– لا شيء. قلبتُ بالمصادفةُ...

خرجت وعادت بشمعة. كان مستلقياً على ظهره وهو ينفخ نفخاً صاخباً، سريعاً، مثل رجل يركض فرسخاً. حدّد النظر إليها.

– ما بكَ، جان؟

– لا... لاشيء. قلبتُ...

وفكّر:

«ما جدوى الكلام! فلن تفهم».

والحقيقة أنها لم تفهم. رفعت الشمعة، وأشعلتها وانصرفت على عجل: كان عليها أن ترافق صديقةً لها. وعندما عادت وجدته في الوضع نفسه، وعيناه في السقف.

– أتحسّ أن حالتك أسوأ؟

– نعم.

هزّت رأسها وجلست للحظة.

Twitter: @ketab_n

- أتعلم، جان؟ ألا يجب علينا أن نستدعي ليشيتسكي؟

كان ذلك يعني استدعاء الطبيب الشهير دون النظر إلى النفقة.

ابتسم ابتسامة مريرة وقال:

- لا.

بقيت جالسةً لحظة، ثم نهضت وقبّلته في جبينه.

في هذه اللحظة، كان يكرهها بكل قوى نفسه وتحامل على نفسه لكي لا يصدّها عنه.

- ليلة سعيدة! ربما أفلحتَ في أن تنام.

- نعم.

- ٦ -

رأى إيفان إيليتش أنه كان يموت فكان يائساً. كان يعلم في أعماق نفسه أنه كان يموت: لكنه لم يتوصل إلى أن يألف هذه الفكرة، بل إنه لم يكن يفهمها. كان عاجزاً عن فهمها.

إن القياس الذي تعلّمه في كتاب المنطق الذي ألفه «كيوزيوتر»[٨]:

٨- أستاذ المنطق في برلين ١٧٦٦ - ١٨١٩.

Twitter: @ketab_n

كايوس إنسان – الناس فانون – وإذن كايوس فانٍ. هذه المحاكمة بدت له صحيحة إن تعلّقت بكايوس لا بشخصه. كان كايوسٍ إنساناً على العموم، ولابد من أن يموت. لكنه ليس كايوس، وليس إنساناً، على العموم؛ إنه مستقل، مستقلّ تماماً عن الكائنات الأخرى: كان «فانيا» مع أمه وأبيه، مع «ميتيا» و«فولوديا» مع خادمته، ومع الحوذي، ثم مع «كاتنكا»، مع الأفراح كلها، والمشقّات كلها، وحماسات الطفولة والصبا والشباب كلها. أكان كايوس يعرف رائحة تلك الكرة الجلدية المبرقشة التي أحبها فانيا حبّاً جماً؟ أكان كايوس يقبّل يد أمه مثل فانيا؟ أوَمن أجل كايوس كان حفيف تنورة أم فانيا الحريرية؟ فانيا؟ وهل كايوس هو الذي احتج في المدرسة بصدد المعجّنات؟ وهل أحبَّ مثل فانيا؟ وهل يمكنه أن يرأس جلسةً مثله؟

كايوس، في الواقع، فانٍ، ومن العدل أن يموت. أما أنا، فانيا، إيفان إيليتش، مع جميع أفكاري، وجميع مشاعري فشيء آخر تماماً. ومن المستحيل أن يكون لابد من موتي. ذلك جد فظيع. هكذا كان يحسّ.

«إن كان عليّ أن أموت مثل كايوس، فسأعلم ذلك جيداً، وسيقوله لي صوتي الداخلي. بيد أنه لم يقل لي قط شيئاً من هذا القبيل. فأنا وجميع أصدقائي نفهم جيداً أننا مختلفون جداً عن كايوس. وها أنا ذا الآن... هذا مستحيل، والأمر مع ذلك هكذا. كيف؟ كيف نفهم ذلك؟».

لم يكن بوسعه أن يفهم ذلك وسعى جهده إلى طرد هذه الفكرة عنه، باعتبارها فكرةً خاطئة، غير طبيعية، مرضيّة، وأن يُحلّ محلّها

Twitter: @ketab_n

أفكاراً أخرى، طبيعية وسليمة. لكن هذه الفكرة، أو بالأحرى هذا الواقع كان لا يلبث أن يعود لينتصب أمامه.

ولكي ينحّيه كان يستنجد بأفكارٍ أخرى على أمل أن يجد فيها سنداً له. كان يحاول أن يلجأ إلى تلك الحالة الفكرية التي كانت تخفي فيما مضى عن عينيه فكرة الموت. لكن، يا للغرابة! كل ما كان يخفي ويدمّر قديماً الشعور بالموت لم يعد له الآن ذلك السلطان. في الآونة الأخيرة، كان إيفان إيليتش معنيّاً على الخصوص بمحاولة استعادة تلك الحالة الفكرية التي كانت تستر عنه الموت. كان يقول تارة: «سأنصرف إلى عملي. كانت هذه حياتي في الماضي. فيمضي إلى المحكمة طارداً عنه بعيداً الشكوك والتردّدات. ويحادث زملاءه، ويجلس وهو يجيل في الجمهور نظرةً متأمّلة شاردة من جرّاء عادة قديمة، مستنداً بيديه الهزيلتين على ذراع مقعد من السنديان. ثم ينحني، كعادته، نحو معاونه، ويتبادل وإياه بعض الخواطر بصوتٍ خفيض، ويتناول الملف، ثم يرفع عينيه بغتةً ويستوي في مقعده. ويتلفّظ ببعض الكلمات وتبدأ الجلسة. لكن الألم في جنبه يبدأ فجأة عمله غير مبالٍ بالدعوى الجارية، الألم الخفي، العنيد ويحاول إيفان إيليتش جهده أن يصرف عنه فكره، لكنه يستمرّ في عمله، فيجيء وينتصب أمامه لينظر إليه. ويحسّ إيفان إيليتش أنه مشلول، وتنطفئ عيناه ويتساءل من جديد: «أليس من شيء حقيقي «غيره»؟... ويرى زملاؤه ومرؤوسوه بدهشة وحزن أنه هو، القاضي اللامع المحنّك يتشوّش ويرتكب أخطاء. فيستوي في مقعده من جديد ويحاول أن يسيطر على نفسه مُديراً الجلسة كما اتفق له إلى نهايتها، ويعود إلى بيته وبه شعور مؤلم بأن وظيفته كقاضٍ لا يمكنها أن تخفي عنه ما ودّ لو لم يره، وأن خدمته لا يمكنها أن تخلصه من

Twitter: @ketab_n

حضوره «هو»، والأسوأ أنه «هو» كان يصرفه عن عمله لا ليصنع شيئاً ما لكن لينظر إليه فقط، ليشخص إليه؛ ويتألم ألماً لا تعبير له، دون أن يفعل شيئاً على الإطلاق.

كان إيفان إيليتش، في مجهوده للخروج من هذه الحالة، يبحث عن تعزيات أخرى، عن شاشات أخرى؛ وهذه الشاشات تظهر عندما يدعوها، وتبدو للحظةٍ قصيرة كأنها تحميه، لكنها لا تلبث أن تغدو شفّافة، دون أن تختفي، وكأن الألم يمرّ خلالها وكأن لا شيء يمكن أن يخفيه.

كان يقع له، في هذه الآونة الأخيرة، أن يدخل الصالون الذي أثّثه، هذا الصالون الذي سقط فيه، والذي من أجله - صار يفكر في ذلك الآن بسخرية مريرة - من أجل تجهيزه ضحّى بحياته (ذلك أنه كان يعلم أن مرضه جاء من الضربة التي أصابته)، دخل ولاحظ شقّاً في خشب الطاولة الملبّك. بحث عن السبب واكتشف أن زخارف الألبوم البرونزية بارزة. فتناوله وكان عزيزاً عليه، وقد ركّبه بكثير من الحب، فاغتاظ من فوضى ابنته وصديقاتها: كان ممزّقاً والصور مقلوبة. فأعاد الصور بعناية إلى سابق نظامها وقوّم الزوايا النحاسية.

ثم خطر له أن ينقل هذه «التجهيزات» كلها مع ألبوماتها إلى ركنٍ آخر، قرب الأزهار. نادى الخادم، وجاءت امرأته وابنته لمساعدته؛ اختلفتا في الرأي وأبدتا اعتراضهما؛ ناقشهما وغضب. لكن كل شيء كان يسير سيراً حسناً، لأنه لم يكن يفكّر (فيه)، ولم يكن يراه.

لكن بينما كان ينقل الطاولة قالت له امرأته:

Twitter: @ketab_n

- انتظر، سيفعل الخدمُ ذلك. وستؤذي نفسك من جديد.

وبغتةً انبعث «هو» عبر الشاشة. رآه. انبعث أمامه، لكنه يرجو أن يختفي «هو» عما قريب. ويصغي إلى نفسه: كان الألم مقيماً يتأكلّه؛ حينئذ لم يعد بوسعه أن ينساه، ويشاهده بوضوح وهو ينظر إليه من فوق الأزهار. لم كلُّ ذلك؟

«هل فقدتُ الحياة حقاً، قرب هذه الستارة. وكأنني مقبل على هجوم؟ أممكن ذلك؟ ما أفظع ذلك وما أغباه! ذلك غير ممكن، لكنه كائن».

عاد إلى مكتبه. اضطجع وظلّ وحيداً «معه». وجهاً لوجه «معه». ولا عمل له «معه» إلا النظر «إليه»، بينما يتجمّد القلب.

- ٧ -

كيف حدث ذلك أثناء الشهر الثالث من مرض إيفان إيليتش، لا سبيل إلى معرفة ما حدث، لأنه تمّ شيئاً فشيئاً، لكنه طرأ، دون أن يلحظه أحد، وأن زوجته وابنته والخدم والأصدقاء والأطباء، وعلى وجه الخصوص إيفان إيليتش نفسه، قد أدركوا أن أهمية وضعه كلها بالنسبة إلى الآخرين تنحصر في معرفة متى يُخلي أخيراً مكانه، ومتى يخلّص الأحياء الضيق الذي يسببه حضوره، ويتخلص هو نفسه من أوجاعه.

Twitter: @ketab_n

كان نومُه يتناقص. أعطوه الأفيون وحقنوه بالمورفين. لكن ذلك لم يخفف ألمه. إن القلق الخفيّ الذي استشعره في حالة النعاس، في البدء، حمل إليه بجدّته شيئاً من التسرية، لكنه أصبح فيما بعد أشقّ من الألم.

هُيئت له وجباتٌ خاصة بحسب تعليمات الأطباء، لكن هذا الغذاء أخذ يبدو له تفهاً ومقززاً أكثر فأكثر.

ومن أجل خروجه لُجئ إلى طريقة خاصة وكان ذلك في كل مرة عذاباً له بسبب عدم الملاءمة والوسخ والرائحة وأيضاً لأنه كان لابد له ممّن يساعده.

لكنه استطاع بفضل هذا الأمر الشاق بالذات أن يجد شيئاً من العزاء.

كان «جيراسيم» هو الذي ينظف إناء إيفان إيليتش. وكان فلاحاً فتياً، نظيفاً، سليم الجسم، وقد سمن قليلاً في المدينة. كان مرحاً أبداً، مستوي المزاج. في البدء تضايق إيفان إيليتش من مظهر هذا الرجل النظيف، اللابس على الطريقة الروسية، الذي يقوم بمهمة مثيرة للاشمئزاز.

وذات يوم، وبينما هو يقوم عن كرسّيه ولا يجد القوة ليرفع بنطاله سقط على المقعد فأخذ ينظر برعب إلى ذراعيه العاريتين الهزيلتين اللتين ارتسمت عضلاتهما بوضوح. في هذه اللحظة، دخل جيراسيم بمشيته الرشيقة والقوية، ناشراً حوله رائحة جزمته الضخمة المدهونة والهواء البارد. كان عليه قميصٌ نظيف من القطن ووزرة من الكتان الشتوي؛

Twitter: @ketab_n

كان كمّاه المشمّرتان يكشفان عن ذراعين فتيتين وقويتين. اقترب من الكرسيّ المثقوب دون أن ينظر إلى إيفان إيليتش، كابحاً، على نحو ملحوظ، ولكي لا يجرح المريض، فرح الحياة الذي أضاء نظرته.

لفظ إيفان إيليتش بضعف:

- جيراسيم!

ارتعد جيراسيم وقد خشي أن يكون ارتكب خطيئة، وأدار بحركة سريعة، نحو المريض، وجهه الفتيّ، الطيّب والبسيط، الذي لم تكد لحيته تطلع.

- فيمَ يرغب سيدي؟

- هذا كريهٌ عليك، كما أظن. اعذرني. لم أستطع...

- ماذا تقول، يا سيدي؟ (لمعت عينا جيراسيم وكشف بابتسامته عن أسنانه البيضاء الفتية) لم لا أتحمل هذا الجهد؟ أنت مريض.

وأتمّ بيديه القويتين والحاذقتين عمله المعهود وخرج وهو يمشي برشاقة. وبعد خمس دقائق عاد بالخطوة نفسها.

ظلّ إيفان إيليتش في مقعده. وقال عندما أعاد جيراسيم الإناء الذي غُسل بنظافة:

- أرجوك، ساعدني. تعال (اقتربَ جيراسيم). أنهضني. يصعب علي الوقوف وحدي وقد صرفتُ ديمتري.

Twitter: @ketab_n

دنا جيراسيم منه، وأخذه بين ذراعيه القويتين، وأنهضه بمهارة وهدوء، وسنده بينما كان يرفع بنطاله باليد الأخرى؛ وبعد ذلك أراد إجلاسه. لكن إيفان إيليتش طلب منه أن يوصله إلى الأريكة. قاده جيراسيم دون جهد، حتى دون أن يلمسه، بل حمله إلى الأريكة حيث أجلسه.

- شكراً! ما أمهركَ وأنت تفعل هذا! أنت تفعل كل شيء... جيداً.

ابتسم جيراسيم مرة أخرى وأراد أن ينصرف. لكن إيفان إيليتش كان يحسّ بالطمأنينة معه حتى إنه لم يشأ أن يتركه.

- أتعلم! قرّب مني هذه الكرسي، أرجوك. لا، هذه، تحت رجليّ. أحسّ براحة أكبر عندما تُرفَع رجلاي.

حمل جيراسيم الكرسيّ، وحطّها بحركة دقيقة، دون أن يصدمها، ووضع فوقها قدمي إيفان إيليتش. بدا إيفان إيليتش أنه يحس بشيء من التخفّف عندما رفع جيراسم قدميه عالياً.

قال إيفان إيليتش:

الأمر أفضل عندما ترتفع قدماي. دسَّ تحتهما هذه الوسادة.

أطاعه جيراسيم. رفع من جديد قدميه ووضعهما على الوسادة. ومرة أخرى خُيّل إلى إيفان إيليتش أنه يشعر بشيء من الانفراج عندما كان جيراسيم يمسك قدميه؛ وعندما كان يخفضهما كانت أمورُه تسوء.

Twitter: @ketab_n

قال له:

- جيراسيم! هل أنت مشغول؟

أجاب جيراسيم الذي تعلّم كيف يخاطب أسياده:

- لا، سيدي.

- أما يزال لديك عملٌ؟

- لا شيء خاص. لقد أنهيت كلَّ شيء و لم يبق عليّ إلا أن أقطع الحطب للغد.

- إذن، أبقِ قدميّ أكثر ارتفاعاً... أتستطيع؟

- لَمَ لا؟

رفع جيراسيم قدميه، وبدا لإيفان إيليتش أنه لم يعد يحسّ بأي ألم، في هذا الوضع.

- والحطبُ للغد.

- لا تقلقْ، إذا تكرمتَ. فلدينا الوقت الكافي.

طلب إيفان إيليتش من جيراسيم أن يجلس ويمسك بقدميه، وتحدّث معه. شيءٌ غريبٌ جداً! خُيِّل إليه أن يتحسن مادام جيراسيم يسند قدميه.

Twitter: @ketab_n

بدءاً من هذا اليوم، كان إيفان إيليتش يدعو جيراسيم لكي يضع قدميه على كتفيه. كان يجب أن يتحدّث معه. وكان جيراسيم يصنع ذلك راضياً، بمهارة، وببساطة، وبطيبٍ يرقّ له قلبُ إيفان إيليتش. كانت القوة وامتلاء الحياة لدى الآخرين تغيظان إيفان إيليتش. لكن نشاط جيراسيم وطاقته لم يكونا ليسخطاه. على العكس كانا يهدّئانه.

كان الهم الرئيسي الذي يعذب إيفان إيليتش هو الكذب، الكذب الذي ارتضاه الجميع دون أن يُعرف السبب، وهو أنه مريضٌ لا مشرفٌ على الموت، وأن ليس عليه إلا أن يظل هادئاً يُعنى بنفسه لكي يُسوَّى كل شيء. بينما كان يعلم جيداً أنه مهما يفعلوا فلن يجني غير آلام أشد فظاعة، وغير الموت. كان هذا الكذب يعذّبه؛ كان يتألم من أنهم لم يشاؤوا أن يقبلوا بما يراه الجميع جيداً كما يراه هو نفسه، من أنهم يكذبون حين يجبرونه هو نفسه على مشاركتهم هذه الخدعة. هذا الكذب الذي كان يُرتكب تجاهه عشية موته، هذا الكذب الذي يُسقط ذلك الحدث الفظيع والجليل، حدث موته، إلى مستوى زياراتهم، وستائرهم، وأعشيتهم، كان شاقاً بشكل فظيع على إيفان إيليتش. شيءٌ غريب! كان في كثير من المرات، على وشك أن يصرخ بهم، وهم يرتّبون من حوله قصصهم الصغيرة: «كفى كذباً! أنتم تعلمون وأنا نفسي أعلم أنني أموت! كفّوا على الأقل عن كذبكم!» لكنه لم يجرؤ قط على التصرف هكذا. إن الحدث الفظيع لاحتضاره قد انحط على أيدي المحيطين به، - وكان يرى ذلك جيداً - إلى مستوى مجرد مكدّرٍ من المكدّرات، عدم لياقة تقريباً (كما يتصرفون تقريباً إزاء رجل تنبعث منه رائحةٌ خبيثة وهو يدخل صالوناً) وذلك باسم «التصحيح» نفسه الذي خدمه طوال حياته. كان يرى أن لا أحد يرأف به لأن لا أحد

Twitter: @ketab_n

يريد أن يفهم وضعه. كان جيراسيم وحده يفهم هذا الوضع ويرأف به. ولذلك كان إيفان إيليتش يشعر بالراحة عندما يمسك جيراسيم قدميه، طوال ليالٍ كاملة أحياناً، ويأبى أن يذهب لينام، قائلاً:

- لا تهتم بي، إيفان إيليتش: مايزال لدي متسّع من الوقت للنوم.

أو حين يضيق وهو يخاطبه فجأةً بضمير المفرد:

- لو لم تكن مريضاً لاختلف الأمر؛ لكن لم لا أساعدك الآن؟

جيراسيم وحده لم يكن يكذب: كان كل شيء يُظهر أنه وحده يفهم ما يجري ولا يرى من الضروري إخفاء ذلك، لكنه كان يرأف بسيده الضعيف، المهزول. بل لقد قال له مرة بكل صراحة عندما ألحّ إيفان إيليتش لكي ينصرف:

- سنموت جميعاً. فلماذا لا نكلّف أنفسنا بعض المشقة.

قال ذلك ليبيّن أن هذا العمل غير شاق لأنه يقوم به بالضبط إزاء محتضر، راجياً أن يفعل معه الناس كذلك إذا جاء دورُه.

وأكثر ما كان يعذّب إيفان إيليتش عدا هذا الكذب أو نتيجةً لهذا الكذب هو أن لا أحد كان يرثي له كما كان يحب. وفي بعض الأحيان، وبعد النوبات الطويلة المؤلمة، كان يود، - وإن كان مخجلاً الاعتراف بذلك أمام نفسه - قبل كل شيء أن يرثي الناس له كما يُرثى للطفل المريض. كان يشتهي أن يداعبه الناس، أن يعانقوه، أن يبكوا قربه كما يُداعب الأطفال ويُعزَّون. كان يعلم أنه عضوٌ في محكمة الاستئناف،

Twitter: @ketab_n

وأن لحيته دبّ إليها الشيبُ، وأن ما يريده من ثمَّ مستحيل. لكنه كان يشتهي ذلك كثيراً. وفي علاقته مع جيراسيم كان هناك شيءٌ يقارب ذلك. ولذلك كان حضور جيراسيم يهدّئه.

كان إيفان إيليتش يود لو يبكي، كان يود أن يلاطفه الناس وأن يبكوا على مصيره، لكن إذا بزميله «شيبيك» يدخل؛ وبدلاً من أن يبكي إيفان إيليتش وأن يرقّ، إذا به يتخذ هيئة جادة، صادقة، مستغرقة، ويعرض بجمود رأيه في قرار محكمة النقض ويصرّ بعناد. إن هذا الكذب الذي كان سائداً من حوله وفيه سمّم، أكثر من أي شيء آخر، أيام إيفان إيليتش الأخيرة.

- ٨ -

كان الوقت صباحاً. بديهيٌّ أن الوقت كان صباحاً، بما أن جيراسيم انصرف وأن بيير الخادم أطفأ الشموع وأزاح الستائر وشرع يرتّب الغرفة. وسواء أكان الوقت صباحاً أم مساء، أحداً أو جمعةً، فإن الأمر واحد عند إيفان إيليتش: كان هناك دائماً ذلك الألم الخفيّ الذي لا يُفارقه لحظة، وذلك الإحساس بأن حياته تهرب هرباً لا ردّ له، لكنها لم تُستنفد تماماً بعد، كان هناك دائماً ذلك الموت الرهيب البغيض الذي يقترب، الواقع الوحيد، والكذب ذاته دائماً... فما أهمية الأيام والأسابيع وساعات النهار في هذه الحالة إذن؟

- ألا يرغب سيّدي في الشاي؟

Twitter: @ketab_n

فكّر إيفان إيليتش: «إنه يرى من اللازم أن يتناول الأسيادُ الشاي صباحاً، إنه يستسيغ النظام».

واكتفى بالردّ:

- لا.

- ألا يرغب سيدي في الجلوس على الأريكة؟

وفكّر:

- إنه بحاجة إلى ترتيب الغرفة، وأنا أضايقه. أنا أمثّل الفوضى وسوء النظافة.

- وقال فقط:

- لا. اتركني.

بقي بيير أيضاً بعض الوقت. مدّ إيفان إيليتش يده، فبادر بيير إلى الدنوّ منه:

- فيم يرغب سيدي؟

- ساعتي.

أخذ بيير الساعة التي كانت في متناول يد إيفان إيليتش ومدّها إليه.

- الساعة الثامنة والنصف. لم ينهض أحدٌ بعد؟

Twitter: @ketab_n

– لا، يا سيدي. فلاديمير إيفانوفتش (كان هذا هو الابن) ذهب إلى المعهد، وبراسكوفيا فيودوروفنا أمرت أن نوقظها إذا ما طلبتها. هل ينبغي إيقاظها؟

– لا، لا فائدة من ذلك.

وفكّر: «ليتني أتناول الشاي»...

– احملْ لي شيئاً من الشاي.

اتجه بيير إلى الباب. خاف إيفان إيليتش أن يبقى وحده. «كيف أستبقيه؟ آه، نعم! الشراب!.

– بيير، دوائي!

«ولم لا؟ ربما أراحني» تناول الملعقة وشرب. «لا، لن يخفّف الشراب عني. حماقات، كذبٌ ذلك كله!» قال ذلك في نفسه بعد أن أحس بالمذاق التافه والمزعج الذي كان يعرفه جيداً. «لا، لم أعد أومن به! لكن لم هذا الألم؟ ليته يتوقف ولو للحظة!» تنهّد. عاد بيير إليه.

– لا، اذهب وائتني بالشاي.

خرج بيير. تنهد إيفان إيليتش بعد أن بقي وحده، لا من الألم (مع أن الألم كان مبرّحاً) بقدر ما كان من القلق. «الشيء نفسه دائماً، الشيء نفسه دائماً! هذه الأيام والليالي التي لا نهاية لها! ليت ذلك ينتهي بزمن أسرع؟ ماذا؟ الموت، الظلمات!... لا، لا! كل شيء ولا الموت!

Twitter: @ketab_n

«عندما عاد بيير بالشاي على طبق، نظر إليه إيفان إيليتش طويلاً نظرةً شاردة غير مدرك من هو وماذا يريد. اضطرب بيير لهذه النظرة، وعندما رأى إيفان إيليتش اضطراب بيير ثاب إلى رشده. وقال:

- نعم، الشاي... ممتاز. ضعه هنا، لكن ساعدني أولاً على الاغتسال ولبس قميصٍ نظيف.

أخذ إيفان إيليتش يغتسل. وببطء وبوقفات عديدة، غسل وجهه ويديه وأسنانه، وامتشط، ونظر إلى المرآة. خاف وهو يرى نفسه في المرآة عندما لاحظ كيف التصق شعره السابل بجبينه الشاحب.

عندما بدّل قميصه لم ينظر إلى جسده، لعلمه أن خوفه سيزداد لو شاهده.

وحين انتهى من زينته ارتدى مبذله وغطّى رأسه بغطاء، وجلس في مقعد لتناول الشاي. أحسّ بالانتعاش لحظة، ولكنه ما إن شرع بتناول الشاي حتى أحسّ بالمذاق نفسه وبالألم يعود إليه. بذل جهداً لينهي شايه واضطجع بعد ذلك ممدّداً ساقيه. اضطجع وصرف بيير.

الشيء نفسه دائماً: فتارة بريق أمل، وتارة أخرى عاصفة يأس، ودائماً هذا الألم وذلك القلق. الشيء نفسه دائماً. الوحدة تعذّبه؛ ودّ لو ينادي أحداً؛ لكنه يعلم مسبقاً أنه إن جاء أحدٌ ساءت الحال أيضاً. «لو حقنوني على الأقل بالمورفين! حينئذ سأنسى نفسي! سأطلب من الدكتور أن يعثر لي على شيء ما. مستحيل، مستحيل أن استمر هكذا»!

Twitter: @ketab_n

مرت ساعة، ساعتان. دقّ الجرس في البهو. لعله الدكتور؟ كان الدكتور، في الواقع، غضّاً، ضخماً، مفعماً بالطاقة، فرحاً، وكأنه يقول: أنت مخطئ بقلقك. سوف نُصلح ذلك كله». إن الدكتور يعلم أن هذا التعبير ليس لائقاً هنا، لكنه اتّخذه من مرة ولا يستطيع أن ينزعه بعد ذلك، مثل سيد ارتدى ثيابه منذ الصباح ليقوم بزياراته.

فرك الدكتور يديه بانشراح ورضاً، وقال:

- مازلتُ متجمّداً. فالصقيع شديد. اسمح لي أن أتدفأ قليلاً.

وكأنما كان يكفي الانتظار إلى أن يتدفأ، وأن كل شيء سيُسوّى حالما يتدفأ. وسأل:

- حسناً! كيف الحال؟

إيفان إيليتش يعلم جيداً أن الدكتور يريد أن يقول: كيف حال أمورنا الصغيرة؟ لكنه تبيّن أنه لا يستطيع التعبير هكذا فقال:

- كيف قضيتَ الليل؟

نظر إيفان إيليتش إلى الدكتور نظرة استفهام:

«ألا تستحي حقاً من أن تكذب عليّ هكذا؟».

لكن الطبيب يأبى بأن يفهم.

فيقول إيفان إيليتش:

Twitter: @ketab_n

- على أسوأ حال، كالعادة. فالألم لا يزول ولا يريد أن ينقطع: ليتنا نستطيع أن نفعل شيئاً ما.

هذه حالكم دائماً، أيها المرضى: حسناً! أظن أنني تدفأت الآن؛ براسكوفيا فيودوروفنا نفسها التي تتقن عملها لا تستطيع أن تفعل شيئاً إزاء حرارتي. حسناً! صباح الخير.

شد الدكتور على يد إيفان إيليتش. ثم تخلّى عن هيئته المرحة وأخذ يفحص المريض وهو رصين الطلعة؛ تحرّى نبضه، وأخذ حرارته وتسمع إلى قلبه وتنفّسه كما يفعل دائماً.

ويعلم إيفان إيليتش أن ذلك كله ما هو إلا كذب؛ لكن عندما ركع الدكتور وانحنى عليه وأسند أذنه هنا وهناك ونفّذ بمظهر جادّ عدداً من التمرينات، انساق إيفان إيليتش معه، كما كان ينساق أحياناً لخطب المحامين مع علمه الأكيد بكذبهم وبسبب كذبهم.

كان الدكتور راكعاً أمام الأريكة متابعاً معالجاته عندما وافى حفيفُ فستان على العتبة وسُمعت براسكوفيا فيودوروفنا تلوم بيير لأنه لم ينبئها بوصول الدكتور.

وتدخلُ وتُقبّلُ زوجها وتشرع على الفور في تأكيدها له أنها نهضت منذ زمن بعيد وأن سوء تفاهم قد حدث.

وينظر إيفان إيليتش إليها ويفحصها كلها ويلومها في داخله على بياض سحنتها، وعلى وجنتيها المدوّرتين، وعلى نضارة ذراعيها وعنقها، ولمعان شعرها، وبريق عينيها الممتلئتين بالحياة. إنه يكرهها بكل قوى نفسه. ومسُّها يثير فيه انتفاضة الغيظ التي تجعله يتألم.

Twitter: @ketab_n

إن موقفها من إيفان إيليتش ومرضه لم يتغير. وكما أن الدكتور اصطنع إزاء مرضاه قاعدةً للسلوك لا يمكنه التخلص منها، فكذلك تبنّت موقفاً مفادُه أن تقول إن إيفان إيليتش لا يفعل بعض الأشياء التي كان ينبغي أن يفعلها، وأنه مسؤول هو نفسه عن وضعه، وذلك ما كانت تلومه عليه بلهجة ودّية. وكان يستحيل عليه أن يتخلص من تكوينه.

– إنه لا يسمع ما يُقال له، ولا يتناول أدويته بانتظام. وهو يتخذ، علي الخصوص، في نومه وضعاً ضاراً بالتأكيد. إنه يرفع رجليه إلى الأعلى.

وروت أنه كان يجب جيراسيم على أن يمسك برجليه مرفوعتين.

ابتسم الدكتور ابتسامةً مترفّعة ومشفقة، كانت تعني: «ما العمل! إن هؤلاء المرضى يخترعون حماقات! لكن ينبغي أن نعذرهم».

عندما انتهى الطبيب من فحصه نظر إلى ساعته، وحينئذ أعلنت براسكوفيا فيودوروفنا لإيفان إيليتش أنه مهما يقل فسوف تستدعي الطبيب الشهير الذي سيفحصه في هذا اليوم بالذات مع ميشيل دانيلوفتش (طبيب الأسرة).

– لا تعترض، أرجوك. إني أفعل ذلك من أجلي أنا.

قالت ذلك بسخرية وكأنها تلمّح أنها تفعل كل شيء من أجله وأنه، من ثم لا يحق له أن يقاوم.

Twitter: @ketab_n

ظلّ صامتاً، متجهّم الوجه. أحسّ أن الكذب الذي يحيط به قد تشوّش بحيث غدا من الصعب أن يفهم شيئاً منه.

كل ما كانت تفعله إنما كانت تفعله من أجل مصلحته هو، لكنها كانت تقول وهي تشير إلى ذلك: إنها إنما كانت تفعله من أجلها هي باعتباره شيئاً غير عادي بحيث كان ينبغي له أن يفهم العكس.

والواقع أن الدكتور الشهير أقبل في الحادية عشرة والنصف، وبدأت من جديد الفحوصات وكذلك المشاورات، بحضوره وفي الغرفة المجاورة، بصدد الكلية والزائدة. كانت الأسئلة والأجوبة تُتبادَل بلهجة رسمية جداً حتى إن المسألة الحقيقية، مسألة، الحياة والموت التي كانت تطرح نفسها وحدها على إيفان إيليتش، أخلت مكانها مرة أخرى لمسألة الكلية والزائدة اللتين لم تعود تعملان، على ما يدو، كما ينبغي لهما، لكن ميشيل دانيلوفتش والطبيب الشهير سيردانهما مباشرة إلى جادة الصواب.

ودّعهم الطبيب الشهير بوجهٍ رصين وإن لم يكن مُثبِّطاً. ورداً على سؤال خجل طرحه عليه إيفان إيليتش وعيناه تبرقان خشيةً ورجاءً:

- هل هناك أملٌ في الشفاء؟

أجاب:

- إنه لا يمكن أن نضمن شيئاً، لكن هناك حظاً في الشفاء.

إن النظرة المحمّلة بالأمل التي أرسلها إيفان إيليتش في إثر الطبيب

Twitter: @ketab_n

كانت مثيرة للشفقة إلى حدّ أن براسكوفيا فيودوروفنا أخذت تبكي وهي ترافق الطبيب الشهير لتسلّمه أجرته.

لم تكن الثقة التي أوحت بها الكلمات المشجّعة للطبيب الشهير طويلة الأمد. كان هناك دائماً الغرفة نفسها، واللوحات نفسها، والستائر نفسها، والأوراق نفسها على الجدران وهذا الجسد نفسه متوجعاً، متألماً. لقد أخذ إيفان إيليتش يتأوه. فأُعطي حقنة مورفين أسلمته إلى حالةٍ من النعاس.

عندما صحا، كان الظلام قد أخذ يخيم، فجيء بطعامه. حمل نفسه حملاً على تناول شيء من الحساء: مرّت الساعات متشاكلة. وهبط الليل.

بعد الطعام، في الساعة السابعة، دخلت الغرفة براسكوفيا فيودوروفنا، بفستان السهرة، وصدرُها القوي محزومٌ، وآثار البودرة على وجهها. أخطرته من الصباح أنهم سيذهبون إلى المسرح: لقد وصلت سمساره برنار، وكانت لهم مقصورة، مستأجرة بناء على إلحاح إيفان إيليتش. لكنه نسي ذلك، وأهانته هذه الزينة الآن. كتم الإهانة مع ذلك عندما تذكر أنه ألح هو نفسه للحصول على هذه المقصورة ومشاهدة العرض الذي كان يحمل إلى الأولاد المسرة التعليمية والجمالية.

دخلت براسكوفيا فيودوروفنا وهي جد راضية عن نفسها، لكنها دخلت وفي وجهها أيضاً تعبير مذنب قليلاً. جلست واستعلمت عن صحته؛ أدرك أن ذلك لكي تقول شيئاً ما لا لتعلم كيف حاله،

Twitter: @ketab_n

لأنها كانت تعلم أنه لا يمكن أن يطرأ عليها جديد. وبعد ذلك أخذت تتحدث عما يشغل بالها: إنها ما كانت لتذهب إلى المسرح لولا أن المقصورة مستأجرة وأن من المستحيل ترك ابنتها تذهب وحدها مع مَنْ يطلب يدها، بيتريشتييف. وكانت ستسرّ كثيراً لو ظلت بجنبه! على شرط أن يتبع في غيابها تعليمات الطبيب!.

- بالمناسبة! فيودور ديميتريفتش (بيتريشتييف) يودّ لو يراك، وكذلك «ليزا»... ممكن؟

- ليدخلا.

دخلت ليزا لابسة بأناقة وقد تعرّى جسدّها الفتي، هذا الجسد الذي طالما آلم إيفان إيليتش والذي كانت تعرضه للأنظار. كانت طويلة، معافاة، عاشقة كما يبدو، وغاضبة على المرض والأوجاع والموت التي تقف عائقاً في وجه سعادتها.

دخل فيودور ديميتريفتش أيضاً؛ كان في الثياب الرسمية وشعره مصفّف على نمط «كابول»، وكان عنقه الطويل الذي برزت عروقُه غارقاً في ياقة عالية بيضاء، وكان صدره مغطّى بواقية عريضة منشّاة؛ وكان البنطال الضيّق الأسود يشد فخذيه المتينتين شدّاً؛ وكان يمسك بيديه قفازاً أبيض وقبعة رسمية.

انسلّ خلفهما طالب المعهد ببذلة جديدة، المسكين، وهو يلبس قفازاً حديث العهد، وحول عينيه دائرةٌ سوداء كان إيفان إيليتش يعلم دلالتها.

كان يحسّ دائماً بشفقة عظيمة على ابنه الذي كانت ترعبه النظرة

Twitter: @ketab_n

الخائفة المشفقة. وفيما عدا جيراسيم، كان هذا الابن - على مابدا لإيفان إيليتش - هو الذي يفهمه ويشفق عليه.

جلس الجميع؛ استعلموا مرة أخرى عن صحته. ثم صمتوا. سألت ليزا أمها أين المنظار، وتلا ذلك نقاشٌ بين الأم وابنتها اللتين تبادلتا مهمة إضاعته. كان ذلك غير مستحب.

سأله فيودور ديميتريفتش إن كان قد رأى ساره برنار. لم يفهم إيفان إيليتش السؤال في البدء، ثم قال:

- لا، وأنتَ هل رأيتها؟

- نعم، في «ادريين ليكوفرير»[٩].

قالت براسكوفيا فيودوروفنا إنها كانت رائعة ولاسيما في هذا الدور أو ذاك. حينئذ أخذوا يتحدّثون عن أناقة تمثيلها وواقعيته؛ وكان الحديث عادياً كالحديث الذي يدور في مثل هذه الحالات.

في وسط الحديث نظر فيودور ديميتريفتش إلى إيفان إيليتش وصمت. نظر إليه الآخرون أيضاً وصمتوا مثله. كان إيفان إيليتش يحدّق فيهم، وعيناه تلتمعان، وقد بدا مغتاظاً. كان ينبغي إصلاح الأشياء، لكن ذلك كان مستحيلاً. كان ينبغي أن يكفوا عن الصمت على هذا النحو أو ذاك. فلم يُقدمْ أحدٌ على ذلك؛ كان الجميع يخافون أن يبدّدوا فجأة الكذب الصحيح وأن يُظهروا هكذا الواقع بوضوح.

٩- مسرحية ألفها «سكريب» ١٨٤٩، مثلتها بنجاح ساره برنار (١٨٤٤-١٩٢٣) أثناء جولاتها في روسيا.

Twitter: @ketab_n

قرّرت ذلك ليزا قبل غيرها. أقلعت عن الصمت. أرادت أن تُخفي ما أحسّ به الجميع لكنها فضحت نفسها وقالت وهي تنظر إلى الساعة، هدية أبيها، وتُبادل الشاب ابتسامةً خفيّة يفهمانها وحدهما.

- مع ذلك، ليتنا نذهب.

ثم نهضت وفستانها يحفّ حفيفاً.

نهض الجميع وودّعوا إيفان إيليتش وخرجوا.

عندما غادروا الغرفة شعر إيفان إيليتش بالانفراج: اختفى الكذبُ، خرج معهم. لكن الألم باقٍ. الأوجاع نفسها دائماً، والرعب نفسه. وما من عزاء.

تتابعت الدقائق والساعات، دون تغيير، بلا نهاية، وبدت النهاية المحتومة التي تشتد شراستُها.

ردّ على بيير:

- نعم، ابعث لي جيراسيم.

- ٩ -

عادت براسكوفيا فيودوروفنا في ساعة متأخرة من الليل. دخلت على رؤوس أصابعها، لكنه سمعها. فتح عينيه وما لبث أن أغمضها. أرادت أن تصرف جيراسيم وتأخذ مكانه، ففتح عينيه ثانية وقال:

Twitter: @ketab_n

- لا، انصرفي.

- أتتألم كثيراً؟

- ما أهمية ذلك!

- خذ شيئاً من الأفيون.

وافق وجرع الجرعة. خرجت. ظل حتى الساعة الثالثة غارقاً في خدرٍ مؤلم. بدا له أنه يُدْفَع دفعاً موجعاً إلى كيسٍ أسود، ضيّق وعميق؛ إنه يُدفَع لكنه لا يفلح في المرور بالكيس. ويسبّب له هذا الشيء المرعب ألماً حاداً. ويخاف، ويود لو يسقط في الكيس، ويقاوم ويبذل وسعه ليمرّ عبر الفتحة الضيّقة. ثم ينزلق فجأة ويسقط، ويثوب إلى رشده.

كان جيراسيم مايزال هنا، عند قائمة السرير، غافياً، هادئاً، صابراً. وكان هو ممدّداً على ظهره، مهزول القدمين، بجوربيهما، وهما مستندتان إلى كتفي جيراسيم. وماتزال الشمعة في مكانها تغطّيها كمّةٌ. وذلك الألم الذي يُحتمل لا يريم. همس:

- انصرف، جيراسيم.

- لابأس علي، سأبقى قليلاً.

- لا، انصرف.

رفع قدميه عن كتفي جيراسيم، واضطجع على جنبه، ويده تحت خدّه، ورقّ لحاله. انتظر فقط أن يتركه جيراسيم؛ حينئذ ترك نفسه على

Twitter: @ketab_n

سجيتها وأخذ يبكي كالطفل. بكى على حالته الميؤوس منها، على وحدته المرعبة، على قسوة الناس، على قسوة الله الذي تخلّى عنه. «لم فعلتَ ذلك كله؟ لم أتيتَ بي إلى هنا؟ لماذا، لماذا تعذّبني هكذا؟».

لم يكن ينتظر جواباً، وبكى لأنه لا جواب عن أسئلته ولا يمكن أن يكون هناك جواب. اشتدّ الألم، لكنه لم يتحرك و لم يدعُ أحداً. كان يقول في نفسه: «حسناً! اضرب! اضرب بقوة أكبر! اضربني! لكن لماذا؟ وماذا فعلتُ لك؟ لماذا؟

ثم هدأ وكفّ عن البكاء، بل كفّ عن التنفس وغدا كلُّه آذاناً، وكأنما كان يصيخ السمع لصوتٍ صامتٍ، لصوت نفسه، لتقلّب الأفكار التي تتصاعد فيه.

«إلامَ تحتاج؟ هذه أول فكرة واضحة يمكن أن يُعبَّر عنها بالكلمات، سمعها. «إلام تحتاج؟» «إلام؟» ردّد ذلك وأجاب: «ألاّ أتألم. أن أحيا!».

وغدا أيضاً أشد انتباهاً، وقد توتّر كيانه إلى حدّ أن الألم لم يفلح في صرف انتباهه.

سأل صوتُ النفس: «أن تحيا؟ كيف تحيا؟».

«نعم، أن أحيا، كما كنت أحيا سابقاً، على نحو سارٍّ، سهلٍ».

سأل الصوتُ: «كيف كنت تحيا على نحو سارٍ وسهل؟».

أخذ يستعرض بخياله أفضل لحظات حياته السارة. لكن الشيء

Twitter: @ketab_n

الغريب أن تلك اللحظات اتخذت في نظره مظهراً مختلفاً كل الاختلاف عمَّ كانت عليه قديماً. جميع اللحظات ما عدا ذكريات طفولته الأولى. كان في طفولته شيءٌ جميلٌ حقاً. شيءٌ جديرٌ بأن يعينه على الحياة الآن لو استطاع بعثه. لكن الذي عاش ذلك الشيء لم يعد موجوداً: ربما كان المعنيُّ شخصاً آخر.

فما أن بدأت سلسلةُ الأحداث التي آلت في النهاية إلى إيفان إيليتش الحالي، حتى تبدّدت الآن أمام عينه جميع الأفراح التي عاشها والتي بدت له آنذاك أفراحاً، وتحولت إلى شيء تافه بل وحقير.

وكلما كانت ذكريات إيفان إيليتش تبتعد عن طفولته، وتقترب من الحاضر بدت له الأفراح التي عاشها مشبوهة وفارغة. بدأ بمدرسة الحقوق: هناك عرف أيضاً لحظات طيّبة حقاً؛ هناك عرف الفرح والصداقة والأمل. لكن هذه اللحظات في الصفوف العليا أخذت تندر. وفيما بعد، في زمن خدمته مع الحاكم، كانت له بعض الدقائق الجميلة: أحب امرأة، ثم اختلط كل شيء، وغدت اللحظات الجميلة مرةً أخرى أندر، وأندر...

زواجــه... مصادفة؛ وخيبة الآمــال، ونَفَس امـرأتـه النتن، والشهوانية، والنفاق... ثم خدمته، الكئيبة جداً، وهموم المال. دام ذلك سنةً، سنتين، عشر سنوات. الشيء نفسه دائماً. كانت الحياة، كلما مرّت السنون، تزداد فراغاً وكآبة. «كنتُ كأني أهبط سفحاً وأنا أظن أنني أصعد. كنتُ أصعد، بالفعل، في نظر الرأي العام، لكنني في الحقيقة، كنت أنزلق إلى الأسفل، وكانت الحياة تهرب مني... وها أنذا! انتهى كلُّ شيء. فمُت الآن!

Twitter: @ketab_n

«لكن ماذا يعني ذلك، يا ترى؟ لماذا؟ مستحيل! لا يمكن أن تكون الحياة بمثل هذا الغباء والحقارة. وإذا كانت كذلك فلم كان لابد من الموت مع الألم؟ هناك شيء على غير مايُرام. لعلي لم أعش كما ينبغي لي أن أعيش؟ ذلك غير ممكن، بما أني فعلتُ دائماً ما ينبغي فعله».

ولم يلبث أن طرد الحلَّ الوحيد، حلَّ لغز الحياة والموت باعتباره غير معقول: «ماذا تريد الآن؟ تحيا؟ وكيف تحيا؟ أن تحيا كما كنت تحيا إذا كنت قاضياً، عندما كان الحاجب يعلن: «محكمة!» وردّد في نفسه. المحكمة! المحكمة! ها هو ذا الحكم. مع أني لست مذنباً! لماذا؟» صرخ بذلك كله وهو محنق.

كفَّ عن البكاء، وأخذ يفكر، وقد أدار وجهه إلى الجدار، بالشيء نفسه: لماذا؟ لماذا هذا الشيء الرهيب؟

لكنه لا يجد جواباً مهما فعل. وعندما كانت تنبعث فيه هذه الفكرة: – وما أكثر ما حدث له ذلك – أن كل ذلك ناجمٌ من أنه لم يعش، كان يتذكّر على الفور استقامة حياته ويطرد بعيداً هذه الفكرة الغريبة.

– ١٠ –

مرّ أسبوعان أيضاً. لم يكن إيفان إيليتش يفارق الأريكة التي ظل مضطجعاً عليها، إذ لم يشأ أن يبقى في سريره. كان يتألم وهو ممدد تقريباً ووجهه إلى الجدار، وحيداً، يتألم آلامه المستعصية على الحل، كان يغوص، وحيداً، في أفكاره المستعصية على الحل.

Twitter: @ketab_n

«ماهذا، يا ترى؟ أهو الموت حقاً؟».

فيجيبه الصوت الداخلي: «نعم، هذا هو الموت» - «لكن لَمَ هذه الآلام؟ فيجيبه الصوت: «هكذا، من أجل لا شيء».

منذ بداية مرضه، منذ اللحظة التي ذهب فيها إيفان إيليتش إلى الطبيب، انشقّت حياتُه الداخلية، منتقلة تباعاً من اليأس وانتظار الموت المرعب وغير المفهوم إلى الرجاء واستعمال ذكائه كله لعمل أعضائه. فتارةً لم يكنَ يفكّر إلا في كليته وأمعائه التي كانت ترفض مؤقتاً أن تقوم بوظيفتها؛ وتارة أخرى، لم يكن أمام عينيه سوى هذا الموت الشرس، الذي لا يُفهم والذي لا يمكن أن يخلّصه منه شيء.

هاتان الحالتان الفكريتان تناوبتا فيه منذ بداية مرضه، لكن كلما كان مرضُه يتفاقم كانت آماله تبدو له خياليّة ووهميّة، بينما كان الشعور بالموت القريب يفرض نفسه عليه بواقعية أكبر.

كان يكفيه أن يتذكر ما كان عليه قبل ثلاثة أشهر، والانتظام الذي تمّ به الانحدار، لكي يختفي على الفور كلُّ إمكانٍ للأمل...

في هذه الآونة الأخيرة من وحدته، هذه الوحدة وسط مدينة كبيرة، ووسط أصدقائه وأسرته، وحدته التي لا يمكن أن تكون أتمَّ في أعماق البحر أو الأرض، في الآونة الأخيرة من هذه الوحدة الرهيبة، لم يكن إيفان إيليتش يعيش، ووجهه مستديرٌ إلى مسند أريكته، إلا في الماضي. كان يبدأ دائماً بأقرب الأحداث إليه ليعود بعدها بخياله إلى طفولته، ويقف عندها. وإذا بالخوخ المطبوخ الذي قُدّم له في هذا

Twitter: @ketab_n

اليوم، يُذكّر بالخوخ المجفّف المجعّد في طفولته، وطعمه الخاص، واللعاب الذي يملأ فمه عندما يصل إلى النواة؛ وكانت هذه الذكرى تجرّ غيرها من الفترة نفسها: مربيته، أخاه، ولُعبهما... «لا، لا ينبغي أن يفكر في هذه الأشياء جميعاً. فذلك مؤلمٌ ألماً يتجاوز الحدّ». كان يقول ذلك في نفسه ويعود إلى الحاضر. الأزرار على مسند الأريكة وطيّات الجلد الدقيقة. «الجلد غالٍ وقليل المتانة. تخاصمنا بهذا الصدد. لكن كان الموضوع جلداً آخر وخصاماً آخر، عندما مزّقنا محفظةَ والدنا وعوقبنا، وحملت إلينا ماما الحلوى...» ويعود فينغمس في ذكريات طفولته التي كانت تؤلمه، فيبذل وسعه ليطردها وليفكر في شيء آخر.

وفي موازاة سلسلة الذكريات هذه كانت تُنشَر سلسلةٌ أخرى تتصل بتطوّر مرضه وتفاقمه. وفي هذه الحالة أيضاً، كان كلما تراجع في مجرى الزمن رأى نفسه أكثر حياةً. كان أفضل وأكثر حياة. كان الخيرُ والحياة يختلطان وفكّر: «فكما أن آلامي كانت تشتدّ كانت حياتي تسوء أيضاً. وليس هناك سوى نقطة واحدة مضيئة، هناك في بداية وجودي، ثم يغدو كلّ شيء أسود، يزداد سواداً أبداً، ويزداد سرعة أبداً. بعكس مربع مسافات البعد عن الموت». كذلك كان يقول إيفان إيليتش في نفسه. وانطبعت في نفسه صورة حجرٍ يسقط بسرعة متزايدة. إن الحياة، عن سلسلةً من الأوجاع المتعاطفة تندفع بسرعة متزايدة نحو غايتها الأخيرة، الوجع الأرهب.

«إني أسقط...» انتفض وتحرك وحاول أن يقاوم لكنه كان يعلم أن المقاومة غير ممكنة، وحدّق في مسند الأريكة بعينيه المتعبتين اللتين لم

Twitter: @ketab_n

تكونا تستطيعان ألا تنظرا أمامهما، وانتظر، انتظر ذلك الشيء الفظيع السقوط، الصدمة، الدمار.

قال في نفسه: المقاومة غير ممكنة، لكن ليتني أستطيع على الأقل فهم لماذا كل ذلك؟ فذلك أيضاً غير ممكن. يمكن تفسير ذلك لو قيل إنني لم أعش كما كان ينبغي لي أن أعيش. أما ذلك فهو غير مقبول البتّة». وإنما فكّ هكذا لأنه تذكّر صحة حياته وانتظامها واستقامتها. وردّد في نفسه مبتسماً بشفتيه فقط وكأن هنا من ينظر إلى هذه الابتسامة ويُؤخَذ بها: «ذلك غير مقبول بتاتاً. لا تفسير لذلك! الأوجاع، الموت... لماذا؟».

- ١١ -

مرت ثلاث أسابيع على هذا المنوال، وفي أثنائها جرى ذلك الحدث الذي طالما ابتغاه إيفان إيليتش وزوجته: ذلك أن بيتر تشتييف. خطب الفتاة رسمياً. كان ذلك مساءً. في اليوم التالي، دخلت براسكوفيا فيودوروفنا غرفة زوجها، وهي تتساءل كيف تُبلغه أمر الخطبة. لكن في هذه الليلة تغيّرت، ساءت حالة إيفان إيليتش، فوجدته براسكوفيا فيودوروفنا على أريكته، في وضع جديد: كان مستلقياً على ظهره، يتأوه ويحدّق النظر أمامه.

أخذت تحدّثه عن الأدوية. صعّد نظره إليها، فلم تكمّل الجملة التي بدأتها لفرط ما عبّرت هذه النظرة عن الكراهية، ولاسيما نحوها.

Twitter: @ketab_n

- باسم المسيح، دعيني أمتْ بسلام.

أرادت أن تنصرف، لكن ابنتها دخلت في هذه اللحظة ودنت من أبيها لتسلّم عليه. نظر إلى البنت نظرته إلى الأم، وردّاً على أسئلتها عن صحته أجاب بجفاف أنه سيخلصهما من حضوره عما قريب. فصمتتا كلتاهما وجلستا بضع لحظاتٍ وخرجتا.

قالت ليزا لأمها:

- فيمَ أذنبنا؟ كأن الغلطة غلطتنا! إني أشفق على بابا. لكن لماذا يجعلنا نتألم؟

جاء الدكتور في ساعته المعتادة، فلم يجبه إيفان إيليتش إلا بـ «نعم» أو «لا»، دون أن يرفع عنه نظرته المثقلة بالكراهية؛ وأخيراً قال له:

- أنت تعلم جيداً أنك لا تستطيع أن تعينني؛ دعني وشأني.

قال الدكتور:

- يمكننا تخفيف الآلام.

- وهذا أيضاً لا يمكنك أن تفعله، فدعْني إذن!

خرج الدكتور إلى الصالون وأعلن لبراسكوفيا فيودوروفنا أن حالته ساءت وأنه لم يبق سوى دواءٍ واحد هو الأفيون، لتخفيف الآلام التي لابدّ أن تكون رهيبة.

Twitter: @ketab_n

قال الدكتور إن أوجاع إيفان إيليتش الجسدية رهيبة، وما قاله حقٌّ؛ لكن أوجاعه الروحية كانت أرهب من آلامه الجسدية، وهي التي كانت تعذّبه على وجه الخصوص.

إن أوجاعه الروحية جاءت هذه الليلة وهو ينظر إلى رأس جيراسيم ذي الوجنتين البارزتين حين أخذ ينعس، وخطر له فجأة هذا الخاطر: «وإذا لم تكن حياتي حقاً، حياتي الواعية، كما ينبغي لها أن تكون؟».

خطر بباله أن ما كان يعدّه حتى الآن استحالة مطلقة - أنه قد عاش على نحوٍ مختلف عما كان ينبغي له أن يعيش - يمكنه أن يكون هو الحقيقة. وأن الجهود التي بذلها في مقاومة ما كان الأشخاص المتقلدون أرفع المناصب يعدّونه صالحاً، وهي جهود لم تكد تُلحظ وكان يكتبها من فوره، وربما كانت حقيقية وكل ما سواها كذب... وربما لم تكن خدمته وحياته المنظّمة وأسرته ومصالحه الدنيوية سوى كذب. لقد حاول أن يدافع عن جميع هذه الأشياء أمام نفسه. لكنه أحسّ فجأة بتهافت ما أراد الدفاع عنه. فليس في ذلك ما يُدافَع عنه.

قال في نفسه:

«إذا كان الأمر كذلك، وإذا كنتُ أفارقُ الحياة بشعور مَن أضاع وخرّب كل ما مُنحه، وإذا كان لا سبيل إلى إصلاح ما فات، فماذا حينئذ؟».

استلقى على ظهره وأخذ يتفحّص حياته من وجهة نظر جديدة كل الجدّة. فعندما رأى في الصباح خادمه، ثم امرأته، ثم ابنته، ثم الطبيب،

Twitter: @ketab_n

كانت كلُّ حركة من حركاتهم تؤكد له الحقيقة الفظيعة التي انكشفت له في هذه الليلة. كان يرى نفسه فيهم، وكانت حياته ما كانت عليه حياتهم؛ ورأى بوضوح أن الأمر لم يكن كذلك وأنه كان كذبة هائلة، مرعبة، تخفي الحياة والموت. كان هذا الشعور يزيد ويضاعف آلامه الجسدية. كان يتأوه ويضطرب ويجهد في أن يقلع ثيابه التي تضغط عليه وتخنقه، كما بدا له. ولذلك كره جميع أقربائه.

أُعطِيَ جرعةً قوية من الأفيون؛ أغفى. لكن ذلك عاد من جديد ساعة الغَداء: طَرد الجميع خارج غرفته وتقلّب على أريكته ذات اليمين وذات الشمال.

دنت منه براسكوفيا فيودوروفنا وقالت:

- جان، يا صاحبي، افعل ذلك من أجل (من أجلي؟). فذلك لا يؤذي، بل إن ذلك قد يعزّي. ثم إن الناس المعافين أنفسهم...

شخص بعينيه:

- ماذا - أن أعترف؟ لماذا؟ لا يجب... بيد أن...

أخذت تبكي.

- نعم، يا صاحبي. سأدعو كاهننا. فهو عظيم اللطف.

- ممتاز، جيد.

عندما جاء الكاهن وعرّفه، عاد إليه هدوءُه، بدا له أنه تخفّف من

Twitter: @ketab_n

شكوكه، وتبعاً لذلك من آلامه. بل لقد لاح له الأمل دقيقة. فأخذ يفكر من جديد في الزائدة ووسائل شفائها. تناول القربان والدموع في عينيه.

عندما أُضجع بعد التناول، أحسّ بالتحسن للحظة، وبدأ الأملُ يراوده. فكّر في العملية التي يقترحونها عليه. قال في نفسه: «أن أعيش! أريد أن أعيش!».

جاءت امرأته تهنّئه. ولفظت الكلمات المعتادة في هذه الحالة وأضافت:

- أنت تشعر بالتحسّن، أليس كذلك؟

قال: «نعم»، دون أن ينظر إليها.

كانت ثيابه وشخصه كله وتعبير وجهه وجرس صوته كان كل شيء يقول له: «ليس الأمر كذلك؛ كل ما كان يجعلك تحيا، كل ما تحيا منه، ليس سوى كذب يخفي عنك الحياة والموت». وما إن قيل ذلك حتى تجدّدت كراهيته، ومع الكراهية الآلام الجسدية، ومع الآلام، الشعور بالموت الوشيك، المحتوم. عادت الآلام: كان ذلك ينخره، يثقبه من جهة إلى جهة، ويقطع أنفاسه.

كان تعبير وجهه عندما قال «نعم» فظيعاً. إذ قالها وهو يحدّق في عينيها بحيوية غير عادية بالنسبة إلى حالة ضعفه، انقلب ودفن وجهه في الوسادة، وصاح:

- اذهبي، اذهبي، دعيني!

Twitter: @ketab_n

بدءاً من هذه اللحظة بدأت هذه الصرخات التي دامت ثلاثة أيام بلا انقطاع، وكانت فظيعة بحيث لا يمكن الاستماع إليها عبر عدة أبواب مغلقة دون أن تهزّ المستمع هزاً. وفي الدقيقة نفسها التي أجاب فيها امرأته أدرك أنه هالك وأن العودة مستحيلة وأن النهاية آتيةٌ هذه المرة، وأن شكوكه لم تشأ أن تسكن، وظلت دون حل.

صرخ بنبرات شتّى: «آه! آه! آه! بدأ صياحه: «لا أريد!» وانتهى بهذه النبرة: «آ... آ...».

طوال هذه الأيام الثلاثة التي لم يكن الزمن موجوداً أثناءها، كان يتخبّط في ذلك الكيس الأسود الذي كانت تُدخله فيه قوةٌ خفيّةٌ لا تُقهر. كان يتخبط كما يتخبط بين يدي الجلاد محكومٌ بالإعدام، وهو يعلم أنه لا يمكن أن ينجو. وكلما كانت الدقائق تمر كان يحس أنه بالرغم من جميع جهوده يزيد قرباً مما ملأه رعباً. كان يحسّ أن عذاباته تنجم عن دفعه في هذا الثقب الأسود، وأكثر من ذلك عن أنه لا يفلح في دخوله. وما كان يمنعه من الدخول هو شعوره بأن حياته كانت صالحة. كان هذا التسويغ لحياته هو الذي يثنيه ويمنعه من المواجهة ويعذبه أكثر من غيره.

وفجأة ضربته بعنفٍ قوةٌ مجهولة في صدره، في جنبه، وقطعت تنفسّه؛ سقط متقلباً في الثقب وهناك، في أعمق القاع، التمعَ شيءٌ. فأحس بما أحسّ به قديماً في القطار عندما نتصور أننا نتقدم بينما نحن نتأخر ونتعرف فجأة الاتجاه الصحيح.

Twitter: @ketab_n

قال في نفسه: «نعم، لم يكن «ذلك» على الإطلاق. لكن لا بأس، فإن «ذلك» يمكن أن يُفعَل أيضاً».

ثم تساءل وما «ذلك»؟

وسكن فجأة.

كان ذلك في نهاية اليوم الثالث، قبل موته بساعتين. في هذه اللحظة بالذات انسلّ طالبُ المعهد برفقٍ إلى الغرفة ودنا من السرير. لم يكف المحتضر عن إطلاق الصرخات اليائسة وهو يحرك ذراعيه. صادفت يديه رأس الولد؛ أمسك بها طالبُ المعهد وأطبق شفتيه عليها وشرع يبكي.

في هذه اللحظة بالضبط سقط إيفان إيليتش، شاهد النور واكتشف أن حياته لم تكن كما كان ينبغي أن تكون، لكن إصلاح ما فات مايزال ممكناً تساءل:

«ماذلك؟». سكنت نفسه وأصاخ السمع. حينئذ أحسّ أن هناك من يلثم له يده. فتح عينيه ونظر إلى ابنه. فأشفق عليه. اقتربت امرأته منه فنظر إليها أيضاً: تفرّست فيه بيأس فاغرة الفم، وقد تبلّل خداها وأنفها بالدموع.

فكّر: «نعم، إني أعذّبهم. هم يشفقون علي؛ لكن من الأفضل لهم أن أموت». أراد أن يقول لهم ذلك، لكنه لم يَقو عليه. وفكّر: «ثم، لماذا الكلام. يجب أن تفعل ذلك». أشار بنظرته إلى ابنه وامرأته وقال:

Twitter: @ketab_n

ائتيني به... أنا أشفق... عليك أيضاً.

أراد أن يضيف: «سامحيني!» لكنه قال:

- دعيه يمرّ.

وعجز عن استدراك ذلك فأشار بيده لعلمه أنه سيُفهم ممن سيفهمه.

وبغتةً، أحسّ بوضوح أن ما كان يعذّبه ويضغط عليه قد تبدّد، وأنه ينساب خارجاً عنه دفعة واحدة من جميع الجهات. إنه يشفق عليهم. وينبغي له ألا يجعلهم يتألمون بعد الآن. ينبغي أن يخلّصهم ويخلص نفسه من عذاباتهم. فكّر: «ما أحسن ذلك وما أبسطه!». «لكن ماذا أفعل به «هو»؟ حسناً! أين أنت؟ أين أنت، يا ألمي؟».

وأرهف انتباهه:

«آه! ها هو ذا! حسناً لِيبقَ هنا! والموت؟ أين هو؟».

فتش عن رعبه المعتاد فلم يعثر عليه. «أين هو؟ أي موت؟». لم يعد يخاف لأن الموت قد مات أيضاً.

بدلاً من الموت رأى النور.

وقال فجأة بصوت عالٍ: «ها هو ذا إذن. يا للفرح!».

حدث ذلك كله له في لحظة واحدة، و لم تتغير بعد ذلك دلالةُ هذه اللحظة. لكن احتضاره بالنسبة إلى الذين يُحدقون به، دام ساعتين.

Twitter: @ketab_n

انبعثت من صدره حشرجات، وارتعش جسمه العاري من اللحم. ثم تباعدت شيئاً فشيئاً الانتفاضات والحشرجات.

قال أحدهم:

انتهى الأمر.

سمع هاتين الكلمتين وردّدهما في نفسه قائلاً:

«انتهى الموت! مات الموت».

تنشّق الهواء بعمق و لم يُنهِ تنشّقه. تصلّب ومات.

Twitter: @ketab_n

ما يحتاج إليه الإنسان من الأرض

- ١ -

كان هناك أختان، الكبرى متزوجة من تاجر في المدينة، والصغرى من فلاح في الريف. وذات يوم جاءت ساكنةُ المدينة تزور ساكنةَ الريف، فأثنت على الحياة التي تحياها في المدينة؛ إنها تعيش على هواها، وهي أنيقةٌ في ملبسها، وأولادها يرتدون ثياباً حسنة، ولا تأكل ولا تشرب إلا الأشياء الطيّبة؛ وعندها، النزهاتُ والعروضُ المسرحية، إذا شاءت أن تسرّي عن نفسها. ردّت الصغرى التي لامس كلامُ أختها النقطة الحساسة فيها بان حطّت من حياة التاجرة وعظّمت فوق الحد حياة الفلاّحة، حياتها.

قالت لها:

- لا أُبادل مصيري بمصيرك. إن حياتنا باهتة، في الحقيقة، لكنها لم تُسمَّم بالخوف. حياتكم أكثر إمتاعاً؛ لكن إذا وقع لكم أن ربحتم كثيراً من المال فقد يقع لكم أن تخسروا كل شيء. وكما يقول المثل: الخسارة أختُ الربح الكبرى. فإذا كنتم اليوم أغنياء تعرضتم غداً للاستجداء. أما حياتنا، نحن الفلاحين، فهي مضمونة أكثر. إن بطن الفلاح رقيق لكنه طويل؛ وإذا كنا لا نُثري أبداً ظلّ عندما ما نقتات به.

Twitter: @ketab_n

أجابت الكبرى:

– نعم، لكن حياتكم هي أن تعيشوا مع الخنازير والعجول. ومهما يُنهك زوجُك نفسه بالعمل فلن تعرفوا أناقة السلوك ولن تبلغوا الرفاهية؛ وُلدتُم بين الأقذار وستعيشون وتموتون فيها، كما سيعيش أبناؤكم ويموتون.

أجابت الصغرى:

– ذلك أن مهنة الفلاحة تحتاج إلى ذلك. لكن حياتنا من أجل ذلك أكثر استقراراً عندما نملك الأرض. وليس علينا أن نذلّ أو نرتجف أمام أي كان. وكم من الإغراءات تترصّدكم في المدينة! إذ تكون الأعمال حسنة اليوم لكن الشيطان قد يغوي زوجك غداً بالقمار أو الشراب فإذا أنتم مفلسون. وهذا ما يقع غالباً.

كان «باكوم» زوج الصغرى، جالساً على المدفأة، يصيخ السمع إلى ثرثرة المرأتين. فعبّر عن رأيه قائلاً:

– لاشيء أصدق مما قالته. فلكوننا مشغولين، منذ طفولتنا بنَقْب أمنا الأرض، لم يبق لدينا متّسع من الوقت لسفاسف الأمور. إن همنا الوحيد هو أننا لا نملك ما يكفي من الأرض. آه! لو كان عندي ما يكفي منها لما أخافني الشيطان بذاته!.

تناولت المرأتان الشاي، وعادتا إلى الكلام عن وسائل الزينة وأدخلتا الكؤوس ومضتا إلى النوم.

وسمع الشيطان كل شيء من خلف المدفأة حيث كان كامناً. وسَعِد

Twitter: @ketab_n

أن امرأة الفلاح دفعت زوجها إلى تحدّي الشيطان، إذ أعلن عالياً أنه لو ملك ما يشاء من الأرض لما أخافه الشيطان.

فكّر الشيطان: «النزال بيننا نحن الاثنين. سأعطيك ما تشاء من الأرض، وبهذه الأرض سأتغلب عليك.

- ٢ -

كان لـ «باكوم» الفلاح جارةٌ، سيّدة قصر تملك مئة وعشرين هكتاراً من الأرض. وقد عاشت دائماً في وفاق تام مع الفلاحين، دون أن تُسيء إلى أحد، عندما اختارت عسكرياً قديماً متقاعداً وكيلاً لها صبّ على الفلاحين فنون الغرامات.

عبثاً اتّخذ «باكوم» جميع الاحتياطات، فلم يمكنه أن يمنع حصانه من ارتياد شيلم الأرض المجاورة، أو بقرته من دخول الحديقة، أو عجوله من الرعي في المرج: فتنهال حينئذ عليه الغرامات انهيالاً. وكان باكوم يؤدّيها وهو يجدّف، وكان ذووه يعانون من سوء مزاجه. وطوال هذا الصيف كان هدفاً لاضطهاد الوكيل الجديد. وكان انفراجاً حقيقياً له عندما عاد الفصل الذي تعاد فيه الحيوانات إلى الاصطبل؛ وإذا كان سيضطلع بإطعامها، فإنه لم يكن يخاف الغرامات، وكان يعيش بسلام.

في أثناء الشتاء، عُلم أن سيدة القصر ستبيع قصرها، وأن جابي رسوم المرور ينوي أن يحصّله لنفسه.

Twitter: @ketab_n

أشاع هذا النبأُ الذعر بين الفلاحين وفكروا:

- «إن كان جابي رسوم المرور سيشتري هذه الملكية فسوف يرهقنا بالغرامات أكثر من سيدة القصر».

قصدوا سيدة القصر مجتمعين ورجوها أن تبيعهم هذه الأرض هم لا جابي الضرائب، وعرضوا عليها ثمناً أعظم. وافقت على ذلك، اجتمع الفلاحون ليتشاوروا في تمليك الناحية هذه الأرض. لكن الشيطان نفث بينهم الشقاق. واجتمعوا مرة ومرتين دون أن يفلحوا في الاتفاق. وبعد أن أعيتهم الحيل قرَّ رأيهم على أن يشتري كل واحد حصة ، في حدود وسائله المادية. وذلك ما وافقت عليه أيضاً سيدة القصر. وهكذا حصل جار «باكوم» على عشرين هكتاراً من الأرض مع حقه في دفع نصف ثمن الشراء بأقساط سنوية. وعندما علم «باكوم» بذلك عضّته الغيرة.

- سوف تُباع الأرض كلها، ولن يبقى منها شيء لي.

استشار امرأته قائلاً لها:

- غيرنا يشتري، فعلينا أن نشتري أيضاً نحو عشرة هكتارات، وإلا استحال علينا أن نكفي أنفسنا: لقد خرّبت بيتنا غراماتُ الوكيل.

وفكر في الوسيلة التي يجمع بها المال الضروري.

باع المهر، ونصف نحله، ووضع ابنه أجيراً في مزرعة، وهذا مع وَفْر مئة الروبل التي يملكها أمّن له نصف المبلغ.

Twitter: @ketab_n

أخذ إذن ماله ووقع اختياره على قطعة من خمسة عشر هكتاراً ومعها غابةً صغيرة، وقصد سيدة القصر لعقد الصفقة، فيتفقان ويتصافحان ويذهبان إلى المدينة لتثبيت العقد. دفع باكوم نصف الثمن نقداً؛ أما النصف الثاني فقُسط على سنتين. وعاد مالكاً للأرض.

وإذا افترض من زوج أخته ما يشتري به حبوباً، بذر الأرض التي أصبحت في حوزته، وتم كل شيء على مايرام. وكفى مردود سنة واحدة سداد ديون سيدة القصر وزوج أخته. وأصبح، هو الفلاح باكوم ملاّكاً حقيقياً. صارت له الأرض التي يفلحها ويبذرها؛ وعلى أرضه صار يحصد الكلأ، وعلى أرضه ترعى حيواناته.

ويتهلّل «باكوم» فرحاً وهو ينظر إلى الحنطة تكبر والمراعي تخضر. وبدت له الأعشاب والأزهار مختلفة جداً. فعندما كان يمشي قديماً على هذه الأرض، كانت في نظره ما ينبغي أن تكونه الأرض؛ أما الآن فهذه الأرض نفسها بدت مختلفة جداً.

- ٣ -

كان باكوم يعيش سعيداً، وكان كل شيء يجري وفق ما يتمنّاه، عندما أخذ الفلاحون يقتحمون قمحه ومراعيه اقتحاماً متكرراً. وعبثاً رجاهم أن يكفّوا عن ذلك؛ لقد أمعنوا في اقتحامهم. فتارةً كانت البقرات التي يتركها رعاتها تدخل المراعي، وتارة أخرى كانت الخيل هي التي تجري في حقول الحنطة.

Twitter: @ketab_n

اكتفى «باكوم» أولاً بطردهم، كان يغفر للفلاحين ويأبى أن يقدّمهم للقضاء. ثم ما لبث أن فقد صبره وشكاهم إلى محكمة الإقطاعيين. ولم يكن يجهل أن ما يفعله هؤلاء الفلاحون إنما كان بسبب ما هم فيه من ضيق، لا بنيّة الأذى، لكنه فكّر: «بيد أني لا يمكنني أن أغمض عينيّ دائماً، وإلا انتهى بهم الأمر إلى التهام كل شيء لي. لابد لهم من عبرة يتعظون بها».

استدعى أمام المحكمة فلاحاً، ثم استدعى فلاحاً آخر. لم تزد هذه الأمثلة الفلاحين المجاورين إلا تهييجاً، ولكي ينتقموا من باكوم أرسلوا مواشيهم عمداً ترعى على أراضيه. وذات ليلة دخلوا الغابة الصغيرة واجتثوا من على الأرض نحو عشر زيزفونات.

في اليوم التالي، شاهد باكوم، وهو يمر بغابته، شيئاً أبيض على الأرض، وعندما اقترب عرف أشجار الزيزفون التي نُزعت عنها قشرتها. ولم يبق على الأرض سوى الأرومات. وليت المجرم اقتصر على أشجار التخوم، وليته ترك ولو شجرة واحدة واقفة! كلا بل لقد اقتُلع كلُّ شيء.

استولى الغضب على «باكوم». وفكّر: «لو علمتُ من فعلَ هذه الفعلة لانتقمتُ شر انتقام!».

لمن يعزو هذه الإساءة؟ فكّر، وفكّر. بالتأكيد ذلك الخسيس سيميون. ومضى إلى فناء منزل سيميون فلم يعثر على شيء. فتشاجر معه؛ ولما ازداد ثقة بأنه مذنب أحاله إلى القضاء. نُظر في القضية وأصدرت المحكمة حكمها فيها فبرّأت سيميون وردّت الشكوى بسبب انعدام شواهد الإثبات.

Twitter: @ketab_n

هذه التبرئةُ لم تزد باكوم إلا حدّة. وكان يهين المشرف الملكي والقاضي، قائلاً لهما:

- أنتما تدعمان اللصوص. ولو قمتما بواجبكما لما برّأتما اللصوص.

منذئذ بدأت حربٌ معلنةٌ بين باكوم وجيرانه وصلت إلى تهديده بأشد العقاب. كان بوسع باكوم أن يعيش كما يحلو له على أرضه، لكنه لما كان هدفاً لحقد الفلاحين شعر بالضيق في ناحيته.

في هذه الأثناء عُلم أن الناس أخذوا يهاجرون.

فكّر باكوم: «أنا لا شيء يجبرني على الانصراف من هنا؛ لكننا سنغدو أكثر يسراً لو هاجر بعضنا. سأشتري أرضهم لأوسّع أرضي وسأصبح أكثر رفاهية».

وذات يوم، كان باكوم في منزله عندما مرّ به غريبٌ، فلاح. دخل منزل باكوم، وطلب إيواءه ليلةً، وافق باكوم، وأطعمه وسأله: من أين جاء؟ وأين ذهب؟ أجاب الفلاح أنه آت من بعيد، من ضفاف الفولغا حيث عمل. وتشعّب الحديث فروى الغريبُ كيف يهاجر الناس إلى هناك. وأن ذويه هاجروا ليقيموا هناك. وقد سُجّلوا في سجلات الناحية وتلقّى كلٌّ واحد منهم عشرة هكتارات[1]. وأضاف:

- وهناك الأرض طيبة! حيثما يزرع الشوفان تطلع سنابله

١- كانت تُوزَّع مجاناً، في المناطق النائية، ولاسيما في سيبيريا، أراضي الدولة على الفلاحين الذين يوافقون على الهجرة إليها.

Twitter: @ketab_n

متواصلةً، عالية جداً بحيث لا تُرى الخيلُ. وتكفي خمس قبضات من السنابل لتصنع حزمةً. ورب مسكين وصل وهو لا يملك غير ذراعيه يحرث اليوم خمسين هكتاراً من القمح، وباع في السنة الماضية حنطة محصوله بخمسة آلاف روبلاً.

تلظّى باكوم عند سماع هذه الحكاية. وفكّر:

– ماذا أفعل أنا هنا، في الضيق، في حين أستطيع أن أعيش في سعةٍ هناك؟ ما عليّ إلا أن أبيع أرضي وبيتي لأذهب إلى هناك، ومعي مالي لأبني بيتاً وأستقر. إنها لخطيئة أن يعيش المرءُ هنا في ضيقٍ. بيد أني سأذهب لأرى بأم عيني وأتبيّن الحقيقة بشخصي.

عندما جاء الضيف أعدّ عدة السفر وسافر. وعندما وصل الفولغا نزل النهر على قارب بخاري حتى «سامارا»، ومشى بعد ذلك مسافة أربعمئة فرسخاً وبلغ غاية رحلته.

لم يكن كذباً ما قيل له. كان الفلاحون في هذه البلاد في سعة من العيش. كانت الناحية ترحب بالمهاجرين، وتوزع عشرة هكتارات على الرأس. وكل من كان معه بعض المال كان يمكنه إضافةً إلى الهكتارات الممنوحة لزمنٍ، أن يحصل، بسعر ثلاث روبلات الهكتار، على أجود الأراضي، بقدر ما يُريد، وإلى الأبد.

بعد أن استعلم «باكوم» عن ذلك كله، عاد إلى منزله وباع كل ما كان عنده. باع أرضه وبيته وماشيته بسعر رخيص: ثم طلب أن يُمحى اسمه من سجلات الناحية، حتى إذا جاء الربيع سافر مع ذويه إلى البلد الجديد.

Twitter: @ketab_n

وصل باكوم البلد الجديد مع ذويه. وسجل نفسه في سجلات قرية كبيرة، قدّم كأساً للذين تقدّموه وأدى ما عليه من حقوق لكل منهم. رُحّب به، وأُعطي أرضاً مقابل خمسة أنفس، أُعطي خمسين هكتاراً مع حق الرعي في أراضي الناحية. ابتنى بيتاً، واشترى ماشية كثيرة العدد؛ رأى نفسه أغنى مرتين مما كان عليه قبل. وما أعظم الخصب! خصب المراعي والأراضي المفلوحة. كان عنده كل شيء وعلى قدر ما يشاء: وعندما كان يقارن بين حياته الجديدة والحياة التي عاشها قبل، كان يجد نفسه أسعدَ عشر مرات، وكان كل شيء يبدو له أجمل عشر مرات.

هكذا رأى الأشياء في الأشهر الأولى، بينما كان يبني بيته ويستقر؛ لكنه لم يلبث أن أحسّ، بعد بعض الوقت، أنه في ضيق شديد. كان يود أن يبدأ كالآخرين في بذر حقوله بالقمح الأبيض، القمح التركي؛ لكن أراضي القمح كانت نادرة في الأراضي الممنوحة. كان القمح يُبذر في الأرض البكر التي اجتاحها العشب البري العالي ذو الريش، أو في الأراضي المستريحة. كانت الأرض تُزرع سنة أو سنتين ثم تترك ليطلع كل العشب البري قبل أن يبذروها مرة أخرى. الأرض الخفيفة كان يملك منها مَنْ شاءَ ما يشاء. لكنها لا تُنبت غير الشليم، ويتطلب القمح أرضاً قوية. وكان الجميع يطلبون الأرض القوية. ولم تكن متوافرةً للجميع: ومن هنا المشاجرات. فمن كان يملك شيئاً منها فلحها بنفسه إن كان ميسوراً، أما من كان أفقر فهو يبيعها للتجار ليدفع ضرائبه.

بذر «باكوم» في السنة الأولى أرضه بالحنطة العتيقة فأينع زرعها

Twitter: @ketab_n

وغلَّ، لكن أرضه كانت أقل كثيراً من أن تُطلع له الحنطة التي يرغب في جنيها؛ و لم تكن الأرض التي يملكها هي الصالحة لمثل ذلك؛ كان يريد أرضاً أفضل منها. لقي إذن تاجراً واستأجر أرضاً لسنة. حينئذ أتيح له أن يبذر كمية أكبر، وكان الحصاد جيداً. لكن هذه الأرض كانت بعيدة جداً عن القوية؛ وكان لابد لكي يصلها من السير خمسة عشر فرسخاً.

بيد أن باكوم رأى الفلاحين التجار يبنون منازل في الريف ويربحون مالاً كثيراً، ففكر:

– آه! لو أمكنني أن أشتري أرضاً لملكية أبدية لكان عندي، أنا أيضاً، المال والمنزل الريفي.

وبحث في ذهنه عن الوسيلة التي بها يشتري أرضاً لملكية أبدية.

على هذا المنوال عاش «باكوم» طوال خمسة أعوام، مستأجراً أراضي التجار ليبذرها قمحاً. وبما أن السنين كانت جيدة الغلّة وأن الحنطة حسنة الاستواء، فقد كان يربح بعض المال، وما كان عليه إلا أن يستمتع بحياته دون همّ استئجار الأرض كل سنة. لكن متاعبه كانت تتجدد دائماً: فما أن تعرض أرض للإيجار حتى يتهافت عليها أحدُ الفلاحين ويستولي عليها؛ وإذا وصل باكوم متأخراً لم يَدْرِ أين يبذر. وفي مرة أخرى، وبعد الاتفاق مع التجار، يستأجر حقلاً لدى الفلاحين؛ ويبذر ويفلح، وإذا بالفلاحين يدّعون عليه أمام القضاء، فتضيع جهوده سدىً. ليته يملك أرضاً له، له وحده! إذن لما ارتبط بأحد ولسارت أموره على نحو أفضل.

Twitter: @ketab_n

وإذ أخذ يبحث عن أرضٍ يشتريها لملكية دائمة، انتهى به الأمر أن عثر على فلاح يملك خمسمئة هكتاراً، أُصيب بالإفلاس وعزم على بيع أرضه بسعر رخيص. قصده «باكوم» وبعد نقاشات طويلة اتفق معه على الثمن وهو ألف وخمسمئة روبلاً يدفع نصفها ويقسط نصفها الآخر. وأوشك العقدُ أن يُوَقَّع عندما توقف عند باكوم تاجرٌ عابر طريق ليطعم جياده. قُدِّم الشاي، وبدأ الحديث، فأخبره التاجر أنه قادم من بلاد «البشكير»[٢]. ففي هذا البلاد حصل على خمسة آلاف هكتاراً من الأرض بمبلغ ألف روبلاً. وأردف راداً على أسئلة باكوم:

- لم أحتجْ من أجل ذلك إلا أن أحوز على رضا المتقدّمين. أعطيتهم فساتين وبسطاً وصندوق شاي وسقيت كلاً منهم، وحصلت على الأرض بعشرين كوبيكاً الهكتار.

أخرج من جيبه صكَّ البيع وأراه «باكوم»، وأضاف:

- ويمرّ بالأرض نهرٌ صغير، وهي مغطّاة كلها بالعشب العالي البري ذو الريش.

انهال عليه باكوم بأسئلته، فأضاف التاجر:

- وهناك الكثير من هذه الأرض التي لا تستطيع أن تدور حولها في سنة من المشي. كلها ملكُ البشكير، وهم جدُّ سذّج، بحيث يمكن أن نحصل على الأرض بثمن بخس.

٢- بلاد البشكير: شعب تتري كان يعيش على التخوم الأوروبية لجبال الأورال، وكان في هذه الحقبة، في حالة بداوة، لكنه كان يملك الكثير من الأرض البكر.

Twitter: @ketab_n

وفكّر باكوم:

- لِمَ أشتري خمسمئة هكتاراً بألف روبلاً، وأستدين فوق ذلك، في حين أستطيع بهذا الألف أن أحصل على أرض لا ندري مداها؟

- ٥ -

استدلّ باكوم على الطريق الذي يوصل إلى بلاد البشكير، وبعد أن استأذن التاجر، أعد عدّته للسفر. عهد إذن ببيته إلى زوجته، ومضى مع خادمه قاصداً أولاً المدينة المجاورة حيث تزوّد بالشاي والخمر والهدايا طبقاً لتعليمات التاجر.

شرعا في السير. سارا وسارا؛ سارا خمسمئة فرسخاً، وفي اليوم السابع بلغا قريةً من قرى البشكير. كان كل شيء جيداً كما أخبر التاجر. لقد خيّم البشكير في السهوب، بحذاء النهر الصغير، في خيامٍ من الصوف. وهم بدوٌ، لا يفلحون الأرض، ولا يأكلون الخبز، ويقضون وقتهم وهم يطوفون السهوب بخيلهم ومواشيهم.

وخلف خيامهم يربطون مهارهم التي ترضع أُمّهاتها مرتين في اليوم. ومن حليب الفرس يصنعون شراب «الكوميس»[٣]، ويمخضون «الكوميس» ليستخرجوا الجبن. وشربُ الكوميس والشاي، وأكل لحم الخروف والعزف على الناي، ذلك هو عمل البشكير كله. إن

٣- كوميس: كلمة تترية تعني الشراب المتخمّر المصنوع من حليب الفرس.

Twitter: @ketab_n

هؤلاء الناس السمينين، المتألقين، الفرحين، الذين يقضون صيفهم معيّدين، جهلةٌ جداً ولا يعرفون كلمةً من الروسية، لكنهم مضيافون جداً.

عندما رأى البشكير «باكوم» مقبلاً تركوا خيامهم وتحلّقوا حول القادم الجديد. استطاع باكوم، بفضل مترجم في مخيّمهم، أن يُفهمهم وأن يقول لهم أن ما جاء به إليهم هو رغبته في امتلاك الأرض.

احتفى به البشكير واقتادوه إلى أجمل خيمة في خيامهم؛ هناك أجلسوه على بسط وثيرة، وغطّوا قدميه بوسائد من الريش، وقدّموا له الشاي «الكوميس». وإذ ذبحوا خروفاً أعطوه أجمل قطع فيه.

أرسل باكوم خادمه ليأتيه بالهدايا التي حملها في عربته وقدّمها للبشكير ووزّع عليهم ما حمله من الشاي. فرحوا بذلك؛ وتشاوروا بلغتهم وأمروا الترجمان بأن يُترجم. قال الترجمان:

إنهم يأمرونني بأن أقول لك إنهم يكنّون لك المودة. وإن من عاداتنا نحن أن نرحب بالغرباء أجمل ترحيب وأن نرد على هداياهم بهدايا من عندنا. قلْ لنا ما الذي تريده في مقابل هداياك.

أجاب باكوم:

- ما أُحبه فوق كل شيء هو الأرض. فنحن في حاجة إلى الأرض، ونحن في ضيق عندنا، والقليل الذي نملك من الأرض ليس بالخصيب. أما أنتم فعلى العكس؛ إن لديكم الكثير من الأرض، الأرض الطيبة. ولم أر قط أرضاً شبيهةً بأرضكم.

Twitter: @ketab_n

ترجم الترجمان وتشاور البشكير مرة أخرى. لم يفهم باكوم كلمةً مما قالوه؛ إنهم يتهجون ويصيحون ويضحكون. ويخيّم الصمت أخيراً وينظرون إلى باكوم، فيقول الترجمان للغريب:

- إنهم يأمرونني بأن أقول: اعترافاً بكرمك، إنهم يعطونك عن رضاً ما تشاء من الأرض. ما عليكَ إلا أن تشير بيدك إلى الأرض التي ترغب فيها حتى تغدو ملكك.

وبدأ النقاش بينهم.

سأل باكوم:

- ماذا يقولون أيضاً؟

أجاب الترجمان:

- يقول بعضهم إنه تجب استشارة الزعيم الذي لا يمكن إبرام شيء دونه؛ ويقول آخرون: إن تدخله ليس ضرورياً.

- ٦ -

كانت المشاورة بينهم مستمرة عندما شوهد رجل بطاقيّة من جلد الثعلب يُقبل عليهم فكفّ الجميعُ عن الكلام ونهضوا.

قال الترجمان:

Twitter: @ketab_n

- هذا هو الزعيم.

حينئذ تناول باكوم أجمل ثوب عنده وسفطاً فيه خمس ليبرات من الشاي، وقدّمها للزعيم، فقبلها وجلس في المكان الأول. عرض البشكير عليه القضية فأصاخ السمع ثم أخذ يضحك وقال لباكوم بالروسية:

- ليكنْ الأرض موفورة: أشرْ إلى الموضع، واخترْ ما تشاء من الأرض.

فكّر باكوم: «كيف! آخذ منها ما أشاء! يجب أن يكون كلُّ شيء نظامياً، كيلا يأتوا ويستردوها مني بعد أن يكونوا قد قالوا لي: هذه الأرض لك».

وقال للزعيم:

- أشكرك على عرضك الكريم. أنتم تملكون الكثير من الأرض، وأنا لا أطلب الكثير منها. ينبغي أن أعلم فقط عن أي أرض تتنازلون، وأن نثبت حدودها، وأن تجري الأمور حسب الأصول؛ لأننا جميعاً ميّتون. وما تعطونه يمكن أن يخطر لأولادكم أن يستردوه.

قال الزعيم:

- ليكن! سنُجري الأمور للأشكال القانونية.

قال باكوم:

Twitter: @ketab_n

- علمتُ أن تاجراً زاركم وأنكم تنازلتم له عن شيء من أرضكم، وأنكم أمضيتم له صكاً؛ فامنحوني إذن صكاً مثله.

فهم الزعيم، وقال:

ليكن. عندنا كاتبٌ موثّقٌ. وسنذهب معاً إلى المدينة المجاورة؛ وسنمضي صكاً ونغطّيه بجميع الأختام الضرورية.

قال باكوم:

- قلْ لي الآن ما السعر الذي تطلبونه.

- ليس لدينا سوى سعر واحد وهو ألف روبل باليوم الواحد.

أدهشت باكوم هذه الطريقة في حساب السعر، فلم يفهم. وسأل:

- كم هكتاراً يساوي ذلك؟

- مستحيل أن نعلم بالضبط مسبقاً. نحن نبيع بسعر كذا في اليوم. فالأرض التي تدور حولها في يوم من المشي هي ملكٌ لك. والثمن ألف روبل في اليوم.

دهش باكوم وقال:

- يمكننا أن ندور حول الكثير من الأراضي عندما نمشي يوماً كاملاً.

- حسناً! سيكون كل شيء على مايرام، لكن بشرط أن تعود، في نهاية اليوم إلى المكان الذي انطلقت منه. وإلاّ فقدت مالك.

Twitter: @ketab_n

سأله باكوم:

- ومن يغرس الأوتاد حيثما أمرّ؟

- الأمر هكذا: سوف تختار المكان أنت نفسك، وسنقف نحن حيث تشاء وسنبقى فيه، بينما تقوم أنت بدورتك. وسيرافقك شبابنا على الخيل وسيغرسون الأوتاد حيثما تشاء. وسترتبط الأوتاد بعضها ببعض بثلم يخطّه المحراث بين الوتد والوتد. يمكنك أن تضمّ ما تشاء من الأرض، بشرط أن تعود إلى نقطة انطلاقك قبل مغيب الشمس: فكل ما تدور حوله ملك لك.

راق هذا الترتيب باكوم. وتقرر أن يكون الانطلاق في اليوم التالي، في الفجر. وعاد الجميع إلى الحديث وشرب «الكوميس» والشاي، وأكل لحم الخروف. ثم أعطاه البشكير فراشاً من الريش ومضوا إلى النوم بعد أن تواعدوا على اللقاء غداً عند الفجر، ليقصدوا معاً الموضع المختار قبل طلوع الشمس.

- ٧ -

استلقى باكوم على فراش الريش، لكن همّ الأرض الأبدي منعه من أن يغمض له جفن. وفكر:

ما أعظم العمل الذي قمتُ به هنا! سوف أُنشئ لنفسي مملكة صغيرة تامة. وأنا أستطيع أن أقطع في يوم واحد خمسين فرسخاً[٤]،

٤- أي ما يعادل اثنين وخمسين كيلو متراً.

Twitter: @ketab_n

لأن النهار، في هذا الفصل طويلٌ طوال سنةٍ. وخمسون فرسخاً لا تعادل أقل من مساحة عشرة آلاف هكتاراً وحينئذ سأغدو سيد نفسي ولن أرتبط بأحد سأشتري ثيراناً لمحراثين، وأستأجر خدماً، وأفلح قطع الأرض التي تبدو لي أفضل القطع، وأُرعي ماشيتي فيما يبق من الأرض.

على هذا النحو، قضى الليل كله دون أن يتمكن من النوم. ولم يَغْفُ لحظة إلا عند الفجر. أغفى وحلم.

حلم أنه مضطجع تحت هذه الخيمة ذاتها وأنه يسمع في الخارج قهقهات. ولما كان حريصاً على أن يعلم من الذي يقهقه هكذا، إذا به يثب من فراشه ويخرج من الخيمة؛ فيظهر له زعيمُ البشكير جالساً أمام الخيمة، يداه على بطنه وهو يقهقه. فيتقدم ويقول له، «ممَّ تضحك؟» فإذا الذي أمامه ليس زعيم البشكير وإنما التاجر الذي توقف قديماً عنده وحدّثه عن السهوب. سأل التاجر عن أخباره. لكنه لم يعد يرى التاجر وإنما رأى الفلاح الذي استضافه ذات ليلة. لكنه ليس الفلاح وإنما هو الشيطان بعينه، قرناه في جبينه وقدماه ظلفاوان، وهو يضحك بملء فيه وينظر إلى شيء ما. فيتساءل باكوم: إلامَ ينظر هكذا؟ وممّ يضحك؟ فيدنو منه، وماذا يرى؟ يرى رجلاً حافي القدمين يرتدي فقط قميصاً وسروالاً داخلياً، ناظراً إلى السماء، أبيض الوجه كالثوب الأبيض. وإذ حدّق فيه باكوم تعرّف على نفسه في هذا الرجل.

فيطلق باكوم صرخة ويستيقظ. يستيقظ ويفكر:

«باه! ما هذا إلا حلمٌ».

Twitter: @ketab_n

ويحاول أن يعود إلى النوم، لكنه يتبين أن الصبح سينبلج.

«يجب أن أوقظ الجميع، فقد حان موعدُ الانطلاق».

وينهض، ويمضي إلى عربته، ويوقظ خادمه، ويأمره بربط الخيل، وينادي البشكير.

وينهض هؤلاء، ويجتمعون، ويصل الزعيم بدوره، ويُحْمَل الكوميس والشاي. ويقدّمون شيئاً منهما لباكوم لكنه شديد الاستعجال، فيقول لهم:

- حان موعدُ الانطلاق، فلننطلق.

فيشرعون في السير جميعاً، بعضهم على الجياد، والبعض الآخر في العربات، وباكوم في عربته مع خادمه. لم يلبثوا أن بلغوا السهوب.

وبينما كان الفجر يطلع، بلغوا قمةً رابيةٍ. ترجّل البشكير وشكّلوا جماعة واحدة. اقترب الزعيم من باكوم، وأراه بإصبعه البلد الذي يمتدّ أمامهم، وقال له:

- هذا البلد كله، ملكٌ لنا، كل ما تشمله بنظرك. فاختر.

اشتعل بريقٌ في عيني باكوم. لقد كانت الأرض تمتدّ حتى أبعد نقطة في الأفق، مفروشةً ببساط من العشب البري العالي ذي الريش، مستويةً مثل راحة اليد، سمراً مثل حبوب الخشخاش. أعشابٌ من جميع الأنواع: أعشاب عالية حتى الصدر تشير إلى مواقع الوهاد.

Twitter: @ketab_n

وينزع الزعيم طاقيّته التي من جلد الثعلب ويضعها على قمة الرابية.

قال:

– هنا نقطة الاستدلال. سيمكث خادمكَ هنا: اترك مالك في الطاقية. ستنطلق من هنا وستعود إلى هذه النقطة ذاتها. كل ما تدور حوله سيكون ملكك.

أخرج باكوم ماله ووضعه في الطاقية، ونزع معطفه، ولم يُبقِ سوى قفطانه، ويشدّ زنّاره، ويتزوّد بقليل من الخبز في زوّادة صغيرة، ويعلق بجنبه زجاجة صغيرة ملأى بالماء، ويصحّح ساقيتي حذائه. ويستعد للانطلاق. ويفكّر لحظة: في أي اتجاه أسير؟ لكن الأرض جيدة. سأمشي في جهة الشرق».

وإذ اتجه إلى جهة الشمس انتظر طلوعها.

وفكر: «لا وقت أضيّعه، يجب أن أستغل البرودة، فالمشي فيها أقل إجهاداً».

اعتلى البشكير جيادهم، واستعدوا، من جهتهم، لنزول الرابية كي يرافقوا باكوم. ولم تكد الشمس تبزغ في الأفق حتى انطلق باكوم ومضى عبر السهوب يتبعه الفرسان.

كان يمشي مشية متساوية، لا هي بالبطيئة ولا هي بالمستعجلة. وبعد فرسخ غرس وتداً، وانطلق من جديد. وعندما نشطت ساقاه أغذّ السير. سار وسار، وأمر بغرس وتد آخر أيضاً. التفت إلى الوراء:

Twitter: @ketab_n

كانت الرابيةُ ظاهرة بوضوح، تنيرها الشمس المشرقة، وميّز عليها دون مشقة جمهور البشكير.

كان قد قطع إذ ذاك، حسب تقديره، نحو خمسة فراسخ، وبما أنه حمي خلع قفطانه، وشدّ زناره، وتابع طريقه. مشي أيضاً خمسة فراسخ، وأخذ الحرّ يشتدّ. رفع عينيه نحو الشمس ورأى أن وقت الفطور قد حان.

وفكّر:

ها أنا ذا في الربع الأول من نهاري، وفي النهار أربعة أرباع. لم يحن بعد وقت الانعطاف. لكنني سأقلع حذائي فقط.

جلس أرضاً، وقلع حذائه، واستأنف سيره، بخطىً خفيفة نشطة. وفكّر:

«خمسة فراسخ ثم أنعطف بعدها إلى اليسار الأرض جيدة هنا وهي أجود من أن أنعطف الآن. وكلما تقدّمتُ كانت أجود».

واستمر في طريقه، لا يلوي على شيء. وفي لحظة أدار رأسه مرة أخرى: لم يكد يشاهد الرابية، وبدا البشكير عليها كالنمل الأسود. قال في نفسه: «هيا، يجب أن أنعطف هنا. فقد تجمّع لدي الآن الكثير من الأرض».

أخذ العرقُ يتصبّب على وجهه، كما أنه عطش. وأثناء مشيه، تناول زجاجته وشرع يشرب منها. ثم غرس وتداً جديداً وانعطف إلى اليسار.

Twitter: @ketab_n

ها هو ذا يسير ويسير؛ العشب عال وكثيف، والحرّ يتضاعف، ويحسّ باكوم بشيء من التعب. إنه ينظر إلى الشمس ويتبيّن أن الوقت مايزال وقت الغداء. وفكّر: «حسناً! سوف أستريح لحظة».

ويتوقف، ويُخرج من زوادته قطعة خبز يأكلها واقفاً. لأنه قال في نفسه: لو جلستُ لتمدّدت على الأرض ولنمتُ.

ويظل هنا لحظة، ويسترد أنفاسه ويستأنف السير.

سار أولاً بخفة، إذ عاد إليه نشاطه بالطعام. لكن الحرارة تشتدّ ويتملكه النعاس. لقد كان تعبه عظيماً. فيقول في نفسه متشجعاً: «ساعة من الألم ودهرٌ من السعادة».

ظل يسير في وجهته نحو عشرة فراسخ؛ ولما كان على وشك أن يتعطف إلى اليسار أيضاً راعه منظرٌ وهدة نظرة. فقال في نفسه:

«لا يمكنني أن أترك هذه الوهدة خارج ملكي؛ فهنا يغلُّ القنب». وتابع طريقه على خط مستقيم وقرّر ألا ينعطف إلا بعد أن يضمّ الوهدة إلى دائرته وأمر بغرس وتد.

ومرة أخرى، نظر إلى الرابية. فشقّ عليه تمييز جماعة البشكير، كانت تفصله عنهم نحو خمسة عشر فرسخاً على الأقل. وفكّر:

«جعلت الضلعين الأوليين طويلتين جداً؛ ينبغي أن تكون هذه الضلع أقصر». قطع الضلع الثالثة بخطىً حثيثة. أخذت الشمس تنحدر بسرعة؛ رآها قريبةً من مغربها. لم يكد يسير فرسخين على هذه

Twitter: @ketab_n

الجهة الرابعة؛ كان مايزال عليه نحو خمسة عشر فرسخاً من المعلم الرئيسي الذي ينبغي بلوغه.

يجب أن أتجه الآن نحو الهدف. ولا ضير إن كانت أرضي غير منتظمة الجوانب فعندي ما يكفيني.

ويتممّ شطر الرابية رأساً.

- ٨ -

كان باكوم يسير رأساً إلى الرابية. كان منهكاً. تشقّقت قدماه، وآلمتاه ألماً فظيعاً، وتخاذلت ساقاه تحته. ودّ لو يستريح. لكن كل توقّف كان محظوراً عليه: فلن يبلغ حينئذٍ هدفه قبل مغيب الشمس. والشمس لا تنتظره؛ كانت تنحدر وكأنها ستسقط، وكأن هناك من يدفعها. فكر باكوم: «واأسفاه! أخشى أن أكون خُدعتُ. لقد وسّعتُ الدائرة. وماذا سيحلّ بي إذا لم أبلغ الهدف قبل الوقت المحدد؟ وما أبعده حتى الآن، وما أشد تعبي! أوه! وماذا لو فقدت روبلاتي وعنائي! سأضاعف جهودي وأحاول المستحيل!».

وأسرع باكوم في مشيته. نزّت قدماه دماً، فلم يخفّف من جريه. إنه يركض ويركض لكن الهدف ظل بعيداً. تخلص من قطانه ومن زجاجاته، ونزع طاقيته وحذاءه ورماهما.

فكّر: «واأسفاه! أضاعني طمعي. لن أبلغ الغاية قبل مغيب الشمس».

Twitter: @ketab_n

خنقه الرعبُ، وضاق نفسه من جراء ذلك. واستمرّ يركض؛ جفّ حلقُه، ولصق قميصه وسرواله الداخلي بجلده من العرق. وأخذ صدره يرتفع ويهبط كأنه منفاخ الحدّاد، وقلبه يخفق كالمطرقة. لم يعد يحسّ بقدميه، وانطوى عرقوباه، وخارت قواه. لم يعد يفكر بالأرض؛ وغدا همه الوحيد ألا يسقط ميتاً من التعب. إن باكوم يخشى الموت، لكنه لا ينفكّ عن الركض، وهو يفكر:

«بما أنني ركضتُ هذا المقدار، سأُعَدّ غبياً الآن إن توقفت».

إنه يسمع صرخات البشكير وصفيرهم فيزيده ذلك حميّةً للركض. ويستعجل وينهك نفسه، ويبذل آخر قواه. ويقترب من الهدف. فيميّز على الرابية كل واحد؛ جميع الأيدي تومئ إليه أن يستعجل. وها هو ذا يشاهد الطاقية على الأرض، مع المال، والزعيم مقرفصاً على الأرض. ويداه على بطنه. فيعود حلمُ باكوم إلى ذاكرته.

قال في نفسه:

«الأرضُ موفورة، فهل سيُنعم عليّ الله بأن أحيا فيها؟ أوه! أنا نفسي أهلكتُ نفسي».

وتابع جريه. رفع عينيه نحو الشمس؛ كانت قانية الحمرة، شديدة العرض، تكاد تلامس الأرض، بل لقد لامستها؛ فها إن حافتها السفلى تختفي عن النظر. وعندما يصل باكوم راكضاً سفح الرابية يختفي الكوكب.

أطلق باكوم آهةَ اليأس، ورأى نفسه هالكاً. لكنه يفكر في أن

Twitter: @ketab_n

الشمس إن غابت بالنسبة إليه، وهو عند سفح الرابية، إلا أن الذين في أعلى مايزالون يرونها. ويصعد جرياً، ويشاهد الطاقية. إنه النصر! ويتعثر باكوم ويتدحرج على الأرض لكنه يلامس بيده اليمنى الطاقية وهو يسقط.

قال له زعيم البشكير:

- ممتاز! مرحى، يا فتاي. لقد ربحتَ ملكاً كبيراً.

هُرع خادم باكوم ليرفع سيّده، لكنه يتبيّن أن الدم يسيل من فمه. لقد مات باكوم. ويجلس الزعيم على الأرض ويداه على بطنه، وينفجر ضاحكاً.

... ثم ينهض ويتناول معولاً ويرمي به إلى الخادم، قائلاً:

- خذ هذا المعول لتحفر له حفرة.

ويعتلي جميعُ البشكير خيلهم وينسحبون تاركين الخادم قرب الجثة.

وحين بقي الخادم وحده، حفر حفرة بطول الجسم فقط، بطول ثلاثة أذرع، ودفن فيها باكوم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قصة إيفان الغبي

- ١ -

ذات مرة، كان في إحدى الممالك فلاحٌ غني له ثلاثة أولاد: سيميون المحارب، وتاراس البطين، وإيفان الغبي[1]، وبنتٌ خرساء تُدعى ميلانيا.

دخل سيميون المحارب في خدمة القيصر[2]، ومضى تاراس البطين إلى المدينة ليتدرب عند أحد التجار؛ أما إيفان الغبي فقد ظل في بيته مطمئناً مع أخته الخرساء.

حصل سيميون المحارب أخيراً من القيصر، لفَرْط ما حارب، على رتبة عالية وأرض حسنة، مكافأة له. حينئذ استطاع أن يتزوج ابنة إقطاعي. لكن كان يُعوزه المال دائماً، وإن كان ملكه واسعاً ومرتّبه مرتفعاً؛ كان كل ما يكسبه تنفقه امرأته، وكان دائماً خالي الوفاض.

١- تصوّر الحكاياتُ الشعبية الروسية شخصية الأخ الثالث أبله وطيباً، لكنه ناجح في الحياة أكثر من أخويه اللذين يحتقرانه.

٢- في خدمة القيصر: في الحكاية الروسية كل ملك يحمل لقب «قيصر».

Twitter: @ketab_n

ذات يوم ذهب إلى ملكه ليتسلم المزارعة. قال له وكيله:

- لا شيء عندي أسلّمك إياه. إذ لا ماشية لدينا ولا خيل ولا ثيران ولا محراث. اشترِ ذلك كله إن شئت أن تحصل على مردود.

حينئذٍ ذهب إلى والده الفلاح وقال له:

- أنت غبيٌّ، و لم تُعطني شيئاً. أنت مدين لي بالثلث؛ أعطني إياه لأتمكن من استغلال أرضي.

لكن الشيخ أجابه:

- لِمَ أعطيك الثلث. وأنت لم تأتِ بشيء إلى البيت؟ سأجور على إيفان وابنتي.

رد عليه سيميون:

- إيفان غبي، وميلانيا خرساء. وهل هما بحاجة إلى شيء؟

أردف الشيخ:

- هيا! ليقرر إيفان بذاته.

ولما استُشير إيفان أجاب:

- فليكنْ، فليأخذْ حصته.

فأخذ حينئذٍ المحارب حصته، واستخدمها في أراضيه، وعاد يحارب مع القيصر.

Twitter: @ketab_n

جمع تاراس البطين أيضاً شيئاً من المال وتزوج ابنة تاجر؛ لكن لم يكن لديه المال الكافي، فقصد أباه وقال له:

- أعطني الثلث الذي يخصّني.

لكن الشيخ لم يكن أيضاً مستعداً لأن يسلّم تاراس الحصة التي يطالب بها. فقال له:

- أنت لم تأتِ بشيء إلى البيت. إيفان هو الذي كسب كل ما عندنا. ولا أريد أن أجور عليه، ولا على ابنتي.

قال تاراس:

- إيفان غبي، ولا يمكن أن يتزوج: فأية فتاة ترضى به زوجاً؟ لا حاجة به إلى المال، وكذلك الخرساء.

وأضاف مخاطباً إيفان:

- أعطني نصف القمح وسأترك لك كل آلات الحراثة؛ أما الحيوانات فلست أطالب بغير الفرس الشهباء التي لا تصلح للحراثة.

قال إيفان الذي أخذ يضحك:

فليكنْ!

وهكذا أخذ تاراس، مثل سيميون، حصته من الإرث، واقتاد الفرس الشهباء، وحمل إلى المدينة نصف القمح. أما إيفان فظل وحده مع حصان عجوز، يعيش في حقله، وهو يفلح الأرض ويُعيل أهله.

Twitter: @ketab_n

- ٢ -

بيد أن رئيس الشياطين ثارت ثائرته حين رأى الإخوة الثلاثة يسوّون قضاياهم تسوية ودّية، دون أي خصام، ويفترقون أصدقاء متحابين، فاستدعى ثلاثة شياطين صغار، وكلمهم بالكلام التالي:

- اصغوا إليّ. هناك ثلاثة إخوة، سيميون المحارب، وتاراس البطين، وإيفان الغبي. وبدلاً من أن يختصموا كما ينبغي أن تكون الأمور، ها هم أولاء يعيشون وبينهم أحسنُ العلاقات. والخطأ يقع على عاتق إيفان الغبي فهو الذي أحبط مشاريعنا كلها وأفسد أعمالنا. اذهبوا والقوهم ثلاثتهم؛ اذهبوا وأفسدوا ما بينهم إلى حدٍّ يسعون معه إلى اقتلاع العيون. هل تضطلعون بهذه المهمة.

قال الشياطين الثلاثة:

- نعم نضطلع بها.

- وكيف السبيل إلى ذلك؟

- السبيل إلى ذلك كالتالي: سنفقرهم أولاً حتى إذا لم يبق لديهم ما يأكلونه سنجعلهم يتواجهون، يواجه بعضهم بعضاً، وحينئذ سيتقاتلون. قال رئيس الشياطين:

- ممتاز. أرى أنكم تحسنون العمل. انطلقوا إذن، وإياكم أن تعودوا قبل أن تفرّقوا بين الأخوة الثلاثة. وإلا فأنذركم بأني سأسلخ جلودكم.

عاد الشياطين الصغار إلى مستنقعهم[٣] ليتشاوروا. كيف ينجحون؟

٣- إلى مستنقعهم: تريد العقائد الشعبية أن يكون المستنقع مقراً للأرواح الشريرة.

Twitter: @ketab_n

تناقشوا طويلاً، وكان كلٌّ منهم يود لو يضطلع بأسهل مهمة. تُرك للقرعةِ أمرُ تقرير القسط الذي يعود لكل منهم في العمل المشترك، واتفقوا على أن من ينهي مهمته أولاً عليه أن يمدّ يد العون لرفيقيه. وبعد أن اقترعوا وحدّدوا اليوم الذي يجتمعون فيه مرةً أخرى ليُطلع كلٌّ منهم رفيقيه على ما حقّقه من مشروعهم، افترقوا.

وفي اليوم الموعود، التقوا ثلاثتهم في مستنقعهم وتحادثوا عن مشروعهم. تحدّث الأول عن سيميون قائلاً:

- إن عملي يسير وفق المراد. سيذهب سيميون ليلقى أباه غداً.

سأله رفاقه عن الطريقة التي اتخذها لينجح.

- بدأتُ بإثارة شجاعة سيميون إلى الحدّ الذي تعهّد معه بإخضاع الدنيا كلها لقيصره. حينئذ عيّنه القيصر قائداً عاماً وأرسله ليحارب القيصر الهندي. وعندما التقى الجيشان بلّلتُ البارود في معسكر سيميون، وفي الليلة نفسها، ذهبت إلى القيصر الهندي، وصنعتُ له جنوداً من القشّ. وفي اليوم التالي، نشبت المعركة؛ وعندما رأى محاربو سيميون جنود القش يسيرون نحوهم ارتعبوا. وإذ رأى سيميون ذلك، أمر بإطلاق النار، لكن البنادق والمدافع أبتْ أن تنطلق. استولى الذعر على جنود سيميون وفرّوا كالخراف؛ ولم يجد القيصر الهندي مشقة في تذبيحهم. حُقِّر سيميون، ونُزعت منه أملاكُه، وسيُعدم غداً. ولم يبق عليّ سوى أن أفتح له سجنه. سينتهي كلُّ ذلك غداً. فمَنْ منكما أساعدُ؟

تحدث الشيطان الثاني الذي كُلِّف أمر تاراس قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- إن عملي يسير أيضاً في الطريق الصحيحة. ولا فائدة من مساعدتي فبعد هذا اليوم بثمانية أيام، ستتغيّر أعمال تاراس تغيّراً كليّاً. كان همّي الأول تضخيم بطنه ومضاعفة جشعه. وغدا طمّاعاً في أموال الآخرين حتى إنه كان يريد أن يمتلك كل ما يراه. أنفق ماله كله في التملك. وهو ما يزال يشتري حتى الآن، لكن بالمال الذي اقترضه. لقد حمّل نفسه عبئاً ثقيلاً بحيث لا يمكنه التخلّص منه. وفي مدى ثمانية أيام تبلغ سنداتُه استحقاقها، وبما أني أفسدت بضاعته كلها فسوف يعجز عن مواجهة التزاماته، وسيمضي قدماً إلى أبيه.

وسئل الشيطان الثالث عن حالة عمله، فقال:

- لا أدري ماذا أقول لكم. كل شيء عندي يسير من سيء إلى أسوأ. بصقتُ أول الأمر في شراب التفاح الذي لإيفان كي أُفسد أحشاءه. ثم قصدتُ حقله، ولأحول بينه وبين الحراثة، صلّبتُ الأرض حتى صارت كالحجر، ظاناً أنه لن يستطيع الهرب. لكن الغبي وصل بمحراثه وفتّت المدر. لقد بذل طاقة عظيمة بحيث أن عمله تمّ مع ذلك. وماذا فعلتُ؟ كسرتُ محراثه. لكنه عاد إلى المنزل وحمل محراثاً آخر وأخذ يحرث مرة أخرى. وحينئذ دخلتُ تحت الأرض وقبضتُ على المحراث؛ لكن تعذّر إيقافه لفرط ما كان يشدّ بثبات؛ وبما أن سكة المحراث كانت مشحوذةً أدميتُ يدي. حرث حقله كله ماعدا شريطاً أخيراً. وأنا بحاجة إلى مساعدتكما يا أخويّ، لأننا إن لم نتغلب على الغبي فإن تعبنا سيذهب أدراج الرياح. فمادام يشتغل سيظلّ يطعم أخويه، وسيظلان بمأمن من الفاقة.

Twitter: @ketab_n

تعهد شيطان سيميون المحارب بالعودة في اليوم التالي، وبعد ذلك افترقوا.

- ٢ -

لم يبق على إيفان سوى شريط إذا فلحه انتهى كلُّ شيء. عاد ليستأنف العمل. كان يشكو بطنه، لكنه استمر مع ذلك في عمله، مخلّصاً سكّته من الأرض التي كانت تلتصق بها، مديراً محراثه ليشرع في ثلم جديد.

وبينما هو يبدأ ثلماً جديداً. أحس أن جذراً أوقفه. كان ذلك هو الشيطان الذي غاص تحت الأرض وأمسك بالمحراث وتشبّث به.

قال إيفان في نفسه:

- هذا شيء فريد. إذ لم يكن في هذا الموضع جذور، مع أن هذا بالتأكيد جذر. ولما أدخل يده في قاع الثلم، نبش قليلاً فوقعت أصابعه على شيء رخو. قبض عليه وسحبه من الثلم. كان أسود كالجذر وكان يتحرك.

- أوه! أوه! شيطان صغير حي! يا له من حيوان حقير!

رفع إيفان يده ليسحق رأسه على الأرض. أرسل الشيطان تأوهاً؛ قال:

Twitter: @ketab_n

- لا تقتلني، فسوف أفعل كل ما تريده مني.

- وماذا ستفعل لي؟

- ما تشاء. ما عليك إلا أن تتكلم.

حكّ إيفان قذاله.

- إني أتألم من بطني؛ أتستطيع شفائي؟

قال الشيطان:

- نعم.

- إذن، اشفني.

انحنى الشيطان، نبش الأرض بمخالبه واقتلع جذراً ذا ثلاثة رؤوس حادة قدّمه لإيفان، وقال له:

- خذ هذا الجذر، ابلعْ من هذه الرؤوس وستشفى من دائك.

أطاعه إيفان واقتطع أحد الرؤوس الثلاثة وابتلعه فشفي.

أخذ الشيطان يتأوه من جديد وقال:

- اتركني، سأغوص تحت التراب، وأعدك ألا أتجوّل بعد الآن.

قال إيفان:

Twitter: @ketab_n

- فليكنْ، والله معك!

لم يكد إيفان يلفظ اسم الله حتى ابتلعت الأرض الشيطان وكأنه حصاة في قاع الماء إذ لم يترك وراءه سوى ثقب.

وضع إيفان في طاقيّته رأسي الجذر الباقيين واستأنف حراثته. فأنهى الشريط الأخير. فأدار المحراث وعاد إلى منزله.

عندما حلَّ الدوابَ دخل مسكنه الخشبي: كان أخوه سيميون المحارب جالساً مع زوجته إلى المائدة لتناول وجبة المساء. لقد نُزعت منه جميعُ أملاكه. وبشقّ النفس استطاع أن ينجو من السجن ليبحث عن مأوى له في بيت أبيه.

قال سيميون لدى مرأى إيفان:

- جئنا لنلقاك. أطعمنا أنا وزوجتي ما لم نجد ملجأً آخر.

قال إيفان:

- فليكن! عيشا هنا بطمأنينة.

ومضى ليجلس على المقعد. لكن امرأة سيميون، وهي ابنة إقطاعي، أعربت عن تضايقها من رائحة الغبي. وقالت لزوجها:

- ليس بوسعي أن آكل بجنب فلاح خبيث الرائحة.

حينئذ خاطبَ سيميون المحارب إيفان قائلاً:

Twitter: @ketab_n

– استقبحت امرأتي رائحتك. ينبغي لك أن تذهب وتأكل في البهو.

قال إيفان:

– فليكن! ها قد جاء الليل، وعليّ أن أطعم الحصان.

وإذ قطع شيئاً من الخبز، تناول قفطانه وذهب إلى الفناء من أجل حراسة الليل.

غدا شيطان سيميون المحارب حرّاً منذ الآن؛ جاء، كما وعد، ليضمّ جهوده إلى جهود رفيقه للتغلب على إيفان الغبي.

سلك طريق الحقل حيث ظنّ أنه سيلقى صاحبه: ويصل ويبحث فلا يجد أحداً. لا أحد سوى الثقب. قال في نفسه:

– هيا. قد تكون أصابت صاحبي مصيبة. وعلي أن أحلّ محله. لكن الحقل محروث بأكمله. وسأنتظره حيث يُحشّ الكلأ.

مضى إلى المرج، ونشر على العشب طبقة من الطين. عند مطلع الفجر، أنهى إيفان حراسة الليل فأطلع منجله وانطلق لحشّ مرجه.

وصل وباشر من فوره عمله. ألقى بمنجله مرة ومرتين: لكن العشب قاوم، والمنجل لم يقطع؛ حدُّ المنجل بحاجة إلى شحذ. وعبثاً بذل إيفان جهده، كان مستحيلاً أن يصل إلى شيء. فقال:

– سأعود إلى البيت لآتي منه بحجر الشحذ مع مؤونتي من

Twitter: @ketab_n

الخبز، ولو أني بقيتُ ثمانية أيام هنا، فلن أترك هذا المرج قبل أن يُحصد بأجمعه.

هذه الكلمات التي سمعها الشيطان حملته على التفكير. قال:

- ما أشد عناد هذا الغبي! سيشقّ عليّ التغلبُ عليه. وعليّ أن أعثر على وسيلةٍ أخرى.

وبعد أن شحذ إيفان منجله استأنف عمله.

اندس الشيطان بين العشب، أمسك بيده رأس المنجل وأغرقه في الأرض. لكن إيفان بذل كثيراً من الطاقة وفرغ من حصاده، بالرغم من الصعوبات التي أثارها الشيطان، و لم يبق عليه سوى شريط أخير يحصده، بحذاء المستنقع.

انسلّ الشيطان إلى المستنقع وقال في نفسه:

- سأمنعه هذه المرة ولو اضطررتُ أن أفقد جميع قوائمي.

قصد إيفان المستنقع. كان العشب نادراً؛ لكن المنجل لم يعد يعمل. اهتاج ورماه من غضبه بكل قوة ذراعه.

لم يصمد الشيطان للضربة؛ و لم يتملص منها إلا بجهد بالغ، فيشعر أن مشروعه لا يسير البتّة، ويلجأ إلى شجرة عظيمة. لكن إيفان بحركة من منجله يصيب الشجرة ويقطع ذنب الشيطان. انتهى من الحصاد، وكلّف أخته تجميع الكلأ، وأخذ منقباً وذهب لحصاد الشليم.

Twitter: @ketab_n

ويصل إلى حقل الشيلم ويلاحظ أن جميع السنابل متشابكة. هذا من عمل الشيطان الذي مرّ من هنا. ويعود إيفان إلى بيته ويترك المنقب الذي لم ينفعه، ويستبدل به منجلاً، وها هو ذا يقطع قطعاً حسناً وكثيراً فلم يلبث الشيلم أن أصبح على الأرض.

قال:

- والآن دور الشوفان.

فيسمعه الشيطان ذو الذنب المقطوع ويفكر: «لم أستطع أن أطوله في الشيلم، لكني سأطوله في الشوفان. لننتظر الصباح فقط.

ويصل الشيطان عند مطلع النهار إلى حقل الشوفان فإذا بالسنابل قد قُطعت. ذلك أن إيفان قضى الليل وهو يعمل كي لا يفقد من الحب إلا الأقل.

غضب الشيطان:

- قطع الغبيُّ كل شيء، وأنا منهوك. لم يصبني، حتى في الحرب مثل هذا الأذى. هذا اللص لا ينام. من المستحيل الوصول قبله. لم يبق عليّ إلا أن أندسّ بين الأكداس لكي أجعلها تتعفّن كلها.

واتجه نحو أكداس الشيلم، وانسل بين حُزمه وأخذ يُعفّنها. تعب في تسخينها وانتهى بأن نام.

بعد أن ربط إيفان الحصان بالعربة ذهب لجلب حزم الشيلم. وسرعان ما وصل إلى الحزمة التي كمن عندها الشيطان؛ ألقى بمذراته

Twitter: @ketab_n

في الكدس فأصاب مؤخرة الشيطان. وسحب المذراة، فماذا رأى في طرفها؟

شيطاناً صغيراً حياً ينقصه نصفُ ذنبه. أخذ يتلوى ويرتعش ويحاول الفرار.

- أواه! يا للحيوان الحقير! أهذا أنت مرة أخرى؟

أجاب الشيطان؟

- أنا، أنا غير الذي عرفته. الذي رأيته أخي. أما أنا فكنتُ عند أخيك سيميون.

- لتكنْ من تكون، لا أهمية لذلك. سأعاملك كما عاملتُ الآخر.

أوشك أن يحطم رأسه على الأرض لولا أن أخذ الشيطان يستعطفه:

- اتركني. أعدكَ ألا أعود إليها ثانية، وأن أفعل لك كل ما تشاء.

- وماذا تحسن أن تفعل؟

- أحسن صنع الجنود بأي شيء كان.

- جنود؟ وما الفائدة من ذلك؟

- تصنع بهم ما تشاء: الجنود يصلحون كل شيء.

- أيعرفون الغناء؟

Twitter: @ketab_n

- نعم.

- إذن، اصنعْ لي بعض الجنود.

أجاب الشيطان:

- خذ حزمة الشيلم هذه، واضرب سنابلها بالأرض وقل هذه الكلمات: «عبدي يأمر أن تكفّي عن كونك حزمةً وأن تتحول كل سنبلة من سنابلك إلى جندي».

تناول إيفان الحزمة، وهزّ سنابلها على الأرض ولفظ الكلمات المطلوبة. تناثرت الحزمة وتحوّلت سنابلها إلى جنود يتقدمهم بوّاقٌ ينفخ في بوقه وطبّال يقرع طبله.

أخذ إيفان يضحك، وقال:

- انظر، ما أجمل هذا! إنه مسلٍّ؛ هو بهجة البنات...

قال الشيطان:

- ستتركني الآن أنصرف.

- لا. لن أتركك الآن. أريد أن يعود الجنود سنابل، وإلا ضاعت حبّات الشيلم. علّمني الطريقة التي أرجعهم حزماً، لكي أستخرج حبّها بالمدقّة.

أجاب الشيطان:

Twitter: @ketab_n

- ما عليك إلا أن تقول: «ليكن عدد السنابل بعدد الجنود. إن عبدي يأمر أن يتحول الجنود إلى حزم».

فعل إيفان ما أشار به الشيطان وتحوّل الجنود إلى سنابل. حينئذ أخذ الشيطان يتوسّل ويتأوه.

- دعني، الآن.

قال إيفان الذي وضعه على الأرض وقد أمسكه بيد وسحب المذراة باليد الأخرى:

- ليكن الله معك!

لكن لم يكد إيفان يلفظ اسم الله حتى ابتلعت الأرضُ الشيطان مثل حصاة في قاع الماء، و لم يترك وراءه سوى ثقب.

عاد إيفان إلى منزله فوجد أخاه الثاني تاراس جالساً إلى المائدة مع زوجته لتناول وجبة المساء. لم يستطع تاراس البطين أن يفي بالتزاماته فبحث عن ملجأ لدى أبيه. قال عند مرأى أخيه:

- إيفان، أطعمنا، زوجتي وأنا إلى أن أعود غنياً.

قال إيفان:

- فليكن! عيشا مطمئنين هنا.

ثم خلع قفطانه وجاء ليجلس إلى المائدة، لكن التاجرة قالت لزوجها:

Twitter: @ketab_n

– يستحيل عليّ أن آكل مع «الغبي»؛ فرائحة العرق تفوح منه.

حينئذ خاطب تاراس البطين أخاه قائلاً له:

– إيفان، رائحتك خبيثة. ليتك تذهب وتأكل في البهو.

قال إيفان:

فليكنْ. على كل حال، علي أن أخرج لإطعام الحصان ولحراسة الليل.

أخذ قطعة من الخبز وارتدى قفطانه ومضى إلى الفناء.

– ٥ –

عاد شيطان تاراس البطين الذي تحرّر بعد إكمال مهمته، عاد للبحث عن رفيقيه ليساعدهما على «الغبي»، كما تعهّد بذلك.

ويصل حقل إيفان، فيبحث ويبحث: لا أحد. لا شيء سوى ثقب. ويقصد المرج ويبحث. لا شيء سوى ذنبٍ في المستنقع، وبين الشيلم ثقبٌ آخر. ففكر:

– آه! ربما أصاب رفيقي مكروهٌ وعليّ أن أحلّ محلهما وأن أناضل وحدي ضد إيفان.

وينطلق بحثاً عن إيفان. لكن «الغبي» الذي لم يعد له شغل في

Twitter: @ketab_n

الحقل حيث انتهى من مهمته، كان قد قصد الغابة، وعكف وفأسُه في يديه، على قطع الأشجار.

كان قد وجد أخوا إيفان منزله ضيقاً عليهما ضيقاً شديداً، فأمرا «الغبيَّ» ببناء منزل آخر لهما.

بلغ الشيطان الغابة بسرعة واندسّ بين الأغصان وتهيّأ لعرقلة عمل إيفان.

شقّ إيفان شجرة ليقطعها ويرميها في مكان فارغ، ودفعها بشدّة، لكن الشجرة انحنت إلى الجهة غير المطلوبة، فتعلّقت أغصانها بأغصان الأشجار المجاورة. تناول إيفان مذراةً طويلة وحاول تخليصها؛ لكنه لم يتوصل إلى إسقاطها في الموضع المحدّد إلا بعد جهود هائلة.

حينئذ انتقل بفأسه إلى شجرة أخرى. فلقي المشقة نفسها في اجتثاثها.

تصدّى لشجرة ثالثة، فحدث الشيءُ نفسه. واحتاج لينجح في عمله إلى بذل طاقة جبّارة.

كان قد قدّر أنه سيقطع في يومه خمسين جذعاً فتياً، ولم يكد يتجاوز العشرة عند حلول الظلام.

أحسّ بأنه منهوك. كان البخار ينبعث من جسمه كما ينبعث الضباب في الغابة؛ لكنه تابع عمله.

وسقطت شجرةٌ أخرى تحت ضرباته؛ لكنه أحسّ حينئذ في ظهره بألم حادٍ جداً قطعه عن عمله. فترك فأسه على الأرض ليستريح قليلاً.

Twitter: @ketab_n

أفرح هذا المنظر الشيطان الصغير، ففكّر:

- ممتاز! سيترك عمله. وسأستمتع أنا أيضاً، بلحظة من الراحة.

وجلس مفرشخاً على غصن وكلّه سرور.

لكن إيفان يقف فجأة ويتناول فأسه، ويلوّح به ويقذفه بكل قوة ذراعه، وإذا بالشجرة التي ضُربت بعنف شديد تنهار بضربة واحدة، ولانقصافها قرقعة هائلة.

لم يتسع الوقت للشيطان كي يسحب ساقيه. وينكسر الغصن الذي كان جالساً عليه، أثناء سقوطه، وتعلق إحدى قوائمه، ويقطع إيفان الغصن، وفجأة يشاهد الشيطان حيّاً. فيدهش ويقول:

- آه! يا للحيوان الحقير! أهذا أنت، أيضاً

قال الشيطان:

- أنا غير الذي عرفته. أنا كنت عند أخيك «تاراس».

- لتكن من تكون، لا أهمية لذلك. سأعاملك كما عاملت الآخرين.

ورفع فأسه وأوشك أن يحطم رأس الشيطان، فإذا بالشيطان يستعطفه وهو يتأوه قائلاً:

- اعفُ عني. سأفعل لك كل ما تشاء.

Twitter: @ketab_n

- وماذا بوسعك أن تفعل لي؟

- سأصنع لك كل الذهب الذي يحلو لك.

- حسناً! اصنع لي شيئاً منه.

حينئذ قال له الشيطان:

- ما عليك إلا أن تأخذ أوراق السنديان وتفركها في يديك. سيقع الذهب على الأرض.

أمسك إيفان بالأوراق وفركها في يديه فوقع الذهب على الأرض. قال:

- هذا رائع لتسلية الأطفال.

قال الشيطان:

- دعني إذن.

- فليكن!

أخذ إيفان مذراته وأطلق سراحه، قائلاً:

- ليكن الله معك!

لكن إيفان لم يكد يذكر اسم الله حتى ابتلعت الأرض الشيطان مثل حصاة في قاع الماء، غير تارك وراءه سوى ثقب.

Twitter: @ketab_n

عندما انتهى الكوخ الخشبي الجديد، انتقل إليه الأخوان للإقامة فيه. أتمَّ إيفان أعماله الزراعية، صنع جعة ودعا سيميون وتاراس للاحتفال عنده. لكنهما أجاباه بالرفض. قالا:

- نحن نعلم حق العلم ما احتفال الفلاح.

اكتفى إيفان إذن بإيواء الفلاحين والنساء لبعض الوقت. إلى أن ابتهجوا قليلاً. ثم خرج إلى الشارع لينظر إلى رقصات الفتيات.

وعندما اقترب من حلقاتهن طلب إليهن أن يغنين المدائح له، قائلاً:

- سأعطيكن شيئاً لم ترينه قط.

قهقهت الفتيات وغنّين مدائح لإيفان. فلما انتهى الغناء قُلن له:

- أعطنا الآن ما وعدتنا به.

أجاب:

- سأعطيكن إياه في الحال.

أخذ منخلاً ومضى إلى الغابة.

قالت الفتيات وهنّ يضحكن:

- أوه! يا له من غبي!

Twitter: @ketab_n

تركَنَ التفكير فيه عندما رأينه يعود راكضاً، وفي منخله شيء يلمع. قال لهن:

- أتُردن شيئاً من هذا؟

- طبعاً، نريد.

تناول من المنخل قبضة من القطع الذهبية ورماها للفتيات.

قالت الفتيات وهنّ يرتمين على القطع التي تدحرجت علي الأرض:

- آه! أبونا الصغير...

وهُرع الفلاحون وأخذوا يتخاطفون القطع. وكان الزحام شديداً جداً حتى إن عجوزاً أوشكت أن تُدهس.

أخذ إيفان يضحك:

- لماذا تؤذون جدّة، يا أغبيائي الصغار؟ لا تتزاحموا هكذا. فمايزال لدي شيء من هذه القطع وسأُعطيكم إياه.

ورمى لهم قبضاتٍ أخرى من الذهب.

هُرع الجمهور الذي كان عدده يتزايد. فرغ المنخل وظلوا يطلبون ذهباً. فقال لهم:

- لا، كفى ذهباً هذه المرة. وستحصلون عليه في يوم آخر. لنُغنّ الآن ونرقص.

Twitter: @ketab_n

استأنفت الفتيات أغنياتهن. قال لهن:

– ليست جميلةً هذه الأغنيات التي تغنينها.

– أتعرف أجمل منها؟

– سترينَ. اصغين.

ومضى إلى البيدر، وأخذ حزمةً، وضرب السنابل بالأرض، كما رأى الشيطان يفعل، ولفظ الصيغة التالية:

– إن عبدي يأمر أن تنتهي من كونكِ حزمةً، وأن تتحوّل كل سنبلة من سنابلك إلى جندي.

تناثرت الحزمة، وتحولت سنابل الحزمة إلى جنود يتقدمهم الطبالون الذين يقرعون طبولهم والبوّاقون الذين ينفخون في أبواقهم. أمر إيفان الجنود بأن يسيروا في رتلٍ معه، في الشارع وهم يغنّون، مثيرين دهشة الناس. وعندما انتهى الجنود من غنائهم، عاد إيفان بهم إلى البيدر بعد أن منعهم من اللحاق به، وهنا حوّل الجنود إلى حزم، ورجع إلى بيته ونام.

– ٧ –

في صباح اليوم التالي، جاء سيميون المحارب، الأخ الأكبر، بعد أن أُعلِم بما جرى عشية أمس، ليلقى إيفان، وقال له:

– أرني من أين أتيت بجنودك وأين وضعتهم.

Twitter: @ketab_n

- وماذا تريد أن تفعل بهم؟

- وكيف، ما أريد أن أفعل بهم؟ لكننا نستطيع أن نفعل كل شيء بالجنود، نستطيع أن نحتل إمبراطورية!

تعجب إيفان:

- لِمَ لم تقل لي ذلك قبل الآن. سأصنع لك ما تشاء من الجند. فلقد حصدنَا، الأختُ وأنا كمية كبيرة.

وقاد سيميون إلى البيدر، وقال له:

- سأصنع لك جنوداً، لكن بشرط أن تعيدهم، لأننا إذا كان علينا أن نطعمهم أكلوا القرية كلها في يوم واحد.

تعهد سيميون أن يقتاد الجنود بعيداً. بدأ إيفان. هزَّ حزمةً فخرجت منها سريةٌ. وهزَّ حزمةً ثانية فخرجت منها سريةٌ ثانية. واستمر في ذلك كما يتفق له حتى امتلأ الحقل بالجنود.

- هل يكفي هذا؟ ما عليك إلا أن تتكلم.

- هذا يكفي. أشكرك، إيفان.

قال إيفان:

- حسناً. إذا احتجتَ إلى غيرهم، ما عليك إلا أن تعود، وسأصنع لك غيرهم. فليس ينقصنا القشُّ، بالذات.

Twitter: @ketab_n

خطب سيميون المحارب في المحاربين، ورتّبهم بحسب جميع قواعد الفن العسكري، ألقى أوامره، وسار للحرب.

لم يكد يبتعد حتى أقبل تاراس البطين. فلقد سمع، هو أيضاً، عن أنباء حوادث البارحة. فسأل هو أيضاً إيفان:

- هلاّ قلتَ لي أين تجد الذهب؟ لو استطعتُ أن أحصل عليه بالسهولة التي تحصل عليه بها أنت لجمعتُ، على الفور، بهذا الذهب ذهبَ العالم بأسره.

هتف إيفان متعجباً:

- حقاً؟ لمَ لمْ تقل لي ذلك قبل الآن. سأصنع لك ما تشاء من الذهب.

- يكفيني ثلاثة مناخل.

- قال إيفان:

- ليكن! اتبعني إلى الغابة، واربط حصانك إلى عربته لكي نتمكن من حمل كل شيء.

ويمضي كلاهما إلى الغابة. ويفرك إيفان يديه بأوراق السنديان. فتتجمع كومة كبيرة من الذهب أمام تاراس.

- أتريدُ أيضاً؟

Twitter: @ketab_n

قال تاراس وقد امتلأ فرحاً:

- يكفيني هذا هذه المرة. أشكرك، إيفان.

- حسناً، حسناً. إذا احتجت إلى شيء منه فما عليك إلا أن تأتي، سأصنع لك غير هذا. فالأوراق موفورة.

حمّل تاراس العربة إلى حافتها وذهب يتاجر: ها هما الأخوان مسافران، أحدهما يحارب والآخر يتاجر. احتل سيميون المحارب مملكةً لفرط ما حارب، وأحرز تاراس البطين ثروة لفرط ما تاجر.

جاء يوم التقى فيه الأخوان؛ قال كلٌّ منهما للآخر ما جرى له: حكى تاراس من أين جاء بماله، وحكى سيميون من أين جاء بجنوده.

حينئذ قال سيميون المحارب لأخيه:

- أنا احتللتُ مملكة وأعيش سعيداً. لكن المال هو الذي ينقصني. فليس لدي منه ما يكفي لإطعام جيشي.

فأجاب تاراس البطين:

- وأنا كسبتُ الكثير من المال؛ لكن ليس لدي مَن يحرسه، وهذا يقلقني.

فكّر سيميون المحارب لحظة، وقال لأخيه:

- اتبعني إلى منزل إيفان. سأطلب منه جنوداً آخرين أعطيك إياهم

Twitter: @ketab_n

لتحرس مالك؛ وأنت ستطلب منه مالاً غير مالك أستخدمه لإطعام جنودي.

وها هما يذهبان إلى منزل إيفان. قال له سيميون:

- أنا بحاجة إلى مزيد من الجنود. فاصنع لي جنوداً.

أومأ إيفان برأسه أن «لا»:

- لا أريد أن أصنع لك جنوداً آخرين دون أن أعرف الدافع إلى ذلك.

- لكنك وعدتني بذلك!

أجاب إيفان:

- نعم، وعدتك بذلك، لكني لن أصنع لك بعد الآن جنوداً.

- و لم لا تريد أن تصنع لي، أيها الغبي؟

- لأن جنودك قتلوا رجلاً، مؤخراً. كنتُ أدفع محراثي بحذاء الطريق، عندما مرّت امرأة مسكينة تبكي خلف نعشٍ، فسألتها: «ومن فقدت» أجابت: «زوجي، قتله جنودُ سيميون في الحرب». وكنتُ أعتقدُ أنا أن الجنود لا عمل لهم سوى الغناء! فيما أنهم قتلوا رجلاً، لن أعطيك جنداً بعد الآن وأبى أن يتراجع عن كلامه. ورفض أن يصنع جنوداً آخرين.

Twitter: @ketab_n

طلب تاراس بدوره من الغبي أن يصنع له ذهباً غير ذاك. أومأ إيفان برأسه أن «لا».

- لا أريد بعد الآن أن أصنع لك ذهباً بغير داع.

- لكنك وعدتني بذلك.

قال إيفان:

- وعدتك بذلك، لكني لن أصنع لك ذهباً بعد الآن.

- ولِمَ لا تريد أن تصنع لي، أيها الغبي؟

- لأن ذهبك سرق بقر ميخايلوفنا.

- كيف، سرق؟

- نعم، سرق! كان لميخايلوفنا بقرة تُطعم بحليبها أولادها. وذات يوم جاءني أولادُها يطلبون حليباً. فقلت لهم: لكن أين البقرة، يا ترى؟ فأجابوني: إن وكيل تاراس البطين جاء يبحث عن أمي، ووضع في يدها ثلاث قطع ذهبية وقاد البقرة، ومنذئذ لم يبق لدينا حليب». وأنا إنما أعطيتك تلك القطع الذهبية لتسرّي عن نفسك، فسرقتَ بقرة هؤلاء الأطفال! لن أصنع لك بعد الآن قطعاً أخرى.

أبى «الغبي» أن يتراجع عن كلامه. رفض أن يصنع قطعاً أخرى. واضطر الأخوان أن يغودا صفر الأيدي.

Twitter: @ketab_n

وفي الطريق أخذا يتحدثان ويبحثان عن الوسيلة التي تخلصهما من مأزقهما.

قال سيميون لتاراس:

- اصغِ إلى ما يمكننا أن نفعله. أعطني مالاً للإنفاق على جنودي وسوف أعطيك أنا نصف مملكتي وجنودي لحراسة كنوزك.

قبل تاراس الصفقة. وجرت القسمةُ، وغدا الأخوان قيصرين كليهما وغنيين كليهما.

- ٨ -

كان إيفان يُعيل ذويه، بعد أن أصبح وحده في المنزل، فالحاً حقوله، مشتغلاً فيها مع أخته.

ذات يوم، مرض كلبُ الحراسة مرضاً أشرف معه على الموت. حرّكت إيفان الشفقة فحمّل الخرساء خبزاً وضعه في قبعته وخرج ليعطيه الحيوان المسكين. تمزّقت القبعة فسقط الخبزُ ومعه جذرٌ صغير. أكل الكلب الخبز والجذر، وما إن ابتلع الجذر حتى وقف على قائمتيه خفيفاً نشيطاً، يلعب ويركض وينبح ويحرّك ذيله. شفي شفاءً تاماً مما أدهش والدي إيفان اللذين كانا يتبعان لعبه بعيونهما.

فسألا إيفان:

Twitter: @ketab_n

- كيف شفيته؟

- هكذا: كان عندي رأسا جذر شافٍ لجميع الأمراض فأكل الكلب أحدهما.

في هذا الزمن مرضت ابنةُ القيصر؛ وأعلن القيصر في جميع المدن والقرى أن من شفاها نال جائزة رائعة، وإذا لم يكن متزوجاً حظي بيد ابنته.

أُذيع هذا الخبرُ أيضاً في قرية إيفان.

قال له أبوه وأمه:

- أتعلم ما أعلنه القيصر في مملكته كلها؟ ومادام عندك جذرٌ اذهبْ واشفِ ابنة القيصر. وستعيش منذئذ في سعادة حتى آخر أيامك.

قال إيفان:

- فليكنْ!

تهيأ للسفر. وُضعتْ له ملابس لائقة، وخرج إلى درج المدخل وإذا به يرى فقيرة مشلولة الذراع.

- قيل لي إنك تشفي؛ اشفِ لي ذراعي، لأن من المستحيل أن أرتدي ثيابي دون مساعدة.

قال إيفان:

Twitter: @ketab_n

– فليكن!

أخرج ما بقي من الجذر ومدّه إلى الفقيرة قائلاً لها أن تبلعه. بلعته الفقيرة فإذا بها تشفى بحيث حرّكت يدها في جميع الاتجاهات.

وصل والدا إيفان في هذه اللحظة ليودّعاه. وعندما علما بنبأ إعطائه الباقي من الجذر، وأنه لم يبق لديه ما يشفي به ابنة القيصر، أنحيا عليه باللوم. قالا:

– أعطاه فقيرةً، أخذته الشفقة عليها، أما ابنة القيصر فلم يشفق عليها.

وأخذت الشفقة إيفان على ابنة القيصر. ربط حصانه بالعربة وملأ قاع العربة بالقش، وتسلّق المقعد.

– أين تذهب، يا «غبي»؟

– أشفي ابنة القيصر.

– لكن لم يبق معك ما تشفيها به!

– وما أهمية ذلك؟

ويمضي، ويصل القصر؛ و لم يكد يضع قدمه على آخر درجة من درج المدخل حتى شفيت ابنة القيصر.

استخفّ الفرحُ القيصر. فاستدعى إيفان، وأمر له بملابس بديعة، وقال له:

Twitter: @ketab_n

- ستصبح صهري.

قال إيفان:

- فليكن!

وتزوّج ابنة القيصر.

مات القيصر بعد زمنٍ قصير؛ وخلفه إيفان. وهكذا غدا الأخوةُ الثلاثة قياصرة.

- ٩ -

عاش الإخوة الثلاثة وملكوا.

لم يبق لسيميون المحارب من رغبة يرغب فيها. فقد أضاف إلى الجنود الذين صنعهم إيفان من حزم الشليم، جنوداً آخرين كثراً، إذ أمر، في مملكته، أن تُقدِّم له الأسر جنوداً، بنسبة جندي واحد لكل عشر أسر، جنوداً طوال القامة، أصحاء الجسم، أشدّاء، فجنّد، بهذه الطريقة جيشاً كثير العدد مدرَّباً. وإذا ما رفض أحدٌ الطاعة بعث جنده وفرض مشيئته في كل مكان. فخافه كل واحد.

عاش عيشةً هانئة. فكل ما تخيّله دماغه، وكل ما رأته عيناه، حصل عليه. كان جنوده يجوبون البلاد ويأخذون له كلَّ ما يشتهيه.

Twitter: @ketab_n

لم تكن حياة تاراس البطين أقل رغداً. إذ لم ينفق المال الذي جاءه من «الغبي»، بل زاده زيادة عظيمة. وأدخل النظام إلى مالية مملكته. كان يخبئ الذهب في خزانته، وينتزع الذهب من رعاياه، فارضاً الضرائب بصدد كل شيء، طالباً كذا على القرية والنفس والنقل والأحذية وما سوى ذلك. كان يملك كل ما يشتهيه، وكانت تُحمّل إليه الأشياء جميعاً، وكان كلٌّ واحد يعطيه عمله في مقابل المال الذي يوزِّعه: لأن الجميع كانوا محتاجين إلى المال.

و لم يكن إيفان «الغبي» بائساً أيضاً، فلم يكد حموه يُدفن حتى خلع بزّة القيصر وأعطاها امرأته طالباً إليها أن تخبئها في صندوق. ثم عاد إلى ارتداء قميص القنب، وسراويله، وحذاء الفلاح، واستأنف العمل. قال:

- لقد ضجرتُ. وبدأت أسمنُ، وذهبت شهيتي إلى الطعام، وصرتُ لا أنام.

فدعا إلى جواره أباه وأمه وأخته الخرساء وعاد إلى عمله. قيل له:

- لكنك أنت القيصر.

أجاب:

- وماذا يضيرني من ذلك؟ ألا يحتاج القيصر إلى العمل كي يكسب قوته. جاءه وزيره وقال:

- لم يبق لدينا مال لندفع المرتّبات.

Twitter: @ketab_n

قال إيفان:

- إذا لم يبق لدينا فلا تدفع.

- لكنهم سينصرفون جميعاً.

- فليكن، لينصرفوا. سيكون لديهم وقتٌ أوسع ليعملوا. ها إن الزبل يتكدّس من غير فائدة، فلينقلوه.

جاء إليه رعاياه يطلبون أن يقضي بينهم بالعدل.

قال أحد المشتكين:

- سرق جاري مالي.

قال إيفان:

- لاشك أنه فعل ذلك لأنه محتاجٌ إليه.

وعلم الجمهور حينئذ أن إيفان غبيّ.

قالت له امرأته:

- أتعلم ما يقولون؟ يقولون إنك غبي.

قال إيفان:

- فليكنْ!

Twitter: @ketab_n

أخذت امرأة إيفان تفكّر؛ كانت هي أيضاً غبية. قالت:

- حسناً! ليس لي الحق في معاكسة زوجي. المرأة على دين زوجها.

وإذ خلعتْ لباس القيصرة الذي وضعته في صندوق، ذهبت إلى الخرساء ورجتها أن تعلّمها العمل. وعندما أحسنت العمل ساعدت زوجها.

هجر البلاد جميع العقلاء و لم يبق في المملكة سوى الأغبياء. لم يكن لدى أحدٍ مالٌ، وكانوا يعيشون جميعاً من عملهم. يأكلون ويُطعمون الآخرين.

- ١٠ -

بيد أن الشيطان العجوز انتظر طويلاً شياطينه الصغار؛ كان حريصاً أن يعلم كيف تصرّفوا ليهلكوا الإخوة الثلاثة لكنه تعب أخيراً من عدم تلقي أخبارهم فأزمع على السفر ليستعلم بشخصه عما جرى.

مضى يبحث عن الإخوة الثلاثة، ومرّ بمنازلهم القديمة التي سافروا منها وانتهى بأن عثر عليهم قياصرةً لثلاث ممالك.

أحسّ الشيطان العجوز بالذلّ من جراء ذلك. وقال في نفسه مرةً أخرى:

- سأعمل أنا بنفسي.

Twitter: @ketab_n

قرر أن يقصد القيصر سيميون أولاً. تحوّل إلى جنرال ومضى إلى لقائه. قال له:

- علمتُ أنك قائدٌ عظيم. أنا نفسي خبيرٌ بشؤون الحرب. سأخدمك إن شئت.

أخضعه القيصر سيميون للاستجواب؛ ولما اكتشف قدراته، قَبِلَ عرضه الخدمة لديه.

أخذ الجنرال الجديد يعلّم القيصر كيف يُنظّم الجيش. قال:

- الجوهري أن يكون لديك أكبر قدرٍ ممكن من الجنود؛ وبغير ذلك سيكون في مملكتك فضلةٌ من الناس الذين لا فائدة منهم. جنّد جميع الشباب بالجملة، وسيكون لك أكبر بخمس مرات. وبعد ذلك ستكون بحاجة إلى البنادق والمدافع من النوع الجديد. وسأصنع لك منها ما تشاء: بنادق ترمي مئة طلقة دفعة واحدة، مثل مطر من الحمص، ومدافع قادرة على أن تحرق، من بعيد، الرجال والخيل والأسوار.

امتثل القيصر سيميون لنصائح الجنرال الجديد وجنّد جميع الشباب وبنى مصانع السلاح لتصنع البنادق والمدافع من النمط الجديد. ثم ذهب يحارب القيصر المجاور. وعندما التقى الجيشان أمر سيميون بإطلاق رصاص بنادقه وحرائق مدافعه وكفاه تفريغٌ واحدٌ لشلّ نصف خصومه وإحراقهم.

ارتعب القيصر المجاور وخضع وتنازل عن مملكته لسيميون الذي استخفّه الفرحُ. قال:

Twitter: @ketab_n

- سأشنّ الآن حرباً على القيصر الهندي.

لكن القيصر الهندي سمع عن سيميون؛ وتبنى اختراعاته وعثر على خيرٍ منها. فلم يجند الشباب وحدهم بل جند فتيات مملكته أيضاً، وجمع بهذه الطريقة جنداً أكثر عدداً من جند سيميون. لقد تزوّد بالبنادق نفسها والمدافع نفسها، وتخيّل فضلاً عن ذلك، وسيلةً يطير بها في الهواء ويرمي من الأعلى قذائفه المتفجرة.

هذا العدو هو الذي كان القيصر سيميون سيحاربه، واثقاً من أنه سينتصر عليه بالسهولة نفسها التي انتصر بها على الآخر.

لكن المنجل يتثلّم لفرط الاستعمال. فلم يترك القيصر الهندي لسيميون وقتاً يقترب فيه ويصبح على المدى المناسب، بل إنه أمر فتياته أن يطرن فوق الجيش العدو وأن يُمطرنه بالقذائف المتفجرة. أطاعت الفتيات الأمر، وأبادت أكثرهم القنابلُ المتفجرة التي رمتها الفتيات من أعالي الجو، فهرب جنودُ سيميون وتركوه وحده في ساحة القتال. ووضع القيصر الهندي يده على مملكة سيميون الذي تاه على وجهه.

وبعد أن تخلّص رئيس الشياطين، على هذا النحو، من سيميون، مضى ليلقى أخاه تاراس. تحوّل إلى تاجر، وأقام في مملكته، وتعاطى التجارة. وأخذ يدفع سعراً وافراً بكل شيء، حتى اكتسح جمهور الناس منزله ليكسبوا مالاً، وكسبوا الكثير، حتى إن جميع الضرائب المتأخرة سُدّدت، وأن جباية الضرائب منذئذ صارت منتظمةً.

سُرَّ القيصر تاراس بذلك وفكّر:

Twitter: @ketab_n

- ينبغي أن أحمد لهذا التاجر عمله. فبفضله تزايدت خزينتي، سأعيش برفاهية أكبر.

وهاهو ذا يُسلم نفسه لمشاريع جديدة. صمم أن يبتني قصراً أجمل من قصره الأول، وأذاع أن الناس يمكن أن يأتوه بالخشب والحجارة، وأنه سيوفِّر عملاً للجميع، معطياً كل شيء سعراً مجزياً. حسبَ أن ماله سيجذب الناس، وأن الناس سيُهرعون إليه جماعات ليحملوا إليه عملهم كالسابق. لكن الناس حملوا خشبهم وجميع أحجارهم إلى التاجر وحده، وإلى التاجر إنما توافد الناس.

ضاعف القيصرُ أسعاره، فجعلها التاجر ثلاثة أضعاف. ذلك أن تاراس مهما يكن غناه فقد كان التاجر أغنى، وكانت الغلبة له. وتعذّر على تاراس بناءُ القصر.

أراد «تاراس» أيضاً أن ينشئ حديقة. وعندما جاء الخريف أعلن على الملأ أن الناس يستطيعون أن يأتوا ويطلبوا عملاً: فلم يأت أحد. لقد احتكر التاجرُ جميع العمال لحفر بركة. وعندما جاء الشتاء، اشتهى القيصر فروة سمّور سيبيريا. كلّف أحد خدمه أن يذهب ليشتري فروةً. لكن الخادم رجع صفر اليدين. وقال القيصر:

لم يبق من فروٍ في أي مكان. فجميع جلود السمور أُرسلت إلى التاجر الذي دفع أسعاراً أعظم؛ وعمل منها بساطاً.

احتاج تاراس إلى الجياد، فأرسل من يشتريها. لكن الذين أُرسلوا عادوا كما ذهبوا.

Twitter: @ketab_n

- جميع الخيول الجيدة يشغلها التاجر لنقل المياه كي يملأ مستنقعه.

وهكذا تعطلت جميعُ مشاريع القيصر. كان الناس يفعلون كل شيء للتاجر ولا شيء للقيصر. واكتفوا بأن جاؤوه بالمال من التاجر لتسديد الضرائب.

وكان القيصر غنياً بحيث ارتبك بماله؛ لكن الحياة أصبحت صعبة، فعلّق جميع مشاريعه، واقتصر على أن يجد ما يعيش به، بيد أن ذلك لم يكن ميسّراً أيضاً. لقد ارتبك بكل شيء: بخدمه وطهاته وحوذيّيه، إذ تركوا خدمته إلى خدمة التاجر؛ حتى إنه كان يشقّ عليه أن يحصل على ما يقتات به. كان يُرسل من يأتيه بالمؤن من السوق فلا يجد شيئاً؛ لأن التاجر رفع من السوق كل شيء. و لم يكن يُحمَل إلى القيصر سوى مال الضرائب.

استولى عليه الغضب في نهاية الأمر، وطرد التاجر من مملكته. لكن التاجر الذي استقر قرب الحدود استمر في تجارته. وبفضل ماله، استخلص كلّ شيء و لم يبقَ شيءٌ للقيصر.

أخذت أموره تزداد سوءاً وكانت تمر أيام كاملة دون أن يضع شيئاً في فمه. وذات يوم، شاع نبأ مفاده أن التاجر يتبجح بأنه سيشتري القيصر بذاته. خاف تاراس، و لم يكن يعلم ماذا سيحل به.

حينئذ جاء سيميون المحارب ليلقى أخاه تاراس. قال له:

- أعِني. لقد خلعني عن عرشي القيصر الهندي.

فأجاب تاراس:

- وأنا نفسي لا أجد ما آكله في كل يوم.

Twitter: @ketab_n

- ١١ -

وإذ تخلص رئيس الشياطين من الأخوين، يمّم شطر إيفان. تحوّل إلى جنرال، ومَثَل أمام «الغبي»، ودعاه إلى تكوين جيش، قائلاً له:

- لا يليق بقيصر أن يستغني عن الجيش. واسترحْ من عناء تنظيم جيش لك من رعاياك.

وافق إيفان. وقال:

- فليكنْ! باشر عملك. علّمهم كيف يغنون أغاني جميلة. فأنا أحب ذلك.

حينئذ طاف رئيس الشياطين بجميع مقاطعات المملكة، داعياً فيها المتطوعين إليه، معلناً أنه يقبل الجميع، وأنه سيوزع على الجميع كيلة ماء الحياة وقبعة حمراء.

أضحك ذلك الأغبياء. فقالوا:

- ماء الحياة موفورٌ ولدينا منه ما نشاء. ونحن نصنعه بأنفسنا. أما القبعات فإن نساءنا يصنعن لنا قبعات من جميع الألوان وحتى المبرقشة.

ولم يتطوع أحدٌ منهم.

عاد رئيس الشياطين إلى إيفان:

- إن أغبياءَك يرفضون التطوع. وينبغي تجنيدهم بالقوة.

Twitter: @ketab_n

قال إيفان:

- فليكن! جنّدهم بالقوة.

حينئذ أعلن رئيس الشياطين أن على جميع الأغبياء أن يتطوّعوا كجنود وأن كلّ رفض سيُعاقب بالموت.

ذهب الأغبياء للقاء الجنرال.

- أنت تقول أن جميع الذين سيرفضون منا التطوّع سيُعاقبون بالموت. لكنك لم تقل لنا ماذا سيحلّ بنا إذا صرنا جنوداً. يُقال أن الجنود يُقتلون. هل هذا صحيح؟

أجاب:

- نعم، هذا واضح.

ثبّتهم هذا الجواب في رفضهم. قالوا:

- لا نرد أن نتطوّع. وإذا كنا سنُقتَلُ فلنُقتل في بيوتنا.

صاح رئيس الشياطين:

- أغبياء، طائفة من الأغبياء! صحيح أن الجنود يتعرضون للهلاك. لكنهم يستطيعون أيضاً أن يتفادوا الموت؛ وإذا ما عصيتم الأمر فسوف تُعدمون على يدي إيفان.

حملهم ذلك على التفكير. وذهبوا إلى إيفان يشكون له. قالوا له:

Twitter: @ketab_n

- لديك جنرال يحتم أن يجندنا جميعاً. ويقول «إن تطوّعتم فقد تنجون من الموت، أما إن رفضتم فما من شك أن القيصر سيُعدمكم جميعاً.

سأل إيفان وهو ينفجر ضاحكاً:

- حقاً؟ لكن كيف أفعل أنا وحدي لأقتلكم جميعاً؟ كنتُ سأخبركم كيف لو لم أكن غبيّاً؛ لكنني عاجزٌ عن أن أفهم شيئاً من ذلك، أنا.

قالوا:

- إذن لن نذهب.

أجاب:

- فليكن! لا تذهبوا.

عاد الأغبياء ليقابلوا الجنرال وليُطلعوه على رفضهم.

يئس رئيس الشياطين من النجاح، فغادر مملكة إيفان واتجه إلى قيصر «تاراخان»[٤]، فنال حظوته، وقال له:

- هيا نحارب القيصر إيفان. إنه فقير بالمال، لكنه غني بالحنطة والماشية، والخيرات الأخرى.

٤- قيصر تاراخان: ملك مقاطعة خرافية ولعلها تذكّر بولاية روسية على البحر الأسود في القرن الحادي عشر.

Twitter: @ketab_n

استمع إليه قيصر «تاراخان». جمع جيشاً كبيراً مع البنادق والمدافع وسار إلى الحدود لاجتياح بلاد إيفان.

أُعلِمَ إيفان بذلك:

- إن قيصر تاراخان يشنّ الحرب عليك.

قال إيفان:

- فليكن! وليسر على الحرب.

اجتاز قيصر تاراخان الحدود بكامل جنده، وقذف بطلائعه بحثاً عن جيش إيفان، ففتشت ونقبت في كل مكان، لكنها لم تعثر على جيش. لعل جيش إيفان سينبعث من الأفق؟ لم يقعوا على أي نبأ. يستحيل أن يقاتلوا.

حينئذ أمر قيصر تاراخان باحتلال القرى. خرج الأغبياءُ رجالاً ونساءً، إلى الشارع، فذُهشوا لدى مرأى الجنود. نهب الجنود حنطة الأغبياء وماشيتهم؛ وترك الأغبياء لهم كل شيء دون أن يفكروا في أدنى مقاومة.

اجتاح الجنود قرية ثانية وثالثة. وحدثت الحوادث نفسها. ساروا يوماً ويومين، فحدث الشيء نفسه في كل مكان. لا مقاومة بتاتاً من جانب السكان الذين كانوا يعطونهم كل شيء بل ويقاسمونهم معاشهم، قائلين لهم:

- إذا لم تكونوا سعداء في بلادكم، أيها الأصدقاء، فعيشوا عندنا إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

سار الجنود ما وسعهم السير فلم يصادفوا جيشاً، و لم يعثروا على شيء سوى الناس الذين يعيشون من عملهم، ويأبون أن يدافعوا عن أنفسهم، ويريدون أن يستبقوا الجنود.

تعب الجنود في النهاية وذهبوا إلى قيصر تاراخان ليقولوا له:

- يستحيل علينا أن نقاتل. خذنا إلى مكان آخر. ما كنا لنشكو لو كنا نحارب حقاً. لكننا هنا كمن يقطع عصيدة. يستحيل علينا أن نحارب في هذه البلاد.

غضب قيصر تاراخان. أمر جنوده بعبور البلاد في جميع الاتجاهات.

- خرّبوا القرى، دمّروا المنازل، أحرقوا القمح، اقتلوا الماشية... وإذا لم تفعلوا ما أقوله لكم فسوف أُعدمكم جميعاً!

خاف الجنود، فأطاعوا وجابوا أرجاء المملكة، مهدّمين المنازل، محرقين الزرع، قاتلين الماشية.

لكن الأغبياء لم يزدهم ذلك ميلاً إلى الدفاع عن أنفسهم. اكتفوا بالبكاء، بكى الجميع، شيوخاً ونساء وأطفالاً. كانوا يقولون:

- لماذا تعاملوننا هكذا؟ لما تضيّعون كل هذه الخيرات؟ إذا كنتم تحتاجون إليها فلماذا لا تأخذونها وتستعملونها.

هذا النمط من الحرب لم يرق للجنود. فلم يعد يحدوهم شيء إلى الذهاب أبعد مما وصلوا إليه. فرموا سلاحهم، و لم يبق من جيش تاراخان أحد.

Twitter: @ketab_n

- ١٢ -

عندما رأى رئيس الشياطين أن الجنود لم يفيدوه شيئاً توارى عن الأنظار.

ما لبث أن عاد إلى الظهور، متحوّلاً إلى سيد، وجاء إلى مملكة إيفان إيليتش كي يقيم فيها، وليتغلب عليه بواسطة المال، كما تغلب على «تاراس» البطين. قال للناس:

- جئت لأغدق عليكم الهبات ولأعلّمكم أجمل الأشياء في هذا العالم سأبني بيتاً عندكم.

أجابوه:

- فليكن! ابق معنا.

في صباح اليوم التالي، قصد الساحة العامة السيد الحسن الهندام، وقد تزوّد بكيس كبير من الذهب وبورقة. قال:

- أنتم تعيشون كما تعيش الحيوانات. سأعلّمكم كيف تعيشون. ابنوا لي بيتاً حسب هذا المخطط. اشتغلوا بإدارتي، وسأعطيكم المال ذهباً. وبسط ذهبه أمامهم.

دُهش الأغبياء. هذه أول مرة يرون فيها الذهب؛ وكانت منتوجات عملهم تصلح لمبادلاتهم فقط. تعجّبوا وقالوا:

- جميلة هذه الأشياء!

Twitter: @ketab_n

ووافقوا على أن يحملوا للسيد الحسن الهندام عملهم مقابل هذه الأشياء الذهبية. وأخذ رئيس الشياطين يبذل الذهب بملء يديه كما فعل عند تاراس، وحصل بالمقابل على جميع المنتوجات والأعمال. وكان سعيداً بذلك وفكر:

«إن مشروعي يسير في الطريق الصحيحة. وما علي إلا أن أُفقر الغبي كما أفقرتُ تاراس، وأن أشتريه هو ذاته».

لكن ما لبث الأغبياء أن كثرت بين أيديهم القطع الذهبية كثرة لم يعرفوا ماذا يصنعون بها: كانوا يعطونها نساءهم ليصنعن منها عقوداً، والفتيات ليزين بها جدائلهن، والأطفال ليلعبوا بها في الشارع. ورأوا أن ما حصلوا عليه منها كافٍ، ورفضوا أن يقبلوا قطعاً أخرى.

بيد أن السيد الحسن الهندام لم يبن غير نصف بيته، ولم تكمل مؤونته من القمح والماشية. فأعلن أن من أراد عملاً وجد عملاً عنده، وأنه سيشتري القمح كله، والماشية التي يجلبونها كلها، واعداً بكومة من القطع الذهبية في مقابل كل عمل، وكل شيء.

لكن لم يأته أحد للعمل، ولم يحمل إليه أحد شيئاً، أياً كان الشيء. لم يكد يأتيه، من وقت إلى آخر سوى صبي صغير أو طفلة جاءا يبادلان ببيضة قطعة ذهبية. ولم يبق لدى السيد الحسن الهندام ما يضعه في فمه. فتملّكه الجوع وخرج إلى القرية ليشتري ما يأكله.

دخل فناء وعرض قطعةً ذهبية مقابل دجاجة؛ لكن المرأة رفضت القطعة قائلة:

Twitter: @ketab_n

- مايزال عندي بقية من هذه الأشياء.

وقرع باباً آخر، واقترح على صاحبة المنزل أن يشتري منها سمكة مقابل قطعة ذهبية. أجابته:

- لست بحاجة إلى ذهبك، يا صاحبي ليس لدي أولاد، ولا أحد ليلعب بهذه الأشياء الذهبية. ولديّ منها ثلاثة قبلتها بسبب الفضول الخالص.

قصد بعد ذلك فلاحاً وأراد أن يشتري منه رغيفاً. لكن الفلاح رفض أيضاً ذهبه، قائلاً له:

- لا حاجة بي إلى الذهب. لكنك إن كنت تطلب رغيفاً لوجه الله، فانتظر لحظة، وستقطع لك امرأتي قطعة منه...

بصق الشيطان وفرّ ركضاً. كان يحب لو تلقّى طعنة سكين على أن يسمعه وهو يعرض أي شيء لوجه الله. على أن يسمع مجرّد اسم الله.

وهكذا طاف القرية و لم يجد رغيفاً. رفض الجميع أن يبادلوه شيئاً بذهبه.

- إن لم يكن معك شيء آخر تعرضه، فاعمل، أو خذ شيئاً لوجه الله.

بيد أنه لم يكن يملك شيئاً يعرضه غير الذهب؛ أما العمل فلم يكن يريده؛ وأما أن يأخذ لوجه الله فذلك ما لم يكن يستطيعه.

Twitter: @ketab_n

استبد الغضب برئيس الشياطين، وقال لهم:

- ماذا تريدون أكثر من ذلك، إذ إني أعرض عليكم الذهب؟ وإذا امتلكتم الذهب أمكنكم أن تحصلوا على كل ما تحتاجون إليه، وتشغّلون مَنْ تشاؤون.

لكن الأغبياء رفضوا الاستماع إليه. وقالوا:

- ما نفعُ الذهب؟ لسنا مديونين لأحد، ونحن لا ندفع ضرائب. احتفظ بمالك؛ فلسنا بحاجة إليه.

اضطُر رئيس الشياطين أن ينام خالي البطن.

سمع إيفان «الغبي» الناس يتحدثون عن هذه القضية. فقد جاؤوا يسألونه:

- ماالعمل؟ جاءنا سيد حسن الهندام، وهو يبغي أن يأكل جيداً. ويشرب جيداً، ويلبس جيداً؛ لكنه يرفض أن يعمل وأن يأخذ شيئاً لوجه الله. وهو لا يحسن شيئاً سوى أن يعرض على كل واحد قطعاً ذهبية. وطوال الوقت الذي كانت فيه قطعه الذهبية تسلّينا كان يحصل في مقابلها على كل ما يريد. أما الآن فلم يعد يعطيه أحد شيئاً. فكيف نمنعه من الموت جوعاً. أنتركه يموت جوعاً.

قال لهم إيفان بعد أن استمع إليهم بانتباه:

- حسناً! فليُعطَ ما يأكله. ليطلب خبزه من بيت إلى بيت، كالراعي.

Twitter: @ketab_n

اضطُرّ الشيطان أن يذهب من فناء إلى فناء. وعندما بلغ منزل إيفان، رجا الخرساء التي كانت مشغولة بطبخ غداء أخيها، أن تُطعمه. وطالما خدعها الكسالى الذين يأتونها مبكرين يطلبون الطعام، دون أن يكونوا قد عملوا، فيلتهمون برغلها كله؛ وكانت تعرفهم من أيديهم، فتُجلِس إلى المائدة من كان مقرّح الأصابع، ولا تعطي الآخرين سوى فضلات الطعام.

وبما أن الشيطان العجوز سلك بمكر الطريقة إلى المائدة، أمسكت الخرساء بيده لتفحصه: كانت هذه اليد بيضاء، ليس فيها أثرٌ للقروح، وكانت تنتهي بمخالب طويلة. أطلقت خواراً وألقتْ بالشيطان بعيداً عن المائدة.

قالت له امرأة إيفان:

– لا تغضب، أيها السيد الحسن الهندام. فكل مَنْ ليس في أيديهم قروح تُبعدهم عن المائدة أخت زوجي. فاصبر؛ وعندما ينتهي الناس من غدائهم ستُعطى الفضلات.

احمر الشيطان خجلاً: أيشارك الخنازير طعامها، هو في منزل القيصر!

– إن من الغباء أن يُؤمَر جميع الناس، في مملكتك، أن يعملوا بأيديهم. حماقتك وحدها أمكنها أن توحي إليك بهذا القانون. ألا يعمل الناس إلا بأيديهم؟ وبأي شيء يشتغل، برأيك، الأذكياء.

أجاب إيفان:

Twitter: @ketab_n

– وهل في وسعنا أن نعلم، نحن الأغبياء. نحنْ نشتغل بأيدينا وصُلْبنا.

– ذلك أنكم أغبياء... لكني سأعلمكم أنا، أن تعملوا برؤوسكم، وستعترفون أنتم أنفسكم إلى أي حد ذلك العمل أجدر بالتفضيل.

دهش إيفان؛ وقال:

– حقاً؟ الحق مع الذين ينعتوننا بأننا أغبياء!

أضاف رئيس الشياطين:

– لكن العمل بالرأس أشد عسراً. أنتم ترفضون أن تعطوني ما آكله وحجّتكم أن ليس في يدي خشونة، وتجهلون أن العمل بالرأس أصعب بمئة مرة. إلى الحد الذي قد ينفجر فيه الرأس أحياناً.

تضاعفت دهشة إيفان. وقال:

– و لَمَ تكدّون أنفسكم إلى هذا الحد، يا صاحبي؟ ليس شيئاً حسناً أن ينفجر الرأس. أليس من الأفضل أن يشتغل المرء دون مشقة بيديه وصُلبه مثلنا.

أجابه الشيطان:

– إنما أكدُّ نفسي بسبب إشفاقي بالذات عليكم، أيها الأغبياء. ولولاي لظللتم أغبياء. لكني سأعلّمكم كيف تعملون برؤوسكم، مثلي.

Twitter: @ketab_n

قال إيفان وهو مدهوش:

– علّمْنا ذلك. فإننا سنُتعب أيدينا أيضاً مع الزمن. وسيريحنا أن نعمل بروؤسنا من وقت إلى آخر.

وعد الشيطان بتعليم الأغبياء، وأذاع إيفان في مملكته كلها أنه قد قدم سيد حسن الهندام سيعلّم كل واحد طريقة العمل بالرأس؛ وأن الرأس يقوم بعمل أكثر من اليدين، وأن على الجميع أن يأتوا ليتعلموا.

كان في مملكة إيفان برج عظيم الارتفاع ينتهي بمصطبة يوصل إليها بسلم مسند إلى جدار. وإلى هذا الموضع اقتاد إيفان السيد الحسن الهندام: فبهذه الطريقة يستطيع الجميع أن يروا.

استقر السيد الحسن الهندام، وأخذ يخطب في الناس. كان الأغبياء ينظرون إليه معتقدين أنه سيريهم بالفعل كيف يعملون بالرأس، دون مساعدة اليدين؛ لكن رئيس الشياطين اقتصر على تعليمهم بالكلام السبيل إلى العيش دون عمل.

فلم يفهم الأغبياء شيئاً مما قاله. تعبوا من النظر وعادوا إلى أشغالهم.

قضى رئيس الشياطين نهاره كله على البرج، ثم نهار اليوم التالي، دون أن يكف عن الكلام. فتملّكه الجوع، لأن الأغبياء نسوا أن يُصعدوا إليه ما يأكله. وفكروا: «إن سيداً يُحسن العمل برأسه أكثر من يديه لن يُربكه أن يصنع لنفسه خبزاً».

جاء اليوم التالي، والشيطان العجوز مايزال هنا، يخطب أبداً من

Twitter: @ketab_n

أعلى برجه. ويقترب الأغبياء واحداً بعد واحد، يرفعون أبصارهم، ينظرون ويبتعدون.

ومن وقت إلى آخر كان إيفان يسألهم:

- ألم يشتغل هذا السيد برأسه بعد؟

فيجيبونه:

- لا، لم يشتغل بعد! فهو يثرثر.

مر اليوم، وأخذ الشيطان يفقد قواه. رآه مرة أحد الأغبياء يترنح على ساقيه ويصدم العمود برأسه. فأخطر امرأة إيفان التي جرت لتخبر زوجها المشغول في حقله. صاحت به:

- تعال بسرعة وانظر. يبدو أن السيد بدأ يعمل برأسه.

أدهش هذا النبأ إيفان، فقال وهو يقترب:

- حقاً ما تقولين؟

خارت قوى رئيس الشياطين. شوهد وهو يترنّح على ساقيه ويصدم العمود برأسه.

وبينما كان إيفان يصل ترنّح الشيطان وسقط على السلّم، ضارباً بجبهته جميع عوارضه، وكأن رأسه كان يعدّها تباعاً.

قال إيفان:

Twitter: @ketab_n

- أوه! أوه! لم يكن مخطئاً السيد الحسن الهندام: فالرأس يفرقع أحياناً! وأنا أفضل التقرّح. فطريقة العمل هذه صالحة لمن شاء أن يُصاب بندوب في الرأس.

سقط رئيس الشياطين وأغرق رأسه في التراب. ولما تقدّم إيفان، مدفوعاً بفضوله لأن يرى إن كان قد قام بعمل كبير، وانشقّت الأرض وابتلعت الشيطان العجوز الذي لم يترك وراءه سوى ثقب.

حك إيفان رأسه، وقال:

- أوه! يا للحيوان الحقير! وهذا هو أيضاً! لعله أبو الآخرين؛ أرأيت ما أكبره!

- ١٣ -

ظل إيفان يعيش. هُرع الناس إلى مملكته جماعات. ووجد الأخوان أيضاً مأوى عنده، وهو الذي أعالهم. وكان يقول لمن يجيئه طالباً ما يعيش به:

- فليكنْ!. عيشوا. لا شيء ينقصنا هنا. لكن لهذه المملكة قانوناً واحداً: هل في يديك قروح؟ اجلس إلى المائدة... ليس في يديك قروح؟ كلْ الفضلات.

Twitter: @ketab_n

العامل إميليان والطبل الفارغ

كان إميليان مجرّد عامل.

كان يجتاز، ذات يوم، حقلاً ليذهب إلى عمله، فوثب ضفدعٌ أمامه. أوشك أن يدوسه في مشيه، لكنه تخطّاه، وبعفويّةٍ سمع وراءه مَنْ يناديه. التفت إميليان فرأى فتاةً تقول له:

- إميليان، لماذا لا تتزوج؟

- وكيف أتزوج؟ يا فتاتي العزيزة. هذا كل ما أملك؛ ليس عندي شيء؛ فمن يقبل بي؟

قالت له الفتاة حينئذ:

- تزوجني أنا.

كانت الفتاةُ تعجبُ إميليان كثيراً.

قال بفرح:

Twitter: @ketab_n

– أنا! لكن أين نعيش؟

قالت الفتاة:

– عجباً! لا يستحق ذلك التفكير؛ ليزد العمل فقط، ولينقص النوم، وسنجد ما نأكله وما نلبسه أينما كنا.

قال:

– حسناً، حسناً، فلنتزوج. وأين نذهب؟

– لنذهب إلى المدينة.

سافر إميليان إلى المدينة مع الفتاة اصطحبها إلى بيت صغير في أطراف المدينة، وتزوّجا، وعاشا معاً.

ذات يوم، ذهب القيصر يتنزّه خارج المدينة، فمر أمام منزل إميليان، وخرجت زوجة إميليان لترى القيصر.

شاهدها القيصر ودهش: «أين وُلد هذا الجمال».

أوقف القيصر العربة ونادى زوجة إميليان وسألها:

– مِنْ أنتِ؟

أجابت:

– أنا زوجة إميليان.

Twitter: @ketab_n

– لماذا تزوجتِ، أنت الفائقة الجمال، فلاحاً؟ كان ينبغي أن تكون قيصرةً...

قالت:

– أشكرك على كلماتك اللطيفة، لكني جد مرتاحة مع فلاحي.

حدّثها القيصر قليلاً ومضى بعيداً.

عاد إلى القصر. لم تخرج زوجة إميليان من رأسه. لم يستطع النوم طوال الليل، وأخذ يفكّر في الوسيلة التي ينال بها امرأةَ إميليان، فلم يعثر على وسيلة. نادى خدمه وأمرهم أن يتخيلوا له وسيلة. قال الخدم الملكيون للقيصر:

– شغّل إميليان في قصرك عاملاً، سنقتله بالعمل، وستغدو زوجته أرملةً، وحينئذ تستطيع أن تأخذها.

عمل القيصر ذلك. أمر إحضار إميليان ليأتي ويعمل في القصر ويعيش فيه مع امرأته. وصل المبعوثون إلى منزل إميليان وأبلغوه أمر القيصر. حينئذ قالت المرأة لزوجها:

– حسناً! اذهبْ! اشتغلْ في النهار، وعُدْ في الليل إليَّ.

ذهب إميليان. جاء إلى القيصر. سأله أحد ضباط القيصر:

– لمَ جئتَ وحدكَ، دون امرأتك؟

Twitter: @ketab_n

- ولَمَ آتي بها؟ إن لها بيتها.

في بلاط القيصر، أُعطي إميليان كثيراً من العمل حتى إنه حين بدأ به لم يكن يأمل في الانتهاء منه.

بيد أنه أنهى كل شيء قبل المساء. رأى الخادم أنه انتهى، حينئذ أعطاه في اليوم التالي عملاً أكبر بأربع مرات. وعندما عاد إميليان إلى بيته، كان كل شيء منظفاً، مرتباً، والمدفأة ساخنة والطعام مُعداً؛ كانت المرأة تخيط أمام الطاولة منتظرةً زوجها. لاقته، وسكبت له حساءه، وأطعمته جيداً، وسقته شراباً، وأخذت تسأله عن عمله. قال:

- أوه! إنه سيء. فهم يعطونني عملاً أكثر مما أستطيع، سيقتلونني بالعمل.

قالت:

- لا تفكر في العمل، ولا تنظر خلفك وأمامك، وإذا كنت قد صنعت كثيراً أو إذا بقي عليك كثيراً فاشتغل فقط، وكلُّ شيء سيكون جاهزاً في حينه.

ذهب إميليان إلى النوم. وفي الصباح انطلق من جديد إلى العمل. عمل دون أن يرفع بصره ولو مرةً واحدة. كان كلُّ شيء منتهياً في المساء، وعاد إلى البيت لينام. زيدت مهمةُ إميليان أكثر فأكثر، لكن كل شيء كان يتم في ميعاده. وكان إميليان يعود كل مساء إلى البيت لينام.

مضى أسبوعٌ؛ وعندما رأى القيصر أنهم لم يستطيعوا أن يتغلبوا

Twitter: @ketab_n

على الفلاح بالعمل المضني، قرروا أن يعطوه عملاً أدق، لكن هذه الوسيلة لم تنجح أكثر من غيرها. وسواء أُعطي عمل النجار، أو عمل المسقّف، أو غيرهما فقد كان يُتمّم في الوقت المحدد كل ما يُعهد به إليه، ويذهب كل مساء لينام في بيته.

مضى أسبوعٌ أيضاً. دعا القيصر خدمه وقال:

- أأطعمكم وأنتم لا تفعلون شيئاً؟ مضى أسبوعان وما من نتيجة! أردتم أن تميتوه بالعمل. ومن نافذتي أراه كل يوم يعود إلى المنزل وهو يغني. أتهزأون بي؟

حاول خدمُ القيصر أن يبرّروا أنفسهم:

- عملْنا كل ما هو بإمكاننا؛ عذبناه في البداية بعملٍ مضنٍ، لكن لم تكن لنا حيلةٌ به؛ إنه يقوم بعمله وكأنه يعمل بمكنسة، وهو لا يحس بالتعب. حينئذ أعطيناه عملاً دقيقاً، ظننّا أنه لا يملك المهارة الكافية. لكننا لم ننجح هذه المرة أيضاً. من أين جاء ذلك؟ إنه يعرف كل شيء ويعمل كل شيء! لابد أنه هو أو امرأته يستخدمان سحراً ما. ضجرنا من ذلك. نريد الآن أن نكلّفه عملاً لا يستطيع القيام به. لقد تخيّلنا أن نأمره ببناء كاتدرائية في يوم واحد. استدع إميليان ومُرْه أن يبني كاتدرائية في يومٍ واحد، قبالة قصرك، فإن لم يَبْنها أمكننا قطع رأسه لعصيانه.

استدعى القيصر إميليان، وقال له:

- حسناً! هذا هو أمري: ابنِ لي كاتدرائية جديدة، في الساحة،

Twitter: @ketab_n

قبالة القصر، ويجب أن يكون كل شيء جاهزاً غداً مساءً. إن بنيتها كافأتكَ، وإلا قطعت رأسك.

بعد كلمات القيصر هذه، عاد إميليان إلى بيته. وفكّر:

– آه! لقد اقتربت نهايتي الآن.

وصل البيت وقال لامرأته:

– آه! يا امرأة، استعدي للهرب، إلى أي مكان، وإلا هلكنا!

قالت:

– ايه! لِمَ تخاف هذا الخوف الذي يحمل على الهرب؟

– كيف لا أخاف! أمرني القيصر أن أبني غداً، في النهار، كاتدرائية، وإذا لم أبنها هدّدني بقطع رأسي. لم يبقَ علينا إذن إلا أن نهرب مادام في الوقت متّسعٌ.

لم تكن امرأته من هذا الرأي. قالت:

– للقيصر جنودٌ كثرٌ، وسيقبضون عليك أينما فررتَ؛ لا يمكننا الإفلات منه، وينبغي أن نطيعه قدر المستطاع.

– لكن كيف أطيعه إذا كان ذلك يتجاوز قواي؟

– اذهب، يا صاحبي، لا تخفْ، كلْ عشاءك ونَمْ. وانهض غداً أبكر من عادتك، وسيُسوّى كل شيء.

Twitter: @ketab_n

نام إميليان، وأيقظته امرأته في اليوم التالي. قالت:

- أسرع أكثر من عادتك، أنهِ الكاتدرائية، خذ هذا المسمار وهذه المطرقة؛ وهناك لم يبق عليك سوى عمل يوم.

سافر إميليان إلى المدينة، فشاهد في الواقع كاتدرائية جديدة وسط الساحة. و لم تكن منتهيةً تماماً. باشر إميليان عمله، وفي المساء كان كلُّ شيء جاهزاً.

ما إن استيقظ القيصر حتى نظر من نافذة قصره ورأى الكاتدرائية. كان إميليان يمشي في أعلاها ويغرز بعض المسامير.

لم يكن القيصر مسروراً من الكاتدرائية، كان منزعجاً من أنه لم يستطع أن يأمر بقطع رأس إميليان وأن يأخذ امرأته.

ومرةً أخرى استدعى القيصر خدمه وقال لهم:

- قام إميليان بهذا العمل، ولا مبرر لقطع رأسه. هذا العمل لم يكن شيئاً ذا بال بالنسبة إليه؛ يجب أن نتخيل شيئاً أصعب أيضاً. فكّروا؛ وإلا قتلتكم قبله.

تخيّل الخدم أن يُؤمر إميليان بتمرير نهر حول القصر، وعلى ضفافه مراكب.

استدعى القيصر إميليان وأمره أن ينهض بهذا العمل الجديد، قائلاً له:

Twitter: @ketab_n

- إميليان، إذا كنتَ قد استطعتَ أن تبني كاتدرائية في ليلةٍ فأنت قادرٌ أيضاً على القيام بهذا العمل. ليكنْ كلُّ شيء جاهزاً في الغد، وإلا قطعتُ رأسك.

جاء إميليان امرأته أشدّ حزناً من عشية أمس. فقالت له:

- ما لكَ؟ هل أمرك القيصر بشيء آخر؟

روى لها إميليان القضية، وأضاف:

- يجب أن نهرب.

أجابت امرأته:

- لا تقلق، كُل عشاءك واذهب للنوم؛ استيقظ أبكر من عادتك وسيُسوى كلُّ شيء.

ذهب إميليان لينام، أيقظته امرأته صباحاً، وقالت:

- اذهب إلى القصر، كلُّ شيء جاهز. لكن مايزال قرب المرفأ، قبالة القصر، أكمةٌ صغيرة، فخذ المعول وسوِّها.

سافر إميليان؛ وعندما وصل المدينة، رأى النهر حول القصر؛ وعلى أمواجه تطفو مراكب. اقترب إميليان من المرفأ قبالة القصر، فرأى الأكمة وأخذ يُزيلها.

استيقظ القيصر فرأى النهر والمراكب وإميليان، يُسوّي بمعوله

Twitter: @ketab_n

الأكمة. ارتعب القيصر ولم يُسرَّ لا من النهر ولا من المراكب؛ حزن لأنه لم يتمكن من قطع رأس إميليان. يظن أنه ما من عمل لا يستطيع إنجازه.

وماذا يتخيلون الآن؟

استدعى القيصر خدمه وأخذ يفكر معهم. قال:

– تخيّلوا عملاً ليس بوسع إميليان إنجازه، لأنه عمل حتى الآن كل ما أمرناه به؛ ولا سبيل إلى أخذ امرأته.

فكّر رجال حاشيته، وبعد أن عثروا على فكرةٍ اجتمعوا عند القيصر واقترحوا عليه:

– يجب أن يُدعى إميليان وأن يُقال له: «اذهب إلى حيث لا تعلم واجلبْ ما لا تعلم»، لكي لا يُفلت منك بعد الآن. أينما يذهب تقلْ له إنه لم يكن حيث كان يجب أن يكون؛ ومهما يجلبْ لك تقل إنه لم يجلبْ ما ينبغي جلبُه، وحينئذ يمكننا قطع رأسه وأخذ امرأته.

رضي القيصر وقال:

– ما أحسن ما تخيّلتم.

أمر القيصر بإحضار إميليان وقال له: «اذهب إلى حيث لا تعلم، واجلب ما لا تعلم، وإذا لم تفعل اللازم قطعتُ رأسك».

وصل إميليان إلى بيته وروى لامرأته ما قاله القيصر. فكرت المرأة وقالت:

Twitter: @ketab_n

– ايه! لقد نصحوا القيصر نصيحة حسنة؛ ويجب الآن أن نتصرف بحكمة. فكّرت وفكرت، ثم قالت لزوجها: يجب أن تذهب بعيداً، إلى جدتنا العجوز، جدة الفلاح والجندي، وتطلب منها حمايتها. ستعطيك شيئاً تعود به رأساً إلى القصر، وسأكون هناك؛ الآن لا أستطيع أن أتفادى أيديهم، سيأخذونني بالقوة، لكن ذلك لن يدوم طويلاً وإذا ما نفذت ما تأمرك به الجدّة فلسوف تخلصني على الفور.

هيأت المرأة ثياب زوجها وأعطته كيساً صغيراً ومغزلاً. قالت:

– خذْ، سلمها هذا المغزل، وحينئذ ستعرف أنك زوجي.

دلّته المرأة على الطريق. انصرف إميليان، وخرج من المدينة. رأى جنوداً يتدربون، فنظر إليهم. عندما انتهى الجنود جلسوا ليستريحوا. دنا منهم إميليان وسألهم:

– هل تعرفون، يا إخوتي، أين يجب أن أذهب إلى هناك، إلى حيث لا أعلم وأن أجلب من هناك ما لا أعلمه؟

عندما سمع الجنود ذلك دهشوا وقالوا:

– من الذي أرسلك هكذا؟

– القيصر.

– نحن أنفسنا نذهب إلى حيث لا نعلم، ولا يمكننا بلوغه، ونبحث عمّا لا نعلمه ولا نستطيع العثور عليه. فليس في مقدورنا إذن أن نساعدك.

Twitter: @ketab_n

بقي إميليان لحظة مع الجنود وذهب بعيداً.

سار وسار، فبلغ غابةً كان فيها كوخ خشبي صغير وفي الكوخ عجوز، جدة الفلاح والجندي. كانت تغزل وتبكي وتبلّل أصابعها لا بلعاب فمها بل بدموع عينيها. صاحت العجوز وهي ترى إميليان:

- ما حاجتُك؟

أعطاها المغزل وقال لها إن امرأته أرسلته إليها. عاد إلى العجوز هدوءُها على الفور وأخذت تسأله. روى لها إميليان حياته كلها، كيف تزوّج، وكيف ذهب ليسكن المدينة، وكيف شغّله القيصر عاملاً، وكيف عمل في القصر، وكيف بنى الكاتدرائية، والنهر والمراكب، وكيف أمره القيصر الآن أن يذهب إلى هناك، إلى حيث لا يعلم وأن يجلب من هناك ما لا يعلمه.

أصغت العجوز وكفّت عن البكاء وتمتمت، وقالت:

- بديهي، جاءت الساعةُ. حسناً! اجلسْ وكلْ، اجلس وكل.

أكل إميليان فقالت له العجوز:

- ها هي ذي كبّة غزل؛ ادفعها أمامك واتبعها حيثما تدحرجت. سوف يلزمك أن تذهب بعيداً، حتى البحر. فإذا وصلت البحر طالعتكَ مدينةٌ كبيرة، فادخلها، واطلب الإذن بالمبيت، في آخر بيت منها، وهناك ستجد مطلوبَك؟

- وكيف أعرف المطلوب، يا جدّة؟

Twitter: @ketab_n

- عندما ترى شيئاً يُطاعُ خيراً مما يُطاع الأب والأم، فهو المطلوب؛ خُذه واحمله إلى القيصر. ستحمله إليه وسيقول لك: أنت لم تحمل المطلوب. حينئذ أجب: «إن لم يكن هذا فيجب تحطيمه. اضرب ذلك الشيء واحمله بعد ذلك إلى النهر واكسره وارمه في الماء. وبعد ذلك ستلقى امرأتك وستجفِّف دموعي.

ودّع إميليان الجدة وسافر وهو يدفع الكبّة.

دفع الكبّة وأمعن في دفعتها فقادته إلى البحر. قرب البحر مدينةٌ عظيمة؛ في آخر بيت يطلب إميليان الإذن بالمبيت فيُجاب طلبه، وينام، ويستيقظ مبكراً؛ سمع الأب يوقظ ابنه ليذهب إلى قطع أشجار الغابة، فلا يُطيع الابن الذي يقول:

- مايزال الوقت مبكراً جداً، ومايزال لدي متسعٌ من الوقت.

سمعت الأم، من على المدفأة، هذه الكلمات، فقالت:

- اذهب، يا بني فأبوك عجوز، وهو لا يستطيع أن يذهب بنفسه، اذهب. تذمّر الابن وعاد إلى النوم.

ما كاد ينام حتى سمع شيئاً يُقرع من ذاته في الشارع ويدوّي. وثب الابن، وارتدى ثيابه وجرى مسرعاً إلى الشارع؛ اندفع إميليان وراءه ليرى ما الذي يُحدث هذه الضوضاء التي يطيعها الابن أكثر مما يطيع أباه وأمه. خرج إميليان ورأى في الشارع رجلاً يحمل أمامه شيئاً مدوّراً يضربه بعصا. وهو الذي أحدث هذا القرع، وهو الذي أطاعه الابن. دنا إميليان وأخذ ينظر إلى هذا الشيء. رأى أن هذا الشيء اسطواني الشكل، مُغلقٌ من طرفيه بجلدٍ. فيسأل:

Twitter: @ketab_n

- ما اسم هذا الشيء؟

قيل له:

- هذا طبلٌ.

- أهو فارغ؟

- نعم.

دُهش إميليان وطلب الطبل، فأبوا أن يعطوه إياه. لم يُلحّ إميليان، لكنه تبع حامل الطبل. مشى النهار كله، وعندما نام الطبّال، استولى إميليان على طبله وهرب به.

جرى وجرى وجرى فبلغ بيته. أمِلَ أن يجد امرأته في البيت، لكنها لم تكن هناك؛ لقد اقتيدت عشية أمس إلى القيصر.

قصد إميليان القصر وأعلن عن وصوله هو الذي:

«ذهب إلى هناك، إلى حيث لا يعلم، وحمل من هناك ما لا يعلمه». أُعلِمَ القيصر بذلك.

أمر القيصر أن يُبلَّغ إميليان أن يعود في اليوم التالي. طلب إميليان أن يُعلن عنه مرةً أخرى. قال:

- أنا جئتُ اليوم، وحملتُ ما أُمرتُ به؛ ليأتِ القيصر وإلا دخلتُ عنوةً.

Twitter: @ketab_n

خرج القيصر، وسأل:

- أين كنتَ؟

أجابه إميليان:

- كنت حيث لا أعلم أين.

- وماذا حملتَ؟

أراد إميليان أن يريه ما حمل لكن القيصر قال دون أن ينظر:

- ليس هذا هو المطلوب:

قال إميليان:

- إن لم يكن هذا هو المطلوب فيجب أن نكسره ونرميه للشيطان.

خرج إميليان من القصر حاملاً الطبل وأخذ يقرعه. وعلى الفور تجمّع حوله جيشُ القيصر كله؛ حظي بالتكريم وانتظروا أوامره.

صاح القيصر بجيشه من شرفة قصره ألا يقترب من إميليان؛ فلم يُصغ أحدٌ إليه وهُرعوا جميعاً نحو إميليان. عندما رأى القيصر ذلك أمر بأن تُقتاد زوجة إميليان إلى بيتها وأن يُطلب من إميليان إعادة الطبل إليه. قال إميليان:

- لا أستطيع، لقد أُمرت أن أحطّمه وأن أرمي حطامه في النهر.

دنا إميليان من النهر وهو يحمل الطبل، وتبعه الجنودُ جميعاً. وعند

Twitter: @ketab_n

ضفة النهر. حطّم إميليان الطبل إلى قطع صغيرة، ورماه في النهر، فتفرّق الجنود جميعاً. أخذ إميليان امرأته وعاد إلى منزله.

ومنذ ذلك اليوم كفّ القيصر عن تعذيبه. وصار إميليان يعيش بطمأنينة ويجمع الأموال.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الحبة العجيبة

وجد أطفال ذات يوم، في حفرة صغيرة، شيئاً بحجم بيضة الدجاجة، شيئاً تعترضه فرضة كالتي في الحبة. رآه بين أيديهم أحد المارة، فاشتراها منهم بخمسة كوبيكات، وحملها إلى المدينة، وباعها إلى القيصر باعتبارها طرفةً من الطرف.

أحضر القيصر الحكماء وعرضَ عليهم هذا الشيء، ودعاهم إلى تحديد طبيعته: أهو بيضة؟ أهو حبة؟ فحصه الحكماء من وجوهه كافةً، فعجزوا عن تحديده.

تُركت الحبة على حافة نافذة، فجاءت دجاجةٌ ونقرتها وفتحت ثقباً فيها؛ عرف الجميع أنه حبّةٌ؛ وأعَلم الحكماء القيصر أن الحبة حبة شيلم.

دهش القيصر من ذلك. كلّف الحكماء أن يبحثوا عن هذه الحبة متى وأين نبتت. استغرق الحكماء في أفكارهم، ورجعوا إلى كتب كثيرة، لكن بلا نتيجة. وذهبوا إلى القيصر ليقولوا له:

Twitter: @ketab_n

- يستحيل أن نجيب جواباً يرضيك: إن كتبنا لم تتنبأ بمثل هذه الحالة. ويجب أن نسأل الفلاحين، فربما سمع واحدٌ منهم متى وأين أمكن لهذه الحبة أن تنبت.

استدعى القيصر الفلاح الأكبر سناً بين قدامى الفلاحين. فجيء بفلاح عجوز دخل عليه، أخضر الوجه، أدرد الفم، يجرّ نفسه على عكازتين. عرض عليه القيصر الحبة، لكن الشيخ لم يرها بوضوح، وكان لابد له أن يستعين، ليفحصها بعينيه وبأصابعه.

سأله القيصر:

- أيمكنك أن تقول لي، أيها الجد، أين أمكن لمثل هذه الحبة أن تنبت؟ فلعلك قد بذرت مثلها في حقولك، أو لعلك قد اشتريت مثلها من مكان ما؟

كان الشيخ أصمّ، شديد الصمم، فلم يسمع إلا بمشقةٍ، وأخيراً أجاب:

- لا، لم أبذر قط، ولا حصدتُ في حقولي قط، ولا اشتريت قط مثل هذا الشيلم. والحب الذي كنتُ أجنيه أو أشتريه لم يكن أكبر من شيلم اليوم، وينبغي أن أسأل أبي أين يمكن أن ينبت مثل هذا الحب.

استدعى القيصر والد الشيخ. فجيء به؛ كان فلاحاً عجوزاً جداً يمشي على عكازة واحدة.

عرض عليه القيصر الحبة.

Twitter: @ketab_n

- أيمكنك أن تقول لي أيها الشيخ أين أمكن لمثل هذه الحبة أن تنبت؟ فلعلك قد بذرت مثلها في حقولك، أو لعلك قد اشتريت مثلها من مكان ما؟

كان سمعُ الشيخ ثقيلاً لكنه كان يسمع خيراً من ابنه.

أجاب:

- لا، لم أبذر قط، ولا حصدتُ في حقولي قط، ولا اشتريت قط مثل هذا الشيلم. كان المال غير معروف في زمننا. كان كل واحد يأكل خبز حقله، ومَنْ زاد ما عنده عن حاجته شارك المعوزين فيه... ولا أعلم أين أمكن لمثل هذه الحبة أن تنبت، كان الشيلم في زمني أكبر من اليوم، لكنه أصغر بكثير من هذه الحبة. سمعتُ أبي يردّد أن الشيلم في عصره كان يغلّ أكثر ويعطي حباً أكبر. اسأل أبي.

استدعى القيصر والد الشيخ. فجيء به أيضاً. دخل بغير عكازة، رشيق الخَطْوِ، صحيح النظر، مرهف السمع، ثابت الصوت. عرض عليه القيصر الحبة.

أمسك بها الجد الأكبر، ونظر إليها، ووزنها في يده، وقال:

- ها قد مضت سنوات طوال لم أر فيها شيلم الزمن الغابر.

وبعد أن عضها ولاكها بأسنانه أضاف:

- إنها من الحب نفسه حتماً.

Twitter: @ketab_n

– قل لي إذن أيها الجد، أين ومتى بُذر مثل هذه الحبة. ألم تجن أنت مثلها في حقولك، أو ألم تشتر منها من مكانٍ ما؟

أجاب الفلاح العجوز:

– لم يكن الناس يعرفون، في زمني، شيلماً آخر. فهذا هو الشيلم الذي كنت آكله أنا نفسي وأُطعمه الآخرين. وهذا الشيلم هو الذي كنتُ أبذره، وأحصده، وأرسله إلى المطحنة قديماً.

سأله القيصر أيضاً:

– أكنتَ تشتريه أم كنتَ تزرعه أنت بنفسك في حقولك؟

أخذ الفلاح العجوز يضحك، قائلاً:

– لم يكن أحد يرتكب مثل هذه الخطيئة في زمني: أن يبيع أو يشتري الخبز! بل إن المال لم يكن موجوداً في زمني. كان كل واحد يملك ما يكفيه من الخبز.

أردف القيصر:

– قل لي إذن، أيها الجد، أين كنت تزرع مثل هذا الحب، وأين كان حقلك؟

أجاب الجدُّ:

– كان حقلي أرض الله. وحيثما كنت أدير محراثي فهناك كانت

Twitter: @ketab_n

أرضي. كانت الأرض مشاعاً. لم يكن أحد يسمي الأرض أرضه، و لم يكن أحد يملك سوى عمله الخاص.

واصل القيصر كلامه:

- أحبّ أن أعرف شيئين أيضاً. أولاً، هذا الحبُّ الذي كان ينبت قديماً لماذا لم يعد ينبت الآن في أي مكان؟ ثانياً، لَم احتاجَ حفيدُك لكي يمشي إلى عكازتين، وابنك إلى عكازة واحدة، بينما أنت نفسك نشيط الساقين؟ وعيناك بعيدتا النظر، وأسنانك تعضّ وتلوك، ولسانك بيّن ولطيف... لم ذلك، أيها الجد؟

فأجاب الفلاح العجوز:

- ذلك أن الناس عَزَفوا عن طلب خبزهم من عمل أيديهم، وأنهم يُؤثرون أن يعيشوا من عمل الآخرين. لم يكن الناس يعيشون هكذا في الزمن الغابر، كانوا يتّبعون شريعة الله؛ كانوا يعيشون مسرورين من القليل دون أن يحسدوا أحداً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ثلاثة أبناء

أعطى أبٌ ابنه ملكاً واسعاً وقمحاً وماشيةً، وقال له:

– عش كما عشتُ، وستكون أمورُك على مايرام.

تسلّم الولد ما أعطاه إياه أبوه، وانصرف، وشرع يعش من أجل لذّته. دعاني أبي أن أعيش كما يعيش؛ وهو يعيش عيشةً هنيئةً، وإذن فسوف أعيش مثله».

عاش هكذا سنةً، سنتين، عشر سنين، عشرين سنة. أنفق كل ما أعطاه إياه أبوه، فعاد صفر اليدين. حينئذ بدأ يسأل أباه أن يعطيه المزيد، لكن الأب رفض، حاول أن يتملّقه، وأن يهديه أحسن ما عنده، وأن يتوسل إليه. لكن الأب أصمَّ أذنيه. فأخذ الابن يسأل والده المغفرة، ظاناً أنه أهانه، وتملّقه مرة أخرى؛ لكن الأب أبى أن يلين.

وأخذ الابن يلعن أباه، ويقول:

– إن كنت لا تريد أن تعطيني شيئاً الآن، فلماذا وهبتني تلك الهبة

Twitter: @ketab_n

فيما مضى، وعلّلتني بأنها تكفيني لأن أعيش عيشة هنيئة دائماً؟... إن جميع الأفراح التي شعرتُ بها وأنا أنفق ثروتي لا تعادل ساعةً من الآلام التي أقاسيها الآن. أرى أنني أغرق ولا سبيل إلى النجاة. أنت... كان ينبغي أن تعلم أن تلك الثروة لن تكفيني، وأنت لم تعطني المزيد. قلتَ لي فقط: «عش مثلي وستكون الأمور على ما يرام». ولقد عشت مثلك؛ أنت عشت من أجل لذتك وأنا عشتُ من أجل لذتي. أنت احتفظت بالقسط الأكبر من الثروة، وأنا لم يكن عندي ما يكفي. أنت لست أباً، أنت خدّاعٌ مسيءٌ ملعونةٌ حياتي! ولتكن ملعوناً، أنتَ، أيها الغشاش، الجلاد! لن أتعرّف عليك بعد الآن، إني أكرهك!

أعطى الأب أيضاً ملكاً واسعاً للابن الثاني وقال له فقط:

- عش كما عشتُ، وستكون أمورك على مايرام.

لم يكن رضا الابن الثاني عن هذه الهبة بقدر رضا الابن الأول؛ وجدها عادلة، لكنه كان يعلم ما حدث لأخيه البكر، ولذلك أخذ يفكر في الطريقة التي يتبعها لكي لا ينفق هو أيضاً ثروته كلها. أدرك أن أخاه أوّل تأويلاً سيئاً قول أبيه: «عش كما عشت»، وأنه لا ينبغي أن يعيش الإنسان من أجل لذته ليس غير. وأخذ يفكّر فيما يمكن أن تعنيه هذه الجملة: «عش كما عشت». وفكر أنه كان يجب عليه، شأنه شأن أبيه، أن يكسب ثروة تساوي الثروة التي أعطاه إياها أبوه. فشرع يعمل لينشئ ملكاً آخر شبيهاً بالذي جاءه من أبيه، وفكّر في الوسائل المؤدّية إلى ذلك.

استشار أباه، فلم يُجبه أبوه. ظن الابن أن الأب يخاف أن يقول

Twitter: @ketab_n

له شيئاً، فأخذ يفحص جميع الأشياء التي يستعملها أبوه، لكي يفهم، من ذلك كيف كان يتصرف. أفسد كل ما تلقّاه من أبيه، وكل ما كان يفعله لم يكن له من قيمة. لكنه لم يشأ أن يعترف بأنه أفسد كل شيء. كان يقول للجميع: إن أباه لم يعطه شيئاً، وأنه فعل كل شيء بنفسه، وأن الجميع كان يمكنهم أن يفعلوا ما هو أفضل، وأن الناس سيبلغون عما قريب الكمال بحيث يغدو كل شيء كاملاً.

هكذا تكلم الابن الثاني طوال الزمن الذي بقي له فيه شيءٌ مما أورثه أبوه. لكنه عندما أضاع كل شيء انتحر.

أعطى أبوه ملكاً مماثلاً للأخ الثالث، وقال له: «عش كما عشتُ، وستكون أمورك على ما يُرام».

ترك الابن الثالث أباه، سعيداً مثل أخويه بأن يحصل على مثل هذا الملك. لكنه كان يعلم ما حصل لأخويه. فأخذ يفكّر في معنى هذه الكلمات: «عش كما عشتُ» «كان أخي يَحْسَبُ أن عيشنا كما عاش أبونا يعني أن نتصرف كما تصرف، وهو أيضاً قد مات. وإذن، فما معنى أن نعيش كما عاش أبونا؟.

أخذ يتذكّر كل ما عرفه عن أبيه. عبثاً فكر، إذ لم يكن يعلم سوى شيء واحد أنه لم يكن له شيء قبل ولادته وأنه لم يكن موجوداً، وأن الأب هو الذي أوجده وأطعمه وعلّمه ووهبه خيراتٍ من كل صنف، وقال له: «عش كما عشتُ وستكون أمورك على ما يُرام: وكان يعلم أن أباه فعل كذلك لأخويه. عبثاً فكر و لم يكن بوسعه أن يعلم شيئاً أكثر من ذلك. كل ما كان يعلمه هو أن أباه أحسن إليه وإلى إخوته.

Twitter: @ketab_n

وحينئذٍ أدرك ما تعنيه كلمات: «عش كما عشت» أدرك أن العيش كما عاش الأب يعني أن يفعل ما ينبغي فعله من أجل خير الناس.

وبينما هو يفكّر كذلك أقبل عليه الأب وقال له: ها نحن أولاء معاً من جديد وستكون أمورك على ما يرام. اذهب إذن إلى جميع أولادي وقل لهم ما معنى: أن يعيشوا كما عشت، وأن الحق أن كل الذين يعيشون مثلي سيكونون سعداء أبداً.

ومضى الابن الثالث يروي ذلك لذويه، ومنذئذ كان كل ولد ينال حصته يبتهج لا لأنه نال الكثير، بل لأنه يستطيع أن يعيش كأبيه وأن يكون سعيداً دائماً.

الأب هو الله، وأبناؤه هم البشر، والثروة هي الحياة. والناس يظنون أن بوسعهم العيش وحدهم دون الله؛ يتصور البعض أنهم أُعطوا الحياة ليتسلّوا؛ وهم يتسلّون ويبدّدون حياتهم، وعندما يأتي الموت لا يفهمون لماذا أُعطوا الحياة التي تنتهي لذّاتها بالآلام والموت.

وهؤلاء الناس يموتون وهم يجدّفون على الله، وينفصلون عنه. كذلك الابن الأول.

ومن الناس مَنْ يحسب أنهم أُعطوا الحياة ليدرسوها وليحسّنوها، وهم يعملون ليصنعوا لأنفسهم حياة أفضل؛ لكنه حين يحسنون هذه الحياة يفقدونها ويحرمون أنفسهم بأنفسهم الحياة.

وهناك أخيراً من يقول:

Twitter: @ketab_n

- كل ما تعلمه عن الله هو أنه يهب الناس الخيرات ويأمرهم أن يفعلوا مثله الشيء نفسه. فلنفعل إذن الشيء نفسه: الخير للناس. وما إن يفعلوا حتى يأتي الله إليهم ويقول لهم:

- هذا ما كنت أريده. افعلوا معي ما أفعله. وستعيشون مثلي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نيكولا بالكين

قضينا الليل عند جندي قديم عمره خمسة وتسعون عاماً خدم في عهد الاسكندر الأول ونيكولا الأول.

- ماذا، أيها الجد! أتريد أن تموت؟

- أن أموت! آه! نعم، أريد ذلك؛ فيما مضى كنتُ أخاف الموتُ، والآن لا أطلب من الله إلا شيئاً واحداً: أن أتوب وأتناول لأنني أتيتُ كثيراً من الذنوب.

- ما ذنوبك؟

- كيف، ما ذنوبي! ألا تعلم أنني خدمتُ في عهد نيكولا الأول؛ أكانت الخدمة آنذاك كما هي الآن؟

«أوه! هذه الذكرى رهيبة! بدأتُ خدمتي في عهد الاسكندر، كان الجنود يغنون مدائحه، قيل إنه كان صالحاً جداً...

تذكرت الأزمنةَ الأخيرة من ملك الاسكندر، عندما كان يُضرب

Twitter: @ketab_n

عشرون جندياً من مئة، حتى الموت، فماذا عساه يكون نيكولا مقارنةً به، إذا نُعت الاسكندر بأنه صالح.

وأردف الشيخ:

– تابعتُ خدمتي في عهد نيكولا.

وما لبث أن نشط وأخذ يروي:

– وأيّ زمنٍ! لم يكن البنطال يُرفع من أجل خمسين جلدة إذ ذاك؛ ومن أجل مئة وخمسين ومئتين وثلاثمئة جلدة... كان الجَلْد حتى الموت.

كان يتكلم باشمئزاز واستفظاع.

– والعصا[1]! لم يكن يمر أسبوع دون أن يُضرَب رجلٌ أو رجلان من الفوج حتى الموت. لا يعرف أحدٌ الآن ما العصا، أما فيما مضى فإن هذه الكلمة الصغيرة لم تكن تخرج من الفم: عصا، عصا. كان الجنود عندنا يسمّون الامبراطور نيكولا بالكين[2]. كانوا يقولون نيكولا بالكين بدلاً من نيكولا بافلوفيتش. وها أنا ذا عندما أتذكر ذلك الزمن، عندما أتذكره، إنه فظيع. كم من الذنوب تُثقل الضمير! كنت تُؤمَرُ بمئة

١– والعصا: أُدخل هذا العقاب البغيض في الجيش الروسي من ألمانيا في القرن الثامن عشر، وأُلغي في بروسيا سنة ١٨٠٧، ومورس كثيراً في الجيش الروسي، و لم يُلغ إلا في سنة ١٨٦٤.

٢– نيكولا بالكين: جعل بعض الجنود اسم أسرة القيصر بافلوفيتش (ابن بول) كأنه مشتق من «بالكا» التي تعني العصا...

Twitter: @ketab_n

وخمسين جلدة لسوء سلوك جندي (كان الشيخ صف ضابط)، وأنت كنت تعطيه مئتين، و لم يكن هذا يشفيك؛ وتلك هي الخطيئة.

كان صفُّ الضباط يضربون الجنود الشباب حتى الموت: كانوا يضربون بعقب البندقية أو بقبضة اليد في الصدر أو في الرأس، ويموت الجندي فلا يوبّخك أحد.

كان يموت لأنه ضُرب، وكانت السلطاتُ تكتب: «مات بمشيئة الله»، وكان ذلك كل شيء. لكني هل كنت أفهم ذلك، حينئذ؟ لا يفكّر المرءُ إلا بنفسه، ونستلقي الآن على المدفأة فلا ننام الليل ونفكّر: سيكون شيئاً حسناً إن نلتَ المناولة المسيحية والمغفرة، وإلا فالأمر رهيب! عندما نتذكّر مقدار الألم الذي ألحقناه، وما نفع الجحيم، هذا أسوأ من الجحيم...

كنتُ أتصوّر بشدّة كل ما يمكن أن يتذكره في شيخوخته المنعزلة هذا الرجل المشرف على الموت، ومع أنه غريب عني، إلا أنني ارتعبتُ. كنت أتذكر كل الفظاعات التي لابد أنه شارك فيها. كنت أتذكر كيف كان يُعذَّب الجنود بالقضيب حتى الموت، وأتذكّر القتل، ونهب المدن والقرى، في الحرب (شارك الشيخ في حملة بولونيا[٣])، ورجوتُه أن يحدثني عن ذلك كله؛ طلبتُ إليه أن يروي لي تفاصيل عن عقوبة القضيب، فروى لي قصة هذا التعذيب الرهيب. إذ تُرْبَط يدا الرجل كلٍّ يد ببندقية، ويُمرَّ بين صفين من الجنود الذين يمسك كل منهم قضيباً يضربون به الضحية؛ وخلف الجنود، يتمشى ضباط وهم يصرخون:

٣- حملة بولونيا: إبّان الثورة البولونية (١٨٣٠ -١٨٣١).

Twitter: @ketab_n

- اضرب ضرباً أشد ضرباً أشد!

كان الشيخ يصيح بهذه الكلمات، بصوت حاسم، وقد تذكرها برضاً واضح، محاكياً تلك اللهجة، لهجة البسالة الآمرة. كان يروي هذه التفاصيل دون ندم، وكأن الكلام يجري على ثيران معدةٍ للذبح. روى كيف جُرَّ مسكين ذهاباً وإياباً، بين الصفوف؛ كيف يقاوم الرجل المضروب ويقع؛ كيف تُشاهد أولاً المساحبُ الدامية؛ كيف يسيل الدم؛ كيف يسقط مزقاً اللحم المضروب؛ كيف تُشاهَدُ العظام؛ كيف يصرخ المسكين المكلَّف، ويفحص النبض وينظر ويقرر إذا كان من الممكن أن يُضرب الرجل دون أن يُقتل، أو هل ينبغي الانتظار إلى أن يشفى ويبدأ الضرب من جديد حتى تنتهي كمية الضربات التي قرر فرضَها عليه وحوشٌ مفترسة، وعلى رأسهم بالكين؛ ويستخدم الطبيب علمه ليحول دون موت الرجل قبل أن يكابد جميع العذابات التي يمكن أن يتحملها جسده. وعندما يعجز عن المشي يُحمل إلى المشفى على معطف ويعالج هناك، لكي يستوفي، إذا شفي، ألف ضربةٍ أو ألفين بقيت عليه ولم يستطع أن يتحملها دفعة واحدة. روى أن الجنود كانوا يطلبون الموت، لكنهم لم يكونوا ليُعطوا الموت، بل يُشفون ليُضربوا مرة ثانية وثالثة. ويعيش المسكين؛ إنه يُرمى في المشفى منتظراً العذابات الجديدة التي تقوده إلى الموت؛ وحينئذ يُساق إلى التعذيب مرة ثانية وثالثة ويُضرب حتى آخر نفس. كلُّ ذلك لأن الرجل هرب من الفوج، أو لأنه أوتي الجسارة والجرأة لأن يشكو سوء التغذية من أجل رفاقه أو لأنه يقول إن القادة يسرقون.

روى ذلك كله، وعندما أردت إيقاظ ندمه على مثل هذه الأفعال، دهش ثم ارتعب بعد ذلك. قال:

Twitter: @ketab_n

- لا، كان ذلك بحكمٍ صدر، فيمَ أنا مذنبٌ، كان ذلك حكم القانون؟

كان مطمئناً أيضاً ولم يشعر بتبكيت الضمير كذلك للفظائع العسكرية التي شارك فيها والتي كثيراً ما رآها في تركيا وفي بولونيا.

تحدّث عن قتل الأطفال، عن السجناء الذين يُتركون ليموتوا من الجوع والبرد، عن قتل شاب بولوني اندفع نحو شجرة، بطعنات الحربة؛ ولما سألتُه إن لم يكن ضميرُه معذّباً بهذه الأفعال، لم يفهم. كانت هذه هي الحرب، بالقانون، من أجل الامبراطور ومن أجل الوطن؛ وإذن فلم تكن هذه الأفعال سيئةً، بل لقد كان يظنها مجيدة، فاضلة، وقادرة على التكفير عن ذنوبه. لم يكن يتعذّب إلا من أفعاله الشخصية: من كونه، وهو رئيس جماعةٍ، ضرب وعاقب رجالاً. كان ذلك وحده يكدّر ضميره. لكنه لكي يكفّر عن أخطائه، يؤمن بوسيلة وحيدة هي المناولة. وهو يأمل أن يحصل عليها قبل الموت؛ ولقد رجا لذلك ابنة أخيه؛ فوعدته هذه بعد أن أدركت أهمية هذا الفعل، وهو مطمئن النفس.

لم يكدِّر ضميره أنه نهب، وقتل نساءً وأطفالاً أبرياء، وذبح رجالاً بطعنات الحربة، وجلد حتى الموت مساكين جرّهم إلى المشفى ليعذّبهم من جديد، ليس ذلك من شأنه، ويبدو أن رجلاً آخر غيره هو الذي فعل ذلك.

وماذا عسى يفكّر هذا الشيخ لو فهم ما كان ينبغي أن يكون واضحاً جداً عنده عشية الموت، وأن ليس هناك ولا يمكن أن يكون، حتى في ساعة الموت، أيُّ وسيط بين ضميره والله.

Twitter: @ketab_n

ولا يمكن أن يكون أيضاً أيُّ وسيط يجبره على تعذيب الآخرين وقتلهم؟ وماذا سيحل به لو فهم الآن أن لا شيء يمكن أن يكفّر عن الشر الذي ارتكبه آنذاك والذي كان بإمكانه ألا يرتكبه؟ لو علم أن ليس هناك سوى قانون وحيد وأبدي يأمر بالمحبة والشفقة بين البشر، وأن ما دعاه قبل قليل قانوناً ليس سوى خدعة مخزية، حقيرة، ما كان ينبغي له أن يقع فيها؟ وإنه لشيء رهيب حين نفكر فيما يُلازم ذهنه أثناء هذه الليالي المسهّدة على المدفأة، وكم سيكون يأسه لو فهم أنه في اللحظة التي أُتيح له فيها إمكان فعل الخير أو الشر، لم يُقدم على غير الشر، في حين كان يعلم مم يتكوّن الخير.

- حينئذ، لَمَ نريد تعذيبه، لَمَ نُقلق ضمير شيخ يموت، الأوْلى أن نهدّئه؟ لَمَ نُزعج الشعب، ونذكّره بما مضى؟

ما مضى؟ فيما مضى؟ أهو ماضٍ ما لم نبدأ بتدميره أو الشفاء منه بعد، بل مانزال نخشى تسميته باسمه؟ المرض المخطر هل يمكن أن يكون ماضياً لأننا نقول فقط إنه غير موجود؟ إنه لم يشف ولن يشفى إذا لم نعترف بأننا مرضى. ولكي نشفي المرض يجب أن نعرفه أولاً، وذلك بالضبط ما لا نفعله. ونحن لا نُحجم عن فعله فحسب، بل إننا نفعل وسعنا لكي لا نراه، لكي لا نسمّيه. والمرض لم يزل، إنه تغير فقط، وهو ينفذ نفاذاً أعمق إلى اللحم والدم والعظام. إن المرض يكمن في أن الناس الذين وُلدوا أخياراً ودعاءَ، متشرّبين روح العقيدة، الناس المفعمين بالأسف لأنهم جرحوا القريب بالكلمات، ولأنهم لم يتقاسموا خيراتهم مع المتسوّلين، لأنهم لم يَرْنوا للسجناء، هؤلاء الناس يقضون أفضل سني حياتهم في الجريمة، ويعذّبون إخوتهم، وهم

Twitter: @ketab_n

لا يندمون فقط على هذه الأفعال، لكنهم يعتبرون الحرب ضرورة حتمية كالأكل والتنفس. أليس من واجب كل واحد أن يعمل وسعه للشفاء من هذا المرض، وأن يكتشفه أولاً وبصورة رئيسية، ويعترف به، ويسمّيه باسمه. إن الجندي العجوز قضى حياته يعذّب الآخرين ويذبْحهم، ونحن نقول: لماذا نذكّره بذلك؟ إن الجندي لا يظن نفسه مذنباً، وهذه الأشياء الرهيبة، العصيّ والسياط وما سواها، كل ذلك قد مضى؛ لَمَ التذكر بهذه الأشياء العتيقة. الآن لم يعد شيءٌ من ذلك موجوداً. لقد كان هناك نيكولا بالكين، فلمَ الكلامُ عليه؛ الجنديُّ العجوز وحده يتذكّره، فلم نُزعج الشعب؟

قيل الشيء نفسه عن الاسكندر في زمن نيكولا؛ والشيء نفسه عن «بول» في زمن الاسكندر؛ والشيء نفسها عن كاترين في زمن بول، عن هيجان فسادها، وجنون عاشقيها، وفي زمن كاترين قيلَ الشيء نفسه عن «بطرس»، الخ... لَمَ التذكير بذلك كله؟ كيف، لَمَ التذكير بذلك؟ إن كنتُ مصاباً بمرض رهيب أو مخطر يصعب شفاؤه ثم تخلّصتُ منه، فسأتذكره بفرح؛ لكني لن أتكلم عنه مادمتُ مريضاً به مرضاً يسير من سيء إلى أسوأ، مادمت أريد أن أوهم نفسي. حينئذ فقط لا أتكلم عنه. ولا نريد أن نتذكره لأننا مازلنا مرضى. لَمَ نُحزن الشيخ ونُزعج الشعب. العصا، القضيب، كل ذلك غدا بعيداً، غدا من الماضي. كلا، إن ذلك قد غيّر شكله فقط. في جميع الأزمنة، حدثت أشياءُ لا نتذكرها باستفظاع فقط، بل بسخط. نقرأ وصف المحارق للمهرطقين، والتعذيب، والعصيّ، والتعذيب بالجَلْد بين الصفين، فلا نستفظع وحشية البشر فحسب، بل إننا لا نستطيع أن نتصور نفسيّة البشر الذين كانوا يفعلون ذلك. ماذا في نفس ذلك الرجل الذي ينهض

Twitter: @ketab_n

من فراشه، ويرتدي بزّته، بزة السيد المُطاع، ويصلي الله، ثم يذهب إلى غرفة التعذيب ليفكك أوصال النساء والشيوخ، ويجلدهم بالسوط، ويقضي في هذا الشغل خمس ساعات في اليوم، مثل الموظف الحالي في مجلس الأعيان، ثم يعود إلى البيت، ويجلس مطمئناً إلى طاولته ويقرأ الكتاب المقدّس؟ ما الذي نجده في نفس هؤلاء الآمرين للأفواج والكتائب الذين (وقد عرفت أمثال هؤلاء) كانوا يرقصون، عشية أمس، رقصة المازوركا مع إحدى الحسان، ثم يذهبون مبكّرين لكي يتمكنوا في اليوم التالي، في ساعة مبكرة، أن يعطوا أوامرهم ليعذبوا بالقضيب، حتى الموت، جندياً تترياً هرب أو قتل رجلاً، ثم يعودون إلى الغداء في بيوتهم؟ كل ذلك جرى في عهد بطرس وكاترين والاسكندر ونيكولا[٤]؛ ليس من حقبةٍ لا نجد فيها هذه الأحداث التي لا نستطيع فهمها لا نستطيع أن نفهم كيف يستطيع الناس ألاّ يروا الوحشية الشرسة لهذه الفظائع، أو على الأقل غياب العقل عنها. جرى مثل ذلك في جميع الأزمنة، فهل زمننا بلغ حداً من السعادة بحيث لا نجد له نظائر، أليس فيه أعمال ستبدو للآتين بعدنا غير قابلة للفهم مثل تلك؟

نجد في زمننا الأفعال نفسها والفظائع نفسها، لكننا لا نراها، كما أن أسلافنا لم يروها في زمنهم. ليست الوحشية وحدها، بل غياب العقل عن المحارب والتعذيب القضائي كوسيلة لمعرفة الحقيقة، كل ذلك واضح لنا. الطفل يفهم ما فيها من مخالفة للعقل. لكن الناس فيما مضى لم يكونوا يفهمونها. كان العقلاء والعلماء يؤكدون أن التعذيب

٤- بطرس الأكبر: ١٦٨٩ - ١٧٢٥. كاترين ١٧٦٢ - ١٧٩٦. الاسكندر ١٨٠١ - ١٨٢٥. نيكولا ١٨٢٥ - ١٨٥٥.

Twitter: @ketab_n

شرط ضروري لحياة البشر، وأنها مؤلمة، لكن لابد منها؛ والشيء نفسه بالنسبة إلى العصا والعبودية. ثم مضى الزمن، ومن الصعب علينا الآن أن نتصور الحالة الذهنية لهؤلاء الناس الذين أمكن أن يقعوا في مثل هذا الخطأ الكبير. لكن ذلك حدث في جميع الأزمنة، ولذلك فلابد أن يحدث في زمننا، ولابد أن نكون، نحن أيضاً، عُمياً عن جرائمنا. أين تعذيبنا، وعبوديتنا، وعصيّنا؟ يبدو لنا أنها لم تعد موجودة، وأنها وُجدت فيما مضى، وأنها زالت الآن. يبدو لنا ذلك لأننا لا نريد أن نفهم الأشياء لفهمنا بوضوح وضعنا الحالي وأسبابه. ولو سمينا فقط بأسمائها المحرقة، والتعذيب، والمشنقة، والتجنيد، لوجدنا إذن الاسم الحقيقي أيضاً للسجون والجيوش والنوّاب العامين والشرطة. وإذا لم نقلها فلماذا نتكلم عنها؟ لكننا لو أمعنا النظر فيما كان يجري قديماً لرأينا وفهمنا ما يجري الآن. وإذا كان واضحاً لنا أن من الخبَل قطع الرؤوس على خشبة الجزّار، وانتزاع الحقيقة بالتعذيب؛ حينئذ سيغدو واضحاً لنا وليس أقل وحشية وخبلاً شنق الناس، وحبسهم في زنزانات تعادل الموت إن لم تكن أسوأ ومعرفة الحقيقة على أيدي محامين مأجورين أو نواب عامين. وإذا بدا واضحاً لنا أن من الوحشية والخبَل أن يُقتل إنسانٌ ضلَّ طريقه، فكذلك يتضح لنا أنه أشد وحشية إيداع ذلك الرجل السجن لإفساده نهائياً. وإذا كان واضحاً لنا أن من الخبَل والوحشية جعل الفلاحين جنوداً ووشمهم كما يوشم الحيوان، فكذلك يبدو لنا أن الخبَل والوحشية أن يُجبر كل إنسان بلغ الواحدة والعشرين على الذهاب إلى الخدمة. وإذا كان واضحاً لنا مدى الخبل والوحشية في «الاوبريتشينا» فإن خبل الحرس والشرطة السرية ووحشيتهما لأوضحُ. وإذا كففنا فقط عن إغماض أعيننا عن الماضي

Twitter: @ketab_n

وعن القول: لماذا نذكر الماضي؟ حينذاك سنرى بوضوح أن في زمننا الفظائع نفسها، لكن بشكل جديد ليس غير. نحن نقول: كل ذلك مضى، ولا نجد الآن عذاباً، ولا ملكات فاسدات مثل كاترين، مع عشاقهن القادرين على كل شيء، ولا عبودية، ولا قتلاً بالعصا.

لكن ذلك هو الظاهر. هناك ثلاثمئة ألف سجين محبوسون في السجون، في حجر منفردة ضيّقة ونتنة، يموتون موتاً بطيئاً، موتاً جسدياً ومعنوياً؛ ويظل أولادهم ونساؤهم وحيدين يموتون جوعاً. ويودّع هؤلاء الناس في كهوف الفساد، في السجون، وهذا الحبس الوحشي الجنوني لا يُفيد سوى الحراس والمديرين، وهم السادة المطلقون هذه الأفكار، بنفيهم إلى الأرجاء المنعزلة من روسيا، أو يصبحون مجانين ويشنقون أنفسهم. إن الآلاف محبوسون في القلاع حيث يقتلهم سراً رؤساء السجون أو يصبحون مجانين بتأثير الحبس الانفرادي. إن ملايين البشر يهلكون معنوياً وجسدياً في عبودية المصانع. مئات الآلاف يُنتزعون كل خريف من أسرهم وزوجاتهم، ويُعلَّمون القتل، ويُفسدون إفساداً منهجياً. ولا يستطيع امبراطور روسيا أن ينتقل إلا في حماية سلسلة من نحو مئة ألف جندي يوضعون على دربه، بحيث يبعد كل جندي عن الآخر خمسين قدماً، وسلسلة سرية تتبعه حيثما ذهب. ورب ملك يجمع الضرائب ويأمر ببناء برجٍ في قمته يُنشئ بركةً ملونةً باللون الأزرق، وآلة تحاكي العاصفة، ويتنزه فيها بزورقه. ويموت الشعب في المصانع، في إيرلندا وفرنسا وبلجيكا. ولا يحتاج المرء إلى بصرٍ نافذ فوق العادة لكي يرى أن الشيء نفسه يجري في زمننا، وأن فيه حالياً التعذيب نفسه، والفظائع نفسها التي ستسبب للأجيال القادمة دهشة عظيمة بوحشيتها وخبلها.

Twitter: @ketab_n

المرض مايزال هو نفسه، لكن المرضى ليسوا هم الذين يستغلّون هذه الفظائع. لكن ليستغلّوها مئة مرة أو ألف مرة أكثر؛ وليبنوا الأبراج، والمسارح؛ لينهبوا الشعب؛ ليجلده بالكين؛ ليشنق «بوبيدو نزوتزيف»[٥] و«اورغيفسكي» الناس بالمئات سراً في القلاع، لكن ليفعلوا ذلك كله بأنفسهم؛ وعليهم ألا يُفسدوا الشعب، ألا يخدعوه حين يجبرونه على أن يشارك في ذلك، مثل ذلك الجندي العجوز. إن الشر الرهيب يكمن في هذه الفكرة وهي أنه يمكن أن يوجد للإنسان شيء أقدس من قانون محبة الإنسان. إن الإنسان يمكنه أن يقوم بكثير من الأعمال إرضاء لطلبات أمثاله من الناس، لكن هناك عملاً واحداً لا يجوز أن يفعله: لا يجوز له، بأمر من أي شخص، أن يسير ضد مشيئة الله: أن يقتل إخوانه ويعذّبهم. ومنذ ألف وثمانمئة سنة كان الجواب على سؤال الفريسيين: «هل ندفع الجزية لقيصر؟» «دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

إذا كان للناس عقيدة ما، واعتقدوا أن ثمة شيئاً يدينون به لله، فسوف يعتقدون قبل كل شيء أن ما يدينون به لله هو ما علّمه الإنسان: «لا تقتل»، «لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه بك»، «أحب قريبك كنفسك»، وما حفره في قلب كل إنسان بخطوط لا تُمحى: حب القريب، الشفقة عليه، استفظاع القتل وظلم الإخوان.

ولو آمن الناس بالله لما أمكنهم تجاهل هذا الواجب الأول نحوه:

٥- «بوبيدو نوزتزيف» ١٨٢٧ -١٩٠٧ نائب المجمع المقدس، ورجعي محدود مارس تأثيراً مشؤوماً على الاسكندر الثالث ونيكولا الثاني. أما «اوروغيفسكي» فكان قائد الشرطة في عهد الاسكندر الثالث.

Twitter: @ketab_n

ألا يعذِّب الإنسان الإنسان، ألا يقتله. وحينئذ يصبح لهذه الكلمات: «دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، دلالة واضحة ودقيقة.

يقول المؤمن:

- للملكِ أو لمن تشاء، كلُّ ما يشاء، على ألا يناقض مشيئة الله. يريد قيصر مالي، هاهو ذا؛ يريد بيتي وعملي، خذهما؛ امرأتي، أولادي، حياتي، خذ كل ذلك، كل ذلك ليس لله بل لقيصر. أما أن أقف وأمد عصاي على قريبي، هذه قضية مع الله، هذا عمل من حياتي يجب أن أقدّم حسابي عنه لله، ولم يأمرني الله أن أتصرف هكذا ولا يمكنني أن أسلّم بذلك لقيصر. لا يمكنني أن أقيد إنساناً، وأن أسجنه، وأن أعاقبه، وأن أقتله، كل ذلك هو حياتي، وهي تخص الله، ولا يمكنني أن أهبها، أن أضحي بها لأحد، ماعدا الله.

إن هذه الكلمات: «لله ما لله» تعني لنا أننا يجب أن نقدّم لله شموعاً وصلوات وكلمات، وعلى العموم، كل ما ليس ضرورياً لأحدٍ، ولا لله؛ وكل ما سوى ذلك: كل حياتنا، كل قداسة نفسنا التي تخص الله، كل ذلك نهبه القيصر، أي نهبه رجلاً غريباً نكرهه.

لكن هذا رهيب، أيها الناس، فتذكروه.

Twitter: @ketab_n

سيروا مادام النور معكم

- ١ -

اجتمع عدة أصدقاء في منزل مضياف لرجل غني. وحدث ذات يوم أن الحديث اتخذ وجهة جادة، وكانت الحياة الإنسانية موضوعه.

تحدثوا عن أنفسهم وعن أشخاص غائبين، لكنهم لم يستطيعوا أن يعينوا، بين أصدقائهم ومعارفهم، واحداً فقط راضياً عن نمط حياته. لا لأن هؤلاء الأشخاص يحق لهم أن يشكوا رقةّ الحال، فقد كانوا في أوضاع ميسورة، لكن أحداً منهم لم يكن ينظر إلى الحياة التي يسلكها جديرة بمسيحي. اعترفوا جميعاً بأنهم يبدّدون حياتهم، وأن أفكارهم لا تتعلق بغير الأشياء الدنيوية، وأنهم لا يهتمون إلا بأنفسهم وبأسرهم، وأخيراً أنهم لا يكادون يفكرون في جيرانهم بَلْه في الله.

هكذا يمكن تلخيص حديث هؤلاء الأصدقاء؛ وقد أجمعوا إجماعاً مُستغرباً على أنهم أخطأوا حين تناسوا الله وأنهم عاشوا حياةً وثنية.

هتف شاب شارك لتوه في النقاش:

- لم نواصل العيش بهذه الطريقة الحقيرة؟ لماذا نواصل فعل ما

Twitter: @ketab_n

ندينه؟ ألسنا المتحكمين بحياتنا، ألسنا أحراراً في أن نغيرها أو نعدلها على هوانا؟ ها نحن أولاء متفقون على هذه النقطة وهي أن ترفنا وبلادتنا وغنانا، وقبل كل شيء، كبرياءنا التي لا حدود لها والتي تعزلنا عن إخواننا، ترمي بنا إلى الهلاك الذي لا علاج له. فلكي نغدو مشهورين وأغنياء نُضطر إلى أن نحرم أنفسنا مما يصنع فرح الحياة الإنسانية؛ ونُصابُ بالإعياء وتوفّز الأعصاب، ونخرّب صحتنا، وبالرغم من جميع تسلياتنا ولذّاتنا، نموت من الضجر والأسف لأن حياتنا كانت مختلفة إلى حد كبير عما يجب أن تكون عليه. وإذن، فلماذا نعيش هكذا؟ لماذا نحطم بغير شفقة حياتنا بأكملها ونزدري الخيرات التي لا تُقدر بثمن والتي وهبنا الله إياها؟ أما أنا، فلا أريد أن أتدنّس بحياة شبيهة بحياة الماضي. سأعزف عن دراستي لأنها لا يمكن أن تقودني إلا إلى تلك الحياة المريرة والمؤلمة التي شكوتم منها جميعاً. سأتخلّى عن أموالي وممتلكاتي، وسأعتزل في الريف حيث سأقضي حياتي مع الفقراء. سأعيش بينهم، وسأتعود أعمالهم الخشنة، وفي الحال التي تغدو فيها ثقافتي الفكرية نافعة لهم، سأعطيهم إياها، لا بواسطة المؤسسات والكتب، بل مباشرة، متخذاً من حياتي العاملة قدوةً، عائشاً عيشة أخوية بينهم. وختم كلامه وهو يُلقي نظرة مستفهمة نحو أبيه الذي كان يُصغي إليه وهو واقف: نعم، لقد اتخذت قراري.

أجاب أبوه:

– إن رغبتك نبيلة في حقيقتها، لكنها ثمرة مبتسرة لدماغٍ لم يبلغ بعد نموه التام. كل شيء يبدو لك عملياً لأنك لم تجرب الحياة بعد.

Twitter: @ketab_n

ماذا سيحلُّ بنا، وبالعالم كله، إذا لم يتّبع كلٌّ منا إلا ما يبدو له حسناً ومرغوباً فيه؟ إن تحقيق جميع هذه الأشياء الحسنة والمرغوبة شيء صعب ومعقد معاً. ليس سهلاً تحقيق تقدّمٍ في طريق قديمة ومعروفة: فكم سيكون صعباً إذن التقدم في طريق جديدة وغير معروفة؟ مثل هذه المهمة لا تصلح إلا للذين بلغوا سن النضج وتمثلوا خير ما يمكن أن يبلغ الإنسان. هذا العهد الجديد يبدو لك عملياً لأنك شاب، ولأن الحياة ماتزال بالنسبة إليك كتاباً مغلقاً. إن الأفكار التي عبّرت عنها قبل قليل وُلدت في طيش الشباب. ومن ثم، فلابد أن نمارس، ونحن أكبر سناً وأوفر تجربة منكم، تأثيراً مُعدِّلاً لنزقكم، وأن نمنحكم مزية تجربتنا. ومن جهتكم، ينبغي لكم الموافقة على أن تكون حكمتنا الناضجة دليلاً يهديكم.

صمت الشاب. وبدا أن الجميع يجدون نصائح الأب مصيبة.

هتف رجل متزوج متقدّم في السن:

- الحق معك تماماً. فلا شك أن صديقنا الشاب، المفتقد، كما هو الآن، للتجربة، يمكن له بسهولة أن يضل سبيله أثناء البحث الذي يقوم به لاكتشاف طريقة جديدة في متاهة الحياة. ولا يجوز النظر إلى تصميمه على أنه باتٌّ لا رجوع فيه. بيد أننا متفقون جميعاً في الرأي وهو أن الحياة التي نعيشها حالياً لا تتفق البتة مع ما يأمر به وجداننا وأنها لا توفر لنا الخير. فليس بوسعنا إذن إلا أن ننظر بعين الموافقة إلى الرغبة في إحداث تغيرٍ جذري في نمط حياتنا. إن صديقنا الشاب يمكن أن يخطئ حقاً. ويعتبر نزوته كأنها نتيجة منطقية أدّت إليها المحاكمة

Twitter: @ketab_n

العقلية؛ لكني لم أعد شاباً، وسأقول لكم ما أفكر فيه وما أشعر به بهذا الصدد. لقد تابعتُ بإمعان النقاش الذي دار بيننا هذا المساء، وخطرت لي الفكرة نفسها التي خطرت لهذا الشاب. ولست أشكُّ شخصياً أن الحياة التي أحياها الآن لا يمكن أن تمنحني لا السعادة ولا سكينة الضمير. يؤكد لي ذلك العقل والتجربة. ماذا أنتظر إذن؟ إني أشتغل لأسرتي من الصباح إلى المساء، بهذه النتيجة وهي أن أسرتي وأنا قد ابتعدنا عن الحياة التي في مستوى شريعة الله وازددنا انغماساً وبعمق في وحل الخطيئة. المرء يعمل لأسرته، لكنها لا تحصل، في النهاية، على أدنى منفعة من هذه الجهود، لأنها في الواقع ليست مفيدة لأسرة وأنا أتساءل أحياناً إن لم يكن من الأفضل في تغيير حياتنا تماماً، واتباع الأفكار التي عرضها علينا صديقنا بوضوح، والكف عن التفكير في زوجتي وأولادي. والتفكير فقط في راحة نفسي من أجل ذلك يقول القديس بولس بحق: «إن الغير المتزوّج يهتم بما للرب، كيف يُرضي الرب، أما المتزوج فيهتم بما للعالم، كيف يرضي امرأته...».

صاحت امرأة عجوز تابعت النقاش بانتباه:

- كان ينبغي لك أن تفكّر في ذلك منذ زمن بعيد. لقد رتّبتَ سريركَ، وعليك أن تبقى فيه الآن. سيكون مريحاً في الحقيقة لو جاز لكل رجل يستصعب القيام بحاجات أسرته أن يتخلّى عن واجباته مفصحاً بكل بساطة عن رغبته في خلاص نفسه. سيكون ذلك غشاً ودناءةً. إن على الرجل أن يحيا حياةً خيّرة ومستقيمة في أحضان أسرته. أما خلاصُه وحده فلا يتطلب مهارةً كبيرة: وفوق هذا، فإن ذلك مناقض لتعاليم المسيح. إن الله يأمرنا أن نحبّ الآخرين وها أنتم

Twitter: @ketab_n

أولاء الآن ترغبون في إيذاء الآخرين، وذلك في مصلحة الله. ها هي ذي الحقيقة: إن للرجل المتزوج واجبات والتزامات محدّدة تحديداً حسناً ولا ينبغي له أن يتهاون فيها. وليس الأمر كذلك عندما يتلقى كلّ عضو، من أعضاء الأسرة العناية الضرورية لينطلق إلى الحياة وليجد نفسه في وضع مستقل. حينذاك يستطيع الرجل أن يفعل ما يشاء. لكن من المؤكد أن ليس له الحق في تحطيم روابط الأسرة وتشتيت شملها.

لم يستطع الرجل المتزوج أن يقبل هذا التعريف لواجبات الزوج والأب، فأجاب:

- إن هجرة الأسرة لا يدخل في أفكاري، إني أؤكد فقط أن من واجبي ألا أربي أولادي بالطريقة المقبولة عموماً، وأن علي ألا أعوّدهم العيش في لذاتهم الخاصة، بل علي، كما قيل قبل قليل، أن أعوّدهم الحرمان والعمل، وأن أعلّمهم أن يساعدوا أشباههم من الناس، وقبل كل شيء أن ينظروا إلى كل إنسان على أنه أخٌ. ولهذه الغاية، لابد من التخلي عن الامتيازات والثروات.

صاحت زوجته محنّقة:

- من غير المعقول أن تعمد إلى تنشئة الآخرين على هذه الحياة، في حين أنك، أنت نفسك، أبعد عن هذه الحياة من أي منّا. أنت عشتَ دائماً في الترف، منذ طفولتك حتى هذا اليوم. فلماذا إذن تريد أن تعذّب زوجتك وأولادك؟ دعهم يعيشون بسلام، ويختارون لأنفسهم درب الحياة الذي يحلو لهم، لكن لا تفرض عليهم طريقة العيش هذه أو تلك.

Twitter: @ketab_n

لم يردّ الرجل المتزوج على هذا الكلام المسهب، لكن رجلاً مسناً جالساً قربه عبّر عن رأيه بقوله:

- لاشك، أن من الحق تماماً أن الرجل المتزوج الذي عوّد زوجته وأولاده على يسر الحياة ودَعَتها، ينبغي ألا يحرمهم ذلك دفعة واحدة. وهناك أيضاً الكثير من الحق في هذه الحجة وهي أن تربية الأولاد متى بدأت بحسب بعض المبادئ، فمن المفضَّل أن تستمر وتكمَّل على أن تُوقَف لتبدأ من جديد على أسس مختلفة، ولاسيما عندما نعلم أن الأولاد أنفسهم إذا بلغوا سنَّ الرشد لا يفوتهم أن يختاروا الطريق التي تلائمهم أكثر من غيرهم. في رأيي إذن أن من الصعب بل من الإجرام أن يغيّر رجل متزوج حياته. وليس الأمر كذلك بالنسبة إلينا نحن المسنين الذين أمرهم الله، إن صح التعبير، أن يغيّروا حياتهم. اسمحوا لي، إذا شئتم، أن أتكلم عن نفسي: إني أعيش دون أن ألتزم واجبات أو التزامات أياً كانت؛ إني أعيش، وأقول لكم الحقيقة، أعيش فقط من أجل معدتي. إني آكل وأشرب وأنام، وأنا أشمئز من مثل هذه الحياة. وقد آن لي الآن أن أترك هذه الحياة الحقيرة، وأن أعيش، عشيّة موتي، كما يأمر الله.

لكن الشيخ لم يجد مَنْ يدعمه بين من كانوا يستمعون إليه، لقد عارضت أفكار هذا الشيخ، ابنة أخيه، وعارضها ابنه بالمعمودية، اللذان حمل أولادهما في العماد ودللهم بعد ذلك بالهدايا، وابنه هو الذي قال:

- لا، لا. لقد عملتَ في حياتك ما يكفي. فمن العدل أن تستريح

Twitter: @ketab_n

الآن وألا تقتل نفسك تماماً. لقد عشت ستين عاماً في العادات والميول ذاتها، وليس ينبغي لك في هذه الحقبة من حياتك أن تفكّر في تغييرها. إن مثل هذه الرغبة منك ستجلب لك قلقاً شديداً، لكن لا يمكن لأية نتيجة أن تعوّض عن ذلك.

تدخلت ابنةُ الأخ:

- بالضبط! وعندما تُلمّ بك الحاجة سوف تمر بلحظات من سوء المزاج، ولن تكفّ عن الشكوى. ومن ثم، فسوف يكون ذنبُك أعمق من ذي قبل، في وجه الله. ثم إن الله مليءٌ بالرحمة، فهو يغفر لجميع الذين أذنبوا. وسيكون مستعداً لأن يغفر لعمّ عزيز مثلك.

سأل شيخٌ آخر:

- ولماذا تهتم بهذه القضية؟ لعلنا، أنا وأنت، لا نملك سوى يوم أو يومين نعيشهما؛ فلماذا نبدّدهما بعمل مخططات ومشاريع؟

قال أحد المدعوين والذي كان ساكتاً طوال الوقت:

- هذا غريب! وغير مفهوم! نحن جميعاً متفقون على أننا يجب أن نعيش بحسب شريعة الله، وعلى أننا نعيش جميعنا الآن في الشر والخطيئة، وأننا نتألم جسداً ونفساً، لكن عندما يتعلق الأمر بتطبيق ما ينتج عن ذلك من نتائج، نسعى إلى استثناء أولادنا الذين لا ينبغي أن يتعوّدوا، وهو شيء غريب، الحياة الجديدة، بل ينبغي أن يتربّوا، حسب الأفكار القديمة التي ندينها. وأكثر من ذلك، لا ينبغي للشباب أن يعارضوا مشيئة أهلهم، وبدلاً من أن يعيشوا بحسب شريعة الله،

Twitter: @ketab_n

ينبغي لهم أن يتخلصوا من مأزقهم باتباع الضلالات القديمة. وليس للرجال المتزوجين الحق في أن يفرضوا هذه الحياة الفضلى على زوجاتهم وأولادهـم، وعليهم أن يواصلوا مع أسرتهم الحياة التي يدينونها. أما الشيوخ فلم يتعودوا هذه العادات الجديدة و لم يكد يبقى لهم سوى أيام معدودة يعيشونها. يبدو إذن أن لا أحد قُدِّر له أن يحيا حياة صالحةً ومستقيمةً وأخلاقيةً؛ قصارى جهدنا أن نبحث في المزايا التي قد توفّرها.

جرى ذلك في عهد الامبراطور الروماني تراجان[1] بعد ولادة المسيح بمئة عام. وكان تلامذة المسيح ما يزالون أحياء بالجسد، وكان مسيحيو تلك الأيام يراعون بدقة تعاليم السيد كما ينبئنا بذلك مؤلف أعمال الرسل: «لم يكن لجموع المؤمنين سوى قلب واحد ونفس واحـدة. ولم يكن أحد يقول عمّا يخصه: إن هذا لي. وكان كل شيء مشتركاً بينهم. وكان الرسل يشهدون، بكثير من القوة، على قيامة المسيح، ويتمتعون بحظوة عظيمة. ولذلك لم يكن أحدٌ منهم بحاجة إلى شيء: وكانوا يبيعون أملاكهم وبيوتهم ويحملون أثمانها ويضعونها عند أقدام الرسل. فتوزع أثمانها على الجميع بحسب حاجة كل منهم».[2]

أثناء هذه السنين الأولى للمسيحية جاء إلى كيليكية، إلى مدينة طرسوس تاجر حجارة كريمة يدعى «جوفينال». خرج من الفاقة،

١- تراجان: امبراطور روماني من ٩٨م إلى ١١٧م، اضطهد المسيحيين.

٢- الاستشهاد غير دقيق. من أعمال الرسل٢ - ٤٤ - ٤٧).

Twitter: @ketab_n

لكنه لكثرة عمله وخبرته في حرفته أصبح ثرياً ومرموقاً بين مواطنيه. لقد سافر كثيراً، ومع أنه لم يكن يطمح إلى أن يُنظر إليه كعالم، إلا أنه رأى كثيراً وحفظ كثيراً؛ وكان مواطنوه يحترمون ذكاءه السليم وتقديره الممتاز للعدل. وكان يجاهر بعقيدة روما الوثنية، وهي الدين الذي كان ينتمي إليه جميع المواطنين الشرفاء في الامبراطورية الرومانية، والذي مورست أشكاله وشعائره في عهد الامبراطور «اوغست» ورُوعيت بصرامة في عهد الامبراطور تراجان. كانت مقاطعة «كيليكية» بعيدة عن روما لكنها كانت تحت سيطرة حاكم روماني، وكانت نتائج التقدم أو الردة التي تؤثر في روما سرعان ما تبدو آثارها في كيليكيا، لأن حكامها كانوا يبادرون دائماً إلى تقليد امبراطورهم في كل شيء.

كان «جوفينال» يتذكر القصص التي سمعها في شبابه عن حياة نيرون وموته. كان يتذكر كيف أن الأباطرة ماتوا بالسيف واحداً بعد الآخر، ويرى، باعتباره مراقباً ثاقب البصيرة، أن لا شيء مقدّس لا في السلطة الرومانية ولا في الدين الروماني، وأنهما كليهما من صنع البشر. وهذه البصيرة الثاقبة ذاتها أرَته عدم جدوى الثورة على السلطة الرومانية، وضرورة الخضوع لنظام الأشياء القائمة، حفاظاً على سلامته وسعادته. لكنه بالرغم من ذلك، كان يذْهل، في الغالب، من الحياة الفاسدة التي تحيط به، ولاسيما من الحياة في روما التي كانت أعماله تسوقه إليها كثيراً. في هذه اللحظات كانت تتملكه شكوك مقلقة، لكنه كان يعود دائماً إلى هدوئه المعتاد حين يفكر أن عقله محدود جداً بحيث لا يتيح له أن يفهم الأشياء في مجموعها، وغير منظّم إلى حد بعيد ليتيح له أن يستخلص النتائج الصحيحة مما يرى. كان

Twitter: @ketab_n

متزوجاً، وأباً لأربعة أولاد، مات ثلاثة منهم منذ الصغر وكان اسم الولد الباقي «جوليوس».

تركز جبه كله في جوليوس؛ كان جوليوس موضوع عنايته الرقيقة. وكان هدفه الخاص أن يربي هذا الولد تربية تجنبه الآلام الرهيبة التي كابدها هو نفسه، بسبب شكوكه وحيرته إزاء مشكلات هذه الحياة.

عندما بلغ «جوليوس» الخامسة عشرة، عهد به أبوه إلى فيلسوف جاء المدينة يبحث عن التلاميذ. و لم يعطه جوليوس فحسب بل أعطاه أيضاً رفيق ابنه «بامفيل» وهو ابن عبدٍ أُعتق ومات منذ عهد قريب. كان الولدان بعمر واحد، وكانا وسيمين تجمعهما صداقة وثيقة.

عكفا على دراستهما بجد وحققا تقدماً ملموساً. كان سلوكهما ممتازاً. وأظهر جوليوس قابلية للآداب والرياضيات بينما كانت ميول «بامفيل» تدفعه نحو الفلسفة.

وقبل انتهاء الدراسة المقرّرة بسنة، جاء بامفيل إلى المدرسة ليُطلع أستاذه على نيّة أمه مغادرة المدينة والإقامة قرب أصدقائهما في المدينة الصغيرة «دفنه». وكان من واجبه أن يرافقها ويساعدها، ومن ثم فسيكون مضطراً إلى اعتزال المدرسة وقطع دروسه.

أسفَ معلّمه على فقدان طالبٍ كان مفخرة لتعليمه. كما أن «جوفينال» أسف أيضاً على رحيل صديق ابنه لكن لم يحس أحدٌ هذا الفقدان بالحدّة التي أحسّ بها جوليوس. وأصمّ بامفيل أذنيه عن صنوف الرجاء التي وُجهت إليه لكي يبقى سنة أخرى ينهي فيها

Twitter: @ketab_n

دراسته فشكر أصدقاءه على دلائل المودة التي أبدوها واستأذنهم وانصرف.

مضت سنتان أنهى فيهما جوليوس دراسته دون أن يرى صديقه ولو مرة واحدة. وذات يوم، دُهش دهشة السرور حين لقي صديقه في الشارع فدعاه إلى زيارة أبيه، حيث أخضعه لاستجواب عرف فيه كيف عاش منذ فراقهم. قال له بامفيل إنه مايزال يعيش مع أمه، في المدينة نفسها.

وأضاف:

- لكننا لا نعيش وحدنا، فلنا أصدقاء كُثُرٌ معنا، ونحن نضع أرزاقنا مشتركة بيننا.

سأله جوليوس:

- ما معنى: «مشتركة».

- لا يعتبر أحدٌ شيئاً ما يخصّه، ملكاً له دون غيره.

- لِمَ تفعلون ذلك؟

أجاب بامفيل:

- لأننا مسيحيون.

هتف جوليوس:

Twitter: @ketab_n

– أممكنٌ هذا؟

كون الإنسان مسيحياً في ذلك الزمان يساوي تقريباً كونه متآمراً في هذه الأيام. فما أن يوثق بانتماء شخص إلى الطائفة المسيحية حتى يُرمى في السجن، ويُقتل إذا رفض الرجوع عن عقيدته. ومعرفة هذه الأشياء هي التي أرعبت جوليوس عندما علم أن صاحبه اعتنق العقيدة الجديدة. لقد سمع عن فظائع المسيحيين التي لا تُصدق.

– قيل لي إن المسيحيين يذبحون أولادهم ويأكلونهم. أيجوز لك أن تشارك في هذه الفظاعات؟

أجاب بامفيل:

– تعال وانظر بنفسك؛ لسنا نعمل شيئاً خارج ما هو عادي؛ ونحن نعيش ببساطة، ونحاول ألا نصنع شراً.

– لكن كيف يمكن أن تعيشوا دون أن تعتبروا الأشياء ملكاً لكم؟

– نحن نتعاون؛ وإذا عملنا لإخوتنا، فهم يشاركوننا بدورهم ثمرة أتعابهم.

وأصرّ جوليوس:

– وإذا اتفق أن إخوتكم قبلوا خدماتكم و لم يعطوكم شيئاً بالمقابل؟

– ليس بيننا مثل هؤلاء الأشخاص. فهؤلاء يتذوقون حياة الترف و لم يأتوا إلى جاليتنا ليبحثوا عن تحقيق رغباتهم. حياتنا بسيطة، دون ترف، وهي لا تكاد تكون مريحة.

Twitter: @ketab_n

- نعم، لكن هناك عدداً لا يستهان به من الكسالى لا يطلبون أكثر من المأوى والطعام على حساب الآخرين.

لاشك أن هناك مثل هؤلاء الأشخاص؛ ونحن نرحب بهم. لقد جاءنا مؤخراً رجلٌ من هذا القبيل، عبدٌ هاربٌ. عاش في البدء حياة خاملةً كما يعيش الخسيس، لكنه ما لبث أن غيَّر ما في نفسه وأصبح أخاً ممتازاً.

- وإن لم يغيّر ما في نفسه؟

- هناك أشخاص من هذه الفئة أيضاً. قال لنا المتقدّم فينا: «سيريل»، إنه يُطلَب منا بنوع خاص معاملة هؤلاء الناس وكأنهم أحبُّ إخوتنا إلينا، وعدم تفويت الفرصة لإعطائهم الأدلة على هذا الحب.

- لكن هل من الممكن حب الأنذال؟

- ليس خطأ أن يحبّ الإنسان أمثاله من الناس.

سأل جوليوس:

- قل لي، كيف يمكنك أن تُسلّم بإعطاء كل واحد ما يحلو له أن يطلبه منك؟ وأنا أعلم علم اليقين أن أبي لو رحّب بجميع الطلبات التي تُقدّم إليه لما طال به الأمر حتى يصبح فقيراً كما كان عند ولادته.

أجاب «بامفيل»:

- لا يمكنني أن أقول لك كيف، لكننا نملك دائماً ما يكفي لسدّ

Twitter: @ketab_n

حاجاتنا. ولو حدث أننا لم نجد ما نأكله أو ما نلبسه، فإننا نطلب ما نحتاج إليه من المسيحيين الآخرين، وهم لا يرفضون لنا طلباً. وعلى كل حال، من النادر أن نُلجأ إلى غاية الفاقة هذه. لم يحدث سوى مرة واحدة أني نمتُ دون عشاء، وهذا المساء، إنما وقع لي ذلك لأنني كنت جد متعب و لم أكن مهيأ لأن أذهب إلى أحد الإخوة أطلب إليه طعاماً.

قال جوليوس:

- حسناً! لستُ أنوي أن أعلم كيف ترتبون هذه الأشياء، لكن أبي يقول: إنه لو تصدّق على جميع الذين يأتونه سائلين، ولو لم يحافظ على أمواله بعناية، لغدا بعد قليل بلا بيت، ولافتقر.

- إننا لا نموتُ جوعاً، لكن تعال وانظر إلينا. لسنا فقط أحياء وبمأمنٍ من الحاجة، لكن عندنا فائض أيضاً.

- كيف تفسر ذلك؟

- هكذا: نحن نخضع جميعاً لقانون واحد ووحيد. أما درجة القوة التي نملكها لنراعيه فهي تختلف كثيراً، إذ إن بعضنا قد يكون أكثر استعداداً من البعض الآخر. مثلاً إن شخصاً ما قد يبلغ الكمال في حياته المثالية بينما يتخبط غيره أمام الصعوبات الأولى التي تعترض المهتدين إلى هذه الحياة الجديدة. إن المسيح وحياته يرتفعان فوقنا جميعاً، وهدفنا أن نقتدي بهما. على هذا نقيم سعادتنا. بعض أعضاء هذه الجالية، - المتقدم «سيريل» مثلاً والمرأة بيلاجي - أكثر تقدّماً منا. وآخرون يقتربون منهما، وآخرون أيضاً متأخرون؛ لكننا نسير جميعاً في الوجهة نفسها، في الطريق نفسها.

Twitter: @ketab_n

«الأوّلون اقتربوا من قانون المسيح - إنكار الذات - لقد أضاعوا أنفسهم لكي ينالوا حسن الجزاء. إن الناس الذين يملكون هذه القوة لا حاجة بهم إلى شيء. وهم لا يشفقون على أنفسهم ولكي يستجيبوا لقانون المسيح يعطون راضين آخر لقمة وآخر ثوب لمن يطلبهما. وآخرون - وهم نفوس أضعف - لا يمكنهم أن يضحوا بكل شيء. إنهم يلينون ويشفقون على أنفسهم. فإذا حُرموا الغذاء العادي واللباس العادي فقدوا قوتهم ولم يمكنهم أن يقدموا على إعطاء ما يُطلب منهم. وهناك من هم أضعف من هؤلاء: الذين اهتدوا إلى الطريق الجديدة منذ أمد قريب.

فهم يعيشون كما كانوا يعيشون سابقاً، ويحتفظون بما استطاعوا حفظه لاستعمالهم الخاص ولا يتصدقون إلا بما زاد عنه. إن جنود المؤخرة هؤلاء يقدّمون العون المادي والسند لمَنْ هم في الصفوف الأولى من جماعتنا.

وأكثر من ذلك، ينبغي ألا يغيب عن البال أن لنا جميعاً روابط مع الوثنيين؛ إن أحد إخوتنا مايزال أبوه يعيش حياته الوثنية؛ إن له ملكاً واسعاً وهو يخصص لابنه مرتباً؛ ويوزّع ابنه ماله صدقات، وفي الوقت المناسب، يتلقى من أبيه مبلغاً. وآخر أمُّه وثنية تشفق على ابنها وترسل إليه المال.

وفي حالات أخرى يكون الأولاد هم الوثنيين في حين أن الأم هي المسيحية. ويسعى الأولاد إلى تأمين راحة أمهم فيعطونها ما يقدرون عليه وهم يتوسلون إليها ألا توزّع هذا المبلغ على الآخرين. إنها تقبل

Twitter: @ketab_n

المعونة بسبب حبها لأبنائها، لكنها توزّعها في الحال، على الآخرين. وفي حالات أخرى، تكون الأم وثنية والزوج مسيحياً، أو العكس.

وهكذا فنحن مختلطون. الذين في الصفوف الأولى يسعدهم أن يعطوا آخر لقمة أو آخر خرقة، لكنهم لا يستطيعون ذلك، لأن آخر لقمة وآخر خرقة سرعان ما يحل غيرهما محلّهما. وبهذا الطريقة، يتقوّى الضعفاء في إيمانهم، وذلك ما يفسر أيضاً لماذا لا نخلو دائماً من الفائض.

إزاء هذه الشروح، أجاب جوليوس:

- إذا كان الأمر كذلك، فمن الواضح أنكم تنحرفون انحرافاً بيّناً عن تعليم المسيح؛ وأنتم تضعون «الظاهر» محل «الكائن». وإذا لم تعطوا كل ما لديكم فلا فرق بينكم وبيني. برأيي إنك إذا زعمت أنك مسيحي، فينبغي أن تكون مسيحياً بصورة تامة، متقيداً بالشريعة حتى آخر أوامرها، موزّعاً كلَّ ما تملكه صدقات، لتبقى أنت نفسك متسولاً.

وافق «بامفيل» قائلاً:

- هذا صحيح. وسيكون هذا أفضل من كل شيء. فلم لا تفعل ذلك؟

سأفعل ذلك عندما تكونون، أنتم المسيحيين، القدوة.

- أوه نحن لا نريد أن نعمل شيئاً للإعلان. ثم إني لا أنصحك

Twitter: @ketab_n

بالانضمام إلينا، ولا أن نتخلى عن محيطك الحالي لتبهر الناس. كل ما نشرع به فهو بموجب عقيدتنا.

- ماذا تعني بقولك: بموجب عقيدتنا؟

- عنيتُ أن الخلاص من شرور هذا العالم، ومن الموت لا يكون إلا في الحياة كما فهمها المسيح. أما ما يقوله الناس فلا نبالي به. نحن نعيش، بحسب مبادئنا، لا لنرضي الآخرين بل لأننا نرى في هذه المبادئ الوسيلة الوحيدة للحصول على الحياة والسعادة.

اعترض جوليوس:

- يستحيل ألا يعيش الإنسان لذاته. لقد شاءت الآلهة أن جزءاً من طبيعتنا هو في أن نحب أنفسنا أكثر من الآخرين، وألا نسعى إلا وراء متعتنا الخاصة. وهذا ما تفعلونه بالذات، أنتم أيها المسيحيون. ولقد قلتّ قبل قليل إن الشفقة التي يستشعرها الكثير من إخوتك هي شفقة على أنفسهم. فهم يفتشون أكثر فأكثر تفتيشاً ناشطاً عن لذاتهم الخاصة، ويطرحون، من ثم تدريجياً تعاليم عقيدتكم، وفي ذلك إنما يفعلون ما نفعله.

أجاب بامفيل:

- لا، لا؛ إن إخوتنا يتّبعون طريقاً أخرى؛ وهم لن يضعفوا، بل العكس، إنهم يصبحون أقوى، على نحوٍ متزايد، كالنار التي لا تخبو مادمنا نكدّس لها الحطب. كذلك هي قوة العقيدة.

Twitter: @ketab_n

- لم أر بعد علام تقوم هذه العقيدة؟

- هذه هي عقيدتنا: نحن نفهم الحياة كما فسّرها المسيح.

- وهي؟...

كان المسيح يضرب مثلاً عن بعض الكرّامين الذين كانوا يعملون في كرم غرسه صاحبُه وكانوا مجبرين أن يدفعوا جزءاً من ثمار الكرم. نحن الذين نحيا في هذا العالم، نحن العمال، ونحن مجبرون أن ندفع ضريبة لله. لكن الذين يعيشون في العالم، ويشاركون في أفكاره يتخيلون أن الكرم لهم وأنهم ليس عليهم أن يدفعوا شيئاً للاستعمال وأنهم يستطيعون أن يستمتعوا بثماره، بكل حرية: «ولما حان الأوان أنفذ (صاحب الكرم) إلى الكرّامين غلاماً ليأخذ من الكرّامين حصته من ثمار الكرم. فقبضوا عليه وأوسعوه ضرباً وردّوه صفر اليدين»، حينئذ أرسل ابنه، لكنهم قتلوه، ظانين أن أحداً لن يهتم بعد ذلك بهذه القضية. هذه هي عقيدة هذا العالم، العقيدة التي يعيش الناس بحسبها. وهم يجهلون أننا أُعطينا الحياة لتُنفَق من أجل مجد اله العظيم. لقد علّمنا المسيح أن عقيدة هذا العالم، أي طرد الرسول وابن صاحب الكرم ورفض دفع الحصة منه عقيدة خاطئة، لأن كل إنسان ينبغي أن يدفع حصته أو يُطرد من الكرم. وعلمنا أيضاً أن ما نسميه اللذة: الطعام والشراب والتسلية ليست هي اللذة، ولا يمكن أن تكون اللذة إذا جعلناها غاية حياتنا؛ وأن اللذة لا تكون لذة حقيقية إلا عندما نقيم سعادتنا على قاعدة أخرى - إكمال مشيئة الله - حينئذ، وحينئذ فقط، نستمتع باللذة وكأنها شيء منضاف إلى تنفيذ الأوامر الإلهية ومتفّق معها.

Twitter: @ketab_n

إن طلب اللذة دون أن يكلّف المرء نفسه الامتثال لمشيئة الله، اقتلع الزهور من بين أشواك العمل، إن صح القول، أمرٌ جنوني مثَلهُ مثَلُ قطع سوق النباتات لزرعها دون جذورها. ها هنا عقيدتنا، وبموجب هذه العقيدة نرفض البحث عن الوهم بدلاً من الحقيقة. نحن نعلم أن سعادة الحياة غير مرتبطة أبداً بلذاتها، لكن هذه السعادة تقوم على إتمام مشيئة الله دون أن نعلل النفس بفكرة اللذة أو الأمل بها. ومن ثم فنحن نعيش حسب المبادئ التي أعربتُ لك عنها؛ وكلما عشنا زمناً أطول أدركنا أن السعادة واللذة تتبعان عن كثب المشيئة الإلهية، كما أن عجلات العربة تتبع عريشها. كان معلّمنا يقول: «تعالوا إلي أيها المتعبون والمُثقلون وسوف أريحكم».

هكذا تكلم بامفيل. كان جوليوس يصغي إليه بانتباه ثابت، وتأثر قلبُه بما سمع. لكنه، في نهاية الأمر، لم يقدّر مدى ما قاله بامفيل حق قدره. لقد شك في لحظة من اللحظات أن صديقه يحاول أن يخدعه، لكنه اقتنع، بعد لحظة، عندما نظر إلى عينيه الوديعتين والصادقتين، أن بامفيل يخدع نفسه.

دعا بامفيل صديقه إلى زيارته، لكي يدرس عن قرب حياةَ الجالية، فإذا راقه الأمر أقام فيها بقية عمره. وعد جوليوس بهذه الزيارة.

وعده لكنه لم يف بوعده. جذبته الحياة المدوّخة في المدينة الكبيرة، فنسي كل ما قاله له بامفيل. وكأنما خاف خوفاً غريزياً من أن يكون لحياة المسيحيين الكثير من الإغراءات له.

ولكي يتجنّب إغواءها الشديد، صوّرها لنفسه وكأنها حياة يضطر

Twitter: @ketab_n

فيها الإنسان إلى العزوف عن بهجة الحياة. و لم يكن بوسعه أن يعمد إلى هجر اللذات لأنه جعلها مركز حياته وغايتها. كان يلوم المسيحيين ويدينهم، ويعلّق قيمة كبيرة على هذه الإدانة، لأنه خشي أن يكفّ ذات يوم عن إدانتهم؛ ولهذا السبب لم يترك مناسبة إلا بحث فيها عن نقائص المسيحية. كان يكتشف الذريعة لينتقد سلوكهم. وإذا رآهم في السوق يبيعون الثمار والخضرة، قال في نفسه، أو قال لهم أحياناً:

- تزعمون أنكم لا تملكون شيئاً وها أنتم هنا تبيعون محصولاتكم بالمال بدلاً من إعطائها مجاناً لمن طلبها. أنتم مخدوعون وأنتم تخدعون الآخرين.

كان يأبى أن يستمع إلى شرح المسيحيين الذي يحاولون به أن يقنعوه أن من الضروري ومن العدل أن يبيعوا بضاعتهم في السوق وألا يعطوها للمارة. وإذا رأى مسيحياً حسن اللباس لم يفتْهُ أن يُنحي عليه اللائمة لتناقضه، ويسأله لماذا لم يُعطِ ثوبه. كان لابد لسعادته أن يكون المسيحيون على خطأ، وكانوا أبداً مذنبين في عينيه. كان ينظر إليهم كالفريسيين، الخداعين، الذين تكمن قوتهم في عباراتهم الملوّنة، وضعف أعمالهم. وكان يقول عن نفسه ليُبرز التباين.

- على الأقل، أنا أدعو لما أفعله، أما أنتم فتقولون شيئاً وتفعلون شيئاً آخر.

وإذا اقتنع بأنه كذلك حقاً، أحسّ بالطمأنينة التامة وظلّ يعيش كما كان يعيش من قبل.

Twitter: @ketab_n

- ٢ -

كان جوليوس، بطبيعته، ذا استعدادٍ وديعٍ، قريب من النفس؛ لكنه كان كجميع شباب عصره وبلده، مالكاً للعبيد الذين يعاقبهم معاقبة بربرية إذا أهملوا القيام بواجبهم، أو إذا كان هو نفسه سيء المزاج. وكان يملك مجموعة من التحف الثمينة والتي لا فائدة لها ومن الملابس المترفة التي كان يضيف إليها الجديد باستمرار. وكان يحب أيضاً المسارح والعروض. وكان شبابه يوفّر له دائماً العشيقات، وكثيراً ما كان يترك نفسه على سجيتها، بين أصحابه، حين يُفرط في الشراب والطعام. وبكلمة واحدة، كانت حياته تجري بهيجة وادعةً، كما خُيِّل إليه، ولم يكن بوسعه أن يراقب مجراها. كانت تتكوّن من فنون اللهو ليس غير، وكان عددها كبيراً جداً بحيث لم يكد يملك الوقت للتفكير فيها.

مرّت سنتان على هذا المنوال بَدَتَا له عَذْبتين! تصوّر جوليوس أن حياته بأسرها ستمرّ أيضاً بهذا الحبور. لكن ذلك غير ممكن إطلاقاً، في طبيعة الأشياء، إذ لابد، في مثل هذه الحياة التي كان يحياها جوليوس، من زيادة فنون اللهو وتكثيفها لكي يتذوّق كأس خمرٍ فاخرة مع صديق له، فإن اللذة كانت تتناقص بعد عدة تكرارات، وكان يجد من الضروري أن يشرب كأسين أو ثلاثة من خمرٍ أجود لكي يستخلص منها كمية المتعة ذاتها. وإذا كان يستسيغ، في البدء، أن يقضي ساعة أو ساعتين في الحديث مع صديق له، فإن اللذة سرعان ما كانت تختفي، ولكي يقضي هاتين الساعتين برضاً يعادل ما أحسّه في البدء، كان يغدو من الضروري أن يُحلَّ فتاةً محلَّ صديقه؛ ثم إن هذا

Twitter: @ketab_n

الاستبدال لم يكفيه، فكان يطلب شيئاً آخر. وأخيراً يفقد هذا الترتيب الجديد سحره؛ إذ كان مجبراً على تبديل صاحباته بعد أن أصبحن هنّ أنفسهن مُضجرات. كذلك كان الأمر مع جميع فنون لهوه! كان لابد لاستخلاص اللذة نفسها، من مضاعفة اللذات وتكثيفها ومن زيادة الطلب على تعاون الآخرين، ومن دفع ثمن اللذات حين لا تجد وسيلة كي يستجيب الآخرون لرغباتك لستَ السيد المالك... كذلك كان الأمر مع جوليوس، فقد عكف على لذاته الجسدية، ولما لم يكن سيداً مالكاً فلم يكن بوسعه أن يأمر الآخرين بالامتثال لرغباته، ولكي يشتري تعاونهم، ويوسّع لذّاته، كان ينبغي له أن يبذل المال.

كان والد جوليوس غنياً، ولما كان يحب ابنه وكان فخوراً به، فقد بذل ثروته بسخاء ليتيح له أن يستمتع بكل شيء. وكانت حياته من ثمّ، هي حياة جميع الشباب الأغنياء، أي حياة كسل وترف ودعارة وصنوف اللهو التي كانت وستظل أبداً هي نفسها، الخمر والقمار والعشيقات.

لكن هذه اللذات تمتصّ مبالغ هامة أكثر فأكثر، وكثيراً ما كانت موارد جوليوس تنفد. وذات يوم طلب فيها من أبيه مبلغاً أكبر من المعتاد، لامه الأب، وهو يعطيه المبلغ على تبذيره. أحس بالذنب وأدرك أنه استحقَ لوم أبيه، لكنه لم يكن يستطيع أن يُسلّم بذنبه؛ فثار غضبه وسبَّ أباه، كما يقع عادةً للأشخاص الذين يعلمون أنهم مخطئون لكنهم يأبون أن يُقرّوا بذنبهم. وسرعان ما بُدِّد المال. والأسوأ أن جوليوس وصديقاً سكّيراً له اختصما مع رجل في الشارع وقتلاه. فأمر حاكم المدينة الذي أُبلغ ما جرى بتوقيف جوليوس؛ لكن أباه أفلح

Twitter: @ketab_n

في الحصول على العفو عنه، بعد مساعٍ كبيرة. في هذه الأثناء، تزايد الطلب على مال جوليوس وتعاظم، ونتج ذلك عن الصعوبات التي كانت لذّاتُه تُغرقه فيها. فاقترض مبلغاً كبيراً من صديق وعده بتسديده بعد وقت قريب واختارت عشيقته هذه اللحظة بالذات لتطلب هدايا جديدة. فقد هَوِيتْ عقداً من اللؤلؤ، ورأى جوليوس أنه إذا لم يُرض نزوتها في هذا الأمر فسوف تتركه إلى رجل غني، كثيراً ما حاول إزاحته والحلول محلّه في جميع هذه الضائقات، كان جوليوس يتوجّه إلى أمه قائلاً لها أن المال ضروري مهما كلّف الأمر، وأنها إن لم تجد المال فسوف ينتحر.

وألقى تبعةَ وضعه المرتبك على أبيه؛ ولم يلم نفسه بتاتاً. قال:

– عوّدني أبي منذ الساعة الأولى الحياة المترفة، وهو الآن يتراجع ويرفض أن يعطي الأموال الضرورية لأعيش تلك الحياة. ولو أنه أعطاني دون توبيخ المبالغ التي أعطاني إياها فيما بعد، لنظمتُ حياتي على نحو مريحٍ ولتفاديت الحاجة. لكنه يُصر على أن يعطيني المال بمبالغ صغيرة، وأنا لا أملك أبداً ما يكفي حاجتي، وقد اضطررت أن أتعامل مع مرابين أفقروني، والآن ينقصني الضروري لأعيش الحياة التي كنتُ أعيشها والتي يتطلبها وضعي الاجتماعي، وأنا أخجل أن ألتقي أصدقائي وأصحابي. ويرفض أبي بإصرار أن يضع نفسه موضعي وأن يتفهم ضائقتي. وهو ينسى أيضاً أنه كان شاباً. وكيف! هو الذي يجب أن يُلام على كل ما أتألّم منه الآن، فإن لم يعطني المبلغ الذي أحتاج إليه قتلت نفسي. هذا كل شيء.

Twitter: @ketab_n

ذهبت الأم التي دلّلت الابن دائماً، إلى زوجها مباشرة. استدعاهما الأب كليهما ولامهما لوماً مراً. ردّ جوليوس رداً وقحاً فضربه أبوه. أمسك بالأب من يده فنادى الأب العبيد الذين أوثقوا جوليوس وحبسوه بناء على أمره.

في وحدة الغرفة، لعَنَ جوليوس أباه وحياته. وبدا له أن موته هو أو موت أبيه هما الحل الوحيد لهذا الوضع اليائس الذي ألغى نفسه فيه.

تألمت أمُّ جوليوس أكثر من ابنها بما لا يُقاس. لم تسأل عن المخطئ في هذا النزاع. ولم تشعر إلا بعاطفةٍ واحدة هي الشفقة على ابنها البائس. فذهبت مرة أخرى لتلقى زوجها وتسأله العفو عن ابنها. وبدلاً من أن يصغي إلى الاعتذار الذي أرادت أن تقدمه لتشرح سلوك جوليوس، سبّها واتهمها بالإساءة إلى أخلاق ابنها. فأوسعت زوجها إهانةً بدورها، وانتهت المشاحنةُ بمشهد الزوج يضرب زوجته. وإذ نسيت النتيجة الوخيمة لهذا التدخل الأول، انساقت مرة أخرى لغريزة الأم التي دفعتها إلى أن تلقى ابنها وترجوه أن يسأل أباه الصفح. ولكي تعوّضه عن هذه التضحية وعدته بإحضار المبلغ الذي يحتاج إليه، دون علم أبيه. وافق جوليوس، حينئذ عادت إلى الزوج لتلتمس العفو عن ابنها. أوسعها أول الأمر إهانة، لكنه قبل، في النهاية، أن يصفح عن ابنه، بشرط أن يتخلّى الابن إلى الأبد عن حياته الماجنة، وأن يتزوج ابنة تاجر غني تكفّل بالحصول على موافقته. وأضاف الأب:

- سيحصل على المال مني وعلى مهر زوجته. فليبدأ إذن بحياةٍ

Twitter: @ketab_n

منظّمة. وإذا وعد بتحقيق مشيئتي في ذلك صفحت عنه. وفي الوقت الحاضر، لن أعطيه شيئاً، وسوف أسلّمه إلى العدالة عند أول حماقة له.

قَبِلَ جوليوس بالشروط التي اشترطها أبوه وأُخلي سبيله. تعهد بالزواج وبتغيير ما في نفسه؛ لكنه لم يكن ينوي أن يفعل أياً منهما. وغدت حياته مع أبيه جحيماً. كفّ أبوه عن مكالمته، لكنه، من جهة أخرى، أنحى باللوم المستمر على الأم بصدد ابنها. كانت الأم لا تني تذرف العبرات.

في اليوم الذي تلا إخلاءَ سبيله؛ دعته الأم إليها، وسلّمته حجارة كريمة اختلستها من عند زوجها. قالت:

- ها هي ذي؛ خذها وبعها؛ لكن لا تبعها هنا، بل في مدينة أخرى، وافعل حينئذ بثمن البيع ما تعتقد أنه ضروري. أظن أنني أستطيع أن أضمن أن اختفاءها لن يُكتشف من الآن ولبضعة أيام، لكن إن لوحظ فقدانها لمت أحد العبيد.

اضطرب جوليوس من جراء كلمات أمه. ارتعب مما فعلته لأجله، فترك المنزل دون أن يأخذ الجواهر بل دون أن يمسّها.

لماذا؟ وأين ذهب؟ تجاوز أسوار المدينة، وهو يشعر بحاجة ماسّة إلى الوحدة ليتأمّل وضعه الراهن، والمستقبل. خلّف المدينة وراءه، ودلف إلى أيكة وارفة الظل، مخصصة للإلهة «ديان». وإذ عثر على مكان منعزل، استغرق في التفكير. كانت الاندفاعة الأولى أن يلتمس معونة الإلهة. لكنه لم يعد يؤمن بآلهة الامبراطورية؛ كان يعلم أن الصلوات

Twitter: @ketab_n

التي يتوجّه بها إليها لن تساعده في شيء، وأن العون كان متعذراً من هذا الجانب. لكن إن لم تستطع الآلهة أن تعزّيه وتُعينه، فمن يقدر على ذلك؟ كان يبدو له شيئاً غريباً لا يصدّق أن يُضطر إلى التفكير لذاته في هذه القضية. سيطرت الفوضى والظلمات على قلبه. لكن لم يبق له ما يفعله، لم يبق له إلا أن يتوجّه إلى وجدانه هو، وفي ظل النور القوي الذي أخذ وجدانُه ينشره. بدأ يفحص الأعمال الرئيسية في حياته. فاكتشف أن هذه الأعمال كانت سيئة، وغبية، وهو ما لم يشك فيه قط. ما الذي دفعه إلى تضييع أفضل سني حياته على هذا النحو غير النافع؟ الأفكار التي تلت هذه الخواطر لم تكن بطبيعتها معزّية؛ على العكس، إنها كانت تزيده حزناً. والذي زاد في آلامه أكثر من أي شيء آخر الشعور بالوحدة الكاملة الذي طغا عليه؛ وكان له أصدقاء كثر؛ لكنه الآن وحيدٌ في الكون. وإذ لم يعد يحبّ أحد غدا عبئاً على الجميع؛ وعاداه الجميع، في كل مكان؛ لقد أثار الشقاق بين والديه، وبدد الثروات التي قضى أبوه عمره في تجميعها؛ وغدا في النهاية خصماً لدوداً، وكريهاً لدى أصدقائه. فهل كان غريباً أن يرغب في موته حينئذ، على ما كان يفترض؟

كان أول وجه راع فكره عند استعراضه للماضي وجه بامفيل الذي تذكره وهو يدعوه إلى زيارة الجالية المسيحية، وأن يَعْزف عن كل شيء، وأن ينضم إليهم. وغدا الدافع إلى ذلك قوياً. وفكّر.

«هل وضعي ميؤوسٌ منه إلى هذا الحد، يا ترى؟ وحين أطال التفكير في أحداث حياته كان يزداد حزناً لأن أحداً لم يحبه. لا الأب ولا الأم ولا الأصدقاء، لا أحد يمكنه أن يُضمر المودّة له، لم يكن بوسعه أن يفعل

Twitter: @ketab_n

شيئاً، سوى أن يتمنى الموت. وهو نفسه، أكان يحبّ أحداً؟ لم يحس أنه مرتبطٌ بأحدٍ من أصدقائه، لقد غدوا جميعاً خصوماً له. والآن بعد أن أثقلته مصائبه. ما من أحد تحرّكه الشفقة عليه. قال في نفسه «وأبي؟» وفحص نفسه باحثاً عن الجواب عن هذا السؤال فارتعب بما رأى. إنه لم يتخلّ عن حب أبيه فحسب، بل إنه كان يكرهه لأنه لم يُلبِّ طلباته المتكررة للمال. نعم، إن الكراهية هي الكلمة الحق، بل أكثر من ذلك، لقد تصور أن موت أبيه لابد منه لسعادته هو.

وكرر على نفسه:

«نعم، لو كان في قدرتي قتل والدي، بضربة واحدة، والإفلات من جبروته هكذا؟ لو كنت أعلم أن أحداً لن يعلم بذلك فماذا كنتُ سأفعل؟ سأقتله». واستفظع ما قاله.

وتساءل:

«وأمي؟ إني أشفق عليها، لكني لا أحبها؟ ماذا سيحل بها؟ سيّان عندي؛ كل ما أطلبه هو عونها... لكن ماذا! كيف! أوحشٌ أنا؟ وحشٌ في ضيق شديد؟ نعم، والفرق بيني وبين هذا الوحش هو أنني أستطيع، إن أردت، أن أترك هذه الحياة الخادعة والخبيثة. أستطيع أن أفعل ما لا يستطيعه الوحش! إني أكره والدي؛ و لم أعد أُحبّ أمي ولا أصدقائي ولا أحد، ولا... نعم، ربما بامفيل وحده؟».

وفكّر أيضاً في صديقه، في لقائهما الأخير، وفي كلمات المسيح التي استشهد بها بامفيل: «تعالوا إلي يا جميع المتعبين والمثقلين وأنا أريحكم».

Twitter: @ketab_n

هل يمكن أن يكون ذلك حقيقياً؟ أخذ يتذكر حديثه مع بامفيل تذكّر بفرح وجه صديقه الوديع والأبيّ والفرح، فاستخفّه شوقٌ عظيم لرؤيته وسماعه، وفوق كل شيء، للايمان بكل ما قاله له.

قال في نفسه:

– ومَن أنا، في نهاية الأمر؟ رجل يبحث عن السعادة. بحثتُ عنها في الترف والأهواء، ولكني لم أفلح في العثور على السعادة فيها. والذين يعيشون مثلي سيزلّون. إنهم ماكرون، وهم يتألمون جميعاً. من جهة أخرى، ثمة رجل فرحٌ لأنه لا يبحث عن شيء. وهو يقول لي إن أمثاله كثيرون، وأن كل إنسان يمكن أن يكون مثله، وأنني أنا أستطيع أن أصبح كذلك، إن شئت، حين أراعي التعاليم التي أعطاها معلّمه. ماذا، إن كان ذلك كله حقيقياً، فهناك جاذبية لا يمكنني مقاومتها. وأنا ماضٍ إلى هناك.

– ٣ –

سار جوليوس مسرعاً، وكان مرحه يعود إليه كلما اقترب من القرية، وتغدو اللوحة التي كوّنها لنفسه من الحياة المسيحية أشد وضوحاً وحياة.

عند مغيب الشمس، تهيّأ للاستراحة لفترة على حافة الطريق، عندما وجد نفسه إزاء رجل يستريح هو أيضاً ويتناول طعامه.

Twitter: @ketab_n

كان رجلاً متقدماً في السن، ذا تربية كاملة، إن حكمنا عليه من مظهره. كان جالساً يأكل بهدوء خبزاً وزيتوناً. وعندما رأى جوليوس قال له بابتسامة مرحبة:

- مساء الخير، أيها الشاب؛ مايزال أمامك جزءٌ صالح من الطريق، فاجلس لحظة.

شكر جوليوس الغريب وهو يجلس قربه وسأله:

- إلى أين تذهب؟

أجاب جوليوس:

- أنا ذاهب إلى المسيحيين؟

وروى له، بعد أن شجعه الرجل بأسئلته، حياته كلها والصراع الداخلي الذي ساقه إلى تصميمه الجديد.

أصغى الغريب بانتباه، ولم يقاطع الراوي إلا نادراً بأسئلة ترمي إلى إيضاح تلميح غامض أو حدث أو رأي شرحهما شرحاً عابراً وكأن محدّثه يعرف تفاصيلهما. لم يناقش ولم يُبد رأياً. وعندما انتهى جوليوس من قصته، لمّ بقايا الطعام، وأصلح من ثيابه، وقال:

- أيها الشاب، لا تضع فكرتك موضع التطبيق، لقد ضللتَ السبيلَ السويّة. إني أعرف الحياة وأنت لا تعرفها. اصغِ، سألخص الأحداث الرئيسية في ماضيك وأحلّل الملاحظات التي أبديتها؛ وبعد أن أعرضها عليك بالشكل الذي اتخذته في ذهني، وبوسعك أن تتصرف

Twitter: @ketab_n

بالطريقة التي تبدو لك حكيمة. أنت شاب، غني، وسيم، قوي؛ قلبكَ زوبعة أهواء. أنت ترغب الآن في خلوةٍ هادئة لا تضطرب فيها لهذه الأهواء، وتُفلت من الآلام التي تحدثها. وأنت تحاول البحث عن هذه الخلوة بين المسيحيين. ليس هناك مثل هذه الخلوة، أي الصديق الشاب العزيز. لا بين المسيحيين ولا في أي مكان آخر، لأن الداء الذي يهزّك ويعذبك ليس له مقرّ لا في كيليكية ولا في روما، بل مقرّه في جسدك أنت. وفي هدوء القرية المتوارية ستهزّك هذه الأهواء نفسها وستمزّقك على نحو أشد مئة مرة من ذي قبل. إن غشّ المسيحيين أو خطأهم (لا أريد أن أحكم عليهم) يقوم على ما يلي إنهم يأبون أن يعترفوا بالطبيعة البشرية وأن يفهموها.

«إن الأشخاص الوحيدين القادرين حقاً على ممارسة المبادئ التي يعلّمها المسيحيون هم الشيوخ الذين انطفأت فيهم بقايا الأهواء الأخيرة بفعل السنين. أما الرجل الذي هو في ريعان الشباب، وعلى الخصوص الشاب مثلك الذي لم يتذوق مباهج الحياة، الذي لا يعرف حقيقة إرادته، فلا يستطيع أن يخضع للقانون المسيحي، لأن هذا القانون لم يُؤسَّس على الطبيعة البشرية بل على رؤى المسيح الباطلة، مؤسس المسيحية. وإذا استقرّ بك المقام في الجالية فسوف تظل تتألم من الأسباب نفسها، كما كنتَ في السابق، وستغدو آلامُك أكبر. ستكون هكذا: إن أهواءك ستقودك من الطريق المستقيمة إلى دروب الضلال؛ لكن في مقدورك، وإن ضللتَ الطريق، أن تعود أدراجكَ وأن تسلك الطريق المستقيمة. وسوف تستمتع، فضلاً عن ذلك، بإشباع الأهواء المتحررة، أي بفرح الحياة. لكنك إن عشت كمسيحي، وإن كبحت جماح أهوائك بالقوة، إن صحّ القول، فسوف يكون من الممكن

Twitter: @ketab_n

أيضاً أن تنحرف عن الطريق المستقيمة، وذلك على نحو أكثر تكراراً وأكثر استعصاءً على الإصلاح، من الماضي. وسيكون عليك أن تتحمل فوق ذلك العذاب الذي لا حد له والذي تسببه الشهوات التي لم تُشْبَع، شهوات الطبيعة البشرية. دع الماءَ المحبوس في السدّ يجري، فلسوف يسقي الحقل والمرج، وسيُنعش ببرودته الحيوانات التي ترعى؛ لكن أبقِ السدَّ، فسوف تنفذ المياه إلى الأرض وستصبح مستنقعاً موحلاً. كذلك الأمر بالنسبة إلى الأهواء البشرية. إن تعاليم المسيحيين (ما عدا بعض العقائد التي يتعزّون بها والتي لا أريد أن أتناولها الآن)، من حيث تأثيرها في الحياة اليومية يمكن أن تُلخَّص كالآتي: إنها تدين العنف؛ وتستنكر الحروب ومحاكم العدل؛ وتأبى أن تعترف بالملكية؛ وترفض العلم والفنون؛ وبكلمة واحدة، إنها تهرب من كل ما يجعل الحياة جذابة وعذبة. ويمكننا أن نقبل بذلك لو أن جميع الناس كانوا مطابقين للصورة التي يرسمونها لمؤسس دينهم. لكننا بعيدون عن ذلك، فالأمر غير ممكن. إن الناس، بطبيعتهم، غير مهيّئين لذلك، وهم متأثرون بأهوائهم. إن عمل الأهواء المتّصل، والصدمات والصراعات التي تنجم عن ذلك هي التي تحبس الناس في شبكة الشروط التي يعيشون فيها. المتوحشون لا يعرفون قيوداً، والفرد منهم قد يدمّر العالم بأسره ليرضي شهواته. وإذا ما قبل الناس بالشر برخاوةٍ المسيحيين، وإذا وهبت الآلهة الناس مشاعر الغضب والثأر والإيذاء ضد الذين يسيئون إليهم، فكنْ على يقين أنها فعلت ذلك لأن هذه المشاعر ضرورية لحفظ الجنس البشري. «يقول لنا المسيحيون أن هذه المشاعر سيئة، وأن الناس سيكونون سعداء دونها، ولن يكون حينئذ قتلٌ ولا إعدام ولا حروب. هذا صحيح، لكن

Twitter: @ketab_n

يمكننا القول أيضاً بحق إن سعادة البشر ستزداد ازدياداً واسعاً لو لم يكونوا مكرهين على الأكل والشرب. «وحينئذ لن يكون هناك لا جوعٌ ولا عطش ولا أحد المكدّرات التي تسبّبها هذه الآلام. لكن هذا الافتراض لا يغير الطبيعة البشرية قيد شعرة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى سائر الأهواء البشرية: السخط، الخبث، الانتقام، العشق الجنسي، حب الترف، والمباهاة، والمجد، كانت الآلهة تتميز بهذه الأهواء؛ ففيها إذن، وبشكل ملطَّف، سمات طبيعية في الإنسان دَمَّرْ ضرورة تغذية الإنسان تُدمِّر في الوقت نفسه الإنسان ذاته. وكذلك أبطل الأهواء البشرية تُبطل في الوقت نفسه الإنسانية ذاتها. وهذه الملاحظة تنطبق أيضاً على مسألة الملكية التي يرفض المسيحيون، كما يُقال، أن يعترفوا بها. انظر بعيداً عنك وسترى أن كل كرمة، كل حديقة، كل بيت، كل بغل، قد أُوجد فقط لأن الملكية موجودة مزروعة، ولا حيواناً واحداً مروّضاً لحمل الأثقال. يزعم المسيحيون أنهم لا يملكون ملكية لكنهم يتمتعون فقط بثمارها. وهم يقولون أن كل شيء مشترك بينهم، وأنهم يحملون جميع أرزاقهم ويضعونها معاً من أجل القضية المشتركة. لكن ما الذي يحملونه مما لم يأتهم ممن يملكون الملكية؟ إنهم يرشّون بكل بساطة الغبار في عيون الذين يصغون إليهم، أو أنهم يخدعون أنفسهم، لكي يكونوا كرماء. قلت لي إنهم يعملون بأيديهم ليتغذوا، لكن ما ينتجونه لا يكفي لمعيشتهم، لولا أنهم يستفيدون من منتوجات الذين يعترفون بقانون الملكية. ولو اتفق لهم أن نجحوا في التخلص من هذا المأزق. إلا أن نظامهم الاجتماعي لا مكان فيه للعلم والفنون. فهم ينكرون مزايا فنوننا وعلومنا. وليس بوسعهم أن يفعلوا غير ذلك. إن تطبيق تعاليمهم يعمل على ردّ الإنسان إلى حالته البدائية:

Twitter: @ketab_n

الوحشية والحيوانية. ولا يمكنهم دعوة الفنون والعلوم إلى خدمة الإنسانية وبما أنهم يجهلون تلك الفنون والعلوم جهلاً مطبقاً. فهم لا يسلّمون بتأثيرها المُمدِّن، ولا يستطيعون أيضاً أن يستعملوا، لخدمة الإنسانية، تلك الملكات والمواهب التي تصنع تفوّق الإنسان، وتجمعه مع الآلهة. وهم لا يطيقون الكلام على المعابد والتماثيل والمسارح والمتاحف. يقولون إن لا حاجة بهم إليها. وأبسط الطرق من أجل تحاشي الخجلِ من دناءة منبتهم هو احتقار نبالة الأصل. كان معلمهم خدّاعاً جاهلاً، وهم لا يخلون من النجاح في سعيهم إلى الاقتداء به. وهم فوق ذلك ملحدون، يرفضون الاعتراف بالآلهة وتدخلها في شؤون البشر. وهم لا يعترفون إلا بأبي معلّمهم، ويدعونه أباهم هم أنفسهم وأبا معلمهم الذي كشف لهم، كما يقولون، عن أسرار الحياة. ومذهبهم غشّ حقير. زِنْ ما قلته لك. نحن نعتقد أن الكون تصونه الآلهة، وأن الآلهة تحرس الإنسان وتحميه. ومن أجل الإيمان الصحيح، نحن مضطرون أن نكرّم الآلهة، وأن نبحث عن الحقيقة، وأن نفكر. حياتنا إذن تنظّمها، من جهة، مشيئة الآلهة؛ وتنظّمها، من جهة أخرى، الحكمة الجماعية للآلهة. نحن نحيا ونفكّر، ونبحث، وبالتالي فنحن نسير نحو الحقيقة. أما المسيحيون فلا آلهة لهم، ولا مشيئة إلهية، ولا حكمة إنسانية تقودهم، لكنهم مضطرون أن يفعلوا أحسن ما يستطيعون مع إيمانهم الأعمى بمعلمهم المصلوب وبما علّمهم إياه. والآن قرِّر لنفسك أيهما الدليل الذي يجب أن نثق به: مشيئة الآلهة والفعالية الحرة التي لا حدود لها لحكمة الإنسانية بأسرها، أم الإيمان الإجباري غير المنطقي بكلام رجل واحد.

دهش جوليوس مما قاله الغريب، ولاسيما من جملته الأخيرة. ولم

Twitter: @ketab_n

يتزعزع فقط قراره بأن يصبح مسيحياً، لكن بدا له أن المصائب التي أمكن أن تدفعه إلى التفكير في مثل هذا الجنون أمرٌ لا يصدَّق. بيد أن ثمة مسألة لابد من تسويتها. ماذا سيفعل؟ كيف يفعل ليتخلص من الوضع المرتبك الذي دفعه إلى اليأس؟ وبعد أن أطلع الغريب على هذه الصعوبة، سأله رأيه. فأجاب:

- كنتُ سأصل بالضبط إلى هذه المشكلة، ماذا ينبغي أن تفعل. يبدو لي خطُّ سلوكك واضحاً جداً، إذا حكمنا عليه بحسب قوانين الحكمة البشرية، فيما أعلمه منها. إن مصدر مصائبك جميعاً يكمن في أهوائك.

الهوى الذي أبعدك عن الطريق المستقيمة وقادك إلى وضع سبّب لك الكثير من الآلام. إن دروس الحياة تتّخذ عادةً هذا الشكل. يجب أن تتعمّقها جيداً وتستفيد منها. لقد عشت ما يكفي لتعرف الحلو من المر. ولن تتعرض للسقوط لا شعورياً في الأخطاء نفسها كالتي قادتك إلى هذا الوضع البائس.

استفد من تجربتك. إن ما يُحزنك موقفك أنت. اختر موقفاً آخر وتختفي العداوة، أو على الأقل، لن تتجلّى بهذا الشكل الحاد.

جميع آلامك مردّها إلى وضعك الشاذ. لقد أسلمتَ نفسك للذّات الشباب. وهذا طبيعي، وبالتالي، كان الحق معك. وظل الحق معك ما ناسبتْ هذه الحياة سنّك. لكن فصل اللذات انقضى وظللت تُسلم نفسك لنزوات الشباب بقوى الرجال. وفي ذلك أخطأت. الآن بلغتَ سناً ينبغي فيه بإرادتك أن تُزيح إرادة الطبيعة. ينبغي أن تصبح

Twitter: @ketab_n

رجلاً، مواطناً، خادماً للمجتمع، وأن تعمل للخير العام ولخيرك أنت. نصحك أبوك بالزواج. وتلك نصيحة حكيمة. إنك أنهيت مرحلة من حياتك - الشباب - ودخلت مرحلة أخرى. جميع شكوكك وآلامك ما هي إلا أعراض حقبة التحوّل. واجه الحقيقة بحزم: سلّم بأن زمن الشباب انقضى، اطرح كل ما يمت بصلة إليه ولا يمت إلى الرجولة، واتجه إلى الطريق الجديدة. وتزوج، واعتزل صداقات الشباب التافهة؛ اهتم بالتجارة، بالشؤون العامة، بالفنون والعلوم، وحينئذ لن تتصالح فقط مع أبيك وأصدقائك بل ستجد الراحة والسعادة اللتين تنشدهما. إن جذور صعوباتك تكمن في وضعك غير الطبيعي. بلغت الرجولة الآن، فمن واجبك أن تتزوج وتصبح رجلاً. ومن هنا هذه النصيحة التي أزجيها، وهي التالية: نفّذ مشيئة أبيك - تزوّج. وإذا كنت ماتزال تفكر أن العزلة والخلوة اللتين تتصورهما موجودتين بين المسيحيين يمكنهما أن يفتنا لبّك وإذا ما جذبتك دراسة الفلسفة أكثر من نشاط الحياة العامة، فلا يمكنك أن تتبع رغباتك بحرية وبفائدة إلا إذا درست الحياة وتعلمتَ معناها الداخلي. وذلك ما لا يمكنك فعله إلا كمواطن مستقل ورب أسرة. وإذا أحسست، حين تبلغ هذه النقطة، أنك منجذب بقوة نحو الخلوة والتأمل، أمكنك أن تترك نفسك على سجيتها دون تردد، لأن ذلك سيكون حينئذ إيثاراً حقيقياً لا مجرّد سورة استياء كما هي الحال الآن. وحينئذ اتبع إيثارك أينما قادك.

هذه الكلمات الأخيرة، حملت الاقتناع إلى عقل جوليوس أكثر من كل ما سبقها. شكر الغريب بحرارة وعاد إلى بيته. استقبلته الأم بفرح، وصالحه الأب عندما اطلع على نيّة جوليوس بالخضوع لمشيئته وبالزواج من الفتاة التي اختارها له.

Twitter: @ketab_n

- ٤ -

بعد ثلاثة أشهر، احتُفل بالزواج من «اولالي» الجميلة، وأقام الزوجان في منزل يملكانه. غيّر جوليوس عاداته تماماً، واهتم بجانب من تجارة أبيه تنازل له عنه، وأخذ يوطد نفسه كعضوٍ محترم في المجتمع.

وذات يوم، ذهب إلى مدينة صغيرة من مدن الجوار لقضاء أمور له، وهناك، وبينما كان ينتظر في حانوت التاجر، شاهد بامفيل يعبر الباب تصحبه فتاةٌ لا يعرفها. كانا يحملان كلاهما عنباً يعرضانه للبيع. عرف جوليوس صديقه، فدنا منه، وحيّاه، ورجاه أن يبقى معه بضع لحظات للحديث.

رأت الفتاة أن بامفيل يرغب في دخول الحانوت مع جوليوس لكنه يتردد في تركها وحدها، فأكدت له على الفور أنها لا تحتاج إلى خدماته وأنها ستجلس وحدها تنتظر الشاري.

شكرها بامفيل وصحب جوليوس إلى الحانوت. استأذن جوليوس صديقه التاجر بالدخول إلى مؤخرة الحانوت مع بامفيل لكي يكونوا أكثر حرية في حديثهما.

حينئذ أخذ كلٌّ يسأل الآخر عن سير الأحداث منذ لقائهما الأخير.

مرّت حياة بامفيل دون أي حادث و لم يُصبها أي تغيّر مادي. إنه مايزال يعيش في مجتمعه المسيحي، عزباً، وأكّد لصديقه أن كل سنة وكل نهار وكل ساعة تحمل إليه سعادة عظيمة.

Twitter: @ketab_n

وهنا روى جوليوس حياته قائلاً كيف أوشك أن يغدو مسيحياً، حتى أنه سافر إلى القرية المسيحية عندما صادف رجلاً فتح عينيه على أخطاء المسيحيين وأقنعه بوجوب الزواج.

وختم كلامه بقوله:

- عملتُ بنصائحه وأنا اليوم رجلٌ متزوج.

سأله بامفيل:

- أأنت سعيدٌ الآن، وهل وجدتَ في الزواج المتعة التي وعدك بها صديقك؟

فردّد جوليوس:

- سعيد؟ ما معنى سعيد؟ إذا فهمنا بهذه الكلمة التحقيق التام لرغباتنا فلستُ سعيداً. إني أدير أعمالي بشيء من النجاح، وبدأ جيراني يحترمونني. هذان الشيئان يمنحانني الكثير من الرضا. ولاشك أنني ألقى كل يوم مواطنين أغنى مني ويلقون من الاحترام في حلقة واسعة من المعارف أكثر مما ألقى؛ لكنني أعلل النفس بأنه ستأتي لحظة ألحق بهم فيها ولعلي سأسبقهم في هذين الأمرين. إن حياتي إذن مُرضيةٌ من وجهة النظر هذه. أما فيما يتعلق بزواجي، فلا أستطيع، إذا شئتُ أن أكون صريحاً معك، أن أقول عنه ذلك. بل سأمضي معك إلى أبعد من ذلك وأقول لك: إن ذلك الاتحاد الذي ظننتُه سيمنحني الفرح والسعادة خيّب ظنّي؛ وأن اللذة التي شعرت بها في البدء أخذت تتناقص منذئذ، وأنني الآن أواجه الألم بدلاً من أن أكون سعيداً. إن

Twitter: @ketab_n

امرأتي جميلة وذكية ومتعلمة. وقد جعلتني، في أول الأمر، سعيداً سعادة لا توصف؛ أما الآن فهناك أسباب عديدة للتكدير تقوم بيننا ولا يمكنك فهم هذه الأشياء لأنك غير متزوج - لأنها تطلب، في أحد الأيام، مداعبتي وأنا باردٌ غير مبال؛ وفي يوم آخر لأننا تبادلنا الأدوار ولأن لا مبالاتي الموقّتة استولت عليها. والحب، فوق ذلك، محتاج إلى سحر الجدّة ليستمر. إن امرأة أقل جمالاً من امرأتي يمكنها، لأول وهلة، أن تفتنني فتنةً أعظم منها. وقد أحسستُ بذلك غير مرة. نعم، في الحقيقة، لم أجد في الزواج ما أملت أن أجده فيه. الفلاسفة محقّون، يا صديقي: الحياة لا تعطي كل ما تتوق إليه النفس. تحققت من ذلك في الزواج... وختم كلامه ضاحكاً:

- لكن كون الحياة لا تعطي كل ما تتوق إليه النفس لا يُبرهن بأي حال من الأحوال على أن نظامكم الخدّاع سيوفّر ذلك.

سأل بامفيل:

- ولم «خدّاع»؟ أين وقعت على أعراض الغش؟

- إليك مكمن خيبة الأمل: ذلك أنكم لكي تخلّصوا الإنسانية من المصائب التي لا تنفصل عن الحياة، تطرحون شؤون الحياة كلها حتى الحياة ذاتها. ولكي تجنبوا الناس ألم انقشاع الوهم جعلتموهم يتخلّون عن كل وهم، بل إنكم ترفضون الزواج.

احتج بامفيل:

- نحن لا نصنع شيئاً مثل هذا.

Twitter: @ketab_n

- إذا لم يكن الزواج ما ترفضونه فهو الحب إذن.

هتف بامفيل:

- الحب! كيف! نحن نتخلى عن كل شيء ما عدا الحب. الحب عندنا هو حجر الزاوية في العمارة المسيحية.

قال جوليوس:

- أنا لا أفهمك إذن. فلو حكمتُ بحسب ما سمعتُ من الآخرين، وأستطيع أن أضيف: لو حكمتُ من خلالك أنت كمثال، لأننا وإن كنا من سنّ واحدة، فأنت ماتزال عزباً، لاستخلصتُ النتيجة التالية وهي أن المسيحيين لا يوافقون على وحدة الزوجين. إنكم لا تفصمون عرى الزواج التي عقدتموها، ولكنكم لا تُقدمون على زواج جديد. إنكم لا تفكرون في تكاثر الجنس البشري، ولو أن العالم لم يقطنه سوى المسيحيين لما طال به الأمر حتى يمحي من الوجود.

آخر جملة هتف بها جوليوس كانت صدى لما سمع الناس يرددونه في الغالب.

أجاب بامفيل:

ليست هذه هي الطريقة الصحيحة تماماً لطرح المسألة. فالحقّ أننا لا نجعل من إدامة الجنس البشري هدفاً لنا، ونحن لا نقيم وزناً لذلك، كما قال بحق أحد كبار رجالكم. نحن مرتاحون في هذا الصدد، باقتناعنا الراسخ أن أبانا الذي يسهر على الإنسانية يهتم

Twitter: @ketab_n

بجميع حاجاتها. وهدفنا هو أن نعيش على وفاق مع مشيئته؛ فإن شاء أن يُوجَد الجنس البشر وَجَد الوسائل لإدامته؛ وإلا فسوف ينطفئ الجنس بكل تأكيد.. بيد أن ذلك لا يخصنا. إن مهمتنا أكثر تواضعاً، هو أن نحيا بحسب مشيئته. ومشيئتُه نستدلّ عليها من طبيعتنا ومن الوحي الذي أنعم به علينا. وكلاهما يقول: إن الرجل يجب أن يبقى مع امرأة، وأنهما يشكلان كائناً واحداً. إن الزواج لا تمنعه شرائعنا، ليس هذا فحسب بل إن رؤساءنا الضالعين في الحقوق يشجّعونه. والفرق الأكبر بين زواجكم الوثني وزواجنا هو في تقديرنا لتعاليم الله وهي أن كل نظرة شهوة تُوجَّه إلى امرأة خطيئة؛ والنتائج العملية للإيمان بهذه التعاليم يمكن أن تُلخَّص كالتالي: نحن ونساؤنا نسعى، نركّز جميع جهودنا لإطفاء كل حركةٍ دنسةٍ، بدلاً من الاعتناء بملبسنا وزينتنا لإيقاظ الشهوات الحسيّة في قلوب الذين ينظرون إلينا. وذلك لتكون عاطفة الحب بيننا كالتي بين الإخوة والأخوات، وعلى جانب عظيم من القوة لتقتل الشهوة الحسية تجاه امرأة، وهي الشهوة التي تطلقون عليها اسم الحب.

لاحظ جوليوس:

– كلُّ ذلك حسنٌ، لكنكم، في الحقيقة، لا تستطيعون إطفاء شهوة الحب واللذة التي تثيرنا عندما ننظر إلى الجمال. ولكي لا أذهب بعيداً بحثاً عن التشبيهات، فأنا على يقين أن تلك الفَتاة التي تصحبك، وإن لم تكن حسنة الهندام – وهو أمر قُصد منه التخفيف من مفاتنها أو إخفاؤها – توقظ فيك الشعور بحب المرأة.

قال بامفيل وهو يحمرّ خجلاً:

Twitter: @ketab_n

- لا أعتقد. أنا لم أفكر في جمالها قط. وأنت أول مَن دفعني إلى التفكير في هذا الشيء. فهي ليست سوى أخت لي. لكن لنعدْ إلى ما كنتُ أحدّثك عنه بصدد الفرق بين الزواج الوثني والزواج المسيحي: يأتي ذلك الفرق من الحب الحسي الذي يُدعى جمالاً، أو متعةً، أو خدمة الإلهة «فينوس» يُثار ويُصان بفكرةٍ مبطّنةٍ لديكم، بينما هو عندنا، على العكس، نتجنبه لا لأننا نظن أنه شر (فالله لم يخلق أي شر) - نحن على كل حال نعتبره خيراً إيجابياً - بل لأنه يمكن أن يغدو شراً، إنه غواية دائماً، وهو يصبح شراً عندما لا يُحفظ بدقة في مكانه. حينئذ نجمع جهودنا كلها لتفاديه. ولذلك لم أتزوج بعد، مع علمي أن لا شيء يمنعني من اختيار زوجتي غداً.

- وما الذي يحدّد اختيارك؟

- مشيئة الله.

- وكيف تكتشف هذه المشيئة؟

- إذا لم تبحث عن تجلياتها فلن تعثر عليها أبداً. وإذا ظللت يقظاً باستمرار غدت مرئيةً وواضحة، كما أن العرافة تبدو لك بيّنة بتضحية الضحايا وطيران الطيور. إن لكم سَحَرتكم الذين يكشفون لكم مشيئة آلهتكم بفضل معرفتهم والعلامات التي يكتشفونها في أحشاء الضحية أو في الطيور. ولنا مثلكم أيضاً حكماؤنا ورؤساؤنا الذين يكشفون لنا عن مشيئة أبينا بإعلان المسيح، بما تأمرنا قلوبُهم وأفكار الآخرين، وعلى الخصوص بالحب الذي يستشعرونه إزاء الآخرين.

Twitter: @ketab_n

اعترض جوليوس:

- إن هذا مُسرف الإبهام. مَن الذي سيقول لي مثلاً: متى ينبغي لي أن أتزوج، وبمن أتزوّج؟ وعندما جاءت لحظة الزواج، كان لي الخيار بين ثلاث فتيات. وهؤلاء الفتيات الثلاث جرى اختيارهن بين جميع الأخريات، بسبب جمالهن الخارق وثرائهن، ووافق أبي مسبقاً على الزواج بإحداهن. وبين هؤلاء الثلاث اخترتُ «اولاي»، لأنها كانت الأجمل، والأعظم سحراً، بحسب ذوقي. كان هذا طبيعياً، لكن من الذي سيقود اختياركم؟

قال بامفيل:

قبل أن أجيب مباشرة عن هذا السؤال، اسمحْ لي أن أقول لك أولاً أن جميع الناس متساوون في نظر «أبينا»، وإذن فهم متساوون في نظرنا، سواء في وضعهم الاجتماعي أوفي صفاتهم الجسدية والمعنوية. وينتج عن ذلك إذن أن اختيارنا (وأنا أستعمل هنا كلمة لا معنى لها عندنا) لا يمكن أن يكون مرسوماً، فأي إنسان في هذا العالم يمكنه أن يصبح زوج مسيحية أو زوجة لمسيحي.

- إن هذا يجعل تحديد الاختيار أصعب.

- دعني أقل لك ما قاله أحد متقدّمينا بصدد الفرق بين الزواج الوثني والزواج المسيحي. الوثني يختار الفتاة التي يعتقدها قادرة على منحه أعظم المتع وأكثرها تنوعاً. ونتيجة هذه الطريقة في الاختيار أن الرجل ينظر إلى هذه وتلك ويحار أيهما يختار، لأن ما يجعل تقريره صعباً هو أن المتعة كميةٌ مجهولة، محجوبة بمستقبل مظلم. أما المسيحي

Twitter: @ketab_n

فلا تربكه فكرة الاختيار الشخصي؛ واعتبارات الطبيعة الشخصية المحضة ذات أهمية ثانوية بدلاً من أن تكون ذات أهمية أولية. إن فكرته الحقيقية هي ألا يعارض مشيئة الله في اختياره.

- لكن كيف يمكن معارضة مشيئة الله بزواج؟

أجاب بامفيل:

- لو تناسيتُ الألياذة، تلك الألياذة التي كنا نقرؤها معاً، فلا يمكننا أن ندهش، ولن يكون هناك مسوّغ للومي. لكنك أنت، وأنت تعيش وسط الفلاسفة والشعراء، فليس لك العذرُ نفسه لتحتجّ به.

والآن، ما الإلياذة، إن لم تكن حكاية الصعوبات الطارئة بعد انتهاء مشيئة الله في الزواج؟ مينيلاس وباريس، هيلين وآخيل، اغاممنون وكريزيس، هم الشخصيات في وصف النكبات الرهيبة التي لاحقت وتُلاحق اليوم الذين يعارضون مشيئة الله بمشيئتهم في مسألة الزواج هذه.

- وأين يكمن هذا التعارض؟

- في أن ما يحبّه الرجل في المرأة ليس الكائن الشبيه به، بل المتعة الشخصية التي يوفّرها اتحادُه بها، ومن أجل الحصول على هذه اللذة يتزوّجها. إن الزواج المسيحي غير ممكن إذا لم يَجْد الرجل حبَّ أشباهه، وإذا لم تكن المرأة التي يتزوجها موضعاً لهذه المحبة الأخوية من الإنسان إلى أشباهه. وإذا لم يكن وارداً أن يُبنى بيتٌ قبل أن يوضع أساسه، ولا أن تُرسم لوحة دون أن تُهيَّأ قماشة الرسم أو المواد الأخرى،

Twitter: @ketab_n

فلذلك لا يمكن للحب الجنسي أن يكون شرعياً، معقولاً، أو دائماً إذا لم يستند إلى أساس من الحب ومن احترام الإنسان للإنسان. على هذا الأساس فقط يمكن إقامة حياة الأسرة المسيحية حقاً.

– أنا مجبر على أن أقول: إنني لا أرى بعد لماذا ينبغي للزواج الذي تدعوه زواجاً مسيحياً أن ينفي هذا النوع من الحب الذي أحس به «باريس».

– أنا لا أقول إن الزواج المسيحي لا يقبل بالحب المحصور بامرأة واحدة؛ على العكس، إن الاتحاد لا يكون مقدساً ومرغوباً فيه إلا إذا كان هذا الحب أحد عناصره. لكن ما أحببت أن أبرزه بوضوح يعادل أهمية الحجة، هو أن ذلك الحب الواقعي والمحصور بامرأة واحدة غير ممكن إلا بالإبقاء على الحب العام للإنسانية والحفاظ عليه دون أن يُمس. إن هذا النوع من الحب القاصر على امرأة واحدة الذي يتغنى به الشعراء ممتاز في ذاته، لكن بما أنه لم يُؤسَّس على حب الإنسان لأمثاله، فهو لا يستحق اسم الحب. إنه الشهوة الحيوانية التي غالباً ما تتحول إلى كراهية. وأفضل دليل على صحة أطروحتي أن ما نسميه عادة الحب، العشق الحسي، يغدو حيوانية عندما لا يستند إلى الأسس الكبرى للمحبة الإنسانية. ويقع ذلك عندما يُستخدم العنف ضد المرأة التي يزعم الغاصب أنه يحبها. سوف يسبب لها آلاماً تستمر ما استمرت الحياة. هل يجوز لنا أن نقول أن الرجل يُحس بمحبة الشخص الذي يعذّبه هكذا في الزواج الوثني، كثيراً ما نجد العنف المقنّع؛ وهكذا، فعندما يتزوّج رجل بفتاة لا تحبه أو تحب غيره، فهو يُنزل بها الآلام والأوجاع لكي يشبع الشهوة الحيوانية التي تُسمى الحب.

Twitter: @ketab_n

قاطعه جوليوس:

- إنني أسلم بذلك كله؛ لكن هل ينبغي لي أن أعتقد أن الفتاة إذا أحبته لم يستتْبع ذلك أي ظلم؟ إن قلت نعم فلا أدري كيف يختلف هذا عن الزواج الوثني.

أجاب بامفيل:

- لا أعرف تفاصيل زواجكم، لكن من الواضح كل الوضوح لي أن كل زواج، أينما تم وكيفما تم، إذا كانت المتعة الشخصية أساساً له، فلا يمكنه إلا أن يكون مصدراً خصباً للمزعجات، مَثَلُه مَثَلُ فعل الأكل فهو لا يمكن أن يتم بين الحيوانات أو الكائنات البشرية غير البعيدة عن حالة التوحش دون أن يولّد مشاجرات ومعارك. كل منها يسعى إلى احتكار القطع المختارة، وبما أنه لا يوجد ما يُرضي الجميع، ينتهي بهم إلى الأمر إلى الاختصام عليها. وإذا لم يُؤدّ الخصام إلى عداوات فاعلة ظلت مع ذلك عداوات حقيقية لأنها كامنة. الضعفاء يشتهون دائماً القطعة المحلاة مع علمهم بأن جارهم الأقوى لا يتنازل عنها أبداً، وأن من المستحيل أن يحصلوا عليها بالقوة. فهم ينظرون إليها بكراهية حاسدة، وهم مستعدون دائماً لاستغلال المناسبة الطارئة التي تعرض لهم لينزعوها من جارهم الأقوى. كذلك الأمر بالنسبة إلى زواجكم الوثني. وإن كانت النتيجة أسوأ، لأن موضوع الرغبة كائن بشري، وبذلك، يعلو الشقاق بين الزوجين كليهما.

- وماذا تفعلون لتجبروا الزوجين على أن يحب أحدهم الآخر ولا يحب شخصاً آخر؟ إن الشاب أو الفتاة قد يحبّان غير من يتزوّجان،

Twitter: @ketab_n

وفي هذه الحالة يكون الزواج غير ممكن بحسب أفكارهم. ومن ذلك أرى أن الذين يقولون عنكم، أيها المسيحيون، إنكم لا تتزوجون، معهم الحق. ولهذا السبب أنت عَزبٌ، ولعلك ستظل عزباً أبداً. كيف يمكن أن تصدّق أن رجلاً يتزوج بفتاة لم يُلهب بالحب قلب امرأة أخرى من قبل، أو أن امرأةً بلغت النضج لم تُثر في قلب رجلٍ عاطفة الحب؟ ماذا كان على هيلين أن تفعل، برأيك؟

كان متقدمنا، سيريل، يقول، وهو يتحدّث فيما مضى بهذا الصدد، إن أشخاص العالم الوثني لا يفكرون، دون أن يُعطوا حتى لو فكرةً عارضة لواجبهم في الحب، ودون أن يفعلوا شيئاً لتيسير مثل هذه العاطفة، لا يفكرون إلا في شيء واحد: كيف يهيجون في قلوبهم الحب المشغوف بامرأة، ولا يهملون شيئاً لإثارة هذا الهوى. ولهذا السبب أن كلَّ «هيلين»، أو كل امرأة شبيهة بها تهيج حبَّ عدة أشخاص. ويتقاتل الخصوم ويبذلون غاية جهودهم ليتفوق كل منهم على الآخر، تماماً كما تفعل الحيوانات التي تشتهي امتلاك الأنثى. والزواج، صراع، شكل من أشكال العنف، وإن كان بدرجات متفاوتة جداً. في حالتنا، نحن لا نفكّر في الاستمتاع الفردي بالجمال، ونحن نتحاشى بعناية كل هذه الإغراءات والألاعيب التي قد تُغوينا والتي تُرفع اليوم في العالم الوثني إلى مصاف الألوهية. ونحن نركّز انتباهنا على الواجب الذي نلتزمه لاحترام القريب ومحبته، مضمّنين في هذه التسمية (القريب) الناس جميعاً، أكان جمالهم فذاً لا نظير له، أم كانت بشاعتهم منفردة. ونحن نفعل ما بوسعنا لنلقّن هذا الشعور، ولذلك فإن حب الإنسانية يبزّ عندنا إغراءات الجمال، ويجتاحها، ويُبطل، حين يلغيها، جميع الذرائع للمشاجرات والعداوات التي تنبع من علاقات الجنسين.

Twitter: @ketab_n

«إن المسيحي لا يتزوج إلا عندما يكون اتحادُه بالمرأة التي ارتبط معها برباط المحبة المتبادلة لا يسوء شخصاً آخر، وذلك يفضي على القول: إن المسيحي لا يسمح لنفسه أن يحس بعلاقة حب لامرأة إن لم يعلم أن زواجه بها لا يسبب أي ألم لغيره.

اعترض جوليوس:

– لكن هل هذا الشيء ممكن؟ وهل الإنسان سيد ميوله ونفوره؟

– إنه ليس سيداً لها إن تركها تعمل بحرية؛ لكنه يستطيع أن يتحاشى إيقاظها أو أن يوقف نموها. خذ مثلاً، علاقات الآباء ببناتهم، والأمهات بأبنائهن. إن الأم أو البنت أو الأخت، مهما يكنّ جميلات لا ينظر إليهن الأب أو الابن أو الأخ، على أنهن موضوع للمتعة الجنسية، وهنا لا يفعل الإحساس الحيواني فعله. وإنما يدخل إذا اكتشف الرجل أن البنتَ والأم والأخت لسنَ الأقارب، لكن حتى الإحساس هنا سيكون ضعيفاً جداً، يسهل تعقيله، ولن يشقّ على الرجل أن يكبحه وأن يلغيه تماماً. والسبب الذي من أجله يكون الإحساس الحيواني ضعيفاً في مثل هذه الحالة هو التالي:

سوف يجد في أعماق هذه العلاقات إحساساً بالحب البنوي والأبوي والأخوي. فلماذا تريد أن تشك دائماً أن ليس ممكناً بل وسهلاً أن نستحضر إحساساً شبيهاً بالذي نحسّ به تجاه الأم والبنت والأخت، أن نستحضر ونغذّيه تجاه جميع النساء؟ لماذا تريد أن تشك أن ليس ممكناً أن يرتكز الحب الزوجي على هذا الأساس؟ إن الشاب لا يسمح لنفسه بأن يغذّي في نفسه العشق الجنسي لفتاةٍ إذا نظر إليها

Twitter: @ketab_n

نظرته إلى الأخت حتى يقتنع بأنها ليست أختاً له؛ كذلك يحترس المسيح من تغذية مثل هذا الإحساس إزاء امرأة، حتى يقتنع أن حبه لها لا يسوءُ شخصاً آخر، وأن زواجه بها لا يغمُّ أحداً.

سأل جوليوس:

- وإذا هام رجلان بالمرأة نفسها؟

- حينئذ يضحي أحدهما بإحساسه في سبيل سعادة الآخر.

- وإذا اتفق أن أحبّت المرأة بالفعل أحد المعجبين بها؟

أجاب بامفيل:

- حينئذ يضحي مَن تحبّه أقل من غيره بحبّه في سبيل سعادة المحبوبة.

ألحّ الآخر:

- لكن إن أحبّتهما كليهما، وإن أصر كلٌّ منهما على التضحية بحبه، فقد تعزف عن الزواج بأي منهما.

- مثل هذه الحالة يخضع لأحكام المتقدّمين في الجالية. فهؤلاء المتقدّمون سيُبدون أفضل رأي في القضية وسيَفْصلون في الخلاف بشكل يوفر أعظم سعادة لكل من الثلاثة، منضافة إلى أعظم مقياس للحب.

اعترض جوليوس:

Twitter: @ketab_n

- لا يمكننا عادة استعمال هذه الطريقة، فهي مناقضة للطبيعة البشرية.

- الطبيعة البشرية! أية طبيعة؟ عن الإنسان، مع كونه حيواناً، إنسانٌ دون شك، في الوقت نفسه. وإذا لم تنسجم العلاقات التي بين الرجل والمرأة والتي يُقرها ديننا، مع طبيعة الإنسان الحيوانية، فإنها تتوافق تماماً مع طبيعته العقلانية. وعندما يجعل من العقل خادماً لطبيعته الحيوانية فإنه يسقط إلى مرتبةٍ أسفل من الحيوانات ذاتها. إنه يستسلم للعنف والزنى وهما تطرّفان لا يسقط فيهما أيُّ حيوان. لكنه عندما يستخدم طبيعته العقلانية ليكبح غرائزه الحيوانية، وعندما تُوظَّف هذه الغرائز في خدمة هذه الطبيعة العقلانية، حينذاك، حينذاك فقط، يبلغ الإنسان السعادة القادرة وحدها على إشباع رغباته.

- ٥ -

لكن قلّ لي الآن ما عندك مما ترويه عن نفسك. إني أرى فتاةً جميلة تصحبك وأنت تعيش معها في مدينتك، إذا حكمنا من خلال المظاهر. قل لي، أمن الممكن أنك لا ترغب في أن تصبح زوجاً لها.

أجاب بامفيل:

لم أفكّر في ذلك تفكيراً جدّياً قط. إنها ابنة أرملة مسيحية أفعلُ من أجلها ما أستطيع فعله، كالآخرين، على كل حال. أحبّ الأم حبي للبنت، أحبهما كليهما. وأنت تسألني إن كان حبي يسوِّغ بطبيعته

Twitter: @ketab_n

زواجي بها؟ المسألة، صعبة، لكني سأجيبك بكل وجدان. لقد خطرت هذه الفكرة ببالي، وقبلتُ بها، لكن شاباً من معارفي يحبها أيضاً، ولذلك لم أفكر قط جدّياً في هذا الموضوع. هو أيضاً مسيحي، وهو يحبنا أيضاً نحن الاثنين كثيراً. ولا يدور في خلدي لحظة واحدة أن أفعل شيئاً يمكن أن يُؤلمه. ولذلك أعيش دون أن أفسح المجال لهذه الأفكار. جميعُ رغباتي ليس لها سوى هدف واحد: تحقيق قانون الحب. أي حب القريب. هذا هو الجوهري. أما بالنسبة إلى الزواج فأنا لن أتزوج إلا عندما أقتنع أن من واجبي أن أفعل ذلك.

- هذه أفكارك أنت؛ لكن الأم قد تفكر تفكيراً آخر. ولا يمكن أن يستوي عندها صهرٌ صالح ومجتهد وصهرٌ عكس ذلك. وهي ترغب طبعاً في أن تكون أنت صهرها المقرّب.

- أبداً لا. سيان عندها؛ لأنها تعلم أن إخوتنا يرغبون مثلي في أن يساعدوها وأن يكونوا نافعين لها، كما هي حالنا بالنسبة إلى جميع إخوتنا وأخواتنا، وسأظل أبذل كل ما في وسعي لها، أكنت صهراً لها أم لا. وبكلمة واحدة، إن اتفق أن تزوجتُ بابنتها فسوف أنظر إلى إتمام الزواج بالفرح نفسه الذي أجده عند زواجها بآخر.

- لا، لا، ما تقوله غير ممكن. وفي ذلك يكمن أرهبُ ما لقيته عندكم أنتم المسيحيين. أنتم مخطئون تماماً. وبهذه الطريقة تخدعون الآخرين أيضاً. عن ذلك الرجل الذي حدّثتُك عنه قبل هنيهة محقٌّ في كل ما قاله عنكم. فأثناء سماعي لوصفك المُغري أستسلمُ دون علمٍ مني لسحر الحياة التي تُصوّرُها، لكني حين أفكر، أرى أنها ليست

Twitter: @ketab_n

سوى خدعة، خدعةٍ تقود إلى الوحشية والشراسة. وأخيراً إلى حياة شبيهةٍ بحياة الحيوانات.

- فيمَ ترى هذه الحياة الوحشية؟

- في أنكم بينما تشتغلون لتكسبوا ما تعيشون به، ليس لديكم فرصة أو فراغ تعكفون فيهما على الفنون والعلوم. ها أنت ذا هنا، مثلاً، في ثيابٍ رثةٍ، وأطراف متقرّحة، في حين أن رفيقتك التي بوسعها أن تكون ربة الجمال، تشبه الأمة بمقدار ما يمكن للمرأة الحرة أن تشبهها. ليس لديكم أناشيد لأبولون، ولا معابد، ولا شِعر، ولا ألعاب - وبكلمة واحدة، ليس لديكم شيء من تلك الهبات التي منحتها الآلهة الإنسان والتي تزين حياته وتجعلها جميلة.

أنتم تعملون وتعملون وتعملون كالعبيد أو حيوانات النقل، لكي تصلوا فقط إلى حفظ أنفسكم بأخشن غذاء، أليس ذلك عزوفاً عفوياً وملحداً للإرادة والطبيعة البشريتين؟

هتف بامفيل:

- ها هي ذي، مرةً أخرى، تلك الطبيعة البشرية التي لا مناص منها!... ما قِوام تلك الطبيعة، من فضلك؟ أهي في تعذيب العبيد عندما يُشغَّلون فوق طاقتهم، وعندما يُقتلون ويُذَلّون بالعبودية على أيدي إخوتهم بني البشر؛ وأين تكمن تلك الطبيعة حين تُحوَّل المرأة عمَّ كانت عليه، وعمَّ هي عليه إلى غرض للتسلية؟ والمتعة؟... هذا هو وحده ما يوافق الطبيعة البشرية!..

Twitter: @ketab_n

«أهذه هي الطبيعة البشرية؟ أم هي تقوم بالأحرى على العيش بصداقة مع جميع الناس وأن يشعروا أنهم أعضاء في الأخوة البشرية؟

وأنت تخطئ خطأً جسيماً إذا تصوّرت أننا نرفض الاعتراف بالعلوم والفنون. إذ أننا نقدّر تقديراً عالياً المواهب والصفات التي تتحلّى بها الإنسانية.

نحن ننظر إلى قدرات الإنسان الفطرية على أنها وسيلةٌ مُنِحها لنساعده على الوصول إلى هدفٍ وحيد، تُكرِّس حياتنا للوصول إليه، عنيتُ به: إتمام مشيئة الله. ونحن لا نرى في العلوم والفنون مَضيعةً للوقت مبتذلة، صالحة لتوفير اللذة العابرة للأشخاص الكسالى، لكنها نداءٌ داخلي جاد يستحق منا أن نوليه الانتباه نفسه الذي نوليه جميع أعمال الحياة، أي إننا حين نعكف عليها ينبغي أن يتجلى فيها حبُّ الله والناس، حبٌّ شبيهٌ بالذي حكم جميع أفعال المسيحي. ولا نعترف بعلم أنه حقيقي ما لم يُعيننا على أن نعيش حياة أفضل؛ ونحن لا نقدّر أيضاً سوى الفن الذي يظهّر أفكارنا ومشاريعنا، والذي يرفع النفس وينمي القوى الضرورية لحياةٍ من العمل والحب؛ ونحن لا نضيّع أية فرصة في أن نطور قدر الإمكان تلك المعرفة فينا وفي أولادنا؛ ونحن نحسّ ونتذوق سحر هذه الفنون في أوقات فراغنا.

«ونحن نقرأ وندرس الكتابات التي صدرت عن حكمة الذين عاشوا قبلنا. ونحن نغني ونرسم، وتبهجنا أغانينا ولوحاتنا وتعزّينا في أوقاتنا الحزينة. ومن أجل هذا لا يمكننا أن نرضى عن الطريقة التي تطبقون بها، أنتم الوثنيون، الفنون والعلوم. إن علماءكم يستخدمون

Twitter: @ketab_n

قدراتكم، لاكتشاف وسيلة جديدة لإيذاء الآخرين؛ إنهم منهكون دائماً بصنع آلات حربية فعالة وقتّالة على نحو أشد، أي أنهم مشغولون بجعل القتل أسهل؛ وقد بذلوا قُصاراهم دائماً لابتداع طريقة جديدة لكسب المال، أي الإثراء على حساب الآخرين. إن فنكم يُستعمل في بناء المعابد وزخرفتها تكريماً لله الذي كفَّ أقدر المتعلمين فيكم عن الإيمان به منذ زمن طويل. بيد أنكم تحاولون إبقاء الإيمان بهذه الآلهة قائماً لدى الآخرين، مؤمّلين بوسيلة هذا الوهم أن تسهلوا فرض أنفسكم عليهم. وأنتم ترفعون التماثيل لأكثر الجبابرة وحشية، ممن لا يحترمهم أحد ويخافهم الجميع. وفي مسرحياتكم يُشاد الحب المجرم ويُصفّق له. والموسيقا عندكم ليست سوى وسيلة لدغدغة حواس الأغنياء الشرهين بعد أن يُتخموا بصنوف الطعام الفاخر على موائدهم الغنيّة. والاستعمال الأكثر شيوعاً للرسم هو أن يُمثل، في بيوت سيئة السمعة، مشاهدُ لا يمكن للإنسان أن ينظر إليها دون أن يحمر خجلاً، إذا لم تكن حواسُّه قد شُلّت بالخمر أو بالعشق الحيواني.

«لا، لم يُؤتَ الإنسان هذه المزايا الرفيعة التي تميزه عن الحيوان من أجل ذلك. إنه لم يُوهَبْها لتُحوَّل إلى لُعَبٍ ترضي إحساساتنا الجسدية.

وحين نكرّس حياتنا كلها لمراعاة مشيئة الله، ينبغي علينا أن نستعمل جميع المواهب والملكات التي تلقيناها، بكل امتدادها.

أجاب جوليوس:

- نعم، سيكون ذلك سامياً لو كانت الحياة ممكنةً في مثل هذه الشروط. لكننا لا نستطيع أن نحيا هكذا: وأنت ممعنٌ في أوهامك.

Twitter: @ketab_n

أنتم تأبون الاعتراف بحمايتنا، لكن هل يمكنكم العيش بسلام لولا الجحافل الرومانية؟ أنتم تتمتعون بالحماية التي ترفضون الاعتراف بها. بل إن جماعة من أعضاء جاليتكم تتولى هي نفسها الدفاع عن نفسها كما قلت لي. وأنتم لا تعترفون بالملكية، وتتمتعون بها. إخوتكم ملاكون وهم يعطونكم من ملكيتكم؛ وأنتم لا ترضون أن تعطوا العنب الذي تحملونه مجاناً، فأنتم تبيعونه ثم تشترون مشترياتكم بدوركم. كلُّ ذلك وهـمٌ: لو عشتم بحسب أفكاركم لفهمتُ موقفكم؛ لكنكم، بهذه الطريقة التي تعيشونها، تخدعون أنفسكم وتخدعون الآخرين.

نشط جوليوس أثناء النقاش، وعبّر عن كل فكرة مرّت بخاطره. وسكت بامفيل منتظراً النهاية. فلما انتهى جوليوس استأنف كلامه:

- أنتم مخطئون إذ تقولون أننا نتمتع بالحماية التي تمنحوننا إياها دون أن نعترف بها. لسنا بحاجة إلى الجحافل الرومانية لأننا لا نعلّق أهمية على تلك الأشياء التي تتطلب حمايةً بالعنف؛ إن سعادتنا تقتصر على ما لا يتطلب حماية، والتي لا يستطيع أحد أن ينتزعها منا. وإذا مرّت بين أيدينا الأشياء المادية التي تعتبرونها ملكاً شخصياً فيجب أن تتذكر أننا لا نعتبرها وكأنها ملك لنا، ونحن لا نتصرف وكأنها لنا، ونسلّمها إلى الذين تكون تلك الأشياء ضرورية لدعمهم. صحيح أننا نبيع العنب، لكننا لا نبيعه للربح ذاته بل لنحصل فقط على ما هو ضروري لحياة المحتاجين. وإذا شاء أحد أن يأخذ هذا العنب تركناه له دون مقاومة. ولهذا السبب لسنا نخشى شيئاً من البربر. وإذا رغبوا في أن يحرمونا من نتاج عملنا تركناه لهم على الفور. وإذا أصرّوا

Twitter: @ketab_n

اشتغلنا لهم، وعملنا أيضاً بفرح. ولن يجد البربر أي داع لقتلنا، ولو فعلوا لكان ذلك ضد ما يسمونه مصلحتهم ولن يطول بهم المقام حتى يفهمونا، بل وحتى يحبّونا، وسيكون ما نعانيه منهم دون ما نحن مضطرون إلى تحمله من الشعوب المتمدنة التي نعيش بينها والتي تُضطهد على أيديها.

«طالما زعمتَ أنت وأصحابك أن الناس لا يحصلون على المأكل والملبس الضروريين للحياة إلا بفضل الاحترام الذي يكنونه للملكية فقط، لكن فكّر ملياً في ذلك وقرّر لنفسك.

ما الذي يُحدثُ هذه الضرورات؟ وبعمل مَنْ اكتُسبت هذه الثروات التي تفخرون بها؟ أبعمل الذين يستريحون وهم مكتوفو الأيدي، يأمرون عبيدهم وخدمهم أن يفعلوا هذا وذاك، وأن يذهبوا إلى هنا وهناك، والذين يملكون وحدهم الملكية؟ أَوَ لم تُكتسب، على الأصح، بعمل هؤلاء الشغيلة الذين ينفذون أوامر سادتهم، ليحصلوا على كسرة خبز، في حين أنهم أنفسهم محرومون من كل ملكية، أو أنهم لا يكادون يحصلون على ما يكفي لإطعامهم يوماً واحداً. علام تستندون عندما تتصورون أن هؤلاء الشغيلة المستعدين للعمل الآن استعداداً كبيراً بحيث لم يبق لهم إلا أن يطيعوا الأوامر التي لا يفهمونها غالباً، سيتخلّون عن كل جهد منذ اللحظة التي يغدو من الممكن أن يباشروا فيها عملاً معتدلاً وذكياً تعود نتيجته وربحه على مَنْ يحبّونهم.

إن الاتهامات التي تُوجّهها ضدنا هي، في الواقع، كمايلي: إننا لا

Twitter: @ketab_n

نبلغ تماماً الهدف الذي وضعناه نصب أعيننا؛ وأننا نخدع الآخرين عندما نقول إننا لا نعترف بالعنف ولا بالملكية، بينما نحن نستفيد من نتائجهما كليهما. والآن، إذا كنا خدّاعين فلا حاجة إلى الكلام عنا؛ ونحن لا نستحق حينئذ لا غضبك ولا اتهاماتك بل احتقارك فقط. وهذا الاحتقار نقبله بفرح، لأن إحدى قواعدنا هي ألا نُنكر عجزنا أبداً. لكننا إن كنا نحاول جدّياً وبصدقٍ بلوغ الهدف الذي ترمي إليه جهودنا، فحينئذ ستغدو اتهاماتك ظالمة. وإذا كنا نحاول، كما نفعل، إخوتي وأنا، أن نعيش بحسب قانون معلّمنا، دون استخدام العنف للحصول على ملكية لا تكون ثمرةَ هذا القانون، فإن رغبتنا لا يمكن أن تكون، بأية صورة، بحثاً عن المنافع المادية؛ ولا عن الثروة والسلطة والمجد لأننا لا نحصل عليها باتباع قانون معلّمنا، بل بشيء آخر. نحن متلهّفون مثلكم، أنتم الوثنيين، للبحث عن السعادة؛ والفرق الوحيد بيننا هو أن لنا نظرات تعارض نظراتكم عن كُنه السعادة. أنتم تجدونها في الثروة والمجد، ونحن نجدها في أشياء مختلفة كل الاختلاف. يقول لنا إيماننا إن السعادة ليست في العنف بل في الخضوع، وليست في الثروة بل في أن نعطي الآخرين كل شيء. وكما أن الأزهار ترتفع دائماً نحو النور، فكذلك نحن نتقدم دائماً نحو ما نعتقد أنه سعادتنا. ونحن لا نفعل كل ما نريد لبلوغ السعادة، أي إننا لم ننجح تماماً في نبذ جميع عاداتنا في العنف وفي حب الملكية. هذا صحيح، لكن لا يمكن أن تكون الأمور على غير ما هي عليه. خذ نفسك أنت مثلاً: إنك تبذل وسعك لتنال أجمل امرأة وأكبر ثروة، لكنك هل تنجح في ذلك؟ إذا لم يصب الرامي الدريئة، فهل يكف عن رميها لأنه أخطأها عدة مرات متتابعة؟ نحن في الوضع نفسه. إن سعادتنا تقوم، بحسب

Twitter: @ketab_n

تعاليم المسيح، على الحب. والحب ينبذ العنف. بيد أننا جميعاً جداً أقوياء في ملاحقة سعادتنا؛ لكننا لا ننجح نجاحاً تاماً؛ ثم إننا لا نباشر ذلك بالطريقة نفسها، ولا نبلغها جميعاً بالدرجة نفسها.

اعترض جوليوس:

- نعم، لكن لماذا تأبون الاستماع إلى صوت الحكمة البشرية، لماذا تنصرفون عنها لتصغوا فقط إلى صوت معلمكم المصلوب؟ إن استئثاركم وخضوعكم المطلق له هو بالذات ما يبدو لنا الأكثر تنفيراً.

- وها أنت ذا تخطئ مرة أخرى، كما يخطئ جميع الذين يتصورون أننا عندما نُراعي التعاليم التي نؤمن بها، إنما نفعل ذلك فقط لأن الإنسان الذي نثق به قد أمرنا بفعله. على العكس، إن الذين يسعون بكل قلوبهم إلى معرفة الحقيقة، إلى الاتحاد بالله، إلى الإحساس بالسعادة الحقيقية موجودون تلقائياً ودون جهد في الطريق التي اختطها المسيح؛ وحين يسيرون غريزياً على خطاه، لا يبثون طويلاً حتى يقتنعوا بأنه هو الذي يقودهم. جميع الذين يحبّون الله سيتجهون إلى هذا الطريق وسيلتقون أخيراً فيه، وأنت منهم. المسيح هو ابن الله، الوسيط بين الله والبشر. ونحن لا نؤمن إيماناً أعمى بذلك لأنه قد قيل لنا، ولكننا نؤمن به إيماناً صادقاً لأن جميع الذين يبحثون عن الله يجدون ابنه أمامهم، وبمساعدة الابن وحده يرون الله ويعرفونه ويفهمونه.

لم يجب جوليوس، وظل زمناً طويلاً دون كلام. ثم سأله:

Twitter: @ketab_n

- أأنت سعيدٌ؟

- لست أطلب أن أكون أفضل مما أنا فيه ولا أن يكون لي أكثر مما عندي؛ لكن ليس هذا كل شيء. إني أحس دائماً بإحساس من الشك، وتراودني هذه الفكرة وهي أنه ربما كان هناك ظلم. لم أنا سعيد؟

هتف بامفيل بالجملة الأخيرة وهو يبتسم فتنهد جوليوس وقال:

- نعم، ولعلي كنت سأكون سعيداً، وأسعد مما أنا عليه الآن، لو لم أصادف ذلك الغريب، ولو تابعتُ طريقي إليك.

- إذا كنت تفكر في ذلك، فما الذي يصدّك؟...

- وامرأتي؟

- قلتَ إن لها نزوعاً إلى المسيحية. فإذا كان الأمر كذلك جاءت معك.

- صحيح. لكنني ما أزال في مستهل حياتي الجديدة؛ أمن الحكمة أن أتخلى عنها بهذه السرعة؟ لقد بدأناها، وخيرٌ لنا أن نتابعها إلى نهايتها.

قال جوليوس ذلك وهو يفكر في خيبة أبيه وأمه وأصدقائه، لو أصبح مسيحياً، وأيضاً في الجهد المؤلم الذي سيتجشّمه ليحقق ذلك الانقلاب.

في هذه اللحظة ظهرت عند باب الحانوت، الفتاة، صديقة بامفيل، وبصحبتها شاب. ذهب بامفيل لملاقاتهما، فقال له الشاب بحضور

Twitter: @ketab_n

جوليوس: إن «سيريل» أرسله لشراء جلدٍ. لقد بيع العنب واشتُري قمح بالثمن. اقترح بامفيل على الشاب أن يعود إلى القرية مع «مادلين» وأن يحملا القمح معهما، وأن يقوم هو بشراء الجلد. وأصر:

- هذا أفضل قرارٍ نتخذه.

رد الشاب وهو ينصرف:

- لا، من الأفضل أن ترافقك «مادلين».

اصطحب جوليوس صديقه إلى مخازن تاجر قمح من معارفه، وهناك ملأ بامفيل أكياس القمح وسلم «مادلين» سفطاً صغيراً، ورفع حمله الثقيل إلى كتفيه، وودّع جوليوس، وابتعد مع الفتاة.

في طرف الشارع، التفت بامفيل إلى الوراء، وحيّا صديقه تحية ودّية وهو يسير بفرح مع مادلين. وفكّر جوليوس: «نعم، كان الأفضل لي أن أعتنق العقيدة المسيحية». وارتسمت في خياله لوحتان، يتنازعان السيادة. فتارةً يرى بامفيل الشديد القوي مع تلك الفتاة الجميلة الحسنة القوام وسلّتاهما على رأسيهما، وهما مشرقان من السعادة والفرح، وتارة أخرى يرى المنزل الذي تركه هذا الصباح وحيث سيلقى مساءً امرأته الجميلة حقاً وإن كانت مفاتنها أخذ تأثيرها يضمحل. وها هي ذي مرتدية ملابسها الثمينة، ومزدانة بالجواهر، مسترخية على وسائدها وطنافسها.

لكن لم يُتَح له إلا القليل من الوقت للتفكير. فقد قطعته عن التفكير أعماله أولاً، ثم قطعه أصدقاء قضى أمسيته معهم وهو يأكل ويشرب، وعاد إلى بيته ليلاً.

Twitter: @ketab_n

مضت عشر سنوات. وأثناء هذا الوقت كله، لم يلتق جوليوس صديقه قط. وأخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً تفكيره في لقائهما القديم. وفي نقاشهما، وفي الانطباع الذي تركه هذا النقاش فيه سواء بالنسبة إلى بامفيل شخصياً أم بالنسبة إلى المسيحيين على العموم. تناقصت تباعاً قوةُ ذلك الانطباع وبدت كأنها اختفت. كانت حياة جوليوس عادية جداً. فقد مات أبوه، واضطلع بجميع أعباء البيت: بتجارة شديدة التعقيد مع زبُنُه وبائعيه في إفريقيا، بمستخدميه في المدينة، بالإيرادات التي سيقبضها، والمدفوعات التي سيدفعها. لقد أفرغ جهده، بالرغم منه، في أعماله، لكن كان عليه أن يتحمل متاعب امرأته. ثم ترفّع إلى مركز مدني، وهذا الشاغل الجديد منحه الكثير من السرور إذ أرضى حبَّ الذات فيه. وبدءاً من هذه اللحظة أخذ يُعنى بالشؤون العامة إلى جانب انشغاله بشؤونه الخاصة. وعرف الناس فيه رجلاً قديراً، موهوباً، طلق اللسان، عذب الحديث؛ بدأ يبرز بين مواطنيه وبدا مهياً لبلوغ أعلى المراتب المدنية في مدينته التي وُلد فيها.

جلبت هذه السنوات العشر تغيرات كبيرة في حياته العائلية، تغيّرات كانت كريهة عليه إلى أعلى حد. فقد غدا أباً لثلاثة أولاد، وإحدى نتائج ولادتهم هو أن علاقاته مع امرأته غدت أكثر حدّةً. أولاً، فقدت امرأته الكثير من نضارتها وجمالها؛ ثم إنها غدت أقل اهتماماً به عن ذي قبل؛ واحتفظت بحنانها وبمداعباتها لأولادها. ومع أن الأولاد عُهد بهم إلى المربية كما هي الحال لدى الوثنيين، فقد كان جوليوس يجدهم دائماً في شقة أمهم، أو أنه يجد الأم، لدى

Twitter: @ketab_n

المربية، بعد أن يبحث عنها دون جدوى. كان جوليوس ينظر إلى الأولاد وكأنهم عبءٌ مضجرٌ وكأنهم مصدرٌ للاضطرابات وللتكدّر أكثر مما هم للحبور. لقد هجر حياته المشتطة بعد أن استغرقته أعماله العامة والخاصة، لكنه كان يشعر بالحاجة إلى الراحة الفكرية في نهاية أعماله اليومية، وهذه الحاجة لم يملأها اجتماعه بامرأته. لقد عجزت شيئاً فشيئاً عن إشباع هذه الحاجة لأنها بعد أحاديثها مع أمةٍ مسيحيةٍ، أخذت تنجذب نحو المذهب الجديد إلى حد أنها أهملت زينتها وتجميلها الخارجي، بريقَ الوثنية الذي كان جوليوس يقيم له وزناً كبيراً. ولما لم يعد يجد في اجتماعه بامرأته ذلك الإشباع الذي كان يبحث عنه عاشر امرأة سيئة الأخلاق كان يقضي بجنبها كل لحظات الفراغ التي تتبقى له في آخر النهار. ولو سُئل في هذه اللحظة: هل هو سعيدٌ، لوجد صعوبةً في الرد؛ كانت مشاغله عديدة تستغرقه، بأعماله ومسرّاته، بحيث كان مجهداً باستمرار؛ لكن لم يكن بين مشاغله ما كان جديراً بإرضاء رغباته إرضاءً تاماً، و لم يجد بينها ما يستطيع أن يقول عنها: إنها تُلهيه عن قلقه. وقبل أن يشرع في قضية لها شأنها كان همّه الأول كيف يُتمّها بأسرع وقت ممكن؛ وما من لذةٍ من لذاته لم تُسمَّم بشيء ما و لم يُفسدها ذلك الازدراء الذي يأتي من الشبع.

وهكذا مرت حياته إلى اليوم الذي أوشك فيه حادث غير متوقع أن يغير مجرى حياته كله. كان يشارك في الألعاب الأولمبية ويقود عربته بمهارة نحو الغاية عندما صدم عربةً أخرى كانت تتقدمه قليلاً. انكسرت إحدى عجلات عربته وهوى على الأرض بشدة حتى أن ضلعين من ضلوعه وذراعه اليمنى كُسرت من جرّاء السقوط. كانت

Twitter: @ketab_n

الجروح بليغة لكنها لم تكن مميتة. فنُقل إلى بيته حيث رأى نفسه مجبراً على لزوم السرير ثلاثة أشهر.

أثناء هذه الأشهر الثلاثة من الأوجاع الجسيمة الفظيعة غدا فكرهُ نشيطاً جداً. واستعمل أوقات فراغه الإجبارية للتأمل في حياته التي نظر إليها من وجهة نظر محايدة تماماً، وكأن موضوع التأمل حياة رجل آخر.

لم يكن راضياً البتّة عن حياته الماضية، وجاءت ثلاثة أحداث مزعجة لتترك فيه انطباعاً أشد إيلاماً من ألمه الواقعي. وكان الحدث الأول خيانة عبدٍ عجوز اختفى، بعد أن خدم أباه بصدق سنين طوالاً، اختفى ومعه كميةً من الحجارة الكريمة التي وصلته من إفريقيا لحساب سيده. وقد أشاعت هذه الخيانة الفوضى في أعماله وسببت له خسارة فادحة. وكان الحدث الثاني خيانة عشيقته التي هجرته واختارت حامياً آخر لها. والحدث الثالث الذي أثّر فيه أكثر من غيره هو انتخاب خصمه لمركز ممتاز كان قد ترشّح هو نفسه له. وقد جرت الانتخابات أثناء مرضه، وأضاع مركزه. جميع هذه الأحداث المعاكسة كانت نتيجة مرضه - وكان مقتنعاً بذلك - الذي سببه، على الإجمال، انحراف عربته بما لا يزيد عن سنتمتر واحد إلى اليسار. كانت أفكاره تتركّز، وهو ممدد على سريره، على هذه الأحداث الطارئة تلقائياً، وهي التي كانت سعادته ترتكز عليها؛ ثم إنه كان يتذكر مصائبه الأخرى، وجهوده ليصبح مسيحياً، وبامفيل الذي لم يره منذ عشر سنوات. هذه الذكريات البعيدة زادت من شدّتها أحاديثه مع امرأته التي كانت تقضي الآن، وهو موجوعٌ ملازمٌ سريره، معظم وقتها معه،

Twitter: @ketab_n

وتنقل إليه كل ما تعلّمته من الأمة بصدد المسيحية. وهذه الأمة بقيت بعض الوقت في جالية بامفيل وكانت تعرفه شخصياً. وعندما علم جوليوس بذلك أبدى رغبته في أن يرى المرأة، وعندما دنت منه سألها عن عدة أشياء تتعلق بحياة المسيحيين وبحياة بامفيل.

قالت له:

«إن بامفيل أحد أنشط أعضاء هذه الجماعة الأخوية، والجميع يحبّونه ويحترمونه. وقد تزوج «مادلين» التي رآها جوليوس معه منذ عشر سنوات، وهو الآن أبٌ لعدة أولاد.

وختمت الأمة كلامها قائلة:

- نعم، إن الذين يشكّون أن الله خلق الناس ليكونوا سعداء عليهم أن يزوروا الجالية ويروا بامفيل ومادلين.

صرف جوليوس الأمةَ وظل وحده يفكّر في دلالة ما سمعه قبل حين. أحسّ بشيء من الضجر عندما وازن بين حياة بامفيل وحياته، وحاول أن يطرد مثل هذه الأفكار. ولكي يسلّي نفسه أخذ يقرأ وثيقة تركتها امرأته له. قرأ فيها:

هناك طريقان: إحداهما تقود إلى الحياة والأخرى إلى الموت. أما طريق الحياة فها هي ذي: أولاً يجب أن تحب الله الذي خلقك، ثم أن تحب قريبك كنفسك، وألا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه بك. إن التعليمات التي تحتويها هاتان الوصيتان يمكن أن يُعبَّر عنها كمايلي: مباركون مَن يكرهونك؛ صلِّ لأعدائك؛ أحسن لمن يضطهدونك،

Twitter: @ketab_n

لأنك إن لم تحب سوى الذين يحبذونك فأي أجر لك؟ ألا يفعل الأشرار كذلك؟ أحبَّ مَن يكرهونك ولن يبقى لك أعداء. اهرب من شهوات الجسد والعالم. من ضربك على خدّك الأيمن فقدم له خدك الآخر، وسوف تكون كاملاً. ومن سخرك لميلٍ فامضِ معه ميلين؛ ومَن أراد أن يُرافعك إلى القضاء ويأخذ ثوبك فخلِّ له الرداء أيضاً، ولا تحاول استرجاعهما لأنك لن تستطيع ذلك؛ مَن سألكَ فأعطه، ولا تُطالب بما أعطيت؛ لأن الأب يريد أن يمنح الجميع هذه الحسنات. مبارك من يفعل الحسنة بحسب الوصايا.

أما الموعظة الثانية في المذهب فها هي ذي: لا تقتلْ، لا تَزنِ، لا تسرق، لا تستخدم السحر، لا تسمّمْ، لا تشته ما يملكه قريبك؛ لا تحلف؛ لا تشهد شهادة زور؛ لا تَغْتب الآخرين؛ لا تتذكر الشر؛ لا تكن موزَّع القلب؛ لا تكن ذا لسانين...

لا تتألم لأن كلامك خطأ أو باطل، بل لأنه غير منسجم مع أفعالك؛ لا تكن بخيلاً؛ لا تكن جشعاً ولا مرائياً ولا ماكراً ولا متكبراً. لا تبيّت المكائد لقريبك؛ لا تُغذِّ كرهك لأشباهك من البشر. اصفح عن بعضهم، وصلِّ للآخرين، وأحِبَّ قريبك أكثر مما تحب نفسك.

يا بني، اهربْ من الشر أياً كان نوعه، ومن كل ما يشبه الشر. لا تغضب لأن الغضب يقود إلى القتل؛ لا تكن حسوداً ولا محباً للخصام ولا نزقاً، لأن القتل ينجم عن هذه الأشياء. لا تكن شهوانياً، يا بني، لأن الشهوانية تقود إلى الزنى. لا تستخدم في حديثك كلمات بذيئة، لأن ذلك يقود إلى الزنى. يا بني، لا تستخدم السحر، وتحاشَ كل من

Twitter: @ketab_n

يفعل مثل هذه الأشياء، لأنها شبيهة بعبادة الأوثان. يا بنيَّ، لا تكذبْ، لأن الكذب طريق السرقة؛ لا تطمع بالمال والأمجاد لأن السرقة تنجم عن ذلك. لا تكن محباً للخصام، يا بني، لأن ذلك مصدرٌ للتجديف؛ ولا تكن وقحاً ولا لئيماً، لأن التجديف هو ثمرة ذلك. كن متواضعاً لأن الطّيبي القلب سيرثون الأرض.

كن صبوراً وقريباً إلى النفس ومتسامحاً ومعتدلاً وطيّباً؛ لا تكن متهوّساً، لا تعاشر المختالين وأقم علاقات مع العادلين والمتواضعين. مهما يقع لك فاقبل به على أنه خير، واعلم أنه لا يحدث لك شيء إلا بمشيئة الله.

يا بني، لا تحرّض على التفرقة بين الناس، لكن أصلح بين من هم في خلاف. لا تبسط يدك عندما تأخذ ولا تقبضها عندما تعطي؛ لا تتوانَ عن العطاء، وإذا أعطيت فلا تَمْنِنْ، لأنك ستعرف المعوّض الجزيل الجزاء. لا تُشحْ بوجهك عن البؤساء، لكن الزمْ أخاك في كل ظرف. لا تدع شيئاً ملكاً لك، لأنه إذا سمح لك الرب أن تُقاسمه ما لا يفنى، فما أحراك أن تكون مستعداً لمقاسمة ما يفنى.

علّم أولادك، منذ مطلع شبابهم، أن يحبوا الله. لا تأمر عبيدك وخدمك بغضب، لكي لا يكفّوا عن مخافة الله مولانا الوحيد؛ لأنه لن يدعو الناس بحسب مظاهرهم، لكنه سيدعو الذين استعدّوا بالروح.

أما طريق الموت فها هي ذي: أولاً إنها سيئةٌ ومليئة باللعنات. في هذه الطريق نجد القتل والزنى والشهوة الحسية والفسق والسرقة وعبادة الأوثان والسحر والتسميم والجشع وشهادة الزور والرياء والخيبة

Twitter: @ketab_n

والحيلة والتكبر والمكر والتجديف والحسد والوقاحة والغطرسة؛ ونجد هنا أيضاً مضطهدي العادلين، وأعداء الحقيقة، والكذّابين، والذين ينكرون أن يكون هناك أجرٌ للعادلين، والذين ينأون عما هو مستقيم وصادق الحكم، والذين لا استعداد لديهم للخير بل استعدادهم للمقاصد الشريرة فقط، الذين لم يعرفوا قط التواضع والصبر. ونجد هنا أيضاً الذين يتهجون بالباطل، ولا يبحثون إلا عن الأجر. والذين لا يحسون بأية شفقة على الفقراء، والذين لا يعملون على مساعدة من كثرت أعمالهم والذين لا يعرفون أبداً خالقهم، وقاتلي الأطفال، والذين يحطمون صورة الله إلى مزقٍ، الذين يلوون وجوههم عن البائسين ويدوسون المظلومين بأقدامهم، والمدافعين عن الأغنياء، والقضاة الذين يقضون بغير العدل على الفقراء، والخطأة في كل شيء.

وقبل أن يُتمّ قراءته بزمنٍ أحسّ أنه في وضع الذين يقرؤون كتاباً - أي أفكار الآخرين - وبهم رغبةٌ حقيقية في إدراك الحقيقة؛ فتّتحد نفوسهم بمن امتلك هذه الأفكار. ظل جوليوس يقرأ، متنبئاً بما سيأتي؛ و لم يقبل هذه الأفكار فحسب، لكنه أعطاها تقريباً تعبيرها في نفسه.

حدثَ له في هذه اللحظة شيء جدُّ عادي، جدّ مبتذل، حتى ليغيب، على العموم، عن الانتباه، مع أنه من أشد ظاهرات الحياة خفاء وأهمية. وينحصر ذلك في أن الإنسان الذي يُزعَم أنه حيٌّ، يصبح حياً في الواقع عندما يشارك هؤلاء الذين يُزعَم أنهم موتى ويتحد بهم ويُدخلهم في حياته. لقد أصبحت نفس جوليوس جزءاً من نفوس كتّاب هذه الأفكار، وبعد هذه المشاركة الحميمة فحص نفسه وألقى نظرةً على حياته. بدت حياته كلها في عينيه خطأً فاحشاً. لم يعش من

Twitter: @ketab_n

قبل، بل إنه دَمّر، بهمومه وقلقه المتصلة بحياته وخضوعه للإغواء، إمكان الحياة الحقيقية ذاته.

قال في نفسه:

- لا أريد أن أدوس حياتي بقدميّ وأن أدمرها. أريد أن أحيا، أريد أن أسلك الطريق التي تقود إلى الحياة.

كلُّ ما قاله له «بامفيل» عاد الآن إلى ذاكرته بالوضوح والقوة اللذين كانا له منذ عشر سنوات. بدا له كلُّ شيء بديهياً جداً وواضحاً جداً بحيث دُهش من كونه استطاع أن يتخلى عن نيته في أن يصبح مسيحياً، بناء على كلام ذلك الغريب. وعادت إلى ذهنه أيضاً إحدى نصائح ذلك الغريب المجهول: «عندما تتذوّق الحياة تستطيع، إذا شئت، أن تذهب إلى المسيحيين».

قال في نفسه:

- لقد تذوّقت الحياة، فوجدتُها دون أية جاذبية، ودون أي جوهر.

وتذكّر أيضاً وعدَ بامفيل وهو أنه سيُستَقبل استقبالاً ودياً في أية لحظة جاء.

هتف:

- كفى! لقد انحرفتُ وتألمتُ زمناً طويلاً. سأتخلّى عن كل شيء وسأصبح مسيحياً لأعيش بحسب القواعد المكتوبة في هذه الوثيقة.

Twitter: @ketab_n

أطْلَع امرأته على نيته، ففُتنت بما علمت.

استعدت للحاق به في خلوته. وغدت المسألة أن تعلم كيف السبيل إلى ذلك. ماذا تفعل بالأولاد؟ هل يأخذانهم أم يعمّدانهم؟ أو يتركانهم مع جدّتهم الوثنية؟ أمن الخير أو من الإنسانية، أن ينصّرانهم وأن يعرّضاهم بذلك إلى الحرمان العزيز على أعضاء الجماعة، بعد سنين من الحياة المترفة؟ اقترحت الأمةُ أن تصحبهما وأن تربي الأولاد كمسيحيين. لكن الأم لم تستطع أن ترضخ لذلك، فقد تقرّر أن يُعهد بهم إلى الجدة. إن موافقة جوليوس على هذا الاقتراح نحّى آخر صعوبة وبدأت الاستعدادات للسفر مباشرة على أيدي جوليوس وامرأته.

– ٧ –

وأخيراً انتهت جميع الاستعدادات. كانت العقبة الوحيدة حالة جوليوس الصحية؛ إذ لم تشف جراحه بعد. وأجبره ذلك على أنْ يُؤجل إلى بضعة أيام، وربما إلى بضعة أسابيع، ذلك العمل الحاسم الذي من شأنه أن يَفصم الروابط التي تربطه بدين آبائه وبتقاليدهم وبطريقة تفكيرهم، والذي سيُدخله في الحياة الجديدة التي اختارها. وذات ليلة، نام مليئاً بالثقة بعزمه الجديد. وعند يقظته، في الصباح، أُعلم أن طبيباً ماهراً، ماراً في المدينة، أبدى رغبته في رؤيته، واقتناعه بأنه يستطيع أن يردّ له عافيته وقواه. فُتن جوليوس وقال إنه ماضٍ على الفور إلى ذلك الطبيب، وبعد بضع دقائق كان يتبادل التحيّات مع الغريب الذي لقيه منذ بضع سنوات والذي دفعه إلى التخلي عن نيته في أن يصبح مسيحياً.

Twitter: @ketab_n

بعد أن فحص الطبيب جراحه، وصف له بعض الأدوية التي من شأنها أن تقوّي المريض وتعجّل شفاءه.

سأل جوليوس:

- هل يجوز لي أن آمل باستخدام يدي؟

- آه! نعم. ستكون قادراً على قيادة عربة قيادةً حسنة كما كنتَ من قبل.

- سألتُكَ عن العمل الخشن مثل حرث الأرض بالمرّ، مثلاً.

أجاب الطبيب:

- الصحيح أن هذا النوع من العمل لم يخطر لي على بال، لأن رجلاً في مثل مركزك الاجتماعي لا يحتاج إلى اللجوء إلى ذلك.

- على العكس، هذا هو بالذات نوعُ العمل الذي سيتطلب جهودي. وحينئذٍ روى جوليوس للطبيب أنه عمل بنصائحه وتذوق الحياة، ووجد أن جميع وعودها قد خابت، وأنه مزمعٌ الآن، وهو مخيّبٌ وغيرُ راضٍ، أن ينفّذ عملياً النيّة التي نواها منذ بضع سنوات وهي أن ينضم إلى الجالية المسيحية.

- لابد أنهم قصّوا عليك أكاذيب فاحشة أقنعتْكَ بدخول جاليتهم، بحيث أنك أنت الرجل ذو المركز الاجتماعي الرفيع، والواجبات المحترمة والمسؤوليات الثقيلة - ولاسيما نحو أولادك - غدوت عاجزاً عن كشف ستارهم ورؤية أخطائهم.

Twitter: @ketab_n

قال جوليوس وهو يعني ما يقول:

- هلا تفضّلتَ وقرأت هذا.

قال ذلك وسلّمه الوثيقة اليونانية التي قرأها قبل بضعة أيام، والتي كانت قراءتُها ذات نتائج مذهلة.

تناول الطبيب الوثيقة وألقى عليها نظرةً خاطفة وقال:

- أعرف هذه الخدعة. الشيء الوحيد الذي يُدهشني أن رجلاً بذكائك يمكن أن يقع بمثل هذه السهولة في مثل هذا الشرك.

- لم أفهمك، عن أي شركٍ تتحدّث؟

- إن قيمة القضية كلها وجوهرها يرتكزان على مفهوم الحياة البشرية؛ وها نحن أولاء أمام سفسطائيين ومتمرّدين على البشر والآلهة يعلنون لكم أن هناك طريقاً يقود إلى السعادة، ويصوّرون لكم ضرباً من الحياة المنظمة بحيث يكون جميع الناس سعداء، وأنه لن تكون حروبٌ ولا إعدامات ولا فقرٌ ولا فسقٌ ولا شجارٌ ولا مكر. وهم يؤكدون لكم أن جميع هذه الشروط ستّحقّق حالما يعمل الإنسان بوصايا المسيح فلا يشاجر ولا يحلف ولا يمارس العنف ولا يدفع أمةً إلى عداء أمة أخرى. الحقيقة أنهم يُخطئون فيحسبون الغاية وسائل. إن هدفهم الحقيقي الحيلولة دون الشجار والشتيمة والحياة الشاذة؛ والطريقة الوحيدة للوصول إلى ذلك هو استخدام الوسائل التي تقدّمها الحياة الاجتماعية. إن طريقتهم في عرض الأحداث هي طبيعية ومنطقية مثلها مثل طريقة معلم الرمي الذي يقول لتلميذه: «إنك ستُصيب مركز الدريئة إذا تركت

Twitter: @ketab_n

السهم يمضي على خطٍ مستقيم من قوسك إلى النقطة التي ترميها». والصعوبة أن تجعل السهم يجري على الخط المستقيم. تلك هي المشكلة، وتكرارُها غير حلّها. في الرمي بالقوس، تُحَلُّ الصعوبة عندما تحقّق عدة شروط، كأن يكون وترُ القوس مشدوداً شداً حسناً، والقوس مرنةً، والسهم مستقيماً. فكذلك أمرُ الحياة. إن أفضل حياة، الحياة التي تُزيل أو تقلّل فرص الشجار والخلاعة والقتل، إن هذه الحياة يُسهّلها كون وترُ قوسك مشدوداً شدّاً حسناً، أي كون الحكام حكماء؛ وكون قوسك مرنة، أي السلطة القائمة على السيطرة؛ وكون سهمك مستقيماً أي القوانين العادلة والمحايدة. إن المسيحيين، بحجة تنظيم أفضل حياة ممكنة، يهدمون كل ما رَفَعَنا في الماضي وكل ما يُشرّف البشرية. فهم لا يعترفون بالحكام ولا بالسلطة ولا بالقوانين. وهم يؤكدون أن الوجود البشري سيكون أفضل من جميع الوجوه، دون حكام ودون سلطة ودون قوانين، وإذا لم يُطع البشر سوى قانون المسيح.

لكن أين الضمان في البشر سيطيعون هذا القانون؟ لا ضمان. إنهم يقولون: «لقد جربتم الحياة مع السلطات والقوانين فلم تنجح حياتُكم. فجرّبوها الآن دون السلطات والقوانين، وسرعان ما ترون أنها ستكون مُرضيةً. وليس لكم الحق في إنكار هذه الفرضية لأنكم لم تُخضعوها لحكم التجربة». في هذه المحاكمة السفسطةُ واضحةٌ. فعندما يتكلم المسيحيون على هذا النحو، لا تتعدى حكمتهم حكمة الزارع الذي يقول: «ضع البذار في باطن الأرض وغطه، وبالرغم من ذلك ليس زرعك كما ترغب فيه. فأنصحك أن تبذر بذارك في البحر، وستكون النتيجة أجود. لا تحاول تفنيد هذه الأطروحة بمجرّد النفي؛ ليس لك الحق في ذلك، لأنك لم تُخضِعها لحكم التجربة».

Twitter: @ketab_n

أجاب جوليوس:

– نعم، في ما قلته كثير من الصحة.

لقد بدأ يَضعف في قراره. وتابع الطبيب.

– وليس هذا كل شيء. ولنفرض أن شيئاً مخالفاً للعقل وغير ممكن، قد حصل، وأن جميع العقائد الأساسية ومزاولات العبادة في المسيحية قد بُلِّغَتْها البشرية بطريقةٍ تكتنفها الأسرار، وأن جميع الناس أخذوا يعملون بوصايا المسيح، فيحبونه ويحبّون قريبهم بحمية متساوية؛ إني أؤكد، حتى حين يكون ذلك قد وقع، أن طريق الحياة الذي يُبَشَّر به في كتبهم لن يصمد أمام النقد. لن تكون هناك حياة، وستكون الحياة قد كفّت عن الوجود. كان معلمهم متشرّداً عزباً؛ وسيكون تابعوه، بحسب توقعاتنا، كما كان معلّمهم، وسيكون العالم كله كذلك أيضاً، لو تحققت الفرضيةُ التي طرحتُها. والذين يحيون حالياً سوف يستمرون في حياتهم؛ لكن أولادهم لن يحيوا، أو بالتأكيد لن يحيا أكثر من واحد على عشرة ممن بلغوا الرجولة في الشروط الطبيعية. وبحسب المذهب المسيحي، سيكون الأولاد متساوين، ولن يؤثر الأهل أولادهم على أولاد الأشخاص الآخرين. والآن، قل لي، كيف سيُربى هؤلاء الأولاد وكيف سيُحمون من الأخطار التي تُحدق بهم، عندما نرى أن الحب المولّه للأولاد الذي جادت به الطبيعة على الأم لا يكاد يكفي للحفاظ عليهم في وجه الدمار والموت؟ وإذا كان الأولاد يسقطون كالذباب، الآن والظروف كُلها مناسبةٌ لهم، فما بالك عندما لا يكون الشعور الوحيد الذي يسند الأم سوى شفقة

Twitter: @ketab_n

موزّعةٍ بالتساوي على جميع الأطفال؟ لأي الأولاد تمنح المرأة عنايتها وتربيتها؟ من يسهر ويعاني السهاد، ليلةً بعد ليلة، بجنب الولد المريض المنتن، سوى الأم التي وهبته الحياة؟ لقد حَبَت الطبيعة الطفل حمايةً هي أمُّه؛ إن المسيحيين يُزيحون الأم ولا يضعون أحداً مكانها. مَن الذي سيعلّم الطفل، ويدربه، وينفذ إلى أعماق نفسه، ومن هنا يكوّن طبعه، سوى أبيه؟ مَنْ الذي سيحميه من الأخطار والأوجاع؟ كل ذلك نَزَعتْه المسيحية، بل نزعت الحياة نفسها - عنيتُ أن تكاثر الجنس البشري توقف.

قاطعه جوليوس وقد استخفته المحاكمة الواضحة والبليغة والمدعومة بالحجج من جانب الطبيب.

- لا، يا صاحبي؛ أعرضْ عن هذه الأفكار الطائشة، وعشْ كما يأمرك العقل أن تعيش، ولاسيما في هذا الوقت الذي تُثقل كاهلك فيه واجباتٌ بالغة الأهمية والنبل والاستعجال. أمامك مسألةُ شرف عليك أن تضطلع بها. لقد عشت حتى مرحلة شكِّكَ الثاني، والآن إذا شئت أن تتابع مسيرتك إلى الأمام، سوف يختفي الشكُّ كله. إن التزامك الأول والأكثر إلحاحاً هو الشروع في تربية أولادك الذين أهملتهم حتى الآن. واجبك نحوهم هو أن تجعل منهم أعضاء جديرين بالدولة. الدولة منحتك كلَّ ما تملك، ومن واجبك الآن، في مقابل ذلك، أن تقدّم للدولة مواطنين فضلاء في أشخاص أبنائك. وثمة التزامٌ آخر يفرض نفسه وأنت مدينٌ به تجاه المجتمع. إن عدم نجاح بعض مشاريعك أثار حفيظتك ونزقك؛ وليس ذلك، على الإجمال، سوى طارئ عارض. فلا شيء مما يستحق أن يُمتلك يُنال بلا جهد وبلا كفاح، والنصر وحده،

Twitter: @ketab_n

النصر الذي نفوز به بعد معاناة هو الذي يمنح الفرح بالظفر. دعْ امرأتك تهتم بهذر الكتّاب المسيحيين الفارغ. إن واجبك أن تكون رجلاً وأن تجعل من أولادك رجالاً. اشرعْ في ذلك مقتنعاً بأن ذلك واجبك. وستتلاشى جميع شكوكك، لأنها ليست سوى أعراض حالتك المَرَضيّة ونتائجها. قم بالتزاماتك نحو الدولة بأن تخدمها بأمانة، وأن تهيئ أولادك لخدمتها؛ نَشِّئهم على أن يكونوا مستقلين، مخلصين، أخياراً، جديرين بأن يقوموا مقامك، وإذا فعلت هذا، فجرّب، إذا شئت، الحياة التي تجذبك أشد الجذب؛ لكن ليس لك الحق أن تترك عملك الحالي إلى بعد إتمامك لواجبك. وإذا ما تركته فلن تجد سوى الخيبة والألم.

- ٨ -

لم يلبث جوليوس أن أبلَّ من مرضه، و لم يبق من أفكاره المسيحية إلا ما يُشبه ذكرى هذيان الجنون، وليس يُدرى، أكان ذلك من جراء الطب أم من حديث الطبيب ونصائحه.

لم تطل إقامة الطبيب في المدينة، وبعد سفره بأيام، استأنف جوليوس أعماله وبدأ يضع بجدٍ الحياة الجديدة التي رُسمتْ له موضع التطبيق. عيَّن أستاذاً لأولاده، لكنه تولى بنفسها الإدارة العامة لتربيتهم. ووقف نفسه أيضاً على خدمة الشؤون العامة. كان نجاحه ملحوظاً وسريعاً، وسرعان ما حظي بتأثير واسع في المدينة.

مرّت سنة على هذا المنوال لم يفكر أثناءها قط بالمسيحيين، في

Twitter: @ketab_n

نهاية هذا الوقت، أُرسل إلى قرية المسيحيين ليحكم في دعوى أقيمت عليهم.

وصل إلى كيليكية ممثّل الإمبراطور الروماني ليقمع المسيحية. كان جوليوس قد سمع بالتدابير المتخذة ضد المسيحيين، لكنه لم يعلم أنها تطول الجالية التي يسكن بينها بامفيل، ولذلك لم يفكر في صديقه، في هذه القضية. وذات يوم كان يجتاز فيه الساحة المواجهة للمحكمة عندما دنا منه على عجلٍ رجلٌ متقدّم في السن، سيء اللباس، كان هذا الغريب هو «بامفيل» الذي أقبل على جوليوس وهو يقول:

– ها أنت ذا. لي طلب هامّ جداً وملحٌّ جداً سأطلبه منك، لكني لا أدري إن كنت ستعترف بي صديقاً لك أثناء هذا الاضطهاد الوحشي للمسيحيين، أم أنك تخشى أن تفقد مركزك حين تكون لك علاقةٌ بي.

أجاب جوليوس:

– لست أخشى أحداً، ولكي لا يراودك الشكُّ بهذا الصدد، أدعوك لزيارتي. بل إني أؤجل عملي لأتمكن من الحديث معك وأؤدّي لك الخدمة التي بوسعي أن أؤديها. تعال. لَمنْ هذا الولد؟

– هو ابني.

– آه! نعم، ما كنتُ، في الحقيقة بحاجة إلى أن أسألك عنه. إني أتعرّف على تقاطيعك في وجهه، وأتعرّف أيضاً على هاتين العينين الزرقاوين. لا أعتقد أن من الضروري أن أسألك عن امرأتك. ولا يمكن

Twitter: @ketab_n

أن تكون سوى تلك الفتاة الجميلة التي رأيتك معها في «طرسوس»، منذ سنوات عديدة. فالعينان عيناها.

أجاب بامفيل:

– حزرت. فبعد لقائنا بقليل تزوجنا.

دخل الصديقان منزل جوليوس. فدعا امرأته وعهد إليها بالطفل، ثم أدخل بامفيل شقته الفاخرة التي كانت بعيدة عن الغرف الأخرى في البيت. وعندما وصل، قال:

– هنا، نستطيع أن نتحدّث ما شئنا، ولا يسمعنا أحدٌ. أنت بعيدٌ الآن عن الآذان المتطفلة.

– أوه! لا تظن أني خائف من أن يسمعني الناس. على العكس. ثم إن الطلب الذي سأطلبه منك ليس أن يُعفى عن المسيحيين الذين أُوقفوا وحُكموا بالموت؛ ما أبتغيه منك هو بكل بساطة أن يُؤذن لهم بأن يجهروا بإيمانهم على الملأ.

حينئذ روى «بامفيل» كيف أن المسيحيين الذين حرمتهم السلطاتُ الحرية، أوصلوا نبأ إيقافهم إلى أعضاء الجالية، وكيف أن «سيريل» المتقدّم» بين المسيحيين، والعارف بالعلاقات الودية القائمة بين بامفيل وجوليوس كلّفه المجيء وتقديم طلب المسيحيين المحبوسين.

لم يطلب السجناء العفو. لقد اعتقدوا أن رسالتهم في الحياة هي الشهادة بإيمانهم بحقيقة تعاليم المسيح. وهذه الشهادة يمكن أن

Twitter: @ketab_n

يقدّموها بحياة طويلة من ثمانين عاماً، أو حين يُذعنون لآلام موت وحشي. سيَّان عندهم إن بلغوا الغرض الرئيسي من وجودهم بهذه الطريقة أو تلك، لم يكن الموت الجسدي الذي لابد منه ليخيفهم، كان مقبولاً لديهم الآن كما سيكون مقبولاً بعد خمسين عاماً. لكنهم كانوا قبل كل شيء قلقين من أن يستفيد الآخرون من تضحيتهم، ولكي يأمنوا ذلك كلّفوا بامفيل أن يتدخل لكي تكون المحاكمة ويكون تنفيذُ الإعدام بحضور الجمهور.

دهش جوليوس من هذا الطلب الغريب. لكنه وعد بامفيل ما يمكن ليُقبَل هذا الطلب. وقال:

- وعدتُكَ بتوسطي مدفوعاً بشعور الصداقة نحوك وبسبب الاستعداد الخاص للطف الذي تثيره فيّ. وفي الوقت نفسه، ينبغي أن أقول لك إنني أنظر إلى أطروحتك على أنها غريبة وخطيرة إلى أعلى حدّ. ولي الحقّ، فيما أظن، أن أُصدر حكماً بهذا الصدد. لأني لي خبرةً. فمنذ زمن غير بعيد، وفي لحظة من اليأس سببها الغيظ والمرض، شاطرتكم أفكاركم إلى درجة أوشكتُ معها أن أتخلّى عن كل شيء وأنضم إلى طائفتكم. وأنا أعلم الآن من أين تأتي أخطاؤكم، وأرى حجر الزاوية في منظومتكم بأسرها، لقد جرّبتُ: حب الذات والضعف والوهن التي سببها جميعاً المرض. نعم، إن المسيحية عبادة تصلح للنساء لا للرجال.

- لماذا؟

- لأنكم، من جهة تعترفون بأن الصراع وشتى أشكال العنف

Twitter: @ketab_n

التي يثيرها، فطريةً في الطبيعة البشرية، إلا أنكم ترفضون، من جهة أخرى، أن تبتعدوا عنها وعن ثمراتها وأن تتركوها لمن يختلفون في الرأي عنكم. وبهذه الطريقة، ولكونكم لا تُسهمون من جهتكم في جملة الجهود البشرية، أنتم غير منطقيين بحيث يمكنكم الاستغناء عن المزايا التي يمنحكمِ إياها التنظيم الراهن - التنظيم الذي تعلمون أنه قائم على العنف. أعدلٌ هذا! إن العالم يستمرّ في وجوده بفضل الحكام وبواسطتهم. إنهم يأخذون على عاتقهم مهمة الحكم ومسؤوليته؛ وهم يحموننا من أعدائنا الخارجيين والداخليين، فإذا كنا محكومين، أثنينا الثناء الحسن على حكامنا واحترمناهم، وأطعنا أوامرهم، وساعدناهم على خدمة الدولة، إن كان لابد من ذلك؛ أما أنتم، أيها المسيحيون، فبدلاً من أن تبذلوا وسعكم من أجل المصلحة العامة، كما يفعل الآخرون، وأن تتعلموا هكذا تدريجياً أن تنظروا إلى حكامكم على أنهم رؤساؤكم، تبدون كأنكم لا تكادون تقبلون أن تكونوا أنداداً لقيصر. وأنتم لا ترضون عن ذلك فتحتجّون على الجزية والضريبة والرق والمحاكم والإعدام والحرب، وبكلمة واحدة: أنتم تحتجّون على جميع المؤسسات التي تربط الناس بعضهم ببعض وتحافظ على وحدتهم. ولو أن الشعب ارتضى مذهبكم لانهار المجتمع بسرعة شديدة، ولعاد أعضاؤه إلى حالة المتوحشين الأول. ومع أنكم تعيشون في الدولة، إلا أنكم تدعون إلى تهديم الدولة، أنتم الذين وجودُهم منوطٌ بالدولة. ولو أن الدولة غير موجودة لما سمعنا عنكم ولا عن إخوتكم، ولكنا عبيداً للسكيتيّين، أو لأولى القبائل المتوحشة التي تكتشفنا.

أنتم كالدمّل الذي يخرّب الجسم مع أنه لا يعيش إلاّ على الجسم،

Twitter: @ketab_n

الجسم الحي يصارع الدمّل ويدمّره؛ ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً آخر غير أن نتصرف بالطريقة نفسها إزاءكم. وهكذا، وبالرغم من وعدي بمساعدتكم على أن تنالوا ما ترغبون فيه إلا أني أنظر إلى مبادئكم على أنها أسوأ المبادئ وأحقرها، لأنني أزعم أنه ليس من الشرف ولا العدالة أن تأكل الثدي الذي أرضعك، وهذا ما تفعلونه أنتم، أنتم الذين تريدون أن تستفيدوا من حسنات الدولة ولا تفعلون شيئاً لدعم التنظيم الذي توجد الدولة به. بل إنكم تحاولون تدميره.

استأنف بامفيل كلامه:

– لو أن حياتنا أشبهت وصفك لكان فيما قلتَ الكثير من الحق. لكن ليس لك تجربة الحياة التي نتابعها، والفكرة التي تكونها عنها خاطئة وخدّاعة.

«إن وسائل العيش التي نستعملها نحصل عليها بسهولة دون اللجوء إلى العنف. لقد كوّن المرءُ بحيث أنه مادام يتمتع بصحته الطبيعية فهو يستطيع أن يحصل بعمل يديه على أكثر مما يحتاج إليه ليعيش. ولما كنا نعيش معاً عيشة مشتركة فنحن نستطيع بعمل أيدينا أن نعيل أولادنا ومرضانا وذوي العاهات فينا.

«أنتم تزعمون أن حكامكم يحمون الناس من الأعداء الأجانب ومن الخدم. نحن نحب أعداءنا، ومن ثم فهم ليسوا أعداء بالنسبة إلينا.

وتزعمون أننا نحن المسيحيين نوقظ في قلب العبد الرغبة في

Twitter: @ketab_n

مساواة قيصر. الحق أننا نفعل العكس؛ ففي كلامنا وفي المثل الذي نضربه بحياتنا ننادي بالتواضع والعمل - حتى أدنى الأعمال، عمل المياوم العادي.

أما فيما يتعلق بشؤون الدولة فنحن لا نعلم ولا نفهم منها شيئاً لكننا نعلم تماماً علماً لا يتطرق إليك الشكُّ أن سعادتنا تكون حيث تكون سعادة الآخرين، ونحن نعثر عليها حيثما بحثنا عنها. إن سعادة البشر في وحدتهم. وهذه الوحدة لا ينبغي أن تُقْتَسر بالعنف، بل أن تُجلب بالحب. وليس عنف المسيء تجاه عابر سبيل بأبشع من العنف الذي يستخدمه الجند ضد سجين، أو الذي يستخدمه قاضٍ ضد متهم، ومن المستحيل أن نقبل بالموافقة على هذا العنف أو ذاك أو المشاركة فيه.

قاطعه جوليوس:

- نعم، أنتم تبدون وكأنكم شهداء مستعدون دائماً للتضحية بحيواتكم من أجل الحقيقة. والواقع أن الحقيقة ليست في جانبكم؛ أنتم غير منطقيين، إذ أنكم مشغولون بنسف أسس الحياة الاجتماعية، وتدعون إلى الحب في كلامكم، لكن لا حاجة إلى تحليل نتائج هذا الحب المزعوم للاقتناع بأنه يجب أن يُسمى باسم آخر؛ لأن هذه النتائج هي التوحش، والتقهقر إلى الحالة البدائية للطبيعة، والقتل والسرقة، وشتى صنوف العنف التي لا ينبغي، بحسب مذهبكم، أن تحارَب أو تُكبح، بأية طريقة.

أجاب بامفيل:

Twitter: @ketab_n

- لا، ليس الأمر كما ذكرتَ. ولو شئت أن تتأمل بعنايةٍ وحياد ما ينتج عن تعاليمنا وحياتنا فسوف ترى، دون حاجة إلى الإشارة، أن القتل والعنف والسرقة لا تنتج عن ذلك، بل على العكس، إن الجرائم التي من هذا النمط لا يمكن إلغاؤها إلا باستخدام الوسائل التي ننصح بها. إن القتل والسرقة وجميع الشرور الأخرى موجودة في العالم قبل ظهور المسيحية بزمن طويل. وكانت تُحارب عبثاً بأسلحة نُنكر فعاليتها. إن المبدأ الذي يقوم على محاربة العنف لا يحول دون الجريمة، لكنه يحرّض عليها حين يبتعث في الفرد مشاعر الغضب والمرارة.

«انظر إلى الامبراطورية الرومانية القوية؛ هل استُخدمت في أي بلدٍ الحماسةُ التي استُخدمت في روما لتطبيق القانون؟ إن دراسة التشريع وتطبيقه بالضبط على مختلف حاجات الشعب قد رُفعت إلى مستوى العلوم الخاصة. والقوانين تُعَلَّم في المعاهد، وتُناقش في مجلس الشيوخ، وتُدار على أيدي أمهر المواطنين. إن العدالة القانونية تُعتبر أحد أعمال الإنسانية الكبرى، كما أن مركز القاضي محترم. ومع ذلك فالجميع يعلمون أن ليس من مدينة غارقة بعمقٍ في الفسق والجريمة مثل روما. تذكَّر تاريخ روما وستدهش من أن الرومان تميزوا في الماضي بفضائلهم، بالرغم من أن قوانينهم إذ ذاك كانت أقل عدداً و لم تُحرَّر بعناية كما هي اليوم. ونلاحظ، في الوقت الحاضر، إلى جانب دراسة القوانين وتحريرها وتطبيقها، تناقصاً مستمراً في أخلاقية الشعب الروماني، فالجرائم تزداد، وصنوف الإساءات الجنائية تغدو أكثر تنوعاً واصطناعاً كل يوم.

«ولكي تُقاوم الجريمة مقاومة مظفرة، أو لكي يُقاوم الشر بكل

Twitter: @ketab_n

أنواعه، ليس سوى سبيل واحد: وهو ما تضعه المسيحية بين أيدينا، الحب. إن أسلحة الانتقام الوثنية، والعقاب، والعنف غير فعالة على نحو منافٍ للعقل. وأنا على يقين أنك ترغب، أنت نفسك، في رؤية الناس يتراجعون عن الجريمة، لا خوفاً من عقاب، لكن بسبب غياب رغبتهم في اقتراف الشر. وأنت لا تريد أن تُشبه الإنسانية تلك الكائنات المحبوسة في السجون، التي لا تمتنع عن الجريمة إلا لأنها سجينة يحرسها حُرّاس السجون. إن جميع قوانين الوقاية والعلاج التي تخيّلها البشر وجميع أنواع العقاب في العالم عاجزةٌ عن اقتلاع الميل إلى اقتراف الشر ووضع فعل الخير موضعه. هذه النتيجة لا يمكن الوصول إليها إلا إذا لمسنا أعماق الشر، وهذه الأعماق موجودةٌ في الفرد ذاته. وهذا العمل هو غرضنا، بينما تركزون جهودكم على جميع التجليات الخارجية للشر. ولا يمكنكم أن تأملوا بالوصول إلى المصدر، لأنكم لا تبحثون عنه، ولا تعلمون أين يختبئ.

«إن أكثر الجرائم انتشاراً كالقتل والسرقة والغش قد وجدت منبعاً لها في رغبة الناس زيادة ما يملكون من خيرات هذا العالم، أو بكل بساطة الحصول على ما هو ضروري للعيش، إن لم يستطيعوا أن يحصلوا عليه بطريقة أخرى. بعض هذه الجرائم يُعاقب عليها القانون، وإن كان أكثرها تعقيداً وسوءاً في نتائجه يتغطى تحت الجناح الحامي للقانون ذاته، من مثل الاحتيالات التجارية الهائلة وآلاف الطرق التي يتخيلها الأغنياء لانتزاع أموال الفقراء. والجرائم التي يعاقب عليها القانون توقفت عند نقطة معينة، أو أنها غدت أصعب، وكَبَحَ المجرمين خشيتُهم من العقاب الجزائي، وحينئذ يتصرفون بحذر أكبر وحيلة أشد، محاولين اكتشاف أشكال جديدة للجريمة لا يطالها

Twitter: @ketab_n

القانون. إن الإنسان، عندما يراعي تعاليم الدين المسيحي، يتحاشى جميع الجرائم الناجمة عن الصراع من أجل الغنى وتوزيعه الجائر. نحن نُبطل كل دافع إلى الجريمة والسرقة والقتل، عندما نأبى أن نأخذ لأنفسنا أكثر مما هو ضروري للحفاظ على الحياة، وعندما نقدم بكل حرية عملنا للآخرين. وبهذه الطريقة لسنا نُغوي الآخرين بروئية تراكم الثروات لأننا نادراً ما نملك أكثر مما هو ضروري للحياة بين يوم وآخر. إن الإنسان الذي دفعه اليأس إلى الجوع مستعدٌ لارتكاب الجريمة كي يحصل على ما يأكله؛ ليأت إلينا فسيجد ما يبحث عنه دون اللجوء إلى الجريمة والعنف، ذلك أن مبدأنا هو أن نشاطر الذين يتألمون من الجوع والبرد آخر كسرة وآخر خرقة. وينتج عن ذلك أن طبقةً من المجرمين تتحاشانا تماماً، بينما يقبل علينا الآخرون توخّياً للخلاص؛ إنهم يهجرون عاداتهم الإجرامية ويغدون عمالاً نافعين شيئاً فشيئاً، يعملون كغيرهم لخير البشرية العام.

وهناك طائفة أخرى من الجرائم وهي التي تحتوي على الإهانات التي أثارها الانقياد للأهواء، مثل الانتقام والحسد والحب المجرم، والغضب والكراهية. إن الأعمال المجرمة التي من هذا النوع لا يمنعها القانون أبداً. والفرد الذي يوشك أن يرتكبها هو في حالةٍ من عدم المسؤولية الحيواني. إنه عاجزٌ تماماً عن أن يتنبأ أفعاله أو أن يحكم على نتيجتها، بعد أن تحرّر كلياً من الكابح الأخلاقي، وأعماه ودفعه هواه. والعائق إنما يزيد من هيجان هواه. فالقوانين إذن، غير مفيدة إطلاقاً كأدوات لإلغاء مثل هذه الجرائم. أما طريقتنا في محاربتها فهي فعالة. فنحن لا نعتقد أن رجلاً يمكن أن يبلغ هدف حياته ويرضى عنه إذا سلّم نفسه لخدمة أهوائه، وأنه لا يمكن أن يبلغ هذا الهدف ويتمتع

Twitter: @ketab_n

بهذا الرضا إلا في ذاته، في نفسه. ونحن نحاول من ثم أن نروّض أهواءنا وننظّمها بحياةٍ من العمل والحب، فننمي بذلك إلى درجة عالية قوّةَ المبدأ الروحي الذي تحتويه فينا ومرونته. وكلما كثر عددنا ودخل الايمان بعمقٍ متعاظم قلوب البشر، تناقصت الجرائم التي تحدّثت عنها قبل هنيهة.

«وأخيراً، هناك طائفة أخرى من الجرائم، عنيتُ الجرائم التي سببُها الرغبة الصادقة في مساعدة المرء لمواطنيه. إن الرغبة في التقليل من آلام شعب كامل، مثلاً، يدفع الناس إلى قتل طاغيةٍ، - وهؤلاء يُدعَوْن متآمرين - ظانين أن فعل العنف هذا هو في مصلحة الأكثرية. إن مصدر مثل هذه الجرائم هو في الاقتناع الذي لا أساس له والذي يذهب إلى أننا نستطيع أن نفعل الشرَّ إذا كان الخير سيصدر عنه. إن جرائم من هذا النوع لا يمنعها أو يقلّل منها نشر القانون وتطبيق العقوبات التي ينص عليها، بل، على العكس، إن هذه القوانين تثيرها - حقاً. والذين يرتكبون جرائم من هذا النمط، وإن كانوا مخطئين خطأ عميقاً في آمالهم وعقائدهم، إلا أنهم مدفوعون إلى العمل بدوافع نبيلة - الرغبة في صنع الخير للآخرين. إن معظم هؤلاء الناس، إن كانوا صادقين، مستعدون أن يتخلوا عن كل ما يملكون لكي يبلغوا غايتهم، فلا تُثبط عزيمتهم صعوبة، ولا يخيفهم خطر.

وهكذا فإن خشية العقاب عاجزة عن صدّهم أو عن جعلهم يترددون. على العكس، إن الخطر يحفزهم إلى حياة جديدة ونشاط جديد، وترفعهم آلامهم إلى مصاف الشهداء، وتُكسبهم عطف كثير من الناس، وهم بذلك يُحرّضون الآخرين لكي يقتدوا بهم.

Twitter: @ketab_n

يؤكّد ذلك تاريخ أي شعب بل وجميع الشعوب. «نحن المسيحيين نعتقد أن الشر لن يزول تماماً ما لم يتوصل الناس إلى فهم خطورة المصائب التي يسببونها لأنفسهم ويرتكبونها بحق الآخرين. ونعلم أن الأخوّة لن تقوم على أساس ما لم يكن كلٌّ واحدٍ منا أخاً. ولا تقوم الأخوّة بلا إخْوَة. وإذن، فمع أننا، نحن المسيحيين، نُبصر بوضوح خطأ المتآمرين، فنحن لا نملك إلا أن نقدّر صدقهم وإنكارهم للذات، ونقترب منهم لنلتقيهم على أرضٍ مشتركة للخير الإيجابي الذي لا يجوز لنا أن ننكره عليهم. إنهم لا يرون فينا أعداء، وإنما يرون فينا شعباً صادقاً، راغباً في فعل الخير مثلهم، والكثير منهم ممن يأتون إلينا، بعد أن يحصلوا على قناعتهم بأن الحياة العاملة المعنية كل العناية بهناء الآخرين، هي، بلا جدال، أنفع للمجتمع وأصعب من صنيع إقدامهم الملطّخ بالدم المسفوح دون ضرورة. إن المتآمرين الذين ينضمّون إلينا، في هذه الحالة الذهنية هم دائماً من أنشط أعضاء المجتمع وأشدّهم جسداً وروحاً.

«أنت تملك الآن، يا جوليوس، الكثير من المعطيات التي تمكنك من أن تقرّر بذاتك من الذي يتصدى للجريمة بنجاح أكبر ومن الذي يسهم على نحوٍ أنجع في إلغائها: نحن المسيحيين، الذين ندعو إلى فرح الحياة الروحية ولذّاتها ونوضّحها، وهي حياة لا يمكن أن ينجم عنها شر، نحن الذين ندعو إلى القدوة والحب، أم حكامكم وقضائكم الذين يقضون بالعقوبات وفقاً لقانون ميت، وينتهي الأمر بتهييج الناس ودفعهم إلى آخر درجات الكراهية.

رد جوليوس:

Twitter: @ketab_n

- ينتابني، مادمتُ أستمع إليك، إحساسٌ بأن وجهة نظرك صحيحة. لكن هلاّ شرحتَ لي، يا بامفيل، كيف يجري أن تُلاحَقوا وتُضطهدوا وتُقتلوا؟ وكيف يتفق لمذهبكم في الحب أن يصبح، بكلمة، سبباً للكثير من الاضطرابات والصراعات؟

- إن مصدر هذه الحالة غير الطبيعية للأشياء ليس فينا، إنه في الخارج. تحدّثتُ قبل قليل عن طائفة من الجرائم التي أُدينتْ كجرائم، تدينها الدولة وندينها نحن. هذه الجرائم جرائم عنيفة تتعدّى القوانين القائمة في أية دولة وفوق هذه القوانين، تعترف بقوانين أبدّية، شاملة للإنسانية ومنقوشة في قلب كل كائن بشري. نحن المسيحيين، ننصاع لهذه القوانين الإلهية الشاملة، ونرى في كلمات معلّمنا وحياته التعبير الأعدل والأوضح والأوسع لهذه القوانين. ولذلك فقد صرنا نُدين كلَّ شكلٍ للعنف مخالفٍ لوصايا المسيح التي نتعرف فيها التعبير عن القانون الإلهي. ونحن نسلّم أننا، نُبعد قدر الإمكان كلَّ مظهر أو تجلٍّ لنيّة الأذى إزاءنا، ينبغي لنا أن نُراعي القوانين المدنية للبلد الذي نقطنه. لكننا نضع فوقه القانون الإلهي الذي يقود ضميرنا وعقلنا، ولا يجوز لنا أن ننصاع لغير قوانين الدولة التي لا تعارض القوانين الإلهية. ليكن لقيصر ما لقيصر؛ لكن دعوا الله ما لله. إن الجرائم التي نودّ تحاشيها أو إلغاءها ليست فقط إهانات لقوانين الدولة التي وُلدنا وعشنا فيها، لكن، قبل كل شيء، كل نوع من أنواع خَرْق مشيئة الله التي هي قانون البشرية بأسرها. ومن أجل ذلك، إن مكافحتنا للجريمة أوسع من مكافحتكم التي تقودها الدولة.

«إن اعترافنا بالقانون الإلهي باعتباره القانون الأسمى يصدم ويثير

Twitter: @ketab_n

حفيظة الذين يولون القانون الخاص وتدابير الدولة التشريعية مثلاً، الأهمية الأولى؛ أو الذين يرفعون تقاليد طبقتهم إلى مصاف القوانين، كما يقع غالباً. إن هؤلاء الأشخاص العاجزين عن أن يصبحوا رجالاً، بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، بالمعنى الذي قصده المسيح حين قال: إن الحقيقة ستجعل منا رجالاً حقيقيين، إن هؤلاء قد رضوا بأن يظلوا مواطنين لهذه الدولة أو تلك، أعضاء في هذه الجمعية أو تلك، ويغذّون بالطبع مشاعر العداوة نحو الذين يرون ويعلنون أن للإنسان مصيراً أسمى، ورسالة أنبل. ولما كانوا عاجزين أن يروا هذا المصير السامي مهيّئين لقبوله لأنفسهم، يأبون أن يعترفوا به لغيرهم. لقد تحدّث المسيح عنهم فقال: «ويلٌ لكم يا علماء الناموس لأنكم أخذتم مفاتيح المعرفة و لم تدخلوها ومنعتم دخولها مَن أراد أن يدخل».

نحن لا نتعهد مشاعر البغضاء لأي كان، حتى ولا للذين يلاحقوننا ويضطهدوننا؛ وطريقتنا في العيش لا تؤذي أحداً ولا تسبّب خسارةً لأحد. وإذا رأيت ضراوةً من الناس ضدنا، وتعهد مشاعر الكراهية تجاهنا، فالسببُ الوحيد هو أن حياتنا لومٌ مستمرٌّ لهم وإدانةٌ لسلوكهم القائم على العنف، للخلاص من ذلك العداء الذي ليس سبُبه فينا، ولا يأتي منا. لأننا لا نستطيع أن نكفّ عن الاعتقاد بالحقيقة التي اختُبر إيماننا بها، ولا يمكننا أن نؤمن بما هو ضد ضميرنا وعقلنا. كان معلمنا يقول فيما يختص بالعداوة التي يثيرها لدى الآخرين ذلك الإيمان: «لا تظنوا أني جئت لأُلقي على الأرض السلام، لا، ما جئتُ لألقي السلام بل السيف». لقد استشعر المسيح بآثار هذه الكراهية في ذاته، وحذّرنا غالباً من أننا سوف نستشعرها أيضاً: «لئن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم. فلو كنتم من العالم لكان

Twitter: @ketab_n

العالم يحبّ ما هو له؛ ولكن لأنكم لستم من العالم، ولأني باختباري لكم من العالم، لأجل ذلك يبغضكم العالم: بل تأتي الساعة التي يتوهّم فيها مَنْ كان يقتلكم أنه يؤدي لله عبادة». لكننا تقوّينا بمثال المسيح فلسنا نخاف من يقتلون الجسد لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من ذلك.

نحن نعيش في ظل الحقيقة، مستنيرين بأشعتها، وحياتّنا لا تعرف الموت. لا يستطيع أحدٌ أن يُفلت من الآلام الجسدية ومن الموت وسيأتي يوم يتألم فيه أيضاً الذينٍ يعذّبوننا ويموتون، وما أفظع التفكير كيف أن هذه المخلوقات ستُعذَّب أمام مرأى الموت الذي سيعرّيهم من كل ما كدّسوه أثناء حياتهم في العمل. بفضل الله نحن محصّنون ضد أشد هذه الآلام رهبة، لأن السعادة التي ننشدها ليست في الحصانة من الآلام الجسدية ومن الموت بل في الحفاظ على الرضا بجميع صعوبات الحياة وتنمية هذه الرضا؛ في الاقتناع المعزّي بأن كل ما يصيبنا مستقلاً عن إرادتنا فهو لابد منه، وهو من أجل راحتنا؛ ولاسيما في اليقين بأننا مخلصون لضميرنا وعقلنا، وهما المشعلان اللذان تمسك بهما الحقيقة كدليلين للإنسان. الوثنيون هم الذي يتألمون من ذلك العداء، من تلك الكراهية التي يغذّونها في قلوبهم كالأفعى، لا نحن. أما سبب الإدانة فها هوذا: «إن النور قد جاء إلى العالم والناس آثروا الظلمات لأن أعمالهم كانت شريرة». وليس في ذلك كله ما يُقلقنا. ستكمل الحقيقة مهمتها. وستسمع الخرافُ صوتَ الراعي وتتبعه لأنها تعرف صوته.

«لن يَهلك قطيعُ المسيح لكنه سيصبح أكبر وأقوى، جالباً متطوعين

Twitter: @ketab_n

جداً من جميع أنحاء العالم. «الريح تهبّ حيث تشاء؛ وأنت تسمع الصوت ولا تعلم من أين جاء ولا إلى أين يذهب. فكذلك يكون الأمر ممن يولدون من الروح».

قاطعه جوليوس:

- نعم، لكن هل بينكم الكثير من الصادقين؟ كثيراً ما تُتّهمون بأنكم تتظاهرون فقط بأنكم شهداء مستعدون للموت دفاعاً عن الحقيقة، لكن الحقيقة ليست في جانبكم. وأنتم مجانين متكبرون تهدّمون جميع أسس الحياة الاجتماعية.

لم يجب بامفيل بشيءٍ ونظر إلى جوليوس بحزن.

- ٩ -

بينما كان جوليوس يتكلم، اندفع ابنُ بامفيل إلى الغرفة وأخذ يقبّل أباه. وبالرغم من المداعبات التي أغدقتها عليه امرأةُ جوليوس، فقد تركها ولجأ إلى أبيه.

تنهّد بامفيل واستعدّ للسفر. استوقفه جوليوس ورجاه أن يبقى للغداء، وتابع نقاشه. قال:

- أنا مدهوش - وأنا أسلّم بذلك - أن تتزوّجوا وتُرزقوا أولاداً. إنه لسرٌّ، بالنسبة إليّ، أن تستطيعوا، أنتم المسيحيين، تربيةَ أولادكم في غياب الملكية. كيف تستطيع الأمهات المسيحيات أن يكنّ مطمئنات

Twitter: @ketab_n

وهن يفكرن في ذلك المستقبل الموقّت، ويعترفن بعجزهن عن أن يجعلن أبناءهن في مأمنٍ من الحاجة؟

سأله بامفيل:

- في أي شيء يستحق أولادُنــا الرثاء لأحوالهم أكـثر من أولادكم؟

- في الشيء التالي: ليس لهم عبيدٌ يحرسونهم، ولا ملكية تؤمّن مستقبلهم. إن امرأتي مهيّأة لمناصرة المسيحية. وقد عزمتْ في لحظةٍ من حياتها على العزوف عن حياتها الراهنة لتصبح مسيحية. كان ذلك منذ بضع سنين. وأنا أيضاً كنتُ مصمماً على مصاحبتها. لكن الذي أرعبها أكثر من أي شيء آخر هو وضع الأولاد المسيحيين الموقّت، والعوز الذي يتعرضون له. وينبغي أن أقول لك إنني لا أملك إلا أن أعطيها الحق في ذلك. كان ذلك أثناء مرضي عندما لزمتُ الفراش. عُفْتُ الحياة التي عشتها وعزمت على هجرانها والدخول في جماعتكم. لكن شكوك امرأتي من جهة، وحجج الطبيب من جهة أخرى، أقنعتني أن حياة المسيحي، على الأقل كما تفهمونها وتعيشونها، ليست ممكنةً وصالحة إلا لمن كان عزباً. أما الأشخاص مع أسرهم، والأمهات مع أولادهن فهم لم يُهيَّأوا لمثل هذه الحياة وينبغي ألا يجرّبوها، وأيضاً فإن محصّلة الحياة التي تحيونها وتُقرّونها هي انقطاع الحياة البشرية أي انطفاء الجنس البشري. يستحيل إنكار هذه الواقعة. وفي هذه الحالة أنا مدهوش قليلاً من أن أرى هذا الولد بجنبك.

Twitter: @ketab_n

أجاب بامفيل:

- وهو ليس وحيداً، لأنني تركتُ في البيت ولداً في مطلع شبابه وطفلةً في الثالثة من عمرها.

- حسناً! هل تقبل أن تشرح لي كيف يمكن أن تسوّغ ذلك؟ لا أستطيع أن أفسّر ذلك. وكما قلتُ لك قبل قليل، كنتُ منذ بضع سنين، على وشك التخلي عن حياتي الراهنة لأنذر نفسي للمسيحية. لكنني كنتُ أباً لعدة أولاد، وكنت أجد التضحية بهم أمراً وحشياً لا حق لي فيه، وإن كرهتُ القبول بذلك؛ وبعد أن سلّمت بأهمية هذا الحدث تابعتُ دربي من أجل مصلحتهم، لكي أربّيهم في نفس الشروط التي تلقّيت تربيتي فيها.

قال بامفيل:

- من الغريب أن تحاكم هذه المحاكمة؛ فمن الظروف الواحدة نستخلص نتائج متعارضة؛ نحن نقول: إذا عاش الأهلُ بحسب أفكار العالم، فهم معذورون لأنهم قد دُلّلوا. لكن الأولاد؟ شيءٌ فظيع! أن يعيشوا في العالم وأن نعرّضهم باستمرار لإغراءاته ومخاطره! «الويل للعالم بسبب زلاّته لأنه لابد من وقوعِ الزلات؛ لكن الويل لمن تقعُ الزلّةُ على يده». هذه هي كلمات معلّمنا. لهذا السبب استشهدتُ بها، وأيضاً لأنها التعبير عن الحقيقة، و لم أفعل ذلك لأعارضك. والحق أن ضرورة الحياة كما نحيا ناجمةٌ في معظمها عن هذا الظرف وهو أن بيننا أولاداً، كائنات غضةً قيل فيها: «إذا لم تُغيروا وإذا لم تصبحوا كالأطفال فلن تدخلوا ملكوت السماوات».

Twitter: @ketab_n

- لكن كيف يمكن لأسرة مسيحية أن تعيش دون وسائل ملموسة ومحدّدة للعيش؟

- ليس هناك، بحسب اعتقادنا، سوى وسيلة واحدة للعيش: العمل من أجل منفعة الآخرين، يحدونا إلى ذلك الحبُّ. أما وسائلكم للعيش فهي منوطةٌ، على العكس، بالعنف ويمكنها أن تختفي كالثروات؛ وإذن فلا يبقى شيءٌ سوى العمل وحب البشر. ونحن نؤكد أن من واجبنا الانكبابُ على هذا العمل وذاك الحب وتنميتهما، وهما قاعدتا كل شيء وأساسه، وعندما تفعل ذلك تعيش الأسرةُ وتزدهر.

وتابع بامفيل:

- لا، لو خامرتني الشكوك في صحة تعاليم المسيح، ولو راودتني التردّدات وأنا أطبّقها عملياً، فإن جميع تلك الشكوك والترددات ستختفي إذا ما تصوّرتُ القدر المحزن للأولاد الذين يعيشون في الوثنية، والذين تحيط بهم التجمعات والتأثيرات التي نشأتَ أنت نفسك فيها، وتربي الآن أولادك فيها. ومهما تكن الجهودُ التي يبذلها الناس ليجعلوا حياتهم سارّة ومُريحةً بواسطة القصور والعبيد والمنتجات المستوردة من الخارج، فإن الجمهور الأعظم من الشعب يظل أبداً كما كان وكما هو مُجبرٌ أن تكون أبداً. والمادة الوحيدة التي تُبقي على هذه الكائنات هي في حب الإنسانية وفي العمل الدؤوب. إن الإنسان يودّ لو تحرّر من ضرورة العمل؛ وهو يستخدم الآخرين ليقوموا بعمله، لا تطوّعاً بالحب، بالعنف. والشيء الغريب أننا كلما بدا أننا اغتنينا ازددنا حرماناً من السَنَد الحقيقي والطبيعي والدائم:

Twitter: @ketab_n

الحب. وكلما عظمت قدرةُ الحاكم قلَّ حبُّ الناس له. والملاحظة نفسها تصحُّ بالنسبة إلى ذلك السَنَد الآخر: العمل. فكلما تحاشى الإنسانُ العمل وتعوَّد الترف، غدا أقلّ قدرةً على العمل، ومن ثم فهو يحرم نفسه من ذلك العزاء الحقيقي والأبدي. وعندما يضع الأهل أولادهم في وسطٍ عاطل عن العمل فهم يزعمون أنهم إنما يؤمنون مستقبل أولادهم! ولكي أُقنعك بحقيقة ما أقوله لك، أرسل ابنك وابني للبحث عن شارع، أو نقل أمرٍ، أو القيام بعمولة هامة، وسوف ترى من الذي يؤدي مهمته خيراً من الآخر. أو اقترحْ أن يُعهد بهما إلى أستاذ وسوف ترى أيهما يُستقبل بترحاب أكبر. لا، لا تكرّر أبداً هذه الكلمات الرهيبة وهي أن الحياة المسيحية غير ممكنة إلا من ليس لهم أولاد. على العكس، يمكن القول أن الحياة الوثنية غير مُغتفرة إلا لمن هو عزب. لكن الويل لمن يُهين أحد هؤلاء الصغار.

سكت جوليوس، ثم قال بعد صمت طويل:

- نعم، ربما كنتَ على حق؛ لكن تربيتهم قد بدأت، وهم بين يدي أفضل المعلمين. فَلْيتعلموا كلَّ ما عرفناه، فلن يضرّهم ذلك. فمايزال لديهم الوقتُ، وأنا أيضاً. سيكونون أحراراً أن ينذروا أنفسهم لعقيدتكم عندما يصيرون في ريعان الشباب، يتمتعون تمتعاً تاماً بذكائهم، إن شاؤوا. أما أنا فيمكنني أن أفعل ذلك عندما أؤمن مستقبل أولادي وأُقيمهم على أرجلهم، إن صح القولُ؛ فإذا قمتُ بالتزاماتي نحوهم، حينئذٍ أصبح سيد نفسي.

أجاب بامفيل:

Twitter: @ketab_n

- عندما تعرف الحقيقة تصبح حرّاً. المسيح يُعطي الحرية بعد ذلك؛ أما تعاليم العالم فلن تعطيك الحرية أبداً! وداعاً!

انصرف بامفيل مع ابنه:

جرت محاكمةُ المسيحيين بحضور الجمهور. رأى جوليوس بامفيل ولاحظ أنه يساعد المسيحيين الآخرين على رفع جثث الشهداء.

لاحظ ذلك، لكنه لم يخبر صديقه، خوفاً من أن يجرح رؤساءه.

- ١٠ -

مرّت عشر سنوات أيضاً. ماتت امرأة جوليوس وأرهقته دائماً المتاعبُ والصعوبات المرتبطة بالحياة العامة. وكان السعي إلى السلطة شاغله الأكبر؛ وأخذت السلطة تُفلت منه. كان فاحش الغنى، وكان يزيد من ثروته يوماً بعد يوم.

أصبح أولاده رجالاً يعيشون حياة مترفةً شاذةً، ولاسيما ابنه الثاني. كان هذا الشاب يُتلف الأموال التي وفّرها أبوه، وكان المال يمضي بأسرع مما جُمّع. وطرأ الصراع بين جوليوس وأبنائه، صراعٌ يشبه تماماً الذي جرى له مع أبيه. وتميز بالخصائص نفسها: المرارة والحسد والبغضاء. في هذه الأثناء، عُيِّن نائب للملك حرم جوليوس من جميع ميزات الحظوة الامبراطورية. وتوقّع جوليوس، بعد أن تخلى عنه المعجبون القُدامى به، أن يُطرد. فقصد روما ليُقدّم الأعذار وليستعيد المركز الذي فقده. لكنه لم يُستقبل، وأُمر بالعودة إلى مدينته.

Twitter: @ketab_n

عند عودته إلى طرسوس اكتشف أن ابنه أسلم نفسه للمجون في بيته مع بعض الأصدقاء المنحلين. وقد أُشيع في كيليكية أن جوليوس مات، وإذا بابنه يُؤبّنه بهذه الطريقة الفرحة. لدى هذا المنظر، فقد جوليوس السيطرة على عاطفته، وضرب ابنه وتركه كالميت. وانزوى في الحجرة التي كانت تشغلها امرأتُه في حياتها. وهنا وجد وثيقة تحتوي الإنجيل، فقرأ هذه الكلمات: «تعالوا إلي يا جميع المُتعبين والمُثقلين وأنا أُريحكم». قال جوليوس في نفسه:

– نعم إنه يدعونني منذ زمن طويل، ولم أسمعه. كنت عاصياً وشريراً. والحمل الذي أحمله ثقيل، والنير الذي في عنقي صعب».

ظلّ جوليوس جالساً زمناً طويلاً مع المخطوط المبسوط على ركبتيه، وهو يتأمل ماضيه، ويتذكر ما قاله له بامفيل عدة مرات. وأخيراً نهض وبحث عن ابنه، فوجده واقفاً. واستخفه الفرحُ عندما رأى أن ضرباته لم تُؤذه.

هجر بيته، دون أن يكلم ابنه، فاجتاز الشارع، ودلف إلى الطريق الذي يؤدي إلى القرية المسيحية.

مشى النهار كله، وعند المساء، توقف في بيت فلاح، ونوى أن يقضي الليلة عنده. وهناك وجد رجلاً مستلقياً على مقعد. استيقظ النائم على وقع الخُطى ونظر إلى القادم الجديد. عرف جوليوس فيه الطبيب. فهتف:

– لا، لا تصدني عن عزمي. هذه هي المرة الثالثة التي أسافر فيها

Twitter: @ketab_n

إلى هذه القرية نفسها، وأعلم أنني سأعثر على السلام الروحي في هذه القرية، وفيها وحدها.

سأل الطبيب:

- أين؟

- عند المسيحيين.

- نعم، ربما وجدتَ السلام الروحي، لكنك لا تقوم بواجبك. أنت خال من القوة، يا صاحبي؛ وقد هدّتك المصائبُ. إن الفلاسفة الحقيقيين لا يتصرفون أبداً هكذا. إن النكبات والشدائد ليست سوى النار التي تمتحن الذهب. ولقد مررتَ بالامتحان، والآن بعد أن تغدو خدماتُك مطلوبةً، وربما ضروريةً لابد منها، تَعْمد إلى التواري. في هذه اللحظة يجب أن توضع موضع الاختبارات أنت وغيرك أيضاً. لقد اكتسبتَ الحكمةَ الحقة، ومن واجبك أن تستخدمها لخير الدولة. ماذا يحل بالدولة ومواطنيها إذا عمد الذين حصلوا على معرفة عميقة بالناس، بأهوائهم ودوافعهم وشروط حياتهم، إلى أن يدفنوا أنفسهم، وألاّ يبحثوا عن غير الراحة والهدوء لأنفسهم، بدلاً من أن يُعطوا الدولةَ نفعَ هذه المعرفة وتلك الخبرة؟ لقد اكتسبتَ حكمتك في المجتمع، وعليك أن تشاطر المجتمع فائدة هذه الحكمة.

- لستُ أملك أية شجاعة. أنا كومة من الأخطاء. وصحيحٌ أنها أخطاء قديمة، لكن القدم لا يحوّل الأخطاء إلى حكمة؛ إن العمر والفساد، مهما كانا كبيرين، لا يحوّلان أبداً الخمر إلى ماء.

Twitter: @ketab_n

بعد أن قال جوليوس ذلك، حمل معطفه وغادر الغرفة والبيت، واستأنف طريقه دون أن يستريح.

في مساء اليوم التالي، في اللحظة التي تُصبح فيها الشفقُ ليلاً، بلغ جوليوس القرية المسيحية. استُقبل استقبالاً ودّياً دون أن يعلم أحدٌ أنه الصديق الشخصي لبامفيل الذي كان محبوباً ومحترماً من الجميع.

على المائدة، شاهد بامفيل صديقه، فابتسم ابتسامة الأنس، ودنا منه وعانقه.

هتف جوليوس:

- هاأنذا؛ قل لي ماذا ينبغي أن أفعل، وسوف أطيعكَ.

أجاب بامفيل:

- لا تقلق لذلك. لنمضِ معاً.

قاد بامفيل جوليوس إلى المنزل المخصص للأجانب والمتشردين وأراه سريره، وقال:

- سترى كيف يمكن أن تكون نافعاً للآخرين. لا تحتاج إلا أن تنظر حولك عندما تصبح أكثر تعوداً لعاداتنا. لكن لكي تستخدم غداً وقتك استخداماً مفيداً سأقول لك ما ينبغي أن تفعله. إن إخوتنا يقطفون العنب من الكروم اذهب لمساعدتهم قدر ما تستطيع. ستجد بسهولة مكاناً لك بينهم.

Twitter: @ketab_n

ذهب جوليوس في الصباح إلى الكروم. كان الكرمُ الأول حديث الغراس، عناقيده الغنية في كل جانب. كان الشباب منهمكين بقطافه وحمله. وكان العمل موزَّعاً بينهم. وبالرغم من رغبة جوليوس أن يجد عملاً يعمله إلا أنه لم يعثر على مكان له.

فمضى أبعد من ذلك إلى كرم غراسُه أقدم والمحصول فيه أقلّ. لكنه لم يجد هنا أيضاً مكاناً له. كان الإخوة يشتغلون اثنين اثنين، ولم يحتاجوا إلى مساعدة. تابع بحثه مع ذلك، ولم يلبث أن وجد نفسه في كرم قديم. كان الكرم خالياً. كانت الدوالي ميتةً وملتوية وبدت لجوليوس عاريةً من الثمر.

هتف جوليوس وهو يلتفت حوله:

- هكذا حياتي. لو لبّيْت أولَ نداء لكانت حياتي مثل ثمر تلك الكرمة الأولى؛ ولو لبّيت النداء الثاني لكانت حياتي شبيهة بالكرم الثاني؛ أما الآن فقد غدت حياتي مثل هذه السوق القديمة العديمة الفائدة، التي لا تصلح إلا للإلقاء في النار.

ارتعب جوليوس مما فعل في الماضي، ومن العقاب الذي ينتظره لأنه بدّد حياته كلها.

غدا حزيناً جداً، وقال في نفسه: «إني لا أصلح لشيء، ولم يبق من عمل لي». وبكى دموعاً ساخنة على الخسارة المجرمة لتلك السنين التي لا سبيل إلى استرجاعها.

وفجأة سمع صوتَ شيخ:

Twitter: @ketab_n

- اشتغلْ، أيها الأخ العزيز، اشتغل.

التفت جوليوس فرأى شيخاً طاعناً في السن، شعرهُ أبيض كالثلج. لقد حَنَتْه السنون، و لم تكد ساقاه المترنحتان تتحملان ثقل جسمه.

ردد الشيخ:

- اشتغلْ، أيها الأخ العزيز، لأن العمل خير.

وعلّمه كيف يأتي بالعناقيد القليلة التي ماتزال الدوالي تحملها.

وقال له:

- انظر! فيمَ كانت هذه العناقيد دون غيرها مما نقطفه من الكروم الاخرى؟ كان معلمنا يقول: «سيروا مادام النور معكم». «هذه هي مشيئة الذي أرسلني، أن من تأمل الابن وآمن به فله الحياة الأبدية، وسأبعثه في اليوم الآخر. لأن الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلّصه. مَنْ آمن به فلن يُدان، ومَنْ لم يؤمن فقد دين لأنه لم يؤمن باسم الابن الوحيد. وهذا هو سبب الدينونة: إن النور قد جاء إلى العالم وآثر الناس الظلمات على النور، لأن أعمالهم كانت شريرة. لأن كل من يفعل الشر يبغض النور، ولا يأتي إلى النور، خوفاً من أن تُكشف أعماله، أما الذي يعمل بحسب الحقيقة فيأتي إلى النور لكي تظهر أعماله لأنها عُملت بحسب الله».

أأنت واهن العزم لأنك لم تفعل أكثر؟ لا تحزن، يا بني، لأننا جميعاً أبناء الله وخدمه؛ نحن جميعاً جنودٌ في جيشه. أتظن أن ليس له خُدّامٌ

Twitter: @ketab_n

غيرك؟ ولنفرض أنك تفانيتَ في خدمته وأنت في ريعان العمر، أتتصور أنك كنتَ ستتمم كلّ ما يطلبه الله؟ وأنك ستفعل للبشر كلّ ما هو ضروري لإقامة مملكة الله على الأرض؟ أنت تقول أنك كنتَ ستفعل ضعف ما فعلته اليوم، وثلاثة أضعاف وعشرة بل ومئة؟ فلو أنك فعلت مليار مرة ما فعلته الإنسانية كلها، فماذا سيساوي ذلك في عمل الله؟ لا شيء. إن عمل الله مثل الله، لا حدود له ولا نهاية. عمل الله فيك نفسك. اعكفْ على هذا العمل باجتهاد، لا تكن عاملاً بل ابناً، فلن تلبث أن تصبح شريكاً لله الذي هو غير متناهٍ، مشاركاً في عمله. ليس مع الله كبير ولا صغير، ليس هناك سوى المستقيم والمنحرف. اسلكْ الطريق القويمة وستكون مع الله، ولن يكون عملك كبيراً أو صغيراً بل سيكون عمل الله. تذكّر أن فرح السماء بسبب شرير تاب أكثر من فرحها بتسعة وتسعين باراً. إن عادات العالم وكل ما أهملت فعله دلّتك على خطيئتك. ولما رأيت خطيئتك تُبتَ، ولما تُبتَ عثرتَ على الطريق القويمة. وبما أنك الآن على الطريق القويمة، امضِ إلى الأمام مع الله، كُفَّ عن التفكير في الماضي، كبيره وصغيره. جميعُ الناس متساوون أمام الله. ليس هناك سوى إله واحد وحياة واحدة.

عاد جوليوس مطمئناً. وحصل على السلام الروحي الذي طالما تاق إليه. وأخذ يعيش ويعمل قدر استطاعته، من أجل راحة أشباهه. وهكذا عاش سعيداً عشرين عاماً، ولم تسمح له نفسه المفتونة إلى حدّ عظيم أن يتبيّن المجيء البطيء للموت الجسدي.

Twitter: @ketab_n

سوناته لكروتزر

«أما أنا فأقول لكم: إن كل من نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى في قلبه».

متى ٥ – ٢٨.

فقال له التلاميذ: إن كانت هذه حال الرجل مع امرأته فالأَوْلى له ألاَّ يتزوّج! فقال لهم: ليس الجميع يفهمون هذا الكلام، بل أولئك الذين أوتوا أن يفهموا وحدهم، فإن من الخِصْية مَنْ وُلدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ومنهم مَنْ خصاهم الناس، ومنهم مَنْ صانوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات. فمَنْ استطاع أن يفهم فليَفْهم!».

متى ١٩ (١٠ – ١٢)

Twitter: @ketab_n

- ١ -

كان ذلك في مستهل الربيع. كنا في طريقنا منذ يومين. وقد شهدت حافلةُ القطار حركة دائبة من المسافرين الذين لا يقطعون سوى مسافات قصيرة، غير أن ثلاثة ركاب مكثوا؛ وهؤلاء صعدوا مثلي، عند رأس الخط: سيدةٌ منهوكة الوجه، لا هي بالشابة ولا هي بالجميلة، ترتدي معطفاً تفصيلُه قريبٌ من معاطف الرجال، وتضع على رأسها قبعةً، وتدخن بلا انقطاع؛ وسيدٌ في نحو الأربعين، رجلٌ متوسط القامة، متقطع الحركات، لم تتقدم به السن بعد، وإن كان شعره الجعد قد شاب قبل أوانه. كان يجلس بمعزل عن الآخرين، وكانت عيناه اللماعتان تجريان من شيءٍ إلى آخر بحيوية. وكان يرتدي معطفاً حسن الصنعة، بالياً لفرط الاستعمال، ياقته من الفرو، وله قبعةٌ من الفرو نفسه. وكان يُشاهَدُ تحته، عندما تُفكك أزراره، قفطانٌ[1] وقميصٌ روسيٌ مطرّز. وقد تميّز هذا الرجل بميزة أخرى أيضاً: فمن وقتٍ لآخر كان يُصدر نقيقاً أشبه ما يكون بالفُواق أو بضحكة لم تكد تنطلق حتى توقفت.

تحاشى هذا الرجل بعناية طوال الرحلة، أي اتصال بجيرانه من المسافرين. وكان يردّ على محاولاتهم لعقد الحديث معه بلهجةٍ خشنة وموجزة، ويُعرض عنهم لينظر من خلال النافذة إلى المشهد الخارجي، ويدّخن ويقرأ أو يُخرج زاداً من كيسه العتيق ويشرع في شرب الشاي وتناول الطعام.

خُيِّل إليّ أن العزلة ثقيلة عليه، فحاولتُ غير مرة، أن أوجه إليه

١ - القفطان رداء مزخرف كالعباءة يُلبس فوق الثياب.

Twitter: @ketab_n

الكلام، لكنه كان، كلما التقت نظراتُنا، وكانت كثيراً ما تلتقي لأننا كنا نجلس متقابلين، أدار رأسه ليستغرق في القراءة أو لينظر من النافذة.

في مساء اليوم الثاني، وبينما وقف القطار في محطة هامة، أحضرَ هذا المسافر ماءً يغلي وأعدَّ الشاي. في هذه الأثناء، مضى السيدُ ذو الثياب الأنيقة، وهو محام كما علمتُ فيما بعد، إلى مشرب المحطة لتناول الشاي مع جارته السيدة ذات السيجارة والمعطف الذي تفصيله كمعاطف الرجال.

خلال غيابهما، دخل الحافلة رجالٌ جددٌ، بينهم شيخ طويل ذو وجه حليق مغضّن، يتلفع بفروية، ويغطي رأسه بقبعة من الجوخ عريضة الحافة. كان مظهره مظهر التاجر. جلس قبالة المقعد الذي تشغله السيدة والمحامي، وأخذ على الفور يحادث وكيلاً تجارياً صعد القطار في الوقت نفسه.

كنتُ أجلس مواربةً، ولما كان القطار واقفاً، كنت أستطيع أن ألتقط أطرافاً من أحاديثهما، عندما لا يمرّ أحدٌ. أعلن التاجرُ أولاً أنه ذاهب إلى أملاكه التي تبعد محطةً واحدة؛ ثم دار الحديث، كعادته، على الأسعار والتجارة، وعلى الطريقة الخاصة التي تُعالَج بها الأعمال في موسكو؛ وأفضى بهم الحديث إلى معرض «نيجيني – نوفغورود».[٢] وصف الوكيل التجاري المُجون الذي مجنه تاجرٌ عظيم الثراء ويبدو أن المتحدثَين يعرفانه، لكن الشيخ لم يدعه يتمم حديثه، وقصّ مجونه هو

٢– معرض نيجني –نوفغورود: أكبر معرض في روسيا؛ وكان يُقام كل سنة قرب هذه المدينة (وهي اليوم مدينة غوركي» على الفولغا.

Twitter: @ketab_n

فيما مضى من الزمن، في «كونافينو». كان يبدو فخوراً جداً بذلك، وروى بفرحٍ غامر، عملاً باهراً قام به بالاتفاق مع ذلك التاجر الثري، في حالة السكر. وكانت تلك المأثرة من المآثر التي لا تروى إلا بصوتٍ منخفض. انطلق الوكيل بقهقهةٍ مدويّة، وانفجر الشيخ ضاحكاً بدوره، وهو يكشف عن سنّين صفراوين.

وإذ كنت لا أرجو أن أسمع شيئاً شائقاً، نهضتُ لأحرك ساقي على الرصيف قبل مضيّ القطار. وعند نزولي التقيتُ المحامي والسيدة اللذين كانا يتحدّثان بحماسة.

قال لي المحامي اللطيف:

- تأخرتَ كثيراً، فلن يلبث الجرسُ أن يُقرع بين لحظة وأخرى.

وبالفعل، فإني لم أكد أبلغ نهاية القطار حتى دوّى قرعُ الجرس. وعندما عدتُ إلى مكاني، كان المحامي والسيدة مايزالان يتابعان حديثهما النشيط. وكان التاجر العجوز الجالس قبالتهما ينظر، وهو صامت، أمامه نظرة صارمة، ويهمهم من وقت إلى آخر، وقد بدا عليه الاستنكار.

عندما مررتُ قدّام المحامي، سمعتُه يقول للسيدة وهو يبتسم:

- ثم أعلمتْ زوجها بصراحة أنها لن تستطيع ولن تريد أن تعيش معه بعد الآن، لأن...

ضاعت بقيةُ الكلام. فقد صعد خلفي مسافرون آخرون. مرّ

Twitter: @ketab_n

مراقبُ التذاكر؛ وهُرع حمّالٌ بسرعة البرق؛ والخلاصة أن الجلبةَ التي حدثت حالت بيني وبين سماع تتمّة الحديث. فلما عاد الهدوء، وسمعتُ مرةً أخرى صوت المحامي، كان الحديث قد انتقل من الحالة الخاصة إلى اعتبارات ذات طابع أعمّ.

كان المحامي يقول، على وجه الخصوص، إن مشكلة الطلاق شَغَفَت الرأي العام في أوروبا، وأن حالات الطلاق، حتى عندنا، أخذت تكثر شيئاً فشيئاً. وعندما لاحظ أخيراً أنه هو وحده الذي يتكلم ويطيل، قطعَ كلامه، وتوجه إلى الشيخ وسأله وهو يبتسم برقة:

- لم تكن الأشياء تجري على هذا النحو، في الماضي، أليس كذلك؟

كان التاجر على وشك أن يجيب، لكن القطار تحرّك في هذه اللحظة؛ حَسَر الشيخ عن رأسه، ورسم إشارة الصليب، وغمغم بدعاءٍ. لوى المحامي عينيه، وانتظر بلطف حتى إذا انتهى من دعائه الذي ختمه برسم إشارة الصليب ثلاث مرات، أغرق قبعته في رأسه، واستراح في جلسته، وأخذ يتكلم:

- كانت هذه الأشياء تقع في الماضي، يا سيدي، لكنها كانت أقـلّ... أما في أيامنا هذه فلا يمكن أن تجري الأمور على غير هذا المنوال، لأن الناس ازداد تعلمهم أكثر من اللازم!

زاد القطار من سرعته، وأخذت العجلات تدوّي على وصلات الخط الحديدي، فمنعتني الضوضاء من سماع الحديث الذي بدا لي شائقاً. غيّرتُ مكاني ودنوتُ من الشيخ. وبدا جاري، السيد العصبي

Twitter: @ketab_n

ذو العينين البرّاقتين، مأسوراً أيضاً بالحديث، فأصاخ السمع، دون أن يتحرّك.

سألت السيدة وهي تبتسم ابتسامةً خفيفة:

– وبمَ تلوم التعليم، يا ترى؟ أتظنّ الزواج على النمط القديم عندما لا يرى أحد الزوجين الآخر قبل عرسهما، أفضل؟

وتابعت كلامها وفقاً لعادة عزيزة على النساء اللواتي يُجبْنَ عن الكلمات التي ينتظرنها من محدّثهن بدلاً من أن يُجبن عن أحاديثه.

– لم يكن الخاطبان يعلمان إن كان بينهما حبٌّ أو إن كان يمكن لهما أن يتحابا. كان الزواج جائزاً مع أي فتاة أو أي فتى ليتألما بعد ذلك بقية عمرهما.

وختمت كلامها وهي تتوجّه بصورةٍ واضحة إلى المحامي وإلى نفسها، لا إلى محدّثها:

– أترى أن ذلك أفضل؟

كرّر التاجرُ وهو يتفرّس في المرأة بازدراء تاركاً سؤالها بلا جواب:

– ازداد التعليم أكثر من اللازم.

قال المحامي وهو يرسم ابتسامة لا تكادُ تُرى:

– أحبّ لو أعلمُ ما العلاقة التي تقوم بين التعليم والخلاف بين الزوجين.

Twitter: @ketab_n

كاد التاجر يجيب لولا أن السيدة لم تترك له مجالاً. قالت:

- لا، ذلك الزمان انقضى عهده.

لكن المحامي قاطعها.

- دعي السيد يُفصح لنا عن فكرته.

صرّح العجوزُ بلهجة قاطعة:

- جميع الحماقات تأتي من التعليم.

بادرت السيدة إلى القول وهي تُشهدنا: المحامي وأنا وحتى الوكيل التجاري.

وكان الوكيل قد نهض واستند إلى ظهر المقعد متابعاً الحديث وهو يبتسم.

استأنفت الحديث السيدة التي كانت تسعى بصورة واضحة إلى إغاظة التاجر:

- الحيوانات وحدها يمكنها التزاوج بناء على هوى صاحبها. أما الكائنات البشرية فلها ميولها وارتباطاتها.

ردّ عليها العجوز:

- أنت مخطئةٌ في كلامك هذا، يا سيدتي؛ الحيوانات بهائم أما البشر فلهم قوانينهم.

Twitter: @ketab_n

قالت السيدة وهي مستعجلة لتُعرب عن آراء، من الجليّ أنها كانت تبدو لها جديدة جداً:

- لكن كيف نعيش مع إنسان لا نحبه؟

قال التاجر برصانة:

- لم يكن الناس يبالون بذلك، فيما مضى من الزمن. إنما تعوّدوا هذه العادات في الوقت الحاضر. إذ تقول المرأة لزوجها، لأهون سبب: «أنا منصرفة!» حتى لدى الفلاحين درجت هذه العادة. «دونك قمصانك وسراويلك، وأنا ذاهبة مع فانكا، فخصلات شعره معقوصة خيراً منك!» اذهب وأفهمهم إن استطعت! لقد كُتِبَ على المرأة أن تعيش في الخوف.

تأمل الوكيل التجاري المحامي والسيدة ثم نقل نظره إلي وهو مستعد للموافقة على كلمات الشيخ أو السخرية منها حسبما يكون استقبال هذه الكلمات.

سألته السيدة:

- ما الخوف الذي قصدته؟

- على المرأة أن تخاف زوجها! هذا كل ما في الأمر.

أجابت السيدة بغيظ:

- أما هذا فقد انتهى، تلك أزمنةٌ انقضت، يا سيدي الكريم.

Twitter: @ketab_n

- لا، يا سيدتي، تلك الأزمنة لا يمكن أن تنقضي.

وسوف تظلُّ المرأة حتى انقضاء الدهور كما كانت في البدء: خُلقتْ حواء من ضلع زوجها.

كذلك رد الشيخ وهو يهزّ رأسه وقد بدت على وجهه ملامح القسوة والظفر الشديدين حتى إن الوكيل التجاري قرر فوراً أن النصر في جانب التاجر فانطلق في ضحك صاخب.

لكن السيدة لم تسلِّم بهزيمتها، فقالت وهي تتحرّانا بنظراتها:

- أنتم الرجال تحاكمون هذه المحاكمة: تمنحون أنفسكم الحريات جميعاً، وتريدون أن تحبسوا النساء في خدورهن. أما أنتم فكلُّ شيء مباحٌ لكم!

فردّ التاجر:

- ليست القضية قضية إباحة. لكن الزوج لا يرفد البيت بشيء، أما المرأة فهي إناء هش.

بدت لهجته الواثقة وكأنها أقنعت الحضور؛ وأحسّت السيدة نفسها أن حججها نفدت، لكنها أبت أن تستسلم:

- حسناً؛ لكني أرجو أن تتفّق معي على نقطةٍ: إن المرأة كائن بشري، ولها مشاعرها، شأنُها شأن الرجل. فماذا ينبغي أن تفعل إذا لم تحبّ زوجها؟

Twitter: @ketab_n

ردد التاجر بلهجة مهدِّدة وهو يحرّك حاجبيه وشفتيه:

- إذا لم تحبّه؟ طيب! ما عليها إلا أن تحبه.

هذه الحجة التي لم تكن متوقعة فتنت الوكيل التجاري فضحك ضحكته المتقطعة.

احتجت المرأة:

- كلا! لن تحبه! إذا غاب الحبُّ فلا سبيل إلى الإكراه عليه!

سأل المحامي:

- ما قولك إذا خدعت المرأة زوجها؟

أجاب الشيخ:

- لا ينبغي أن يقع ذلك. ويجب أن نحرص على إلا يقع.

- لكن لنفرض أن هذا الأمر وقع؟ ذلك أن لا شيء هنا مستحيل، في ذاته؟

قال التاجر:

- يقع ذلك عند غيرنا، أما عندنا فلا.

ساد الصمت. تحرك الوكيل التجاري حركة، دنا من الجماعة لأنه لم يشأ أن تفوته المشاركة في الحديث، فقال:

Twitter: @ketab_n

– بالضبط، لقد جرت مع فتى من عندنا. وتلك قصة طريفة جداً حتى ليصعب معرفة الحق فيها. وقع هذا الفتى على فتاة طائشة فأخذت ترتكب حماقات، وكان هو شاباً رصيناً ومتعلماً. بدأت بأمين الصندوق. أراد الزوج أن يردها إلى جادة الصواب فذهب تعبه سُدىً: أمعنت في غيها، حتى إنها سرقت شيئاً من ماله. وعبثاً ضربها، فقد ازدادت الأمور سوءاً، واتصلت برجل غير معمّدٍ، يهودي، مع احترامي لأشخاصكم – ماذا كان ينبغي أن يفعل؟ أهملها وعاش عزباً، وظلّت هي تركض وراء المغامرات العاطفية.

قال العجوز:

– ذلك لأن الزوج لم يكن سوى غبي. ولو أنه شدّ اللولب منذ البدء، وروّضها لاستقامت أمورها. ينبغي ألا تُمنح شيئاً من الحرية، منذ البدء. لا تأمن حصاناً في المرعى ولا امرأة في البيت!

في هذه اللحظة، جاء المراقب ليجمع تذاكر المسافرين الذين سينزلون في الموقف القادم. سلّمه الشيخ تذكرته:

– نعم، يجب أن تُروّض النساء منذ البدء، وإلا ضاع كل شيء.

– بيد أنك رويتَ قبل قليل، أنت نفسك، كيف يلهو الرجال المتزوّجون في معرض «كونافينو».

قلتُ هذا لأني لم أستطع أن أمنع نفسي من الاعتراض.

قال التاجر:

– ذلك شيءٌ آخر.

Twitter: @ketab_n

ولزم الصمت.

فلما صفرت الصافرةُ نهض، وسحب كيسه من تحت المقعد، ورد طرفي فرويته أحدهما على الآخر، واتجه إلى باب العربة.

- ٢ -

ما إن ذهب حتى ارتفعت عدةُ أصوات معاً.

لاحظ الوكيل التجاري:

- هذا رجل أقرب إلى الطراز القديم.

وقالت السيدة:

- إنه «الدوموستروي»[٣] المتجسد في إنسان.

وصرّح المحامي:

- نعم، نحن ما نزال بعيدين عن وجهة النظر الأوروبية.

استأنفت المرأة كلامها:

- أخطرُ ما في الأمر أن هؤلاء الناس لا يمكن أن يفهموا أن الاتحاد دون حب ليس اتحاداً. الحب هو الذي يقدّس الزواج ويجعله واقعياً.

٣- الدوموستروي: مجموعة من القوانين المنزلية الرجعية المحافظة التي صدرت في عهد إيفان الرهيب نحو ١٥٥٠.

Twitter: @ketab_n

كان الوكيل التجاري يصغي وهو يبتسم، محاولاً أن يلتقط ما أمكنه التقاطه من هذا الحديث المثقف لكي يستخدمه هو نفسه عندما تدعو إليه المناسبة.

وبينما كانت السيدة مسترسلة في حديثها، سمعت خلفي صوتاً ضعيفاً لضحكٍ أو نحيب مقطوع. وعندما استدرنا شاهدنا جارنا، الرجل المنفرد ذا الشعر الأبيض والنظرة البراقة. ولاشك أنه اهتم بما كنا نقوله فدنا منّا على نحوٍ غير محسوس وظل واقفاً، مستنداً بيديه إلى ظهر المقعد؛ كان يبدو مضطرباً جداً، ملتهب الوجه، تُجاذب خدَّه حركةٌ عصبية.

سأل وهو متلعثمٌ:

- وما هو... ما ذلك الحب... الذي يقدّس الزواج؟

لاحظت السيدة حالة الهياج لدى هذا المحدّث الجديد، فبذلت وسعها في أن تجيبه بأناة ورقة. قالت:

- الحب الحقيقي. إذا وُجد هذا الحب بين الرجل والمرأة أصبح الزواج ممكناً.

قال الرجل ذو العينين الملتمعتين وهو يبتسم بابتسامةٍ خجلى ومبْتَسرة:

- نعم، بالتأكيد. لكن ماذا تقصدين بالحب الحقيقي؟

أجابت المرأة ولعلها أرادت أن تُنهي الحديث:

Twitter: @ketab_n

- الجميع يعرفون ماهو.

- آه! أما أنا فأجهل ماهو. يجب أن توضحي ما الذي تفهمينه من قولك: الحب الحقيقي...

قالت السيدة وقد غدت كالحالمة:

- كيف.. لكن ذلك بسيط جداً. الحب... الحب هو أن تفضل الشخص المحبوب على جميع مَن سواه.

سأل الرجل ذو الشعر الأبيض وهو يضحك:

- هذا التفضيل، كم من الزمن سيدوم؟ شهراً؟ شهرين؟ أو نصف ساعة؟

- اسمح لي، إننا لا نتحدث عن الشيء نفسه!

- بلى، بلى، إني أتحدث عن الشيء نفسه.

تدخّل المحامي وهو يشير إلى السيدة:

- السيدة تؤكد أن الزواج ينبغي أن يكون نتيجةً للمودة، للحب، إن شئتم، وأن هذه العاطفة وحدها تُضفي على الزواج طابع القداسة. وأكثر من ذلك، إن اتحاداً لا يُؤَسَّس على الميل الطبيعي لن يكون فيه شيء من الأخلاق أو من المطلق.

وسأل جارته:

Twitter: @ketab_n

- هل فهمتُ فكرتكِ؟

وتابع:

- ثم...

لكن الرجل العصبي الذي أخذت عيناه الآن تُطلقان اللهب، والذي بدا كأنه لا يتمالك نفسها إلا بجهد شديد، لم يدعها تتم كلامها، فقال:

- هذا هو بالذات ما عنيتهُ: تفضيل شخصٍ لآخر دون سائر الناس؛ إنما أنا أتساءل كم من الزمن يمكن أن يدوم هذا التفضيل؟

أجابت السيدة وهي تهز كتفيها:

- كم من الزمن؟ لكنه يدوم زمناً طويلاً، حياةً كاملةً أحياناً.

- لا، هذا لا يوجد إلا في الروايات، أما في الحياة فلا. هذا التفضيل قلما يدوم سنوات، في الحياة. وفي معظم الوقت، المسألة مسألة أشهر، بل أسابيع وأيام أو حتى ساعات.

قال هذا وهو يُدرك أن رأيه يدهش مستمعيه، وكان واضحاً أنه راضٍ عمَّ أحدثه كلامه من أثر.

فرددنا عليه مجتمعين:

- أوه! ماذا تقول؟ كلا... لا، اسمح!...

Twitter: @ketab_n

دمدم الوكيل التجاري نفسه دمدمة استنكار.

هتف الرجل ذو الشعر الأبيض وهو يجهد في أن يُغطي بصوته أصواتنا:

- نعم، نعم، أعلم! أنتم تتحدّثون عمَّ يسلّم الناس به وكأنه حاصلٌ، وأنا أتحدّث عمَّ هو كائن. كل رجل يشعر نحو كل فتاة جميلة بما تسمونه الحب؟

- آه! فظيعٌ ما تقول! ومع ذلك فالحب موجود، ويمكن أن يدوم الحياة كلها، لا أشهراً وسنين فقط!

- لا، الحب غير موجود! ولو سلمنا بأن رجلاً استطاع أن يخصّ بذلك التفضيل امرأةً بعينها طوال الحياة، فأغلب الظن أن المرأة ستفضل عليه رجلاً آخر. الأمر كذلك، وكذلك كان الأمر دائماً في هذا العالم!

وأخرج علبة السجائر من جيبه وأشعل سيجارة.

قال المحامي:

هذا التفضيل يمكن أن يكون متبادلاً.

- لا، لا يمكن أن يكون كذلك؛ فهذا الشيء قليل الاحتمال كمثل التقاء حبتين معلمتين من البازلاء في عربة بازلاء! ذلك بعيد بعداً صارخاً عن الواقع، لأنك تنسى الشبع. إن حب شخص واحد مدى الحياة يشبه الرغبة في الاستضاءة الدائمة بشمعة واحدة.

قال ذلك وهو يسحب بنهمٍ دخانَ سيجارته. سألت السيدة.

Twitter: @ketab_n

- أنت تتحدّث طوال الوقت عن الحب الجسدي. ألا تسلّم بوجود تعلّق قائم على الاشتراك في المثل الأعلى، على قراباتٍ روحية؟

ردد وهو يُسمع ضحكه المتقطع الغريب:

- قرابات روحية! المثل الأعلى! لكن، لَم المضاجعةُ في هذه الحالة؟ (اغفروا لي فظاظتي) ذلك أن الناس يتضاجعون بحجة المثل الأعلى المشترك، أليس كذلك!

وختم كلامه بضحك عصبي.

قال المحامي:

- اسمح لي، إن الوقائع في تناقض شكلي مع ما قدّمت. فنحن نلاحظ أن الأزواج موجودون، وأن معظم الناس يعيشون حياة زوجية، وكثيرون هم الذين يعيشون بشرف الحياة كاملة جنباً إلى جنب.

ضحك الرجل ذو الشعر الأبيض ثانية.

- أنت تقول لي، تارةً، إن الزواج يقوم على الحب، فإذا أعربتُ عن شكوكي في وجوده، إلا أن يكون حباً جسدياً، حاولتَ أن تبرهن لي على وجوده متذرعاً بمؤسسة الزواج! لكن الزواج، في أيامنا، ما هو إلا خدعة!

قال المحامي:

Twitter: @ketab_n

- اسمح لي! لقد أبحتُ لنفسي فقط أن أنبه على أن الزواج موجودٌ الآن كما وُجد دائماً من قبل.

- هو موجود، بكل تأكيد، لكن لماذا؟ لأن هناك أناساً يرون في الزواج سراً من الأسرار، سراً مقدّساً مُلزماً لهم أمام الله. لكنه ليس كذلك عندنا. في وسطنا، لا يرى فيه الناس شيئاً آخر غير التزاوج الذي ينتج عنه التضليل أو الإكراه. فإذا كان تضليلاً سهل تحمّلهُ. إن الزوج والزوجة لا يخدعان سوى محيطهما موهمين الناس بأنهما يتقيدان بأحادية الزوج، بينما هما في الحقيقة متعددا الأزواج. ذلك شرّ، لكن لنضرب صفحاً عن ذلك! الحالة الأكثر تكراراً هي تلك التي يتعاقد فيها الزوجان على أن يلتزما العيش معاً مدى الحياة، فإذا بهما يكره كل منهما الآخر منذ الشهر الثاني، ويتمنيان الانفصال ولا يُقدمان عليه. فينجم حينئذ ذلك الجحيم البغيض الذي يدفع الناس إلى الشراب أو الانتحار أو القتل...

حمي الرجل وهو يتكلم، وكان إلقاؤه الكلام يتسارع، ولم يُتح لأحدٍ أن يفوه بكلمة، فانتابنا جميعاً إحساسٌ بالضيق.

قال المحامي وهو يرغب في إنهاء هذا الحديث الذي بلغ حدّةً في غير موضعها:

- نعم، لاشك، أن هذه الحوادث المؤسفة تحدث في الحياة الزوجية.

قال الرجل ذو الشعر الأبيض بصوت أكثر هدوءاً وتجرّداً:

Twitter: @ketab_n

- أرى أنك عرفتني؟

- لا، لم أسعد...

- أوه! لن تكون سعادتك بمعرفتي كبيرةً. فأنا بوزدنيشيف، بوزدنيشيف ضحية واحدة من تلك «الحوادث المؤسفة» التي أشرتَ إليها لتوّك: وأضاف وهو يُنقّل فينا نظرةً سريعة:

- حادثة جعلت مني قاتلاً لزوجتي...

لم يجد أحدٌ ما يجيب به. فساد الصمت.

وتابع وهو يُسمع ضحكه الغريب:

- لا أهمية لذلك! أستمحيكم العذر! آه!... لن أضايقكم بعد الآن.

قال المحامي وهو لا يعلم تماماً ماذا يريد أن يقول:

- كلا، أرجوك...

لم يُصغ إليه بوزدنيشيف، ودار على عقبيه بغتةً وعاد إلى مكانه. أخذ المحامي والسيدة يتبادلان الأحاديث بصوت منخفض.

كنتُ جالساً بجنب بوزدنيشيف، فلم أدر ما أقوله له. كانت العتمة شديدة لا تسمح بالقراءة. أغمضت عينيّ متظاهراً بالنوم. استمر ذلك حتى الموقف الأول. وعندما توقف القطار، غيّر المحامي والسيدة

Twitter: @ketab_n

عربتهما، وكانا قد اتفقا مسبقاً مع مراقب التذاكر. استلقى الوكيل التجاري على المقعد وأغفى. كان بوزدنيشيف لا يكف عن التدخين وشرب الشاي الذي أعدّه في المحطة السابقة.

عندما فتحتُ عيني وألقيت نظرة على بوزدنيشيف خاطبني فجأة بلهجة متعجرفة وغاضبة:

- ربما كرهتَ أن تظل بصحبتي بعد أن عرفت مَنْ أنا. وفي هذه الحالة يمكنني أن أنصرف.

- كلا، أرجوك!...

- إذن، هل ترغب في شيءٍ من الشاي؟ وأنا أنبهك على أن الشاي ثقيل جداً.

قال:

- إنهم يتكلمون... ولا همّ لهم إلا إلقاء الأكاذيب!

- ماذا تقصد؟

- أوه! الشيء نفسه دائماً: ما يسمونه الحب، وما هو في الواقع. ألم تنعس؟

- لا، أبداً.

- سأقص عليك، إذا شئتَ، كيف صيرني هذا الحب كما أنا عليه.

- نعم، إلا إذا شقّ عليك ذلك.

Twitter: @ketab_n

- لا، الصمتُ هو ما يشقّ علي. هلاّ شربتَ شايكَ. أليس ثقيلاً جداً؟

بالفعل، كان شايُه كالجعة. ومع ذلك شربت منه فنجاناً. في هذه اللحظة مرَّ المراقبُ. تبعه بوزدنيشيف بنظرة قاسية و لم يبدأ كلامه إلا بعد أن توارى.

- ٣ -

- حسناً! ليكن، سأروي لكَ... لكن هل تحرص على ذلك حقاً؟

كرّرتُ أني حريصٌ على ذلك حرصاً شديداً. ظل صامتاً لحظةً، ومسح وجهه بيده، وبدأ:

- إذا شئتُ أن أروي لك كل شيء، فيجب أن أبدأ من البداية؛ ينبغي أن أشرح لك لماذا تزوجتُ وماذا كنتُ قبل الزواج.

- عندما كنتُ فتىً، كنتُ أعيش كما يعيش سائرُ الناس، أي سائر الناس الذين هم من وسطي. فأنا نبيلٌ ريفي، حائز على جائزة من الجامعة التي تخرجتُ منها، مسؤول عن النبلاء. عشتُ كسائر الناس، أي في المجون. وكنت واثقاً من أنني أعيش العيشةَ اللائقة بي. كنتُ حسن الظن بنفسي، أعدّ نفسي كائناً كامل الخلقُ. لم أكن مُغوياً للنساء؛ و لم تكن لي ميول منحرفة؛ و لم أجعل الرذيلة هدفاً أساسياً لحياتي كالكثير من لذاتي. وكنتُ أتعاطى المسرّات بأناة، وبالحشمة

Twitter: @ketab_n

المطلوبة، وحرصاً على صحتي فقط. وكنت أتحاشى النساء اللواتي قد يقيّدنني بولادة طفل، أو بتعلقهن بشخصي. وعلى كل حال، من الممكن أنه كان هناك أولادٌ وتعلّقاتٌ؛ كنتُ أتجاهل ذلك دائماً وأتصرف على هذا الأساس. ولم أكن أعدّ هذا السلوك أخلاقياً تماماً، لكني كنت فخوراً به أيضاً...

توقف، وأسمعني ضحكه المتقطع الغريب، شأنه في كل مرة تأتيه فيها فكرةٌ جديدة. وصاح:

- وهذا هو بالذات أحقر الأشياء جميعاً! إن الفساد ليس في الفعل الجسدي، إذ ما من فساد جسدي يكوّن الرذيلة. الفساد الحقيقي يكمن في التحرر من كل علاقة أخلاقية مع المرأة التي تربطنا بها روابط جسدية. وهذا التحرر هو ما كنتُ أعتز به. وأنا أتذكر الاضطراب الذي أصابني عندما لم يُتَح لي أن أكافئ امرأةً بالمال مع أنها ربما بذلت لي نفسها عن حبٍّ لي. ولم يهدأ لي بال إلا بعد أن أرسلتُ إليها المال لأبرهن لها أن ليس بيننا أيُّ رباط معنوي...

وهتفَ فجأة:

- لا تومئ برأسك وكأنك توافقني على رأيي. أعرفُ ما يردده الناس، أعرفه! نحن جميعاً سواءٌ، بما فينا أنت، إلا أن تكون استثناءً شديد الندرة. لكن لا أهمية لهذا، لا تؤاخذني. بيد أن ذلك فظيع، فظيع، فظيع.

سألتُه: ما الفظيع الذي قصدت؟

Twitter: @ketab_n

- تلك الهوة من الأخطاء التي نحفرها بيننا وبين النساء. نعم، لا يمكنني أن أتحدث عن ذلك دون أن أفقد رباطة جأشي؛ ليس «الحادث المؤسف» الذي ذكره ذلك السيد هو السبب... لكن منذ ذلك الحادث انقشعت الغشاوة عن عينيّ، وصرتُ أرى الأشياء في ضوء مختلف. كل شيء بالمقلوب.

أشعل سيجارةً، واتكأ بمرفقيه على ركبتيه، واستمر في كلامه:

لم أستطع أن أتبيّن، في الظلمة، ملامحَ وجهه. كنتُ أسمع فقط صوته ذا الجرس الرصين المخملي، الذي طغا على دوي القطار.

- ٤ -

- نعم، وما فهمتُ مصدر الشر، ولا أدركتُ ما ينبغي أن يكون، إلا بعد أن كابدتُ ما كابدت، وبفضل ما كابدتُ. وهكذا استطعتُ أن أتبين فظاعة ما هو كائن.

لكن اسمح لي، قبل كل شيء، أن أشرح لك متى وكيف بدأت الأحداث التي أفضت إلى تلك «الحادثة المؤسفة».

بدأ كل شيء في الفترة التي بلغتُ فيها السادسة عشرة، عندما كنتُ مازال في المعهد الثانوي، وعندما دخل أخي الجامعة لتوّه. لم أكن أعرف النساء بعد. لكنني كنت كجميع الأولاد التعساء من بيتنا. ذلك أني فقدتُ براءتي: فمنذ أكثر من سنة علمني رفاقي كيف أفقدها.

Twitter: @ketab_n

وكانت المرأة، فكرة المرأة، السائغة، جميع النساء وعريهنّ، كان ذلك يقضّ مضجعي. كانت خلواتي خالية من الطهارة. وكنت أتألم كما يتألم تسعةٌ وتسعون بالمئة من فتياننا. كنت مروّعاً، أتألم وأصلي وأسقط. كنت فاسداً في خيالي وفي الواقع، لكني لم أكن قد اجتزت بعد الخطوة الأخيرة. ما كنتُ أسقط ولا أفسد أحداً كما يفعل الآخرون.

وإذا بصديقٍ لأخي، وهو شخص فكهٌ من الأشخاص «الطيبين»، أي أنه شقيٌّ من أسوأ الأنواع، يقنعنا بعد أن علّمنا الشرب ولعب الورق، يقنعنا بعد جلسة سكر، أن نذهب إلى هناك. فذهبنا إلى هناك. كان أخي طاهراً فسقط في تلك الليلة نفسها. وكنتُ أنا، فتى في السادسة عشرة، فتدنّستُ وتواطأتُ على تدنيس امرأة حتى دون أن أفهم ماذا أفعل. ذلك لأن الذين يكبرونني لم ينبهوني قط على أن هذا التصرف تصرفٌ سيءٌ. والأمر كذلك دائماً. ولاشك أن هناك الوصايا، لكن هذه الوصايا لا تفيد إلا في امتحان كتاب الديانة، وهي أقل فائدة من قاعدة إعراب الجملة الموصولة. وإذن فإن الذين يكبرونني والذين كنتُ أحترم رأيهم، لم يقولوا لي قط إن هذا التصرف سيء. على العكس، إن كثيراً من الناس الجديرين بالاحترام لم يكونوا يرون في ذلك إلا أنه حسن. بل إني سمعتُ مَنْ يقول: إن آلامي وصراعاتي سوف تسكن من جراء ذلك. وكنت قد قرأتُ أن هذه الممارسات مفيدةٌ للصحة. وأكثر من ذلك، كان رفاقي يرون في ذلك ميزةً وتحدّياً. ومن ثَمَّ، فلم أكن أرى في ذلك ما يستحق اللوم. أما الخوف من المرض؟ دَعْكَ من هذا!... لقد تحسّب أولو الأمر لهذه الحالة. إن سلطاتنا اليقظة تُعنى بكل شيء، وتسهر على صحة سير بيوت الدعارة وتكفل سلامة الدعارة لطلاب المعاهد الثانوية. كما يسهر الأطباءُ على تلك البيوت

Twitter: @ketab_n

ويتقاضون أجوراً مناسبة. وذلك شيءٌ حسنٌ جداً لأنهم يزعمون أن الفسق مؤاتٍ للصحة: وليس بوسعهم إلا أن ينظموا الدعارة لتكون قانونية وحسنةَ الترتيب. وأنا أعرف أمهات معنيّاتٍ بصحة أولادهن، في هذا الجانب. والعلم يرسل هؤلاء الأبناء إلى بيوت الدعارة.

فاستعلمتُ:

– ولَمَ العلمُ، يا ترى؟

– لكن الأطباء هم كهنة العلم. ومن هم الذين يدفعون الشبيبة إلى الدعارة حين يؤكدون لهم أنها مفيدةٌ للصحة؟ إنهم الأطباء، أليس كذلك؟ وبعد ذلك، يعالجونك من مرض الزهري معالجةً جادةً.

– ولم لا يعالجون ذلك المرض؟

ذلك لو أن جزءاً من مئة من الطاقة التي تُنفق لمعالجة الزهري استُخدم لاستئصال الفساد، لاختفى الزهري منذ زمن بعيد! غير أن جميع الجهود لا ترمي إلا إلى تشجيع الدعارة لضمان سلامتها. لكن المسألة ليست هنا. الحقيقة أنني، ومثلي مثل تسعة وتسعين في المئة من شباب وسطنا، وحتى من الفلاحين، كنتُ ضحية هذا الشيء الرهيب. فأنا لم أسقط لأن امرأة أغوتني إغواءً طبيعياً – أوه! لا لم تُغوني امرأةٌ قط – لكني سقطتُ لهذا السبب البسيط وهو أنه لم ير أحدٌ من محيطي في سقوطي سوى إشباع وظيفة مشروعة وصحية، أو تسلية مُغتفرةً فحسب بل إنها بريئة بالنسبة إلى الشاب. ولم يدر بخلدي أن هذا هو السقوط؛ لقد تعاطيتُ هذه اللذات التي هي حاجات خاصة بسن

Twitter: @ketab_n

معيّنة، على ما قيل لي، وهي بالضبط كما لو أنني كنتُ أشرب أو آكل. بيد أنه كان في هذا السقوط الأول شيئاً مؤثراً تأثيراً خاصاً.

أذكر أنني ما إن غادرتُ الغرفة حتى أحسستُ بأني حزين، حزين حتى البكاء؛ البكاء على براءتي المفقودة، وعلى انعدام مشاعري إزاء المرأة. نعم، منذ تلك اللحظة لم يعد بوسعي أن أقيم علاقات بسيطة وطبيعية مع المرأة، امتنع عليّ ذلك. لم يعد بوسعي أن أشعر نحوها بمشاعر نقيّة، وكان لابد من ذلك. لقد أصبحتُ ما يدعونه فاسقاً، وحالة الفاسق حالة جسدية شبيهة بحالة المدمن على المورفين، أو السكير، أو مدخن الأفيون. وكما أن المدمن على المورفين والسكير ومدخن الأفيون كائنات غير سويّة، فكذلك الذي عرف عدة نساء بحثاً عن اللذة كائنٌ غير سوي، بل هو كائن فاسد إلى الأبد، فاسق! ويمكن أن نعرفه على الفور كما تميز السكير أو المدمن على المورفين من هيئته وتصرفاته. إن الفاسق يمكنه أن يكبح شهواته، لكنه لن يشعر أبداً بمشاعر نقية وأخوية إزاء امرأة. الفاسق يُعرَفُ من الطريقة التي يتفرّس فيها في المرأة. ولقد أصبحتُ فاسقاً، وبقيتُ فاسقاً، وهذا ضيّعني.

- ٥ -

نعم! ثابرتُ على ذلك. عرفتُ جميع صنوف المغامرات. يا إلهي! إنني أرتعب كلما فكّرتُ في فسادي وفي الأخطاء التي اقترفتها! إنني أدين نفسي في ذكرياتي، في حين أن رفاقي يهزأون من نقائي المزعوم. وماذا نقول عن شبابنا من أبناء الذوات، وعن

Twitter: @ketab_n

الضباط، وعن الباريسيين! وعندما يدخل هؤلاء السادة - وأنا من بينهم - هؤلاء المتهتكون من أبناء الثلاثين، المرتكبين مئات الجرائم البغيضة بحق المرأة، عندما يدخلون صالوناً، أو صالةَ رقص وهم مغتسلون، حليقون، معطرون، يلبسون ألبسة داخلية مطهرة، ويرتدون الثياب الرسمية أو البزة، يصبحون رمز النقاء، فما أظرف ذلك في الحقيقة!

فكِّرْ، يا سيدي، فيما ينبغي أن يكون وفيما هو كائن. وإليكَ ما ينبغي أن يكون: عندما أرى أحد هؤلاء الأفراد الذين أعرف حياتهم يقتربون من أختي أو ابنتي، فينبغي أن أسحبه جانباً وأقول له برفق: «يا صديقي العزيز، إنني أعرف الحياة التي تحياها؛ وأعرف مع مَنْ وكيف تقضي لياليك. مكانكَ ليس هنا. فهناك فتياتٌ طاهرات ونقيات. انصرف!» هذا هو ما ينبغي أن يكون. لكن، في الواقع، عندما يطوّق أحدُ هؤلاء السادة أختي أو ابنتي، وهو يرقص، أهلل إن كان غنياً أو إن كانت له علاقاته الوطيدة. ولربما تنازل، بعد «ريغوليوش»[٤] وكرّم ابنتي! وماذا يهم لو بقيت آثارُ المرض: ففي أيامنا تسهل معالجةُ المرض! وكيف لا! إنني أعرف فتيات من المجتمع الراقي زوجهنّ أهلهن بمرحٍ من رجال مصابين بأحد تلك الأمراض. أوه!... يا للحقارة! فليأتِ ذلك المرض الذي يضع حداً لهذه القذارة، لهذا النفاق!

علا ضحكه الغريبُ عدة مرات، ثم أخذ يشرب شايه. كان الشاي ثقيلاً جداً، لكنه لم يجد الماء ليمدّده. وأنا نفسي أثار أعصابي

٤- ريغوليوش: راقصة غريبة الأطوار نالت شيئاً من الشهرة بين ١٨٥٠ - ١٨٦٠.

Twitter: @ketab_n

فنجانا الشاي اللذان شربتهما. وكان تهيّجُ صاحبي آخذاً في التنامي. فقد أصبح صوته أغنى عاطفة وأكثر تعبيراً. وكان لا يني يغير وضعه، ويرفع قبعته، وكانت قسماته تتبدل تبدلاً غريباً في الغبش الذي أحدق بنا.

- نعم، يا سيدي، عشتُ على هذا المنوال حتى الثلاثين، دون أن أكفَّ عن التفكير في الزواج لحظة واحدة. كنتُ أنوي أن أنشئ أعفَّ حياة زوجية وأرفعها منزلةً، ولذلك أخذتُ أبحث عن فتاة تلبي مطالبي. كنتُ أتقلب على عفونة الدعارة وأنا أجدّ للحصول على فتاة يكون نقاؤها جديراً بي. واستبعدتُ كثيراً من الفتيات لأنني لم أرض عن نقائهن؛ واحدة فقط بدتْ لي أخيراً جديرة بي: هي إحدى ابنتين لنبيل زراعي في حكومة «بنزا»، كان غنياً فيما مضى، لكنه أفلس فيما بعد.

ذات مساء، وبعد نزهة في القارب والعودة في ضوء القمر، كنت جالساً بجنبها، أتأمل جسدها الرشيق الملفوف بثوب حريري على قدّه، وضفائرها، وقررت فجأة أن تكون هي. في هذا المساء، خُيِّل إلي أنها قادرة على فهم ما أفكر فيه وما أشعر به، لفرط ما كنتُ على ثقةٍ بأن أسمى الأشياء هي موضوع تفكيري وشعوري. والواقع أنه لم يكن هناك سوى هذا الفستان الحريري الذي كان يناسبها إلى أعلى حدّ، وضفائرها، وأيضاً أنني قضيت نهاراً كاملاً بصحبتها الحميمة، وكنت أحلم بحميمية أعظم أيضاً.

إنه لشيء مدهشٌ حقاً ذلك الوهم الذي يجعلنا نخلط بين ما هو

Twitter: @ketab_n

جميل وما هو خير! ورب امرأة جميلة تنطق بالحماقات فنظن ما تقوله كلاماً صائباً. وتقول أو تفعل الخبائث فنستسيغها. وحتى عندما لا تقول ولا تفعل شراً نظل مقتنعين بأنها إحدى معجزات الذكاء والأخلاق!

لقد عدت إلى بيتي مغلوباً على أمري، واثقاً من أنها قمة الكمال الأخلاقي، وبالتالي فهي جديرة بأن تغدو زوجتي. ومنذ اليوم التالي كاشفتها بما في نفسي.

يا إلهي، ما أشد هذه البلبلة! فبين ألف شخص تزوّج - لا في وسطنا فحسب، بل بين الفلاحين أيضاً، مع الأسف - لعلنا لا نلقى واحداً إلا تزوّج عشر مراتٍ، ماذا أقول؟ بل مئة مرة بل ألف مرة مثل دون جوان، قبل أن يُزَفّ زفافه الرسمي. ولاشك أنني أعلم أن هناك الآن شباباً أنقياء، ينظرون إلى القضية نظرةً جادةً، ويعلمون أنها ليست مزحةً وإنما هي فعلٌ عظيم الخطورة.

ليحرسهم الله! ففي زمني لم أجد واحداً من عشرة آلاف يفكرون هذا التفكير. والجميع يعلمون ذلك، لكنهم يتظاهرون بعدم معرفته. في الروايات، يصف المؤلف عواطف البطل في أدق التفاصيل، وتوصف الغدران والرياض التي تنزه حولها، ويصوّر حبّه للفتاة، لكنه يتحاشى، بعناية في وصفه وتصويره، أن يلمح أدنى تلميح إلى ماضي هذه الشخصية الشائقة: لسنا نجد كلمة واحدة عن زياراته لبيوت الدعارة، ولا عن الطاهيات والخادمات وزوجات الآخرين. فإذا ما صدرت إحدى هذه الروايات «الخالية من الحشمة» فسرعان

Twitter: @ketab_n

ما تُحرَّم قراءتها على اللواتي هن أحوج ما يكنّ إلى الاطلاع على ذلك: عنيتُ الفتيات.

أول ما تتعلمه الفتيات أن الدعارة التي تحتل نصفاً وافراً من حياة سكان مدننا - وحتى من حياة فلاحينا - غير موجودة. ومع الزمن نتعوّد الاستتار وينتهي بنا الأمر، كما انتهى بالانكليز، إلى الاعتقاد بصدقٍ أننا رجال فضلاء وأننا نعيش في عالم أخلاقي تماماً. وتعتقد الفتيات المسكينات ذلك اعتقاداً راسخاً. وكانت امرأتي البائسة تعتقد ذلك أيضاً. وإني لأذكر أنني أطلعتُها، وأنا خاطبٌ، على مذكراتي، لكي تعرف جزءاً من ماضي، على الأقل، ولاسيما علاقتي الأخيرة (وكان بوسعها أن تطلع عليها من الآخرين، لكنني شعرتُ، ولا أدري لماذا، بالحاجة إلى إعلامها بها). وإني لأذكر أيضاً اشمئزازها، وأساها، واضطرابها عندما فهمت كل شيء. ورأيتُ أنها تريد أن تفسخ خطبتها بي. وليتها فعلتْ!...

وضحك ضحكته المتقطعة وتناول جرعة من الشاي وصمت.

- ٦ -

ثم إن ذلك كان أفضل هكذا، كان أفضل في نهاية المطاف!

هتف بذلك وأضاف:

- وأنا أستحق ذلك. بيد أن المسألة ليست هنا. أردت أن أقول

Twitter: @ketab_n

لك إن هؤلاء الفتيات المسكينات هنّ وحدهن اللواتي يُخدعن، في الحقيقة.

والأمهات يعلمن ذلك جيداً ولاسيما اللواتي تربين عند أزواجهن. وهن يتظاهرن بأنهن يؤمنّ بنقاء الرجال، فيتصرفن تصرّفاً مختلفاً كل الاختلاف. وهن يعرف الشصّ الذي يجب أن يمددنه ليصدْن الرجال لهن ولبناتهن.

الرجال وحدهم يجهلون (ولأنهم لا يريدون أن يعرفوا لا غير) ما تعرفه النساء: إن الحب الأعظم سموّاً وشاعرية، كما نسميه، ليس منوطاً بالصفات المعنوية لشخص ما، بل بالتماس الفيزيائي، بتسريحة شعر، بتفصيل فستانٍ، واسأل مغناجاً فَطنةً صمّمت أن تفتن رجلاً، أيّ هذين الخطرين ترتضيه بملء إرادتها: أأن تقتنع بالكذب والقسوة بل وبالفجور أم أن تظهر في ثوب بشعٍ سيء التفصيل؟ إن أية مغناجٍ تختار الموقف الأول. لأنها تعلم جيداً أننا، نحن الرجال، نكذب دائماً عندما يتعلق الأمر بالعواطف السامية، وأن الجسد وحده هو المهم، وأننا من ثم إذا تغاضينا عن جميع الدناءات فلن نغفر أبداً غلطةً من أغلاط الذوق في زينة المرأة.

كل مغناج تعرف ذلك بتجربتها، وجميع الفتيات يُحسسن بذلك لا شعورياً، كالحيوانات.

من أجل ذلك كلُّ هذه الثياب الحريرية، وتلك التنانير الداخلية، وتلك الأذرع العارية، وتلك النحور المكشوفة حتى مطلع النهود. إن النساء، ولاسيما اللواتي خبرن الرجل يعلمن جيداً أن الأحاديث

Twitter: @ketab_n

الرفيعة شيءٌ وأن الجسد شيء آخر: الرجل يشتهي جسد المرأة مع كل ما يُطهره في مظهره الأكثر خداعاً والأشد جاذبية. وهذا هو بالذات ما يُمارَس.

ولو أن الناس تخلوا عن هذه العادة، عن هذه الخسة التي أصبحت لنا طبيعة ثانية، وإذا نظرنا إلى الحياة في المجتمع الراقي كما هي، في كل وقاحتها لتبينّا، في نهاية المطاف، أن ذلك المجتمع الراقي بيتٌ واسعٌ للدعارة... ألستَ من رأيي؟

وقال دون أن يترك لي وقتاً للإجابة:

- اسمحْ لي، سأبرهن لك على ذلك. أنتم تزعمون، دون شك، أن لنساء وسطنا مشاغل أخرى غير مشاغل بنات بيوت الدعارة؟ أنا أؤكد العكس، وسأدلل لك على ذلك. إذا اختلف الناس بتصورهم للوجود، وبحياتهم الداخلية، فهذا الاختلاف لابد أن يتجلى في الخارج، وبالتالي فإن مظهرهم لا يمكن أن يكون واحداً. بيد أننا ماذا نرى؟ تأمل قليلاً هاته المخلوقات البائسات، المحتقرات من الجميع، وقارن بينهن وبين سيدات المجتمع الراقي تجد الزينات نفسها، والأساليب نفسها، والعطور نفسها، وعري الأذرع والأكتاف والنحور نفسه. والطريقة نفسها للف العجز، والشغف نفسه بالحجارة الكريمة والحلي والغناء جميعهن، على حد سواء، يسعين إلى إغراء الرجل بكل الوسائل. لا فرق بين الفئتين. لكنا نقول بغية توضيح الأمور بدقة إن المومسات لأجل قصير محتقرات، على العموم، في حين تُحترم زميلاتهن المومسات لأمد طويل.

Twitter: @ketab_n

- ايه! نعم، يا سيدي، لقد وقعتُ في شرك الثياب الحريرية والضفائر والتنانير الداخلية.

ينبغي أن أقول لك، على كل حال، إنني كنت فريسة سهلة، وذلك بسبب تربيتي بالذات؛ وكالنبتة المقسورة، كنت مستعداً للغرام. وذلك لأن تغذيتنا الزائدة عن الحد، والحسنة التتبيل، والمقترنة بالركود الجسدي التام، لم تكن سوى تهييج متواصل للحواس. كان الأمر كذلك، سواء أأدهشك أم لا. و لم أتبين أنا نفسي ذلك إلا في هذه الآونة الأخيرة. لقد علمتُ الآن. إن ما يعذّبني هو أن الشك لم يخامر أحداً في ذلك، وأنني أسمع سخافات من نوع السخافات التي ألقتها علينا هذه المرأة الطيبة.

... وفي الربيع رأيتُ، على مقربةٍ من بيتنا، فتياناً يعملون في ردم الخط الحديدي. إن طعام الفلاح اليومي يتألف من الخبز والبصل وشراب الـ «كفاس» والفلاح قويُّ الهمة، معافى، صحيح الجسم؛ وهو يقوم بأعمال الحقول السهلة. وعندما يعمل في أعمال الخط الحديدي، يُمنح جرايةً يومية من البرغل وليبرة[٥] من اللحم يُنفقها في ستة عشر ساعة من العمل الشاق في جرّ عربات ثقيلة وزنها ثلاثون بوداً[٦]. فلذلك يحتاج إلى هذا الغذاء أما نحن، ونحن نزدرد نحو ليبرتين من اللحم ولحم الطريدة والسمك، وأنواع أخرى من

٥- الليبرة تساوي نصف كيلو غرام.

٦- ثلاثون بوداً أي ما يعادل ٤٨٠ كغ. وفي ذلك مبالغة واضحة.

Twitter: @ketab_n

الأطعمة والأشربة الباعثة للحرارة، فأين ننفق ذلك؟ في الإفراط الشهواني فقط.

وإذا جرت الأشياء على هذا المنوال، عندما يُفتح صمام الأمان، سارت الأمور سيرها المأمون. لكن حاول أن تُغلق المهرب، كما اتفق لي أن فعلتُ على فترات متقطعة، فستنجم عن ذلك حالةٌ من الهياج إذا مرّت عبر موشور حياتنا الاصطناعية، عبّرت عن نفسها بذلك التوقّد الغرامي البالغ الرقّة، بل والأفلاطوني في بعض الأحيان. وهكذا أصبحت عاشقاً ككل الناس.

ثم إن هذا الحب اشتمل على كل شيء: الحماسة، والحنان والشعر. والواقع أن هذه العاطفة كانت نتاج مهارتين مترافقتين: مهارة الأم ومهارة الخياطات، وأيضاً التهام غذاء مفرط الوفرة بالنسبة إلى حياتي العاطلة. ولو لم تكن هناك نزهات في القارب، ولا خياطاتٌ خبيرات بإبراز خطوط الجسم وغير ذلك، ولو أن امرأتي ظلت في بيتها مرتدية مبذلاً شنيعاً، ولو أني، من جهتي، عشتُ في ظروف سويّة، أتناول الطعام بكميات متناسبة مع الطاقة التي أُنفقها، وأخيراً لو أن صمام الأمان كان مفتوحاً (لقد صادف أنه كان مغلقاً في هذه الفترة)، لما عشقتُ ولما حدث شيءٌ.

- ٨ -

- وأسفاه! لقد اصطلحت عليّ الأشياءُ جميعاً: حالتي الخاصة، والفستان الجميل، والنزهة الباهرة النجاح في القارب. أفلتُّ من

Twitter: @ketab_n

الوقوع عشرين مرة، لكن هذه المرة كانت القاضية. مثل فخ نُصب لي. أوه! لستُ أمزح. الناسُ، في أيامنا يهيئون الزواج. كما يُنصب الفخُّ. هل هناك شيءٌ طبيعي أكثر من هذا؟ إذا بلغت الفتاة سن الزواج فينبغي أن تُزوَّج. لا شيء أبسط من ذلك، لأوّل وهلة، هذا إذا لم تكن قبيحة وإذا كان هناك رجال يرغبون في الزواج. على كل حال، هكذا كانت تجري الأمور في ذلك الزمن القديم الطيب الذكر. فعندما تبلغ الفتاة سن الزواج يُعدّ أهلُها عرسها. جرى ذلك ومايزال يجري في كل مكان: لدى الصينيين والهنود ولدى فلاحينا. إن ذلك يُمارس هكذا لدى تسعة وتسعين بالمئة من الجنس البشري على الأقل.

واحدٌ بالمئة فقط (أو أقل من ذلك أيضاً) يُختار منا نحن الفاسقين، وَجَدَ في ذلك مطعناً، فارتأى أن يبتدع نسقاً جديداً. علام يقوم، ماذا تقول؟ حسناً! هذا هو: الفتياتُ ينتظرن، والرجال يختارون، كما يجري في السوق تماماً. والفتيات اللواتي ينتظرن يفكّرن في أنفسهن، ولا يجرؤن أن يصرحن بأفكارهن: «يا سيدي، خذني أنا، لا هي! انظر قليلاً إلى كتفيّ... وغير ذلك» ونحن الرجال نتفرّس فيهن، راضين كلّ الرضا عن أنفسنا، قائلين في أنفسنا: «أعرف الحكاية، ولن أقعِ في الشرك» ونطوف متبخترين، وننظر، ونحن مفتونون، إلى ما بُذِل من جهدٍ في سبيلنا، ثم إذا بنا نقع في الشرك، ذات يوم!

لكن ماذا تريد أن تفعل إزاء ذلك؟ فليس على المرأة، مع ذلك، أن تفاتح الرجل بالزواج.

- لست أدري. لكن مادمنا نتحدّث عن المساواة بين الجنسين، فليس علينا إلا أن نضعها موضع التطبيق! وإذا وجدنا الزواج المدبّر سلفاً

Twitter: @ketab_n

مُذلاً، فيبدو لي أن الطريقة المذكورة أكثر إذلالاً بألف مرة! في الحالة الأولى، الحقوق والحظوظ متساوية؛ أما في الحالة الثانية، تظل المرأة إما الأمة التي تُشترى من السوق، وإما الطُعم في ذلك الفخ الذي نُطلق عليه اسم «الطلعات إلى العالم». قلْ للأم أو للفتاة أنه لا همّ لها سوى الظفر بخاطبٍ، يا إلهي! ما أشد هذه الإهانة! بيد أنهما لا تفعلان سوى ذلك، وليس عندهما شيء آخر يفعلانه. وأفظع من ذلك أن نرى أحياناً مخلوقات بائسات شابات وبريئات تماماً يتعاطين هذه الممارسات. وليت الأشياء تجري بصراحة! كلا، بل عن طريق التضليل دائماً. «آه! أصل الأنواع. كم هي شائقة!... آه! حبيبتي «ليلي» تهتم كثيراً بالتصوير! هل تأتي إلى المعرض؟... إن ذلك لمثقِّف!... و«الترويكا»، والعروض المسرحية والسمفونيات؟ آه! ذلك رائع! حبيبتي «ليلي» مجنونة بالموسيقا!... ولِمَ لا توافقني على هذا الرأي، يا ترى؟... والتنزه في القارب!...» والحقيقة أن الفكرة هي نفسها دائماً: «خذني! خذْ «ليلي»، لا، أنا! حاول، فقط!».

وختم كلامه قائلاً: آه! يا لهذه القذارة، لذلك الكذب!

وبعد أن ابتلع آخر قطرة من شايه، أخذ يرتّب الآنية.

- ٩ -

استأنف كلامه وهو يرتِّب الشاي والسكر في كيسه:

- أتعلم أن سيطرة النساء التي يشكو منها العالم بأسره إنما تأتي من ذلك؟

Twitter: @ketab_n

- كيف، سيطرة النساء؟ إن الحقوق ومزايا الحقوق هي للرجال.

فقاطعني قائلاً:

- نعم، نعم، الأمر كذلك. وهذا ما أردت أن أقوله، وهو يفسر ظاهرةً غير عادية: فمن جهة، صحيحٌ أن المرأة انحطّت إلى آخر درك الإذلال، لكنها من جهة ثانية، إنها هي التي تحكم. وذلك كاليهود بالضبط، إذ ينتقمون بسلطان المال من الإذلال الذي يلحق بهم». يقول اليهود: «آه! لا تريدوننا إلا تجاراً، لابأس، سنكون تجاراً، لكننا سنسيطر عليكم». وتقول النساء: «آه! لا تريدوننا إلا أدوات للذة، لابأس، سنكون كما أردتم، وسوف نستعبدكم بكوننا أدوات للذة.

إن غياب الحقوق، بالنسبة إلى المرأة، ليس في كونها تستطيع أن تصوّت أو تصبح قاضياً - فهذه الوظائف لا تخلق أيَّ حق! إن غياب الحقوق يكمن في عدم المساواة بين الجنسين في علاقاتهما الجسدية. فلا تستطيع المرأة أن تتمتع بالرجل أو تمتنع عن ذلك، أن تختار شريك حياتها بدلاً من أن يختارها هو. قد تقول إن ذلك مكروه. نعم! لكن الرجل لا ينبغي أيضاً أن ينفرد بهذا الامتياز. والمرأةَ محرومةٌ، في الوقت الحاضر، من حقٍ ممنوح للرجل. وحينئذ تعوّض عن ذلك باستخدام تأثيرها في شهوانية الرجل وتسيطر عليه عن طريق الحواس. لأن حرية اختيار الرجل ليست سوى الظاهر، والمرأة هي التي تختار، في الواقع.. وهي تعي سبيل التأثير هذا فتُسيء استخدامه وتنال به قدرة رهيبة.

- لكن أين هي هذه القدرة الرهيبة؟

Twitter: @ketab_n

- أين هي؟ في كل مكان، في جميع الجوانب. جُلْ في مخازن المدن الكبرى. ففيها بضائع بالملايين، ومن المستحيل تقدير كمية الطاقة التي أُنفقت في صنعها... بيد أننا لا نعثر بين كل عشرة مخازن على مخزن واحد يحتوي على سلع للرجال. إن الترف كله تتطلبه وتتعهده النساء.

استعرضْ المصانع: إن معظمها يصنع التحف والعربات المجهزة للسير والأثاث واللعب للمرأة. إن ملايين المخلوقات البشرية، وأجيالاً من العبيد تقتل نفسها في هذا العمل الساحق لغاية وحيدة هي إرضاء نزوات المرأة. وكالملكات، استعبدت النساءُ تسعة أعشار البشرية وأرغمتها على الكدّ المضني. كل ذلك لأن النساء أُذللنَ حين حُرمن من الحقوق التي يتمتع بها الرجال. وهن يثأرن لأنفسهن حين يستخدمن تأثيرهن في شهوانيتنا ويُوقعننا في حبائلهن. نعم، كل شيء آتٍ من هنا.

أصبحت النساء أدوات كاملة للشهوة إلى حد أن الرجل لا يستطيع أن يقربهن وهو رابط الجأش. فما يكاد الرجلُ يجد نفسه بمحضر من امرأة حتى يقع تحت تأثير سحرها ويفقد صوابه. وقديماً كنتُ أحسّ بالضيق وكأني حصير الصدر، عندما أرى امرأة في ثياب الحفلة الراقصة. أما الآن فإن الرعب يتملكني بكل بساطة، ويُخيل إلي أنني أرى شيئاً خطراً، مخالفاً للقانون، فأشتهي استدعاء الشرطة، وطلب النجدة لرفع هذه المادة المؤذية.

ودمدم:

- لكنك تضحك. إلا أنني لا أمزح. أنا واثق من أنه سيأتي يوم -

Twitter: @ketab_n

وربما كان قريباً - يُدرك فيه الرجال ذلك، ويدهشون من أنه أمكن أن يوجد مجتمعٌ تقبّل أعمالاً قادرةً على تعريض الراحة العامة للخطر، وأن توجد زيناتٌ ترمي بكل بساطة إلى إثارة شهوانيتنا. مثل ذلك مثل نصب الفخاخ في ممرات الحدائق العامة! بل وأسوأ من ذلك! لماذا تُمنع ألعاب المقامرة ويُسمَحُ بالزينات التي تهيج الحواس؟ إن ذلك لأخطر من المقامرة!

- ١٠ -

وهكذا علقتُ في حبائل الغرام. وصرتُ ممن يُطلق عليهم اسم: عاشق. لم أكن أرى في خطيبتي نموذجاً لجميع الكمالات فحسب، بل أخذتُ أعتبر نفسي، أثناء فترة الخطبة، وكأنني جُمّاع الفضائل. لأنه ما من نذلٍ لا يجد، إذ أحسن البحثَ، نذلاً آخر أسوأ منه، في ناحية من النواحي، فيتباهى بذلك ويشعر بالرضا. وهذا ما جرى لي بالضبط: فلم يكن زواجي من أجل المال، إذ لم يكن للمنفعة دورٌ فيه، خلافاً لمعظم أشباهي الذين كانوا يتزوجون من أجل المهر أو العلاقات النافعة؛ كنت غنياً، وكانت هي فقيرة. هذا أولاً. ثم إني كنت أشعر بالكبرياء من أن الآخرين يتزوجون وهم ينوون نيّةً راسخة أن يستمروا في معاشرتهم لنساء أخريات، بينما صممتُ أنا أن أظل أميناً لزوجتي، وكان اعتزازي، من جراء ذلك، لا حدود له.

لم يطل زمنُ الخطبة. ولا أستطيع أن أتكلم عنها اليوم دون خجل. يا للعار! نحن نحسب الحب روحياً لا جسدياً. وإذا

Twitter: @ketab_n

كان الأمر كذلك فلابدّ أن يُعبّر اتحادُ روحين عن ذاته بالكلمات والأحاديث والمحاورات. بيد أن شيئاً من ذلك لم يحدث. فعندما كنا نبقى وحدنا، نحن الاثنين، كان يصعب علينا كثيراً أن نتحادث. صخرة سيزيف! فما أكاد أجد شيئاً أقوله حتى أصمت وأبحث عن موضوع آخر للحديث. لم يكن لدينا ما نتحدّث به. كل ما يمكن أن يُقال فيما يتعلق بحياتنا الآتية، وإقامتنا، ومشاريعنا، قُلناه. وماذا بعد ذلك؟ لو كنا حيوانات لعرفنا أنه لا حاجة إلى الكلام؛ بينما ينبغي لنا هنا، على العكس، أن نتكلم، وليس لدينا ما نتحدث به لأن ما كان يهمنا لا يصلح موضوعاً للحديث. أضفْ إلى ذلك عادتنا الكريهة في أن نُتخم أنفسنا بالسكاكر وأصناف الحلوى، وكل تلك الاستعدادات البغيضة للزواج: المنافسات حول السكن وغرفة النوم والأسرّة والمآزر والثياب الداخلية وأدوات الزينة. واعلمْ، يا سيدي، أننا لو تزوجنا على طريقة «دوموستروي» كما كان يقول ذلك التاجر العجوز، لما كانت الرياشُ والأسرّةُ وجهاز العروس سوى تفصيلات مطابقة نوعاً ما للسرّ المقدّس. أما عندنا فلن تجد واحداً من عشرة يؤمن بالزواج أو يعتبره التزاماً، ولن تجد واحداً من مئة لم يتزوج قبل الزواج، ولن تجد واحداً من خمسين إلا وهو مستعدٌّ سلفاً لأن يخدع امرأته عند أول مناسبة تعرض له. ومعظم الناس يعتبرون الاحتفال الكنسي شرطاً خاصاً لابدّ منه لامتلاك امرأة بعينها. تصوّر إذن إلى الدلالة الفظيعة التي تتخذها التفصيلات في هذه الحالات! إنها تغدو النقاط الرئيسية، وينتهي كل شيء بأن يُشبه ضرباً من السوق الذي تُباع فيه فتاةٌ بريئةٌ لفاسقٍ وتُحاط فيه هذه المعاملةُ ببعض الشكليات.

Twitter: @ketab_n

الجميع يتزوّجون هكذا، وفعلتُ كما فعل الآخرون، وكانت بداية شهر العسل المشهور. هذه العبارة وحدها، يا لها من عار!

بذلك صفَّر من بين أسنانه بغضب. وأضاف: كنت، ذات يوم، في باريس، تسلّيتُ بالطواف على عروض المسارح، فاجتذبتني لافتةٌ تُعلن عن امرأة بلحية وعن كلب بحر. لم تكن المرأة سوى رجل يرتدي فستاناً مكشوف الكتفين، أمّا الكلب فكان كلباً تعساً حُشِر في جلد فقمةٍ وأخذ يسبح في حوض الماء. لم يكن كل ذلك يثير أدنى اهتمام؛ لكن بينما كنتُ خارجاً، اصطحبني البهلوان إلى الباب بأدبٍ وقال للمتسكعين المتجمعين أمام التخشيبة، وهو يشير إليّ: «انظروا، اسألوا هذا السيد إن كان العرض يستحق أن يُرى! ادخلوا! ادخلوا! عشرون سنتيماً للشخص الواحد!» لم تؤاتني الشجاعة لأقول: ليس هناك إطلاقاً ما يستحق أن يُرى، ولعل هذا البهلوان الجوّال كان يعتمد على ذلك. وأنا أراهن أن الأمر كذلك بالنسبة إلى الذين عرفوا عار شهر العسل، ولكنهم يحرصون على أن لا يخيبوا آمال الآخرين. وأنا نفسي لم أشأ أن أُثبّط عزيمة أحد، لكني لا أرى مسوّغاً للسكوت عن الحقيقة. بل إني أجد من الضروري أن أقولها. طوال شهر العسل، نحسّ بالضيق والخجل والاشمئزاز؛ إنه لشيء جدير بالرثاء، وهو، على الخصوص، مُضجرٌ. ذلك شبيهٌ بما أحسستُ به عندما تعلمتُ التدخين: أحسستُ بالغثيان لكني كنت أبلع لعابي وأتظاهر بأنني أطير فرحاً. إن هذه اللذة مشابهة تماماً للذة التبغ: لسنا نتذوّقها إلا فيما بعد؛ فلكي يتذوّقها الزوج ينبغي له أن يبدأ بتعويد المرأة الرذيلة.

Twitter: @ketab_n

- كيف، تعويد الرذيلة؟ أنت تتحدث عن أعظم الوظائف الطبيعية للإنسان.

فأردف قائلاً:

- الطبيعية؟ الطبيعية! لا يا سيدي، دعني أُعلمك بأنني توصلتُ إلى الاقتناع المضاد: إن ذلك غير طبيعي. غير طبيعي إطلاقاً. اسألْ الأطفال عن ذلك، اسألْ فتاةً بريئةً. إن أختي تزوّجت في سنّ مبكرة من فاسق عمرُه ضعف عمرها.

وإني لأذكر دهشتنا عندما رأيناها، في ليلة الزفاف، تهرب من غرفتها شاحبةً تذرف الدمع مدراراً، وترتجف بجسمها كله، لتقول لنا إنها لا تستطيع حتى أن تصارحنا بما طلبه زوجها منها.

وتقول إن هذا طبيعي!

طبيعيٌ أن نأكل. فالأكل يجلب اللذة. وهو سهلٌ وسارٌ، ولسنا نحس بأي خجل في البدء.

في حين أن هذا الفعل منفّرٌ، مخجل ومؤلم. لا، ليس ذلك طبيعياً يا سيدي! لقد توصلتُ إلى الاقتناع بأن الفتيات الطاهرات يكرهن ذلك.

سألته:

- كيف تتصور حينئذ الإبقاء على الجنس البشري؟

Twitter: @ketab_n

قال بسخرية خبيثة وكأنه كان يتوقع هذا الاعتراض السهل الذي يكاد يخلو من النبل:

– وصلنا إلى المطلوب! على شرط ألا ينقرض الجنس البشري! إذا كنت تلهو بالدعوة إلى مكافحة نسبة المواليد المتزايدة لكي يتمكن اللوردات الإنجليز أن ينصرفوا إلى بطنتهم التي تعودوها فذلك مشروعٌ. وإذا دعوت إليها باسم اللذة العظمى فلن يجد أحدٌ ما يُقال عليها. لكن حاول أن توصي بها باسم الأخلاق. يا إلهي! من صرخات الاحتجاج! لكن الجنس البشري يتعرض للفناء إذا كفَّ عشرةُ رجال عن سلوكهم مسلك الخنازير.

وسأل وهو يشير إلى المصباح:

– المعذرة، هذا النور يزعجني فهل يمكنني أن أُطفئه؟

أجبتُه أن الأمر عندي سواء؛ حينئذ صعد المقعد وسحبَ كمّة المصباح الصوفيّة، بتلك العجلة المحمومة التي رافقت جميع حركاته. وألححتُ:

– ومع ذلك، لو أن الجميع اعترفوا بهذا القانون لكفَّ الجنسُ البشري عن الوجود.

لم يجب على الفور. ثم قال وهو يجلس قبالتي، ومرفقاه مستندتان إلى ركبتيه المنفرجتين انفراجاً واسعاً:

– تسألني بأية طريقة يمكن للجنس البشري أن يستمر، وما حاجة الجنس البشري إلى التكاثر؟

Twitter: @ketab_n

- كيف ذلك؟ لكننا سنكف نحن أنفسنا عن الوجود حينئذٍ.

- ولَمَ يجب أن نوجَد؟

- لَمَ؟ لكن لكي نعيش!

- نعيش؟ وما الفائدة من ذلك؟ إذا لم يكن لنا هدفٌ. إذا لم نُعْطَ الحياة إلا لنعيش، فهي لا تستحق أن تُعاش. وإذا كان الأمر كذلك فإن شوبنهاور[٧] وهارتمان[٨] والبوذيين محقّون كل الحقّ لكن إذا كان للحياة هدفٌ، فمن الواضح أنها يجب أن تتوقف عندما يُبلَغ ذلك الهدف.

وتابع بانفعال واضحٍ، وكان ظاهراً أنه يُفصح عن فكرة عزيزةٍ على قلبه:

- على كل حال، هذا ما يحدث. هذا هو بالضبط ما يحدث. لاحظ، يا سيدي، إذا كان هدفُ الإنسانية هو الخير والحب، أو ما شئتَ، إذا كان هدف الإنسانية مطابقاً للنبوءات التي تقول إن جميع الناس سيتّحدون في الحب، وأنهم سيصنعون من رماحهم مناجل الخ... فما الذي يقف في وجه تحقيق هذه الفكرة؟ إنها الأهواء. وأشدُّ الأهواء قوة وقسوة وعناداً الحبُّ الحسي، الحب الجسدي. وبالتالي فلو أننا ألغينا الأهواء، ومن ضمنها أقواها جميعاً، لأمكن للنبوءة أن تتحقق، ولاتُحد

٧- شوبنهاور: فيلسوف ألماني (١٧٨٨ - ١٨٦٠) قرأه تولستوي كثيراً.

٨- هارتمان فيلسوف ألمان (١٨٤٢ -١٩٠٦) مؤلف: فلسفة اللاشعور.

Twitter: @ketab_n

الناس في كل واحد، ولبلغتْ الإنسانية هدفها، ولما بقي من مسوّغ لبقاء جنسنا البشري. لكن مادام الجنس البشري مستمراً في الوجود فسيظل له مثلُه الأعلى الذي لا تملكه، بالطبع، الأرانب أو الخنازير التي لا تسعى إلا إلى التكاثر إلى أقصى حد، ولا تملكه القرودُ ولا يملكه الباريسيون الذين يودّون أن يستمتعوا باللذات الجسدية، بأكثر الطرق إرهافاً، بل هو مثلٍ أعلى للخير ولا يبلغه الناسُ إلا بالعفة والطهارة. وإليه طمح الناس دائماً، وإليه سيطمحون أبداً. وانظر قليلاً إلى ما ينتج عن ذلك! ينتج عن ذلك أن الحبَ الجسدي صمّام للأمان. وإذا لم يبلغ جيلُنا هدفه لأنه فريسة الأهواء، وأقوى هذه الأهواء الحبُّ الجسدي. وبما أن هذا الهوى باقٍ فهو يولّد جيلاً جديداً، وبالتالي فإن الأمل ببلوغ الهدف في المستقبل باقٍ أيضاً. وإذا لم يُفلح في ذلك هذا الجيل انتظرنا الجيل الذي يليه، وهلم جراً، إلى أن يُبلغ الهدفُ، وتتمّ النبوءة، وتتوحد الإنسانية. وإلا فماذا الذي سيجري؟ إذا سلّمنا أن الله خلق الإنسان لهدف، فقد كان سيصنعه فانياً ودون أهواء جسدية أو خالداً. وإذا كان الناس فانين ودون أهواء جسدية. فماذا ستكون نتيجة ذلك؟ سيعيشون ويموتون دون بلوغ الهدف؛ ولكي يبلغ الله غاياته سوف يجد لزاماً عليه أن يخلق إنسانية جديدة. أما إذا كان الناس خالدين (مع أنه من الأسهل على الأجيال الجديدة أن تُصلح الأخطاء وتقترب من الكمال) ولنفرض أنهم قادرون على بلوغ الهدف في نهاية عدة آلاف من السنين، فما الفائدة من وجودهم؟ وماذا سيُصنَعُ بهم؟ أوه! لا، يمكنك أن تصدقني، إن النظام القائم أفضل ما يمكن أن يوجد... لكن لعل هذه العبارة لا ترضيك؟ ولعلك من أنصار مذهب التطوّر؟ على كل حال، إن هذا لا يغير شيئاً من المسألة. إن الجنس البشري في

Twitter: @ketab_n

قمة المملكة الحيوانية، ويجب أن يتكاتف ويتحد مثل خليّة النحل، ليقاوم الحيوانات الأخرى، لا أن يتكاثر إلى غير نهاية. وكالنحل ينبغي له أن يربي أفراداً عديمي الجنس، أي أن يتجه إلى العفة، لا إلى الإثارة والدعارة، وهما غايةُ جميع الجهود في مجتمعنا.

صمت بضع لحظات:

- تقول إن الجنس البشري سيكفّ عن الوجود؟ لكن من الذي يمكنه أن يشكّ في ذلك، مهما تكن وجهةٌ نظره؟ وذلك أمر لا محالة واقع، ولا يقلُّ يقيناً عن الموت. جميع الديانات تعلن عن نهاية العالم، والعلم يؤيد ذلك. فما المدهش إذا قاد الاستنتاج الأخلاقي إلى النتيجة نفسها؟

وأخلد إلى صمتٍ طويل، وانتهى من تدخين سيجارته، وأخرج عدة سجائر أخرى من كيسه ليرتبها في علبةٍ قديمة وسخة.

قلتُ:

- إنني أفهم فكرتك؛ وطائفة «الكوكرز» يذهبون إلى ما يشبه ذلك.

قال:

- نعم، نعم، وهم على حق. إن الهوى الجسدي، مهما يكن المعنى الذي نعطيه إياه، مصيبةٌ، شرٌّ رهيب، يجب أن نكافحه، بدلاً من أن نشجّعه، كما نفعل عندنا. إن كلمات الإنجيل التي تقول إن كل

Twitter: @ketab_n

من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها، إن هذه الكلمات لا تتعلق بزوجات الآخرين، بل تتعلق أيضاً وعلى وجه الخصوص بزوجة كلٍّ منا نحن.

- ١٢ -

بيد أن العكس هو ما يمكن أن نلاحظه حولنا: إن الرجل، إذا كان مايزال يفكّر في العفة وهو عزبٌ، قدّر، ما إن يتزوج أنها أمرٌ زائدٌ عن اللزوم. إن السفر بعد العرس، وتلك الخلوة التي يعتصم فيها العروسان، بموافقة الأهل، ليس ذلك سوى إذن بالدعارة ودعوةٍ إليها. لكن القوانين الأخلاقية تثأر لنفسها إذا أردنا انتهاكها. فبالرغم من جهودي كلها لم أتوصّل إلى خلق شهر العسل. وطوال هذه الفترة لم أستشعر سوى النفور والخجل والضجر. وبعد قليل من الوقت، غدا ذلك لا يُطاق. وبعد النزر الأقل من الوقت، أي بعد زواجنا بثلاثة أيام أو أربعة، فيما أظن، وجدتُ زوجتي كئيبة جداً؛ فسألتها عن السبب، واحتضنتها بين ذراعيّ، لأنها كانت، في اعتقادي، تملك كل ما يمكن أن تشتهيه. لكنها دفعتني عنها وأمعنت في البكاء. علام كانت تبكي؟ لم تستطع أن تفسر لي سبب هذا الإرهاق. والظاهر أن أعصابها المستثارة قد كشفت لها عن الفظاعة الحقيقية لعلاقتنا دون أن تحسن التعبير عن ذلك بعدُ. انهلتُ عليها بالأسئلة، فتمتمتْ شيئاً بشأن أمها التي حنّت إليها. وبدا لي أن ذلك ليس هو السبب الحقيقي. فأخذت أعظها دون أن أشير إلى أمها. لم أفهم أنها، بكل بساطة، خائرة القوى، وأن أمها

Twitter: @ketab_n

لم تكن سوى ذريعة. فحقدت عليّ لأنني لم أصدقها و لم أذكر أمَّها. وزعمتْ أن من الواضح أنني لا أحبها. لمتُها على أنها تتصرف تصرف المرأة ذات النزوات، وفجأة تبدلت قسماتها وحلّ الحنقُ محلَّ الحزن، واتهمتني بالأنانية والقسوة، مستخدمةً عبارات مقذعة. نظرتُ إليها. كان وجهها ينطق بالعداء البارد، ويكاد ينطق بالبغض.

إني لأذكر الرعبَ الذي تملكني. كيف؟ لقد اعتقدتُ أن الحب اتحاد روحين، وبدلاً من ذلك إذا بي أمام ما أرى! قلتُ في نفسي: هذا لا يُصدَّق، هذا مستحيل، المخلوق الذي أنظر إليه ليس امرأتي. حاولتُ تهدئتها، لكنني اصطدمتُ بحاجز منيع من العداوة الباردة، المسمومة، حتى إن الغضب استبدّ بي، دون أن أنتبه إلى ذلك، وتبادلنا كلاماً جارحاً. وكان الانطباع الذي تركه فيّ هذا الشجار الأول مرعباً. سمّيتُ ذلك شجاراً، بيد أنه لم يكن شجاراً، لقد اكتشفنا للتوّ، بكل بساطة، الهوّة التي تفصل بيننا. فبعد أن هدأ الهياجُ الغرامي، وسكنت الحواسّ، ألفينا نفسينا وجهاً لوجه أمام حقيقة علاقاتنا، أي أننا لم نكن سوى أنانيين، سوى غريبين يسعى كلٌّ منهما إلى أن يجني من الآخر أعظم مقدار من اللذة. وما سمّيتُه «شجارنا» لم يكن سوى نتيجة لإشباع الحواس الذي أبرز عواطفنا الحقيقية. و لم أفهم أن ذلك العداء البارد كان ظاهرة طبيعية، لأن كراهيتنا المتبادلة، في البدء سرعان ما توارت خلف سدٍّ جديد للشهوة، خلف هياج غرامي جديد.

ظننت أن هذا الشيء لن يتكرر، بعد أن تشاجرنا وتصالحنا. لكن طوال الشهر الأول، وبعد وقت قصير، كانت مرحلةٌ جديدةٌ من الشبع، و لم يعد كلٌّ منا ضرورياً للآخر، فتشاجرنا من جديد. وقد

Twitter: @ketab_n

آلمني هذا الخصام الجديد أكثر من السابق. قلت في نفسي: «الأمرُ إذن ليس عَرَضياً، كذلك ينبغي أن يكون، وسيكون كذلك دائماً». آلمني هذا الخصام الثاني لاسيما أنه انبعث لسبب لا يُصدّق أبداً: لمسألة مالية غامضة؛ والواقع أني لم أكن شحيحاً قط، ولا يمكنني، بالأحرى، أن اقتّر على امرأتي. وأنا أذكر فقط أنها قلبت الأشياء بحيث أوّلتْ ملاحظةً من ملاحظاتي وكأنها رغبة مني في الانفراد بحق التصرف بمالي، والسيطرة عليها من هنا. وذلك شيءٌ مستحيل، غير معقول، بشع، ولا يتفق مع طبيعتها ولا مع طبيعتي. ثارت ثائرتي ولمتُها على إخلالها باللباقة. فردّت عليّ بالمثل، وعاد الخصامُ من جديد... ففي أحاديثها، وتعبير وجهها وعينيها، اكتشفتُ ذلك العداء البارد والقاسي الذي أذهلني أول مرّة. وأذكر أني تخاصمتُ أنا وأخي، وأصدقائي، وأبي، لكن لم يكن بيننا قط ما يّذكر بهذا الخبث الخاص، المسموم. بيد أن الوقت كان يمرّ، وامّحى، مرةً أخر، البغضُ المتبادل أمام رجوع الغرام أي الشهوة، وواسيت نفسي قائلاً: إن هذين الشجارين لم يكونا سوى خطأين يمكن إصلاحهما تماماً. لكن شجاراً ثالثاً وقعَ، ورابعاً، وأدركتُ نهائياً أن هذه الظاهرة لم تكن عرضية وإنما كانت شيئاً لابدّ منه، وأن الأمور يجب أن تجري على هذا النحو، فارتعدتُ أمام ما يُنذر به المستقبل. وفوق ذلك. كانت تعذّبني هذه الفكرة وهي أنني الوحيد الذي يعيش في علاقة سيئة مع زوجته، وبصورة مناقضة لتوقعاتي، بينما لا تجري أبداً هذه الأمور في الأسر الأخرى. ذلك أني لم أكن أعلم أن هذا القدر هو القدر المشترك في كل زواج؛ وأن كل رجل كان يفكر، كما فكرتُ أنا نفسي، أنه استثناء تعس، فيحاول أن يُخفي حظّه العاثر الاستثنائي لا عن الآخرين فحسب، بل عن نفسه أيضاً.

Twitter: @ketab_n

هكذا بـدأت إذن حياتُنا المشتركة، وأخـذ الوضعُ يـزداد سوءاً بعنفٍ متزايد. أحسستُ، في أعماقي، منذ الأسابيع الأولى، أنني رجلٌ ضائعٌ، وأنني لم أعثر على ما بحثتُ عنه، وأن الزواج ليس حظاً عاثراً فحسب وإنما هو شيء مؤلم إلى ما لانهاية؛ لكنني لم أشأ أن أعترف بذلك لنفسي، شأنُ جميع الناس (ولا شك أنني لم أكن لأعرف لولا تلك النهاية المأساوية)، كنتُ أكتمه أمام الآخرين وأمام نفسي. وإني لأتساءل اليوم كيف استطعتُ ألا أتبيّن مباشرةً حقيقةَ الأشياء. كان ينبغي لي أن أدرك وضعي الحقيقي من الشيء الوحيد التالي: وهو أن شجاراتنا كانت تنفجر لأسباب جد تافهة حتى ليتعذر تذكّرُها بعد وقوعها. ولم يكن عقلنا يتوصل إلى اختلاق ذرائع كافية لعداوتنا الكامنة. كان هناك، في بعض الأحيان، كلام وتفسيرات، بل ودموع، لكن في أحيان أخرى، أوه!... تلك الذكريات ماتزال تثير اشمئزازي، فبعد تبادل الكلمات القاسية، تأتي فجأة النظراتُ الخرساء والبسماتُ والقبلات والعناق... يا للحقارة! كيف يمكنني ألاّ أرى فظاعةَ ذلك كله؟...

- ١٣ -

دخل الحافلة مسافران، وجلسا على مقعد بعيد عن مقعدنا. لزمَ بوزدنيشيف الصمت أثناء جلوسهما، لكن ما إن استقرا حتى استأنف قصته، دون أن يُضيع تسلسل أفكاره، لحظةً واحدة. قال متابعاً كلامه:

- وإليك أبشع ما في الأمر: يُفترض، نظرياً، أن يكون الحبُّ

Twitter: @ketab_n

عاطفة مثالية رفيعةً؛ بيد أن الحب، عملياً، ليس سوى قذارة، نجاسة، نخجل ونشمئز من الكلام عليه وتذكّره. وليس عبثاً أن الطبيعة جعلته منفِّراً ومخجلاً. ومادام هكذا فينبغي أن يفهمه الناسُ بهذا المعنى. لكن العكس هو ما يحدث، فالناس يتظاهرون بأنهم يجدون هذا الشيء الكريه والمخجل رائعاً ورفيعاً.

ماذا عساها كانت أعراضُ الحب الأولى، يا سيدي؟

تلك هي: أسرفتُ في الاستسلام لحيوانيتي، دون أدنى حياء، بل على العكس، كنت فخوراً، ولا أدري لماذا، بقدراتي الجسدية؛ و لم أهتمّ ولو لحظةً واحدةً، بالحياة الداخلية لزوجتي، ولا حتى بحياتها الجسدية. وكنتُ مدهوشاً عندما لاحظتُ أننا نشعر بضرب من الضغينة المتبادلة، مع أن الأمر كان واضحاً أشد الوضوح: إن سخطنا لم يكن سوى احتجاجٍ من الطبيعة البشرية على الحيوان الذي يريد أن يستعبدها.

كنتُ أدهش من تباغضنا. بيد أن الأمور ما كان يمكن أن تكون غير ذلك. كان هذا البغضُ شبيهاً بما يشعر به المشتركان في جريمة - مشتركان في التحريض والتنفيذ. وكيف لا أتكلم عن الجريمة وقد أصبحت المسكينةُ حبلى منذ الشهر الأول، و لم نقطع مع ذلك علاقاتنا الخنزيرية. أتظنني انحرفتُ عن موضوعي؟ أبداً، لا. إني أقصّ عليك كيف قتلتُ زوجتي. أثناء المحاكمة سألني القضاةُ كيف وبأيّ شيءٍ قتلتها؟ يا للأغبياء. لقد تصوروا أنني قتلتها في ٥ تشرين الثاني بطعنة خنجر. لم أقتلها في هذا اليوم، بل قبل ذلك بكثير. تماماً كما يقتل جميع الناس نساءهم، جميع الناس، جميع الناس...

Twitter: @ketab_n

سألتُ:

- وكيف ذلك؟

هـذا هو بالذات ما يدهش: جميع الناس يجهلون الحقيقة الواضحة، الحقيقة التي ينبغي للأطباء أن يعرفوها وينشروها، لكنهم يحرصون على كتمانها. ومع ذلك فالأمرُ بسيطٌ جداً. فالرجل والمرأة صُنعا، كالحيوانات بحيث يبدأ الحملُ، بعد الحب الجسدي، ثم يأتي الرضاع، وهما حالتان تكون الحياة الجنسية أثناءهما مؤذية للمرأة والجنين على السواء. إن عدد النساء مساوٍ لعدد الرجال. ماذا ينبغي أن نستنتج من ذلك؟ يبدو ذلك واضحاً تمام الوضوح، ولا حاجة البتّة إلى أن يكون المرءُ بحراً من الذكاء ليستخلص النتيجة الطبيعية الموجودة لدى الحيوانات، عنيتُ بها العفة. كلا. لقد توصل العلمُ إلى اكتشاف ما يُسمى الكريّات البيض التي تجري في دمنا، وألف تُرّهة أخرى، لكنه لا يستطيع أن يفهم ذلك. على الأقل، لم أسمع أحداً يتكلم عن ذلك.

المرأة إذن بين خيارين: إما أن تصبح وحشاً، فتُلغي تدريجياً طبيعة المرأة فيها، أي طبيعة الأم، ليتمكن الرجل باستمرار، وبكل هدوء التمتع بجسدها؛ وإما أن تتبنى حلاً آخر ليس في حقيقته سوى انتهاك بسيط وفظّ لقوانين الطبيعة، وهو حلٌّ يُمارس على كل حال، في جميع الأسر التي يُزعَم أنها كريمة، ينبغي للمرأة فيه أن تكون، في الوقت نفسه، أماً ومرضعاً وعشيقة، وينبغي لها أن تقبل بشرط لا يُذعن له أيُّ حيوان. أشدّ النساء ربما لم تستطع مقاومته. ولذلك نجد في عالمنا كثيراً

Twitter: @ketab_n

من النساء مصابات بالهستيريا والعصاب، وكثيراً من الممسوسات بين عامة الشعب. لاحظ أن الفتيات البريئات لا يعرفن أبداً هذا النوع من اختلال التوازن، النساء وحدهن يُصَبْن به، ولاسيما اللواتي يعشن مع زوج. إلى هنا وصلت الأمور عندنا، والأمر كذلك في أوروبا. والمستشفيات التي تعالج المصابين بأمراض عصبية مملوءة بالنساء المذنبات بانتهاكهن قوانين الطبيعة. لكن إذا كانت الممسوسات وزُبُنُ شاركو[٩] مريضات ذوات عاهات، فإن العالم مليء بأنصاف المريضات، إذا ما فكرنا بالعمل الهائل الذي يتمّ في أحشاء المرأة أثناء الحمل، أو عندما تُرضع ابنها. إن نمو الكائن هو الذي يكفل استمرارنا، ويحلّ محلّنا... وهذا الشيء المقدس بمَ دُنِّس؟ إنه لشيءٌ فظيع أن نفكر في ذلك! ويأتي الناس ليحدّثونا عن حقوق المرأة وحريتها. وذلك شبيه بما يلهو به أكلةُ البشر حين يُتخمون أسراهم ليأكلوهم، مؤكدين أنهم يحرصون على حقوقهم وحريتهم.

كل ذلك بدا لي جديداً فدهشتُ نوعاً ما وقلتُ:

– كيف! في هذه الحالة، ينبغي للرجل ألاّ يقارب امرأته إلا مرة كل سنتين، بيد أن الرجل...

استأنف قائلاً:

– الرجل له حاجاته: إن «كهنة العلم» الأعزاء هم أيضاً الذين أقنعوا جميع الناس بذلك. ولو كان الأمر يتعلّق بي لأمرتُ هؤلاء

٩- شاركو: طبيب نفسي فرنسي ١٨٢٥ -١٨٩٣.

Twitter: @ketab_n

السَحَرة بأن يملؤوا تلك الوظائف النسائية التي لابدّ منها للرجل، في رأيهم؛ وسنرى حينئذ ماذا يقولون! أقنع الرجل بأن الكحول والتبغ والأفيون لازمةٌ له وسترى أن ذلك كله يصبح بالفعل، حاجةً من حاجاته. وذلك يعني أن الله لم يفهم ما كان ينبغي أن يفعله وأنه نظّم العالم تنظيماً سيئاً، لأنه لم يَسْتشرْ أولئك السَحَرة. وأنت ترى أن ذلك غير مقبول. لقد قرروا أنه لا غنى للرجل عن إرواء شَبَقه، وإذا بالحمل والإرضاع يعترضان سبيل شهواته. فما العمل؟ يكفي أن نسأل السحرة ففي أيديهم حلّ الأمور. وبالفعل، عثروا على ذلك الحل. أوه! متى نخلعهم أخيراً عن عروشهم، هم وأكاذيبهم كلها؟ آن الأوان لذلك! بل إن الأمور ذهبت بعيداً جداً: إن الناس يفقدون صوابهم وينتحرون، وذلك بسبب أولئك السحرة دائماً. وعلى كل حال، كيف يمكن أن تكون الأمور غير ذلك؟ إن الحيوانات تعلم أن ذريتها تخلّد جنسها، وهي تتقيد، في هذا المجال، بقوانين ثابتة، الإنسان وحده يرفض الانقياد إلى تلك القوانين. وهو لا يهتم إلا بالحصول على أعظم مقدار من المتعة. هذا هو من يُسمى ملك الخليقة. لأننا يجب أن نلاحظ هذا الشيء: إن الحيوانات لا تتزاوج إلا في أزمنة محدّدة، عندما تستطيع التكاثر، أليس كذلك؟ أما ملك الخليقة الحقير، فهو لا يعرف زمناً للتزاوج، كل الأزمنة صالحة على شرط أن يجد اللذة. وأسوأ من ذلك أنه يرفع هذه التسلية الجديرة بالقرود إلى الذروة، ويجعل منها درّة الخليقة، ويسميها الحب. وباسم هذا الحب، باسم هذه الحقارة يدمّر - وماذا يدمّر؟ - يدمّر نصف النوع البشري. جميع النساء اللواتي ينبغي أن يكن مساعدات في تَوْق الإنسانية إلى الحقيقة، إلى الخير، يحوّلهن إلى أعداء، باسم تلك اللذة. انظر قليلاً

Twitter: @ketab_n

إلى ما يكبح تقدّم الإنسانية في كل مكان؟ النساء! لماذا يفعلن ذلك؟ للأسباب التي ذكرتُها لك للتوّ. نعم، نعم.

ردّد ذلك عدة مرات ثم تحرّك، وتناول سيجارة وأخذ يدخّن، محاولاً، على ما يظهر، أن يستردّ هدوءه.

- ١٤ -

واستأنف كلامه على الوتيرة نفسها:

- نعم، يا سيدي، لقد عشتُ كالخنزير. والأسوأ أني كنت أعتقد أنني أعيش عيشةً شريفة، لأنني لم أكن أشتهي امرأة غير امرأتي؛ كنت أَحسَبُ أنني أعيش حياةً شريفة كربّ أسرة، كنت أجد نفسي رجلاً أخلاقياً تماماً، ولا أعترف بأي خطأ وقع مني؛ وذا ما طرأت مشاجرات كنتُ أُلقي بالمسؤولية على طبع امرأتي السيء.

ولم تكن امرأتي، بالطبع، هي المذنبة الحقيقية. كانت كسائر النساء، على الأقل كمعظمهن. لقد تربّتْ كما يقتضي وضعُها الاجتماعي في وسَطنا، أي كما تتربى جميع نساء الطبقة الميسورة، بلا استثناء، ولا يمكن أن تكون الأمور على غير هذا النحو. واليوم، يرهقون أسماعنا بنمط جديد للتربية النسائية. وذلك كلامٌ لا معنى له: إن تعليم النساء هو بالضبط ما ينبغي أن يكون عليه، في نظام الأشياء القائمة، من وجهة نظر صحية ضريحة وعامةً.

Twitter: @ketab_n

وهذه التربية دائماً مرتبطةً بالرجل. ونحن جميعاً نعلم كيف ينظر الرجل إلى المرأة: الخمرُ والمرأة والغناء، كما يقول الشعراء. انظر، يا سيدي، انظر إلى الشعر والتصوير والنحت، بدءاً من الأشعار الغزلية، إلى تماثيل فينوس وفرينيه بلا غلائل، وسترى أن المرأة ما هي إلا أداة للذّة؛ كذلك هي في أدنى الأحياء وفي صالة رقص في البلاط. ولاحظ مكرَ الشيطان: كان ممكناً التسليم من مرّةٍ بأن المرأة متعةٌ، ولذةٌ (قطعة مختارة) - كلا! لقد أخذ الفرسان يؤلّهون المرأة (ولم يمنعهم ذلك من اعتبارها أداةً للذة)، وفي أيامنا هذه نزعمُ نحن أننا نحترمها. أولئك ينهضون ليُخلوا لها المكان ويلمّوا المنديل الذي تركته يقع؛ وهؤلاء يعترفون بحقها في الاضطلاع بالوظائف العامة، والمشاركة في حكومة البلد، الخ... كل ذلك حسنٌ، لكن وجهة النظر هي هي: إذ تظل المرأة أداة للذة؛ جسدها مصدرٌ للذة. وهي تعلم ذلك. لكن الرقّ، يا سيدي، ما هو إلا الفائدة التي يجنيها بعضهم من العمل الشاق الإجباري الذي يقوم به الكثيرون. وإذن، فلكي لا يكون هناك رقٌّ ينبغي أن يتخلى الناس عن العمل الشاق والإجباري الذي يقوم به الآخرون، وأن يعدّوا ذلك خطيئة وعاراً. بيد أن الناس ألغوا أشكال الاستعباد الخارجية، ومنعوا بيع الأقنان، وتصوروا واقتنعوا أن الرق لم يعد موجوداً، وهم يأبون أن يروا أنه مايزال باقياً، لأن الناس يحبون دائماً أن يستغلوا جهد الآخرين، وهم يعتقدون أنهم يتصرفون تصرفاً عادلاً تام العدالة. وماداموا يحكمون على هذه الطريقة بأنها عادلة فسيوجد أبداً أناسٌ أقوى وأشد مكراً من غيرهم لمعرفة استخدامها. وكذلك الأمر فيما يتصل بتحرير المرأة. إن استعبادها يقوم فقط على أن الرجال يجدون من العدل أن يعتبروها أداةً للذة. نعم، بالتأكيد: إننا

Twitter: @ketab_n

نعطيها الحرية، ونمنحها الحقوق نفسها التي للرجل، لكننا نظل نعتبرها أداةً للذة، هكذا تُربى منذ طفولتها، وهكذا تظل في نظر الرأي العام. ولذلك تظل المرأة أمةً مُذَلةً فاسدة، والرجل تاجر رقيق داعر...

لاشك أنهم يحررون المرأة في الجامعة والبرلمان، لكنهم لا يكفّون، من أجل ذلك، عن معاملتها كآلةٍ للذة. وماداموا يعلّمونها، كما يُمارس عندنا، أن تعتبر نفسها كذلك، فستظل المرأة كائناً أدنى. فإما أن تستعين بمساعي الأطباء الدجالين لتحول دون الحمل، وبعبارة أخرى، إنها تنحط إلى مرتبة المومس السوقيّة، إلى مرتبة أدنى من الحيوان، وإما أن تصبح ما هي عليه، فعلاً، في معظم الحالات، مريضةً، مصابة بالهستيريا، بائسةً حُرمت من الأمل بنموها الأخلاقي.

لا تستطيع المعاهد والكيات أن تغير شيئاً من ذلك. فلكي تتغيّر الأشياء ينبغي أن يتفق الجنسان على النظر إلى الوضع من زاوية أخرى. ولن يتغير ذلك إلا يوم تعد المرأة فيه حالة العذراوية أكمل الحالات، لا كما تفعل الآن، إذ تبدو أكملُ الحالات كأنها عارٌ وخزيٌ. ومن الآن وإلى أن يتحقق ذلك، سيكون المثل الأعلى لكل فتاة، مهما يكن تعلّمها، أن تجتذب أكبر مقدار ممكن من الناس، أكبر مقدار ممكن من الذكور، لكي تستطيع الاختيار.

وكون الواحدة، أقدر في الرياضيات، والأخرى تستطيع العزف على القيثار، لا يمكنه أن يغيّر شيئاً. والمرأة تعد نفسها سعيدةً، مشبعةً لرغباتها، عندما تتوصل إلى أن تَفتن رجلاً. ولهذا كان الهدف الأسمى لحياتها أن تغري الرجل. يصح ذلك على الماضي كما يصح على

Twitter: @ketab_n

المستقبل. يبدأن فتياتٍ وينتهين إذا ماتزوجن. ذلك ضروري للفتاة ليكون في يدها الاختيار، وضروري للمرأة المتزوجة لكي تسيطر على زوجها بهذه الوسيلة.

شيءٌ واحد يوقف مطامحها موقّتاً، أو على الأقل يخفف منها: وهو الأمومة، وأيضاً بشرط ألا تكون المرأة وحشاً وترضع طفلها بنفسها. لكننا نجد هنا أيضاً الأطباء.

كانت امرأتي تحرص على إرضاع وليدها الأول بنفسها - كما فعلتْ على كل حال بالأطفال الأربعة الذين جاؤوا بعده - لكنها أحسّت بالتعب بعد الولادة الأولى. فقرّر الأطباء الذين كانوا يعرّونها بوقاحة ويجسّون في جميع أنحاء جسمها بلا حياء - ولذلك كان عليّ أن أحمد لهم صنيعهم وأدفع لهم أجورهم - قرّر هؤلاء الدجالون الأعزاء أنها ينبغي أن تمتنع عن الإرضاع بعد الآن، وهكذا حُرِمَتْ، منذ الأوقات الأولى، من السبيل الوحيد الذي كان يمكن أن يشفيها من غنجها. استُخدمت مرضعٌ لإرضاع الطفل، وبعبارة أخرى، استغللنا شقاءَ امرأة مسكينة وجهلها فانتزعناها من ابنها لصالح ابننا؛ ولذلك زيّنا رأسها بعصابة بديعة ذات أشرطة. لكن المسألة ليست هنا. الحقيقة أن امرأتي خلال هذه المرحلة التي تحرّرت فيها من الحمل والإرضاع تجلى غنجها الذي كان غافياً، بقوة متزايدة. وفي موازاة ذلك، أحسستُ بأهوال الغيرة التي لم تكفّ عن تعذيبي طوال حياتي الزوجية؛ على كل حال، لا يمكن أن تكون الأمور على غير هذا النحو لدى جميع الأزواج الذين يعيشون مع زوجاتهم كما كنتُ أعيش، أي: عيشة غير أخلاقية.

Twitter: @ketab_n

- ١٥ -

ظللتُ طوال حياتي الزوجية أشعر بعذاب الغيرة. إنما كانت هناك فترات غدا فيها الألم شديد الحدة. إحدى هذه الفترات تلتْ ولادة الولد الأول الذي منع الأطباء زوجتي من إرضاعه. كنت غيوراً أشدّ الغيرة في هذه الحقبة، أولاً، لأن امرأتي كانت تشعر بنوع من القلق الذي يصيب الأم الشابة، والذي ليس سوى نتيجة للاضطراب، الحادث دون سبب حاسم، في نظام الحياة السويّ؛ وثانياً، لأنني إذ لاحظتُ مدى السهولة التي تخلت بها عن واجبها الأخلاقي كأم، استنتجتُ من ذلك، عن علم ودراية، وإن كان ذلك لا شعورياً، أنه من اليسير عليها أيضاً أن تتنازل عن واجباتها كزوجة، ولاسيما أنها كانت في صحة ممتازة، إذ أنها بالرغم من منع الأطباء الدجالين فقد أحسنت إرضاع أولادها الآخرين.

تبيّنت أن صوته يتّخذ نبرة شرسة كلما ذكر الأطباء، فلاحظتُ:

- كأنك لا تحبّ الأطباء كثيراً.

- ليست المسألة أن نعلم إن كنتُ أحبهم أو لا أحبهم. هناك شيءٌ مؤكد: لقد أفسدوا حياتي، كما أفسدوا ويُفسدون حياة الآلاف، بل مئات الآلاف من الناس. ولا يمكنني أن أمنع نفسي من إقامة علاقة هي علاقة السبب بالنتيجة... أنا أفهم تماماً أنهم يسعون إلى كسب المال، مثلهم مثل المحامين وكثيرين غيرهم، وسأعطيهم طواعية نصف مواردي، وكل واحد سيفعل مثل ذلك، لو أدرك فقط الشر الذي يقترفونه عندما يخطر لهم أن يتدخلوا في حياتك العائلية، بل

Twitter: @ketab_n

أن يقتربوا منا ليس غير. لاحظ أنني لم أجمع معلومات، لكني أعرف عشرات الحالات – وما أكثرها! – قتل فيها الأطباء الطفل في رحم أمه، زاعمين أنها لا تستطيع أن تتحمل الوضع، في حين اتضح فيما بعد أن هذهِ المرأة نفسها قادرة على إنجاب صبي؛ أو أنهم قتلوا الأم حينئذ عن طريق التدخل الجراحي. و لم يعدّ أحدٌ هذا القتل جريمة، كما لم يُعَدّ ما اقترفته محاكم التفتيش من قتلٍ جرائمَ، لأن المسلَّم به أن هؤلاء الناس يتدخلون لخير الإنسانية. إن عدد الجرائم التي ارتكبها الأطباء لا يُحصى. لكن جميع هذه الآثام ليست شيئاً إذا قورنت بالفساد الأخلاقي الذي يفرضونه على العالم، وعلى وجه الخصوص عن طريق النساء.

لا أحدثك عن خطر العدوى الذي يرونه دائماً وفي كل مكان. ولو أصغى الناس إليهم لفروا بدلاً من أن يجتمعوا، وبرأيهم أن كل واحد ينبغي أن يظلّ بمعزل عن الآخرين، وأن يضع دائماً في فمه محقناً مملوءاً أبداً بحامض الفينيك (وهو، على كل حال، غير ناجع بحسب الاكتشافات الأخيرة). لكن هذا ليس شيئاً أيضاً. إن السم الرئيسي يكمن في الطريقة التي يُفسدون فيها العالم، ولاسيما النساء.

لن تستطيع أن تقول الآن: «معيشتك سيئة، حاول أن تعيش معيشةً أفضل». ليس لك الحق في أن تقول هذا لا لك نفسك ولا للآخرين، لأنك إذا كنتَ تعيش معيشة سيئة فالذنبُ يقع على عمل الأعصاب الناقص أو عمل شيء من النوع نفسه. ويجب عليك أن تذهب لتستشير الأطباء الذين يصفون بخمسة وثلاثين كوبيكا الدواءَ الذي تأخذه من عند الصيدلي وما عليك إلا أن تتجرّعه!

Twitter: @ketab_n

وتحسّ أن حالتك تسوء؛ وإذا بك تستشير مزيداً من الأطباء والدكاترة، وتتمّ اللعبة!

لكن المسألة ليست هنا أيضاً. أردتُ فقط أن أقول لك إن امرأتي استطاعت تماماً أن ترضع أولادها الآخرين، وأن حملها المتتالي وإرضاعها كانا يُحرّراني مؤقتاً من عذاب الغيرة. ولولاهما لوقع كل شيء قبل ذلك بكثير. كان الأولاد يحمونا، هي وأنا، في ثمانية أعوام وضعت خمسة أولاد أرضعتهم جميعاً ما عدا الأول.

سألتُ:

- وأين أولادك الآن؟

فردد مرتعباً:

- الأولاد؟

- معذرة، ربما شقّ عليك أن تتذكّرهم؟

- لا، أبداً. أخت زوجتي وأخوها هما اللذان أخذا الأولاد. لم يشاءا أن يعطياني الأولاد. وهبتهما كلّ ثروتي فرفضا أن يعيدا الأولاد. ذلك لأن بي مسّاً من جنون، برأيهما. وأنا عائدٌ في هذه اللحظة من عندهما. رأيت أولادي لكنهم لن يعودوا إلي. ولو عادوا لنشأتهم تنشئة بحيث لا يشبهون أبويهما. لابد أن يماثلوهما الآن، أليس كذلك؟ ما العمل، إذن!

- طبيعي أنه لا يمكن أن يُعهد بهم إليّ. على كل حال، لا أعلم

Twitter: @ketab_n

حتى إن كنتُ قادراً على تنشئتهم. وأظنني غير قادر. أنا رجل مُنتهٍ، أنا مدمر، أنا مريضٌ به عاهة. ليس فيَّ سوى شيء واحد. إنني أعلم. نعم، يا سيدي، هذا صحيح، إنني أعلم ما لن يعلمه الناس في زمن قريب.

نعم إن أولادي أحياء، وهم يكبرون كما يكبر المتوحشون، شبيهين بمن يحيط بهم. رأيتهم، ثم رأيتهم ثلاث مرات أخرى. لكنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً لهم. وأنا عائدٌ الآن من عندهم إلى بيتي، في الجنوب حيث أملك منزلاً صغيراً وحديقةً.

- ١٦ -

- ذكّرتني بأولادي... وهنا أيضاً، ما أفظع الأكاذيب التي تُختلق بصدد الأطفال، يا سيدي! هم نعمةٌ من السماء، هم الفرح. هكذا يُقال عنهم. وليس هذه الأقوال سوى أكاذيب. كان يمكن أن تكون صحيحة فيما مضى من الزمن، أما الآن فلم يبق شيء من ذلك. الأولاد عذاب، ولا شيء غير ذلك. على كل حال، معظم الأمهات يُحسسن بذلك إحساساً جيداً، وهن يعبّرن عن ذلك، في بعض الأحيان، بكل بساطة، وإن كان بغير إرادتهن. اذهب إذن واسأل أكثرية الأمهات المنتميات إلى وسطنا الميسور: سوف يقلن لك إنهن يُؤثرن، خوفاً من أن يرين أولادهن عرضةً للمرض أو الموت، ألا يكون لهن أولاد، فإذا أنجبن أطفالاً لم يشأن إرضاعهم لكي لا يتعلّقن بهم، لكي لا يتألمن. إن الفرح الذي يوفّره لهن الولدُ بسحر جسمه الصغير، بيديه النحيفتين، بقدميه اللطيفتين، إن هذا الفرح أقل من الألم الذي يُقاسينه وهن يتخوّفن من

Twitter: @ketab_n

المرض أو الموت، دَغْلَكَ من المرض نفسه والموت نفسه. وحين يوازنّ بين الحسنات والسيئات يتبيّن أن الميزان رجحتْ فيه كفّةُ السيئات، ولذلك يؤثرن ألاّ ينجبن أطفالاً. إنهن يقلن ذلك صراحة، وهن يملكن الشجاعة على الاعتراف به، لأنهن يتصورن أن هذه العواطف تنبع من حبهن لأولادهن، وهو حبٌ جديرٌ بالثناء يفتخرن به. وهن لا ينتبهن إلى أن هذه المحاكمة تُنكر الحب وتؤكد أنانيتهن فقط. يتراءى لهن أن المخاوف التي يشعرن بها على الأولاد تفوق الأفراح التي يمكن أن يوفروها. وإذن : لا ولد ولا حبّ، إنهن لا يضحين بأنفسهن للكائن المحبوب، لكنهن يضحين لأنانيتهن بالكائن المدعو إلى أن يُلهم الحبّ.

من الواضح أن ذلك ضربٌ من الأنانية، وليس شيئاً آخر. لكننا لا نملك الشجاعة لإدانة هؤلاء الأمهات الميسورات، على أنانيتهن، عندما نفكر في كل ما يعانينه أثناء مرض أولادهن، ودائماً بفضل أولئك الأطباء الأعزاء الذين يحق لهم إبداء رأيهم في حياتنا، حياة السادة الأغنياء. وعندما أفكر فقط في حياة امرأتي عندما صار لنا ثلاثة أولاد ثم أربعة، وعندما استغرقوها استغراقاً كاملاً، يتملكني الرعب! ارتدّت حياتنا إلى الصفر. كانت حياتنا تهديداً متصلاً، لا يُنحّى الخطر إلا ليعود، وتعود معه الجهود الجديدة البائسة، والسلامة الجديدة؛ والخلاصة أننا كنا نكابد باستمرار مكابدة الناس الذين هم على ظهر سفينةٍ في سبيلها إلى الهلاك. وكان يبدو لي أحياناً أنها تفعل ذلك عن عمد، وأنها تتظاهر بالقلق لتُحكم سيطرتها علي. كانت تلك طريقة سهلة وفتّانة بالفعل، لحل جميع المشكلات لصالحها. وأحياناً كنتُ أعتقد أن كل ما تقوله وتفعله في هذه المناسبات مقصود. كلا، كان عذابُها واقعياً. كانت مجنونة من القلق على صحة أولادها. وكان

Twitter: @ketab_n

عذابُها عذاباً لي أيضاً وكان يستحيل عليها ألا تتعذّب. فالانجذاب إلى الأطفال، والحاجة الحيوانية إلى إرضاعهم، وتدليلهم، وحمايتهم، كل ذلك كانت تملكه كمعظم النساء، لكن كان ينقصها ما تملكه الحيوانات: غياب الخيال والمحاكمة. الدجاجة لا تخاف شيئاً على صغيرها، وهي تجهل الأمراض التي قد تصيبه، وهي لا تعرف الأدوية التي يتصور الناس أنهم يستطيعون بها إنقاذك من المرض ومن الموت. وصغار الدجاجة ليست مصدر هموم للدجاجة. وهي تفعل لصغارها ما هو طبيعي وما هو سار. وصغارها فرحٌ لها. وعندما يقع أحد صغارها مريضاً تلجأ الدجاجة الأم إلى رعايةٍ محددة جداً: إنها تدفئه وتطعمه. وهي حين تفعل ذلك تعلم أنها تفعل كلّ ما يجب أن تفعله. وإذا هلك الصغير لم تتساءل لماذا مات، وإلى أين ذهب؛ إنها تنقّ قليلاً ثم تتوقف، وتستمر في عيشها كما كانت تعيش في الماضي. بيد أن الأمر ليس كذلك لا بالنسبة إلى نسائنا المسكينات ولا بالنسبة إلى امرأتي. وبصرف النظر عن النصائح التي لا تحصى عن الأطفال في حال مرضهم، وعن الآراء في تربيتهم، الخ... كانت تقرأ كمية من الكتب المتنوعة عن طريقة تربية الأطفال، كيف يجب أن أطعمهم؟ لا، هذا خطأ، والطريقة الصالحة هي التالية: فلكي نُلبسهم ونغسلهم وننومهم وننزههم، ونجعلهم يتنفسون بهذه الطريقة أو تلك، لذلك كله كنا نتعلم - وهي على وجه الخصوص - كل أسبوع قواعد جديدة. وكأن الناس بدأوا يلدون الأولاد منذ عشية البارحة فقط!...

وإذا جرى عَرَضاً أننا لم نطعم الأولاد بالطريقة الصحيحة، وأننا أسأنا غسلهم أو غسلناهم في ساعة غير مناسبة، وأصاب الوَلد مرض غدا كلُ شيء بسبب خطتنا، لأننا لم نفعل ما كان يجب أن نفعله.

Twitter: @ketab_n

وكل ذلك، والأولاد في صحة جيدة. كان ذلك عذاباً قبل المرض. فإذا مرضوا كان ذلك نهاية كل شيء، جحيماً حقيقياً. ومن المسلّم به أن الأمراض تُعالج وأن هناك علماً ورجالاً - الأطباء - يعرفون كيف يشفونها. لا الأطباء جميعاً، بل خيرهم هم الذين يعرفون. وها إن الولد يُصاب بالمرض، ويجب أن نعثر على الطبيب الذي هو خيرٌ من غيره، على الذي يُنقذ الصبي، وحينئذ يُنقَذ الصبي. لكن إذا لم نستطع أن نصل إلى مثل ذلك الطبيب، وإذا كنا نسكن مدينةً أخرى غير مدينته فالولد هالكٌ. ولم يكن هذا الاقتناع شخصياً خاصاً بامرأتي، فجميع نساء وسَطِها كنّ يفكّرن تفكيرها، وكانت لا تسمع، من كل جانب، سوى أحاديث من هذا النوع: «فقدتْ «كاترين سيميونوفنا» ولدين لأنها لم تدعُ في الوقت المناسب «إيفان زاكاريتش»، وعند ماري إيفانوفنا أنقذ إيفان زكاريتش ابنتها البكر، بينما اتبع آل بيتروف نصيحة الطبيب فعزلوا الأولاد في الوقت المناسب، في فندق، وعاش الأولاد ولو لم يُعزلوا لماتوا...» وهناك امرأة أخرى كان لها ولدٌ هزيل فأنقذته إذ أخذته إلى الجنوب بحسب تعليمات الطبيب. وكيف تريد ألا تتعذّب أم طوال حياتها عندما تتوقف حياة أولادها الذين يربطها بهم رابط حيواني على معرفة رأي إيفان زاكاريتش في الوقت المناسب! وما يقوله إيفان زاكاريتش يجهله جميع الناس، لأنه ليس واثقاً إلا من شيء واحد، ذلك أنه لا يعرف شيئاً، وأنه لا يستطيع أن يُقدم معونة، وهو يصف الدواء، كيفما يتفق له، لكي لا يكفّ الناس عن الاعتقاد بأنه يعرف شيئاً ما. ولو كانت المرأة حيواناً تماماً لما عذّبت نفسها هكذا، ولو أنها كانت إنساناً تام الإنسانية لكان لها إيمانها، ولفكرت وقالت ما يقوله المؤمنون: «الله أعطى والله أخذ، ولا رادّ لمشيئته».

Twitter: @ketab_n

والخلاصة أن الحياة مع الأطفال لم تكن فرحاً بل كانت عذاباً لامرأتي، وبالتالي لي أنا... وكيف لا تتألم؟ كانت تتألم دون انقطاع. وأحياناً، كنا لا نكاد نجد السكينة بعد سَوْرةِ غَيْرة أو مجرد خصام، ولا نكاد نفكر بأننا نستطيع أن نعيش هادئين فنقرأ ونُخلد إلى التأمل، ولا نكاد نجد متسعاً من الوقت للشروع في شيء ما، حتى نُعلم بأن فاسيا، تتقيأ وأن ماشا تبرّز دماً، وأن أندريه أُصيب بطفح جلدي، فينتهي الأمر، ولا يبقى من سبيل إلى الحياة. إلى أين نجري، وأي طبيب نستدعي، كيف نعزل الأولاد؟ ونُسرع إلى الحقن، وقياس الحرارة والعقاقير والأطباء. ولا يكاد يمرّ نذيرُ الخطر هذا حتى يبدأ آخر. كان مستحيلاً أن تكون حياتنا العادية، المتوازنة. نحن نعيش، كما قلتُ لك في خوف دائم من الأخطار الوهمية أو الواقعية. والأمر كذلك في جميع الأسر تقريباً، هذه الأيام. وكان شديد الحدّة في أسرتي. لقد كانت زوجتي امرأةً مسرفة في أمومتها، مفرطةً في سرعة تصديقها.

ومن جراء ذلك، لم يكن وجودُ الأولاد مدعاةً للوفاق في حياتنا الزوجية، على العكس، كان لا يفتأ يسممها. وفضلاً عن ذلك كان الأولاد موضوعاً جديداً للشقاق. فمنذ ولادتهم كانوا كلما كبروا غدوا أكثر فأكثر سبباً وذريعة للخصام. لم يكونوا ذرائع للخصام فحسب، لكنهم كانوا أسلحةً حقيقية للقتال: لم يبق علينا إلا أن نتبادل الضربات بهم. وكان لكل منا ولده المفضل، سلاحه الذي يؤثره على غيره. كنتُ أقاتل في الأغلب بفاسيا البكر، وزوجتي بـ «ليز». أضف إلى ذلك، عندما كبر الأولاد، وعندما تحدّدت طباعُهم، غدوا حلفاء حقيقيين يسعى كلٌّ منا إلى كسبه لقضيته. كانوا يتألمون كثيراً، هؤلاء المساكين، لكننا كنا مشغولين، في صراعاتنا المستمرة، بأشياء أخرى لا

Twitter: @ketab_n

بهم. غدت الصغيرة حليفةً لي، بينما كان ابني البكر الذي يشبه أمه والذي كان المفضل لديها، يوحي إلي بالكره.

- ١٧ -

هكذا كنا نعيش. ازدادت علاقتُنا توتراً، وفي النهاية، بلغت الأمورُ مبلغاً كان العداء هو الذي يثير الشقاق؛ لقد كان رأيي يخالف سلفاً رأي امرأتي، مهما تقل، وكانت هي كذلك من جانبها.

في أثناء السنة الرابعة، كان واضحاً أننا لا نستطيع أن نتفاهم ولا أن نتفق، وإن لم يكن هناك من حاجة إلى الاعتراف بذلك بيننا. بل لقد عَزَفنا عن محاولة التعمق في الأشياء. وظل كلٌ منا في مواقعه إزاء أبسط المسائل، ولاسيما فيما يتصل بالأولاد. وحين أتذكر ذلك الآن أبين أن الأفكار التي دافعتُ عنها لم تكن عزيزة علي إلى الحد الذي أعجز معه عن التضحية بها؛ لكن امرأتي كان رأيها مناقضاً لرأيي، والتنازل عن رأيي يعني التنازل لها. وذلك ما لم أكن أستطيعه. وكانت من جانبها في النقطة نفسها. وأنا أراهن أنها كانت تعتقد دائماً أنها على حق؛ أما أنا فكنت أعدّ نفسي قديساً في علاقاتي معها. وإذا ما خلونا، أنا وهي، كان محكوماً علينا بالصمت، أو بأحاديث، أنا على يقين أن الحيوانات يمكن أن تتداولها فيما بينها: «كم الساعة؟... حان وقت النوم... ماذا سيُقدَّم في عشاء هذا المساء؟... إلى أين نذهب؟... ماذا تقول الصحف؟.... يجب أن نستدعي الطبيب، ماشا مصابة في حنجرتها. وكان يكفي أن نبتعد مقدار شعرة عن هذه الدائرة الضيّقة حتى يثور الغضب، وتنفجر

Twitter: @ketab_n

المشاحنات وكلمات الكراهية بصدد القهوة، وغطاء المائدة، والعربة، وهجوم بورق اللعب، وكلها مسائل لا يمكن أن يكون لها أية أهمية لا لها ولا لي. فيما يتصل بي على الأقل، كنتُ أحسّ بكراهية شرسة تغلي نحوها! كنتُ أراها أحياناً تسكب الشاي، وتهزّ قدمها، أو ترفع الملعقة إلى شفتيها، وتمتص الشاي، فأكرهها من أجل ذلك بالذات، وكأنها اقترفت أسوأ الآثام. و لم أفهم حينئذ أن نوبات الحقد كانت تنبجس فيَّ على فترات منتظمة متناغمةٍ مع فتراتٍ مما نسميه الحب. وقتٌ للحب ووقت للكراهية؛ فترة حب أعنف، وفترة كراهية أطول؛ وقت للحب المغشّى تتلوه نوبةٌ قصيرة من الكراهية.. و لم نكن نفهم حينئذ أن هذا الحب وتلك الكراهية ليسا سوى القطبين المتعاكسين لعاطفة حيوانية واحدة. كانت الحياة ستبدو غير محتملة لو تبينا وضعنا بوضوح. لكن لم يخامرنا الشك في شيء. وها هنا بالذات خلاصُ الإنسان وعقابه: فعندما لا يعيش المرء حياةً سويةً يمكنه أن ينخدع فلا يرى الشدة التي هو فيها. هذا بالضبط ما كنا نفعله. كانت تبحث عن النسيان في مشاغل مستعجلة: العناية بشؤون المنزل، الأثاث، الصوان، العناية بالأولاد، ودروسهم وصحتهم. وأنا كانت لي فتراتُ هروبٍ شخصية: الشراب، الخدمة، الصيد، ورق اللعب. كنا مشغولِين نحن الاثنين باستمرار. وكنا نعلم أننا كلما ازددنا انشغالاً ازداد كلٌ منا قدرة على إظهار خبثه نحو الآخر. كنت أقول في نفسي: عبثاً تتصنعين، لقد عذبتني طوال الليل بمشاحناتك، ولديّ مجلس إدارة».

وكانت هي تفكّر من جانبها، بل وكانت تجهر بما تفكّر فيه أحياناً: عجباً، أنت مستهتر! لم تغمض لي عينٌ طوال الليل وأنا سهرانة على ابني». وكل هذه النظريات الحديثة عن التنويم المغناطيسي والأمراض

Twitter: @ketab_n

العقلية والهستريا ليست أشياء تافهة لكنها أشياء مؤذية وكريهة. ومن المؤكد أن «شاركو» كان سيجد امرأتي مصابة بالهستيريا، أما أنا فكان سيعالجني على أني فاقدٌ لتوازني، ولعله كان سيشفينا نحن الاثنين. ومع ذلك فليس بنا ما يُشفى منه.

وإذن فقد كنا نعيش هكذا في ضباب دائم، دون أن نفطن لوضعنا، ولو لم يقع الحل لعشت هكذا حتى الشيخوخة، ولظننتُ على فراش الموت أني عشت حياة مناسبة، لا هي متألقة ولا هي رديئة، حياة سائر الناس، ولما فهمتُ تلك الحمأةَ من الشقاء ومن الكذب الدنيء التي لم أكف عن التخبط فيها.

لم نكن سوى محكومين بالأشغال الشاقة، مشدودين إلى سلسلة واحدة، متباغضين، يسمم كل منهما حياة الآخر وهو يحاول ألا يُبصر ذلك. و لم أكن أعلم آنذاك أن تسعة وتسعين بالمئة من الأزواج يعيشون في الجحيم نفسه، وأن الأمور لا يمكن أن تكون على نحو آخر. في هذه اللحظة كنتُ أجهل ذلك عن الآخرين كما كنتُ أجهله عن نفسي.

لكن المدهش حقاً أن نرى المصادفات التي تحدث في الحياة العادية وحتى غير العادية. ففي الفترة ذاتها التي تغدو فيها الحياة المشتركة غير محتملة لدى الزوجين، تتطلب تربية الأطفال تغييراً في الحياة وسواء شئنا أم لا فنحن نرى أنفسنا مكرهين على السفر إلى المدينة.

صمت، وعلتْ مرتين ضحكته المتقطعة التي غدت أشبه بنحيب مخنوق. واقتربنا من محطة. فسأل:

Twitter: @ketab_n

- كم الساعة؟

نظرت إلى ساعتي. كانت الثانية.

واستفسر ثانية:

- ألم تتعب؟

- إطلاقاً، لكنك أنت ربما تعبتَ؟

- إني أختنق. اسمح لي. سأتمشى قليلاً وأشرب قليلاً من الماء.

عَبَر العربة وهو يترنَح. ولما بقيت وحدي استعدتُ بفكري كلّ ما قاله لي، وكنتُ مستغرقاً جداً. بحيث أني لم أره وهو يدخل من الباب الآخر.

- ١٨ -

استأنف كلامه قائلاً:

- لقد تحمستُ وانحرفتُ عن موضوعي. إني فكرت طويلاً. وكثيرٌ من الأشياء ظهرت لي بمظهر جديد، وأنا أجد حاجة إلى الكلام عليها.

- أقمنا إذن في المدينة. وفي المدينة يمكن للمرء أن يعيش مئة عاماً دون أن يخامره الشك بأنه ميت منذ زمن بعيد، ومتفسّخ. ليس فيها

Twitter: @ketab_n

الفراغ الذي يتيح له أن يحلل نفسه، فهو مشغول أبداً بالأعمال، والعلاقات الاجتماعية، والصحة، والفنون الجميلة، ومرض الأولاد وتربيتهم. وينبغي له استقبال مختلف الناس، أو القيام بزيارات، أو الذهاب لسماع فلان يعزف وفلان يغني. وهناك شخصيات مشهورة لا يجوز أن يفوته الاقتراب منها. ثم إن هناك علاجاً يجب أن يُثابر عليه، له أو لغيره، وأناساً لابد من العناية بهم كالمربي والمعلم الخاص والمربيات، ومع هذا كله فالحياة فارغة فراغاً كلياً.

والخلاصة أننا عشنا، وبدت لنا هذه المعايشة أقل مشقّةً. أضف إلى ذلك أنه كانت لنا في البداية مشاغل عجيبة: استقرارنا في مدينة جديدة، في مسكن جديد، ثم تلك التسلية أيضاً وهي الرحلات المتعددة من المدينة إلى الريف، ومن الريف إلى المدينة لإتمام سكنانا.

مرّ شتاء على هذا النحو، وفي الشتاء الثاني حدث حادث في ظاهره سليم العاقبة، لكنه كان سبباً لكل ما حدث بعد ذلك.

كانت امرأتي مريضةً، وقد منعها الأطباء من الحمل الجديد وأشاروا عليها بالوسيلة المانعة للحمل. وجدتُ ذلك منفراً، فقاومته، لكنها لم تتزعزع واستمرت في عنادها الطائش، فلم أجد بداً من الانصياع؛ المبرّر الوحيد لحياتنا الحيوانية - الأولاد - قد أُخذ منا، وغدت حياتنا أسوأ من ذي قبل.

إن الفلاح والعامل محتاجان إلى الأولاد؛ إنهما يحتاجان إليهم بالرغم مما يعانيانه من مشقّة في تربيتهم، وبذلك تغدو حياتهما الزوجية مبررة. أما نحن الذين يملكون أولاداً ولا يريدون أولاداً آخرين، فإن

Twitter: @ketab_n

الأولاد يشكلون لهم مزيداً من الهموم والنفقات والمشاركين في الإرث، وذلك عبء. ولا شيء يبرر حياتنا الخنزيرية. فإما أن نلغي الولد إلغاء اصطناعياً، وإما أن نعدّه نتيجة غفلة، وهو شيء أشد تنفيراً.

ليست لنا أعذارنا. لكننا انحططنا أخلاقياً إلى أسفل درك حتى إننا لا نجد ضرورة لتبرير أنفسنا.

إن الجزء الأكبر من العالم المثقف يتعاطى اليوم هذا الفسق دون أدنى تبكيت للضمير.

لاشيء، على كل حال، يمكنه أن يثير تبكيت الضمير لأن الضمير قد أُلغي من حياتنا، ماعدا تبكيت الرأي العام أو قانون الجزاء، إذا صحّ هذا التعبير. وفي الحالة التي نحن بصددها لم يحدث اختلال بأي منهما. لا مجال للخجل إزاء المجتمع، فذلك شيء يمارسه الناس جميعاً، ماري مافلوفنا وإيفان زاكاريتش على حد سواء. ولَمْ يُنجب الناس أطفالاً معدمين مستقبلاً، ولَمْ يحرمون أنفسهم مباهج الحياة الاجتماعية الراقية؟ ولا مجال أيضاً للخجل من قانون الجزاء أو الخوف منه. البغايا والجنود وحدهم هم الذين يلقون بأطفالهم في المستنقعات أو الآبار، وهؤلاء يجب أن يُرموا بالتأكيد، في السجون، أما عندنا نحن، فالأشياء تتمّ بنظافة وفي الوقت المطلوب.

هكذا عشنا سنتين أخريين أيضاً. لقد أخذت وصفةُ هؤلاء الأطباء الحقيرين تحدث كما يبدو تأثيرها، فأخذت امرأتي تزداد امتلاء وجمالاً بسرعة، وكأن جمالها الجمال الأخير في فصل الصيف. اكتسبت ذلك الحسنَ الذي يثير الاضطراب في الرجال. كانت في كامل بهاء ابنة

Twitter: @ketab_n

الثلاثين - المرأة التي لم تعد تنجب أطفالاً، المرأة الحسنة الغذاء والمُثارة. كان مظهرها وحده مثيراً، فإذا مرّت بين الناس اجتذبت الأنظار جميعاً. كانت مثل فرسٍ أصيل معلوفةٍ مربوطة دائماً، مستريحة أطول زمن، دون أن تُلجم. لم يكن من شيء يكبح جماحها (وهذا شأن تسع وتسعين بالمئة من النساء) أدركت ذلك وارتعبت.

- ١٩ -

وفجأة نهض وجلس بحذاء النافذة، وقال وهو يحدق بالباب:

- معذرة.

وظل صامتاً ثلاث دقائق. ثم تنهد تنهداً عميقاً وعاد فجلس قبالتي. لم تكن سحنتُه هي نفسها. واتخذت عيناه تعبيراً مثيراً للشفقة، وغضّنت شفتيه ابتسامةٌ غريبة.

أنا مُتعب قليلاً لكني سأكمل قصتي. فلدينا متسع من الوقت، و لم يطلع النهار بعد.

استأنف قائلاً وهو يشعل سيجارة:

- نعم، لقد سمنت منذ أن تحاشت الحمل، أما مرضُها - ذلك الألم الدائم من أجل الأولاد - فبدأ يختفي؛ أو، على الأصح، كأنما صَحَتْ وعاد إليها وعيُها، وشاهدت حولها عالماً خلقه الله بمباهجه التي نسيتها والتي لم تعد تعرف كيف تعيش فيه، عالماً خلقه الله و لم

Twitter: @ketab_n

تعد تفهمه. «لا تفوّتي الفرصة، على الخصوص. لا سبيل إلى استدراك الوقت الذي فات!» هذا ما تصوّرت أنها تفكّر فيه أو تحسّه. لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك: لقد تربّت بهذه الفكرة وهي أنه ليس في العالم سوى شيء واحد جدير بالاهتمام: الحب. تزوّجت وتلقّت شيئاً من هذا الحب، لكن من بعيد، لا كما وُعدت به، ولا كما كانت تنتظر؛ وفي الوقت نفسه، عرفت كثيراً من خيبة الأمل، ومن الآلام، ومن العذاب غير المتوقع: ذلك القطيع من الصبية!هذا العذاب استنفد قواها. وها هي ذي تعلم أنها تستطيع تفاديه، وذلك بفضل الأطباء اللطفاء. فرحتْ بذلك وجرّبت الطريقة وأحسّت أنها تعود إلى الحياة، من أجل الشيء الوحيد الذي تعرفه: الحب. لكن حب الزوج الذي دنّسته الغيرة وصنوفٌ أخرى من الخبث ليس هوالحب الذي تريده. أخذت تحلم بحب آخر نقيٍّ وجديد: على الأقل هذا ما ظننته. أخذت تنظر حواليها وتنتظر. لاحظتُ ذلك، ولم أتمالك نفسي من القلق. كانت تعبّر بجرأة، في كل مناسبة، وعن طريق الآخرين، أي توجّه إلى الآخرين كلاماً أنا المقصود به، كما كانت تفعل دائماً، تعبر بجرأة عن أفكار متعارضة تعارضاً صارخاً مع ما قالته قبل ساعة، وتؤكد بجد تقريباً أن الحب الأمومي ليس سوى خدعة، وأن من غير المجدي أن نضحّي بالحياة من أجل الأولاد، ولم تكن يقظتها مشبعة باليأس كما كانت من قبل، لكن عنايتها بشخصها وبجمالها ازدادت، وإن بذلت وسعها كي لا تدع شيئاً من ذلك يظهر؛ كانت تفكّر كثيراً بما يسليها، وتسعى إلى استكمال الحسن في كل شيء. وبعد أن كانت قد أهملت البيانو زمناً طويلاً، عادت إليه بشغف. وكان هذا في أصل كل ما حدث.

Twitter: @ketab_n

ومرة أخرى حوّل عينيه بنظرتهما المتعبة نحو بوابة القطار، لكنه ما لبث أن بذل جهداً واضحاً وتمالك نفسه وتابع كلامه:

- نعم، ففي هذه الأثناء ظهر ذلك الرجل...

بدا مرتبكاً وضحك مرتين ضحكته المتقطعة الغريبة.

لاحظتُ أن من الشاق عليه تسمية الرجل وتذكّره والحديث عنه لكنه قام بجهد جديد، وكأنما توصّل إلى تحطيم العائق الذي عاقه، فاستأنف كلامه بحزم:

- برأيي أن هذا الرجل كان سيداً حقيراً، وشخصاً تافهاً، ولا أقول ذلك بسبب الدور الذي لعبه في حياتي، بل لأنه كان كذلك حقاً. وعلى كل حال، إن كونه دوناً ليس سوى دليلٍ آخر على لا مسؤولية زوجتي: لو لم يكن هو لكان غيره. وما وقع شيء آخر!

أخلد إلى الصمت لحظة، مرة أخرى.

- نعم كان موسيقياً، عازف كمان؛ لم يكن محترفاً بحصر المعنى: كان محترفاً بقدر ما كان رجلاً من المجتمع الراقي.

كان أبوه ملاّكاً عقارياً، جاراً لنا، أفلس، وتوصل الأولاد - كانوا ثلاثة إخوة - إلى تدبّر أمورهم قليلاً أو كثيراً؛ الأصغر وحده الذي أحدّثك عنه، عُهد به إلى إشبينته، في باريس. وهناك أُدخل المعهد الموسيقي، لأنه كان يملك الموهبة الموسيقية؛ وتخرّج منه عازفاً على الكمان، وأقام حفلاتٍ موسيقية. كان رجلاً...

Twitter: @ketab_n

لاشك أنه كان ينوي أن يغتاب الموسيقي، لكنه تمالك نفسه، وقال بحدة:

– وأنا لا أعرف كيف عاش هناك، وكل ما أعرفه هو أنه جاء يزورني، في تلك السنة، بعد عودته من روسيا.

«كانت عيناه زيتيتين، مشقوقتين كاللوز، وشفتاه حمراوين، مبتسمتين، وكان شارباه ملمعين، وتسريحة شعره على آخر زيّ، وكان جمال وجهه جمالاً مبتذلاً – الخلاصة أن مظهره الجسدي كان مما تدعوه النساء ملائماً – كانت بنيتُه ضعيفة، لكنها لا تشويه فيها، وكان ردفاه ناميين على نحو خاص، كما هي الحال لدى النساء، أو لدى شعب «الهوتنتوت»، ويقال عن «الهوتنتوت» إنهم موسيقيون ممتازون. وكان به ميلٌ إلى الألفة، وكان يمعن في هذا المجال دون أن يُخلّ برهافة الذوق، وكان مستعداً دائماً لأن يتوقف عند أقل مقاومة، مع المحافظة على مظهر الهيبة والوقار. كان ينتعل حذاء له أزرار من النوع الباريسي، وربطة عنق صارخة الألوان، وكل ما يكتسبه الغرباء في باريس والذي يترك دائماً في النساء، بجاذبية الجدّة، أثراً وقبولاً. كان في تصرفاته مرحٌ مقصودٌ، مرحٌ خارجي. وكان من نمطِ تعرفه، يتكلم كلاماً لا رابط بين أجزائه، وبالتلميح والإشارة، موهماً سماعه أنه مطّلعٌ على الموضوع، وأنه يتذكره، وأنه يستطيع أن يكمل جُمله.

«هو مع موسيقاه كان السبب لكل شيء. وقد عُرضت القضيةُ في المحكمة باعتبارها مأساة غَيْرةٍ. و لم يكن الأمر كذلك، أي إن من الخطأ الزعم أن الأمر لم يكن كذلك، لكن كان هناك شيء آخر أيضاً. لقد

Twitter: @ketab_n

قررت هيئة المحكّمين أنني كنتُ زوجاً مخدوعاً، لأنني قتلتُ زوجتي دفاعاً عن شرفي المُهان (هكذا عبّروا). ولذلك بُرِّئتُ. وأثناء الجلسات أردتُ أن أشرح لهم المعنى الحقيقي لفكرتي، لكنهم استنتجوا من ذلك أنني أريد أن أردّ لامرأتي شرفَها.

كانت علاقاتها مع هذا الموسيقي قليلة الأهمية بالنسبة إلي، ولها على كل حال. وما كان يهمني فقط هو ما حدّثتك عنه: أي طبيعتي كخنزير. كل ذلك وقع بسبب ذلك التوتر الرهيب الذي كان يبتعثه بغضنا المتبادل حيث تكفي أوهى ذريعة لتفجير الأزمة. وفي الآونة الأخيرة غدت مشاجراتُنا، بكل بساطة، مرعبةً، مذهلةً، تعقبها أحياناً نوباتٌ من الشهوة الحيوانية الشديدة أيضاً. ولو لم يظهر ذلك الرجل لكان هناك رجل آخر. ولو لم تكن هناك ذريعة الغيرة، لكانت هناك ذريعة أخرى. وأنا أصر على أن الأزواج الذين يعيشون كما عشتُ لابد أن يغرقوا في الدعارة أو أن ينفصلوا عن زوجاتهم، أو أن يقتلوهن كما فعلتُ، أو أن ينتحروا. أما الذين ينجون من ذلك فهم استثناءات نادرة. لأنني قبل أن أنتهي من فعل ما فعلت أشرفتُ مراراً على حافة الانتحار، وكذلك حاولت امرأتي أن تسمم نفسها.

- ٢٠ -

- نعم، إلى هنا وصلنا، قبل ذلك الحادث بقليل. كنا نعيش في هدنةٍ، و لم يكن مبرِّر لفسخ تلك الهدنة؛ وفجأة أخذنا نتكلم عن كلبٍ ربح، بحسب معرفتي، ميدالية في أحد المعارض. فردت علي بأن ما

Twitter: @ketab_n

ربحه لم يكن ميدالية وإنما شهادة تكريم. ويبدأ النقاش بيننا، وننتقل من موضوع إلى آخر، ويُنحي كلٌ منا باللوم على صاحبه:

- نعم، أعرفها، القصة دائماً هي نفسها...

- أنت قلتَ...

- لا لم أقل...

- إذن أنا أكذب...

وتحسّ بقدوم ذلك المشهد المروّع الذي تشتهي فيه أن تَقْتل أو تُقْتَل. ترى ذلك الشيء وشيكاً، وتخافه أكثر مما تخاف النار، وتودّ لو تتمالك نفسك، لكن كيانك كله يغدو فريسةً للغضب. وهي في الحالة نفسها إن لم تكن أشد اضطراماً أيضاً؛ وهي تشوّه معنى كلماتي، عن عمد؛ وكل كلمة تقولها - مُشربة بالسم؛ وهي تحاول بخبث أن تصيبني في أشد المواضع حساسيةً وقابليةً. وتتفاقم الأمور تفاقماً متزايداً، فأصرخ بها: «اسكتي» أو صرختُ بشيء من هذا القبيل. فتثب خارج الغرفة، وتركض إلى حجرة الأولاد، وأحاول أن أوقفها، لأنتهي من شرح موقفي، ومن تقديم أدلتي، وأمسك بذراعها، فتتظاهر بأنها تألمت وتصرخ:

- يا أولادي، أبوكم يضربني!

فأصرخ:

- لا تكذبي!

Twitter: @ketab_n

فتصرخ بشيء مثل:

- وليست هذه أول مرة!

ويندفع الأولاد إليها، فتطُمئنهم. وأقول لها:

- لا تمثلي علينا!

فتجيب:

- كل شيء عندك تمثيل؛ أنت تقتل إنساناً ثم تزعم أن من قتلته يتظاهر بالموت. الآن فهمتكَ. وهذا ما أريده!

فصرختُ وقد خرجتُ عن طوري:

- عسى أن تهلكي!

مازال أتذكر كيف ارتعبتُ من هذه الكلمات الرهيبة. ما كنتُ أظن نفسي قادراً على التلفظ بمثل هذه الألفاظ المخيفة، القذرة، وقد ذهلتُ من أنها أفلتت مني. وبعد هذا العنف، هربتُ إلى مكتبي، وتهالكتُ على مقعدٍ، وأخذت أدخن. سمعتها تمرّ إلى البهو وتستعد للذهاب. فسألتها:

- إلى أين تذهبين؟

فلم تجب.

فقلتُ في نفسي: اذهبي إلى الشيطان، قلتُ ذلك وأنا أعود إلى

Twitter: @ketab_n

مكتبي لأتمدد وأدخن. وتمر برأسي ألف خطة للانتقام، وألفُ وسيلة للتخلص منها، وتدبير الأمور، وكأن شيئاً لم يكن. فكّرتُ، ودخنتُ، وأفرطت في التدخين، وخطر لي الهرب، والاختباء، والسفر إلى أمريكا. وقد بلغ بي الأمر أنني أخذت أحلم كيف أتخلص منها وكيف ستكون الحياة جميلة، وكيف سأرتبط بامرأة أخرى، رائعة، مختلف كل الاختلاف عنها. ولكي أتخلص منها يجب أن تموت أو أن أطلقها، وفتّشتُ عن الوسيلة للوصول إلى ذلك. لاحظتُ أن أفكاري تتشوش، وأنني لا أفكر فيه، وأخذت أدخن كيلا أرى أنني قد شردتُ.

بيد أن الحياة في المنزل تستمر. وتأتي المربيةً لتسألني.

- أين السيدة؟ ومتى تعود؟

ويستعلم الخادم إن كان يجب أن يقدّم الشاي. فأذهب إلى غرفة الطعام؛ وينظر إلي الأولاد، والكبار، على الخصوص، وعلى الأرض، «ليز» التي بدأت تفهم، ينظرون إلي مستفهمين ومستنكرين. ونتناول الشاي بصمت. لم تعد امرأتي، وتمرّ السهرة دون أن تعود، وتتداول نفسي عاطفتان: الغضب، فأنا حاقدٌ عليها لأنها تعذّبنا، الأولاد وأنا نفسي، بغيابها، وهي لابد أن تعود في النهاية، والخوف من أنها لن تعود وأنها ستقضي على نفسها. وأود لو أذهب للبحث عنها. لكن أين أبحث عنها؟ في بيت أختها؟ سيكون حمقاً كبيراً أن أذهب للاستعلام عنها: ثم، فليكن، إن كان يسرّك أن تعذّبينا!... لتتعذّب هي نفسها أيضاً.

إنها لا تنتظر غير هذا، لا تنتظر إلا أن آتي لأحضرها. وستكون المرة

Twitter: @ketab_n

القادمة أسوأ أيضاً. وإذا لم تكن في منزل أختها؟ وإذا كانت تشرع في شيء...؟ الحادية عشرة منتصف الليل! لم أذهب إلى الغرفة، ومن البلاهة المفرطة أن أظل ممدداً هنا أنتظرها، لا أرغب في النوم هكذا. يجب أن أفعل شيئاً، أن أكتب رسالةً أو أقرأ، لكنني عاجزٌ عن فعل أي شيء. وأبقى وحدي في مكتبي، أتألم وأتألم، وتثور ثائرتي، وأُصيخ السمع. الساعة الثالثة. الساعة الرابعة - ولما تأتِ بعد. في الصباح، راودني النعاسُ فنمتُ. وعندما استيقظت رأيت أن امرأتي لم تعد.

تابعت الحياة في المنزل سيرها المعتاد، لكن جميع من في البيت حائرون، يرمونني بنظرات متسائلة مُثقلة باللوم، لأنهم يعتقدون أن كل ما جرى يقع وزرُه علي. أما أنا فقد ظل في ذلك الصراع بين الغضب والخوف.

في نحو الساعة الحادية عشرة وصلت أختها للمفاوضة. ودار الحديث المعتاد:

- إنها في حالة فظيعة. ما معنى هذا؟ مع أنه لم يحدث شيء.

فألححت على أن طبع زوجتي لا يُحتمل، وأكّدت أني لم أفعل شيئاً. فأجابتني أختها:

- لكن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذا المنوال.

- هذا يتعلق بها لا بي. ولن أكون البادئ. وإذا شاءت أن ننفصل فلننفصل.

Twitter: @ketab_n

رجعت أختُ زوجتي خائبة. وأكدت لها بجرأة أنني لن أقوم بالخطوة الأولى؛ لكني، بعد ذهابها، شاهدت الأولاد، جديرين بالرثاء، مرتعبين، فإذا بي جاهز للقيام بالمسعى الأول. بل سأكون سعيداً لو قمت به، لكني لا أعرف كيف. ومرة أخرى، أخذتُ أذرع الغرفة طولاً وعرضاً وأدخن وأشرب الفودكا والنبيذ - وأخيراً بلغتُ الهدف الذي كنت أتمناه لا شعورياً: لم أعد أرى حماقة وضعي وتفاهته.

في نحو الساعة الثالثة عادت زوجتي. لم تقل شيئاً حين لقيتني. تصوّرت أنها أذعنت، فأخذت أشرح لها أنني خرجت عن طوري بلومها لي. فأجابتني بسحنتها القاسية والمتألمة ذاتها، أنها لم تأتِ للتفاهم، بل لتأخذ الأولاد، لأن الحياة المشتركة لم تعد ممكنة. فأجبتُ بأنني لست المذنب، وأن الأخطاء إنما تقع عليها لأنها هي التي أخرجتني عن طوري، فتفرّست فيّ وقد بدا عليها الطابع الجدّي والارتسامي:

- كفّ عن الكلام، وإلا ندمتَ.

رددتُ عليها بأنني أكره التمثيليات. حينئذ صاحت بشيء لم أفلح في التقاطه، وهربت إلى غرفتها. سمعتُ المفتاح يدور في قفل الباب، لقد حبستْ نفسها. قرعتُ الباب، وما من مجيب، فابتعدتُ بغضب. وفي مدى نصف ساعة هرعت «ليز» ودموعها تنهمر:

- ما بكِ؟

- لا يُسمع أي صوتٍ في غرفة ماما.

ذهبنا إلى الغرفة. دفعتُ الباب بكل قواي، كانت الدرفةُ غير

Twitter: @ketab_n

محكمة الإغلاق فانفتح الباب على مصراعيه. دنوتُ من السرير. كانت متمددة على السرير بتنورتها وحذائها العالي، في وضع غير مريح، وعلى الطاولة قارورة فارغة: من الأفيون. فأعدناها إلى وعيها، وانهمرت دموع، وكانت المصالحة.

أو على الأصح، إنها لم تكن مصالحة: لقد احتفظ كلٌّ منا في نفسه بالحقد القديم الذي انضاف إليه حديثاً سخطٌ سببه كلٌّ منا للآخر أثناء الشجار الذي كان يعزو كل منا مسؤوليته إلى الآخر. بيد أنه كان لابد من إنهاء هذا الأمر، بهذا الشكل أو ذاك، وعادت الحياة إلى سابق مجراها. وكانت مشاحنات مشابهة إن لم تكن أسوأ تنفجر بلا انقطاع في كل أسبوع أو كل شهر، بل في كل يوم. وكانت تسير على منوالٍ واحد. وذات مرة أخرجتُ جواز سفري للخارج - كان هناك شجارٌ دام يومين، لكن كان هناك نصف تفاهم، نصف مصالحة فبقيتُ.

- ٢١ -

كذلك كانت علاقاتُنا في الفترة التي ظهر فيها هذا الرجل. وعندما وصل موسكو - واسمه تروكاتشفسكي - جاءني زائراً. كان ذلك في الصباح، فاستقبلته. كنا فيما مضى نتخاطب بصيغة المفرد. وقد حاول بواسطة جملٍ مختلطة مزج فيها ضمير المفرد بضمير الجمع، أن يُبقي على صيغة المفرد، لكنني آثرتُ بصراحة صيغة الجمع فأذعن على الفور. لم يعجبني منذ اللحظة الأولى. لكن الشيء الغريب أن ضرباً من القدر المحتوم كان يحثني على عدم صدّه، على تقريبه منا.

Twitter: @ketab_n

إذ لا شيء بدا أسهل من استقباله ببرودة وتركه ينصرف دون أن أقدمه لامرأتي. لكن، لا؛ فمن أسوأ ما اتفق لي أني أخذتُ أحدثه عن الموسيقا وسألته إن كان صحيحاً أنه هجر الكمان كما أُشيع. أجابني، أنه، على عكس ما قيل، أكثر عزفاً اليوم منه في أي وقت مضى. ثم ذكرني بأني كنت أعزف على البيانو قديماً. فأجبته بأني لم أعد أعزف بتاتاً، إلا أن امرأتي عازفة بيانو جيدة. شيءٌ غريب! فمنذ اليوم الأول، منذ الساعة الأولى الذي لقيتُه فيها، كانت صلاتي به كما أمكن أن تصبح فيما بعد بالضبط، بعد كل ما جرى. كان بيننا نوعٌ من التوتر: كنتُ أرقبُ كل كلمة، كل تعبير نستخدمهما، هو وأنا، وامنحهما أهمية خاصة.

قدّمته لامرأتي، وما لبث الحديث أن تناول الموسيقا، ووضع نفسه تحت تصرفها ليعزف معها. كانت امرأتي أنيقة وجذابة وجميلة جمالاً مثيراً للاضطراب كما تعودت أن تكون، في هذه الآونة الأخيرة. والظاهر أنه أعجبها منذ النظرة الأولى. وفضلاً عن ذلك، فقد فرحت لهذه الفكرة وهي أنها تستطيع أن تعزف مع عازف كمان، وهو شيء تحبه حباً جماً إلى حد أنها كانت تكلف أحياناً موسيقياً محترفاً؛ وعبّر وجهها عن هذا الفرح. لكنها بعد أن نظرت إلي، فهمت ما أحس به، فتغير تعبير وجهها، وبدأت حينئذ لعبة الخادع والمخدوع. ابتسمتُ ابتسامة الرضا، متصنعاً الفرح. وكان هو يتفرس في امرأتي، كما ينظر جميع الفاسقين إلى النساء الجميلات، ويتظاهر بأنه لا يهتم بغير الحديث، في حين أنه كان لا يكترث له، في الواقع؛ وكانت امرأتي تسعى إلى أن تبدو غير مبالية، لكن الابتسامة الكاذبة للرجل الغيور، ابتسامتي التي كانت تعرفها جيداً في، ونظرة الآخر الشبقة كانتا تثيرانها على نحو ملحوظ، ومنذ اللقاء الأول، لاحظتُ أن في

Twitter: @ketab_n

عينيها بريقاً خاصاً، وقام بينهما، ربما بسبب غيرتي، تيارٌ كهربائي من التواطؤ حمل إلى وجهيهما ابتسامات ونظراتٍ متشابهة. فإذا اصطبغت بالحمرة الأرجوانية احمرّ، وإذا ابتسمت ابتسم. جرى الحديث عن الموسيقا، في باريس، وعن كثير من التفاهات الأخرى. نهض ليستأذن، وقبعتُه على فخذه المرتعش، وهو يتأملني ويتأملها تباعاً. وكأنما كان ينتظر ما سنفعله. إني لأذكر هذه اللحظة، لأنني كنت أستطيع حينئذ ألا أدعوه، ولو فعلتُ لما حدث شيءٌ بعد ذلك. لكني نظرتُ إليه، ثم حوّلتُ بصري إلى امرأتي، وقلتُ لها في نفسي: «إياك أن تتصوري أنني أغار»، وقلتُ في نفسي: «إياك أن تظن أنني خائف منك». وبناء على ذلك، دعوته إلى المجيء ذات مساء مع آلته، ليعزف مع زوجتي. نظرتْ إلي مدهوشة واحمرت، وبدت خائفة، ورفضت بحجة أنها لا تجيد العزف. فلم يزدني رفضها إلا غضباً وإصراراً. وما أزال أذكر الإحساس الغريب الذي تأملتُ به قذاله، وعنقه الأبيض الذي تناقض مع شعره الأسود المفروق في وسطه، عندما كان يخرج بمشيته المنطنطة كمشية العصفور. كنتُ مجبراً على الاعتراف لنفسي بأن حضور هذا الرجل يعذبني. وفكرتُ أن في يدي أنا أمرُ صرفه بحيث لا أراه بعدُ. بيد أن التصرف على هذا الأساس غير ممكن. فذلك اعتراف بأنني أخافه. لا، لستُ أخافه. قلتُ في نفسي: سيكون ذلك مُذلاً لي أشد إذلال. وما لبثتُ أن أصررتُ، في البهو، مع علمي بأن امرأتي تسمعني، على عودته مساءً، مع كمانه. فوعد بذلك وخرج.

رجع مساءً ومعه آلته، وعزفا. لكنهما لم يستطيعا أن ينجحا في التوافق الموسيقي لأن التوليفة المطلوبة لم تكن معهما، ولم تكن امرأتي تستطيع أن تعزف دون أن تقرأ مُسبقاً المقطوعة الموسيقية الموجودة

Twitter: @ketab_n

هنا. كنت مشغوفاً بالموسيقا واهتممتُ بعزفهما، فهيأتُ المقرأ لـ «تروكا تشيفسكي»، وقلّبتُ له الصفحات. وفي النهاية، نجحا في عزف أغنيات بلا كلمات، ولحنٍ لموزار. وكان ماهراً في العزف، يملك إلى أعلى درجة ما يُسمى: براعة الملمس. وفضلاً عن ذلك، كان ذا ذوق شديد الإرهاف، ذوق رفيع لا يتفق مع طبعه.

كان، بالطبع، أقوى من زوجتي، وكان يقودها، وهو يُثني ثناءً رقيقاً على عزفها. كان حسن الهيئة. وبدا أن امرأتي لا تلتفت إلا إلى الموسيقا. كانت بسيطةً وطبيعية. أما أنا، فمع تظاهري بالانتباه الشديد إلا أني كابدت بلا انقطاع أهوال الغيرة.

منذ اللحظة التي تلاقت فيها أعينهما أدركتُ أن الحيوان القابع فيهما سأل، بالرغم من الظرف الاجتماعي وأعراف المجتمع الراقي: «أأستطيع؟»، فأجاب الآخر: «نعم! بكل تأكيد». رأيت أنه لم يتوقع أن يجد في امرأتي، تلك السيدة الموسكوفية الطيبة، مخلوقاً جذاباً إلى هذا الحد، ففرح بذلك. ولم يشك أبداً في أنها موافقة. وكان المطلوب فقط أن يُمْنع هذا الزواج الذي لا يطاق من أن يغدو مضايقاً. ولو أني كنتُ أنا نفسي نقياً، لما فهمت الأشياء جيداً، لكني قبل زواجي بكثير، تعلمتُ أن أنظر إلى النساء كما ينظر معظم الناس، ولذلك كنتُ أقرأ في نفس تروكا تشيفسكي وكأنني أقرأ في كتاب مفتوح. كنتُ أتألم ألماً مبرحاً، لأنني كنتُ أعلم علمَ اليقين أن امرأتي لم تكن تشعر نحوي إلا بإحساس دائم من الحنق الذي تقطعه نوباتُ الشهوة المعهودة. في حين كان لابد لهذا الرجل بجدّته وأناقة هندامه وبموهبته الموسيقية الحقيقية، وبالألفة الحميمة التي يخلقها بينهما العزفُ الثنائي، وبتأثير

Twitter: @ketab_n

الموسيقا، - الكمان على الخصوص - في الطبيعة الحساسة، كان لابد له أن يخضعها ويسحقها ويتسلط عليها ويستعبدها، وأن يفعل منها ما يشاء. كان يستحيل عليّ ألا أرى ذلك كله، وكنت أتألم ألماً فظيعاً لكن بالرغم من ذلك، وربما بسبب ذلك، كانت هناك إرادةٌ غير إرادتي تُكرهني على أن أكون معه رقيقاً، بل بشوشاً. وأنا أجهل إن كان ذلك من أجل امرأتي أو من أجله، أو من أجلي أنا نفسي. بيد أنني لم أعرف، منذ بدء علاقاتنا، كيف أبقى بسيطاً بحضوره. ولكي لا أخضع للرغبة في قتله فوراً، كان لابد من أن أدلله. فعند العشاء قدّمتُ له خموراً فاخرة، وافتتنتُ بعزفه؛ ولكي أحدّثه، ابتسمت أرق ابتسامةٍ ودعوته إلى العودة في الأحد القادم ليتابع العزف مع امرأتي. وأكدتُ ما أنويه من دعوة بعض أصدقائي، من هُواة الموسيقا لكي يُتاح لهم أن يسمعوه. نعم، ها هنا انتهت زيارته الأولى.

انفعل «بوزدنيشيف» انفعالاً عنيفاً، وغيّر وضعه، وضحك ضحكته المتقطعة. واستأنف كلامه وهو يبذل جهداً ملحوظاً ليحتفظ بهدوئه.

كنتُ أحسّ بحضور هذا الرجل بإحساسٍ غريب. وبعد يومين أو ثلاثة، أحسستُ، وأنا عائد من معرضٍ، عند وصولي المدخل، بما يشبه الثقل على قلبي، دون أن أتبين بدقة ما هو. وقد نجم عن ذلك أنني عندما اجتزتُ البهو لمحتُ شيئاً ذكرني بـ «تروكا تشيفسكي» ولم أدرك ما هو إلا عندما دخلتُ مكتبي، فعدتُ أدراجي لأتحقق من إحساسي. نعم، إني لم أخطئ، فهذا معطفه. معطف مفصّل، كما تعلم، حسب آخر طراز (وكنت ألاحظ كل ما يتصل به بانتباه شديد،

Twitter: @ketab_n

دون أن أدرك ذلك). واستعلمتُ: كان الأمرُ كما قدّرتُ، كان هنا. وبدلاً من أن أعبر الصالون الصغير، مررتُ بغرفة الدراسة. كانت «ليز» ابنتي جالسةً ومعها كتابٌ، وكانت المربية تلاعب الصغيرة، وتبرم غطاءً ما على الطاولة. كان باب الصالون مغلقاً. لكنني سمعتُ نغماتٍ منتظمة، وجلبةَ صوتيهما. أصختُ السمع لكني لم أستطع أن أُميز شيئاً.

الظاهر أن البيانو لم تكن له من غاية سوى خَنْق كلامهما، وربما قبلاتهما... آه! يا إلهي. ما أشد الهياج الذي استبدّ بي! ارتعشتُ من الهول وأنا أتذكر فقط الوحش الذي كان يسكنني، في تلك اللحظة! انقبض قلبي فجأة، وبدا كأنه توقّف، لينطلق مرة أخرى في خفقانٍ أشد وكأنه ضربات مطرقة. وكعادتي دائماً، عندما أُغضبُ، كان الشعور المسيطر هو إشفاقي على نفسي. وفكّرتُ: «أمام الأولاد وأمام المربية». لاشك، أن منظري رهيب. لأن «ليز» تفرّست فيّ بنظرة مستغربة. تساءلتُ: ماذا يجب أن أفعل. أأدخل الصالون! لم أكن أستطيع ذلك. الله أعلم بما كنتُ سأفعله. أأتصرف؟ لم أكن أستطيع ذلك أيضاً. كانت الخادمةُ تنظر إلي وكأنها تفهم وضعي. قلتُ في نفسي: «لا، يجب أن أدخل. وبحركة نزقة، دفعتُ الباب. كان «توكاتشيفسكي» جالساً إلى البيانو يعزف نغمات سريعة بأصابعه البيضاء الطويلة المرتفعة قليلاً عند أطرافها. وكانت امرأتي واقفةً عند انحناءة البيانو تنظر في المقطوعة الموسيقية. سبقتْه إلى رؤيتي وسماعي، ورفعت عينيها إلي. أكانت تتصنع عدم الخوف حقيقة؟ على كل حال، لم تنمّ عنها ارتعاشةٌ أو حركة، وإنما احمرت، وبعد زمن فقط، قالت بلهجةٍ ما كانت لتستخدمها لو كنا وحدنا: ما أعظم سروري بمجيئك،

Twitter: @ketab_n

فنحن لم نتوصل إلى اتفاق حول ما سنعزفه نهار الأحد. هذه المناسبة، وكونُها قالت «نحن» وهي تتحدث عنها وعنه آثارا سخطي. فحييته دون أن أنبس بكلمة.

شدّ على يدي. وما لبث أن أخذ يشرح لي، بابتسامة بدت لي هازئة، أنه حمل دفاتر الموسيقا، لكي يتدرب عليها لنهار الأحد، وأنهما لم ينجحا في الاتفاق على ما يجب عزفُه: هل ينبغي لهما أن يختارا شيئاً كلاسيكياً بالغ الصعوبة، مثل سوناته بتهوفن على الكمان والبيانو، أم يختاران مقطوعاتٍ موسيقية أقصر؟ كان كل شيء يبدو بسيطاً جداً وطبيعياً جداً بحيث لم يكن من مبرر للاستياء. ومع ذلك فقد كنت على يقين أنهما يكذبان كلاهما، وأنهما اتفقا على طريقة خداعي.

من أشقّ الأشياء على مَنْ يغار (وجميع الناس يغارون في عالمنا)، هو هذه التقاليد في المجتمع الراقي التي تغتفر أكبر الصلات الحميمة وأخطرها بين الرجل والمرأة. ويجب أن تقبل سلفاً أن تصبح أضحوكة الجميع إذا شئت أن تعارض هذه الصلة الحميمة في الحفلات الراقصة، والصلة الحميمة التي تقوم بين الطبيب ومريضته، والصلة الحميمة التي تدعو إليها ممارسة الفنون الجميلة، ولاسيما التصوير والموسيقا. إن الشخصين اللذين يتعاطيان أنبل الفنون – الموسيقا – إن ذلك يقتضي شيئاً من تلك الصلة التي لا غبار غليها، لكن الزوج الأحمق والغيور وحده يمكن أن يجد فيها ما يستحق اللوم. ومع ذلك، فلا يجهل أحدٌ أن معظم حالات الزنى إنما تُعقد في عالمنا، في ظل هذه الاهتمامات بالذات، وبخاصة الموسيقا. لاشك أنني أزعجتهما بارتباكي. ظللتُ زمناً لم أستطع أن أفوه فيه بكلمة. كنت مثل زجاجة مقلوبة لا

Twitter: @ketab_n

يسيل ماؤها لفرط امتلائها. كنت أشتهي أن أسبّه، أن أطرده. لكنني أحسست أن عليّ أن أُظهر مرةً أخرى الأنسَ والرقّة. وهو ما فعلته. تظاهرت بالموافقة على كل شيء، وبي ذلك الإحساس الغريب الذي كان يُجبرني على إبداء المزيد من البشاشة كلما شقّ حضوره عليّ. قلتُ له: إنني أثق بذوقه ونصحتُ امرأتي أن تفعل مثلي. بقي الوقت الضروري الكافي لمحو ذلك الانطباع المزعج الذي أحدثته سحنتي المقلوبة وصمتي. وانصرف متظاهراً بأن قراره قرّ على المعزوفات التي سيعزفها في اليوم التالي. أما أنا فظللت على اقتناعي بأن مسألة اختيار المعزوفة ليس له أية قيمة عندهما بجنب ما يشغلهما.

شيّعته إلى غرفة الانتظار برقة مقصودة (وكيف لا أشيع رجلاً جاء ليكدر صفو الحياة، ويُعرّض للخطر سعادة أسرة بكاملها). وشددت على يده البيضاء والرخوة بدفقٍ من العاطفة.

- ٢٢ -

لم أخاطب امرأتي ولو مرةً واحدةً، طوال اليوم؛ لم أستطع ذلك. كان حضورها يبعث فيّ الكثير من البغض حتى لقد خفتُ من نفسي. استفهمت أثناء الغداء، أمام الأولاد، عن موعد سفري. كان علي أن أحضر، في الأسبوع القادم، مؤتمراً في المقاطعة. أجبتُها عن سؤالها. سألتني إن كنتُ أحتاج إلى شيء في سفري. لزمتُ الصمتَ وأكملتُ غدائي دون أن أتفوه بكلمة. ودلفتُ إلى مكتبي دون أن أفتح فمي. في هذه الآونة الأخيرة، انقطعت عن المجيء إلى غرفتي، في هذه الساعة

Twitter: @ketab_n

على الخصوص. وفجأة سمعتُ صوت خطوة مألوفة. فخامرتني فكرةٌ مرعبة، بغيضة: إنها تأتيني، في هذه الساعة غير المناسبة، مثل زوجة «أوري» لتخفي الذنب الذي ارتكبته. فكرتُ وأنا أصغي إلى اقتراب الخُطى: أمن الممكن أن تأتيني؟ إن جاءت فمعنى ذلك أنني لم أُخطئ. وانتابني بغضٌ لا يوصف. وتدانت الخطى. أتمضي إلى الصالون دون أن تعرّج علي؟ لا: سمعتُ صرير الباب، وبدا على عتبته شخصها الطويل والجميل، وفي وجهها وعينيها حياءٌ، ورغبة في أن تُعجب، رغبة حاولتْ إخفاءَها، لكنني لاحظتُها وفهمتُ دلالتها. كدتُ أختنق، لفرط ما حبستُ أنفاسي، ودون أن أنظر إليها، تناولت علبة سجائري وأشعلتُ سيجارة.

– مالكَ، جئتُ لأثرثر معك، وأنت تلهو بإشعال سيجارة. وجلستْ بجنبي، على الأريكة، واتكأت علي، فانحرفتُ لكي لا ألامسها. قالت:

– أرى أنك متضايقٌ لأنني سأعزف نهار الأحد.

أجبتُ:

– أبداً، لا.

– أتظن أنني لم ألحظ ذلك؟

– حسناً! أهنئك. أما أنا، فلست ألحظ سوى شيء واحد: وهو أنك تتصرفين تصرف المغناج... بيد أنك أنتِ تُعجَبين بأية قذارة، وذلك يثير اشمئزازي.

Twitter: @ketab_n

- إذا شئت أن تشتم كما يفعل سائقو العربات فأنا أوثر أن أنصرف.

- انصرفي، واعلمي شيئاً واحداً حق العلم: إن هزئتِ بشرف الأسرة فلن أحرص عليك (لا ردّك الله) وإنما أحرص على شرفي بالذات.

- لكن ما الأمر؟ عمّ تتكلم؟

- انصرفي، بالله عليكِ، انصرفي؟

أتظاهرتْ بأنها لم تفهم ما عنيتُه، أم أنها لم تفهمه حقاً؟ الشيء الأكيد أنها تكدّرت، بل وغضبت، وبدلاً من أن تنسحب، وقفتْ في وسط الغرفة، وقالت:

- أصبحتَ لا تُطاق حقاً. الملائكةُ لا تستطيع أن تتحمل طبعك.

وعلى عادتها، حاولت أن تجرحني في أكثر النقاط حساسيةً، فذكرتني بالطريقة التي تصرّفتُ بها مع أختي (خرجتُ مرةً عن طوري، وكنت فظاً معها). وكانت تعلم أن هذه الذكرى تعذّبني، ولذلك أرادت أن تنكأ الجرح.

وختمت كلامها قائلة:

- بعد ذلك، لا شيء يمكنه أن يدهشني.

قلتُ في نفسي وقد استولى عليّ سخطٌ رهيب لم أعهده من قبل:

Twitter: @ketab_n

- نعم، تلك هي الحال، إنها تهينني وتُذلني وتتعدى على شرفي، ثم تقلب الأمور حتى أكون أنا المذنب الأكبر.

ولأول مرة، شعرتُ بالحاجة إلى أن أعبّر عما أُبطن فانتصبتُ بوثبةٍ واندفعتُ نحوها؛ لكنني في اللحظة نفسها، وعيتُ، كما أذكرُ، سخطي، وتساءلتُ، أمن الخير أن أستسلم لهذه العاطفة؟ وكان الجواب مباشراً: «نعم، نعم، يجب أن تخفيها. وبدلاً من أن أسعى إلى السيطرة على نفسي أجّجتُ غضبي، وسعدتُ عندما أحسست به يغلي فيّ بعنف متعاظم. وصرختُ وأنا أدنو منها وأمسك بذراعها:

- انصرفي، وإلا قتلتك.

شددت لهجة صوتي وأنا أقصد ذلك. كان منظري رهيباً حتى إنها ارتعبت إلى حد أنها لم تستطع الانصراف و لم تستطع إلا أن تردّد:

- فاسيا، فاسيا، ما بك؟

صرختُ بقوة أعظم:

- انصرفي! أنت وحدك قادرة على إثارة هياجي هذا. وأنا لا أضمن نفسي!

أطلقتُ العنان لغضبي، وثملتُ به، وشعرت بالحاجة إلى أن أقدم على شيء غير عادي لأظهر مدى حنقي. تملكتني رغبةٌ مجنونةٌ في أن أضربها، في أن أقتلها، لكني كنتُ أعلم أنني لا أملك الحقّ في ذلك، ولهذا السبب، ولكي أجد مخرجاً لغضبي، أمسكتُ بثقالة الورق من

Twitter: @ketab_n

مكتبي ورميتها بأقصى عنفٍ، على مقربةٍ منها وأنا أصرخ مرةً أخرى: «انصرفي». لقد سددتُها جيداً بحيث لا أصيبها». حينئذ اتجهت إلى الباب، وتوقفت عند العتبة. وما لبثتُ، وهي ماتزال تراني، أن تناولتُ عن طاولتي (لم أفعل ذلك إلا من أجل أن تراني) كل ما وقع تحت يدي، الشمعدانات والمحبرة، ورميتها على الأرض دون أن أكفّ عن الصراخ:

انصرفي! اغربي عن وجهي! لا أضمن نفسي!

انصرفتْ، فتوقفتُ على الفور.

بعد ساعةٍ، جاءت المربية لتقول لي إن امرأتي أُصيبت بنوبة عصبية، فذهبتُ إليها كانت تنتحب وتضحك، وكانت عاجزة عن التلفّظ بكلمة، ترتجف بجسدها كله. لم تكن تتظاهر تظاهراً، بل إنها كانت مريضة حقاً.

عند الصباح، هـدأتْ، وعقدنا هدنةً بتأثير تلك العاطفة التي ندعوها الحب.

وعندما اعترفتُ لها صباحاً بغيرتي، بعد المصالحة، لم تضطرب بتاتاً، بل أمعنتْ في ضحك طبيعي جداً، لفرط ما بدت لها غريبةً فكرةُ التعلق برجل مثل «تروكا تشيفسكي».

- أتظن أن مثل هذا الرجل يمكن أن يوحي بالحب إلى امرأة رفيعة المستوى غير السرور بسماعه يعزف؟ أما إن كنتَ تصرّ فأنا مستعدة ألا أراه بعد الآن... حتى ولا الأحد، مع أننا دعونا الجميع؛ اكتب

Twitter: @ketab_n

إليه فقط أنني مريضةٌ. وتبقى الأمور عند هذا الحد. لكن سيكون أمراً كريهاً أن نفسح مجالاً للافتراض، ولافتراضه هو، على الخصوص، أنه يمكن أن يكون خطراً. وأنا أشدّ اعتزازاً بنفسي من أن أسمح بمثل هذا الافتراض.

- لم تكن تكذب، كانت تؤمن بما تقول؛ كانت تأمل بهذه الكلمات أن تولّد الاحتقار له، وأن تحتمي منه، لكنها لم تُفلح في ذلك. كان كل شيء ضدها، ولاسيما تلك الموسيقا الملعونة.

لم تتجاوز الأمورُ هذا الحد، ففي الأحد، استقبلنا مدعوّينا، وعزفت زوجتي مع «تروكا تشيفسكي» مرة أخرى.

- ٢٣ -

يبدو لي أنه لا لزوم لأن أقول لك: إنني شديد الزهو بنفسي؛ وإذا لم نكن مزهوّين بأنفسنا في حياتنا اليومية، فلا مبرّر لحياتنا. وإذن، ففي نهار الأحد، كنتُ مسروراً إذ انشغلتُ بالاستعدادات للعشاء وللأمسية الموسيقية. وتكفلتُ أنا نفسي بالمشتريات كافةً، وبعثتُ جميع الدعوات.

اجتمع المدعوّون في نحو الساعة السادسة، ووصل تروكا تشيفسكي بالثياب الرسمية، وفي مقدّمة قميصه أزرارٌ ماسيّة تدل على ذوقٍ رديء... كان يقف بطلاقة ومرح، ويجيب عن جميع الأسئلة التي تُطرح عليه، متصنعاً ابتسامةً رقيقة، ابتسامة الرضا والتفهم، ذلك

Twitter: @ketab_n

التعبير الذي يعني، كما تعلم، مهما تقولوا ومهما تفعلوا فإن مسلككم هو بالضبط ما ينتظره محدّثكم منكم. كل ما كان فيه من اضطراب لحظته في هذه اللحظة برضاً خاص، لأن ذلك كان يطمئنني ويبرهن أنه في مستوى أدنى من أن تستطيع امرأتي النزول إليه، كما أكدت هي لي ذلك. الآن لم أسمح لنفسي بالغيرة؛ أولاً، لأنني تألمتُ كثيراً وكنتُ بحاجة إلى الراحة؛ ثم إني أردت أن أصدّق تطمين امرأتي لي، وقد صدّقته. بيد أني وإن كنت خالياً من الغيرة إلا أني لم أستطع أن أكون طبيعياً لا معه ولا معها؛ وطوال العشاء والنصف الأول من السهرة، قبل العزف، ظللتُ أرصدُ حركاتهما ونظراتهما.

كان العشاء ككل عشاء، مُضجراً ومطبوعاً بالتصنع. بدأت الموسيقا مبكرة. آه! كم أتذكر بدقة تفاصيل هذه الأمسية؛ إني أتذكر الطريقة التي حملَ بها آلته، وفتح صندوقها، ورفع مفرشها الذي طرزته امرأةٌ ما، وأخرج الكمان ليُدوزْنه. وأذكر أن امرأتي جلست إلى البيانو، وعلى وجهها ملامح اللامبالاة المزيفة، واستشففت أنها تخفي حياءً عظيماً - وهو نوع من الخوف أمام معرفتها بالعزف - وبهذا الهدوء المتكلف ذاته، ضبطت البيانو ونقر هو على كمانه بإصبعه، وكان الدفتر الموسيقي موضوعاً على المقرأ. وأتذكر النظر التي تبادلاها وهما يلتفتان نحو الحضور، والكلمات القليلة التي تبادلاها، ثم كانت الموسيقا. بدأ هو الإيقاع. غدا وجهه رصيناً، قاسياً، جذاباً، وأقبل بأذنه على كمانه ليسمع الصوت، وقَرَصَ الأوتار بأصابع حذرة. جاوبه البيانو وبـدأا... توقف بوزدنيشيف، وضحك عدة مرات ضحكته الغريبة. أراد أن يستأنف الكلام، لكنه نشق بأنفه وتوقف مرة أخرى. وهتف:

Twitter: @ketab_n

– عزفا سوناته لكروتزر[١٠]، لبيتهوفن. هل تعرف مقطعها السريع الأول؟ تعرفه؟ أوه! أوه! يا لها من شيء مخيف، هذه السوناته! وهذه الحركة، خاصة. وعلى العموم، يا للموسيقا من شيء مخيف! ما هي بالضبط؟ لستُ أفهمها. ما الموسيقا؟ ما تأثيرها؟ ولماذا تؤثر ذلك التأثير؟ يقال إن الموسيقا تسمو بالنفس. إن تأثيرها ليس في أن تسمو بالنفس ولابد أن تنحطّ بها. بل أن تثير كوامن النفس. الموسيقا تجبرني على أن أنسى نفسي، ووضعي الحقيقي؛ وهي تنقلني إلى حالة ليست حالتي؛ وبتأثير الموسيقا، يخيَّل إليّ أنني أشعر بما لا أشعر به في الواقع، وأنني أفهم ما لا أفهمه، ولا أقدر عليه. وأنا أفسّر ذلك بأن الموسيقا تؤثر مثلما يؤثر التثاؤب والضحك: النعاسُ لا يراودني إلا أني أتثاءب حين أرى الآخرين يتثاءبون؛ ولا أجد ما يُضحك، إلا أني أقهقه حين أسمع الآخرين يضحكون.

الموسيقا تنقلني بلا تمهيد إلى الحالة النفسية للذي ألّفها. وتمتزج نفسي بنفسه، وننتقل معاً من حالة إلى أخرى؛ لكن لماذا أفعل ذلك، لستُ أدري. إن الرجل الذي ألّف سوناته لكروتزر – وهو بيتهوفن – كان يعلم لماذا أصابته تلك الحالة. إن حالته تلك قادته إلى القيام ببعض الأفعال، فكان لها عنده معنى، أما أنا فليس لها عندي أي معنى. ومن اجل ذلك هي تثير كوامن النفسي ولا تُثبت شيئاً. لنفرض أن لحناً عسكرياً يُعزف، فيمرّ الجنود، وتقوم الموسيقا بوظيفتها؛ ويُعزف لحنٌ

١٠– سوناته لكروتزر: سوناته على الكمان والبيانو، ألفها بيتهوفن سنة ١٨٠٣، وأهداها لعازف الكمان الفرنسي «رودولف كروتزر» الذي وُلد في فرساي سنة ١٧٦٦ ومات في جنيف سنة ١٨٣١.

Twitter: @ketab_n

راقص فأرقص، وحينئذ تؤدي الموسيقا وظيفتها أيضاً؛ ولنفرض أن قُداساً يُرتّلُ، فأتناول، وتستجيب الموسيقا لضرورتها ذاتها. لكن هذه الموسيقا لا تني تثير كوامن نفسك؛ أما الحلُّ فلا شيء. ولذلك كانت الموسيقا مخيفة جداً وتأثيرها رهيباً جداً في بعض الأحيان. الموسيقا، في الصين، شأن من شؤون الدولة. وهكذا يجب أن تكون. أمن المقبول أن يُنوّم مغناطيسياً أولُ قادم شخصاً - أو أشخاصاً - وأن يُفعل بهم بعد ذلك ما يشاء. ولاسيما عندما يكون هذا المنوّم أحقر الفاسقين. وبين أيدي مَنْ وقعتْ هذه الوسيلةّ مثلاً، هل يجوز عزفُ الحركة الأولى لهذه السوناته في صالون يحوي نساءً عاريات الأكتاف! فهن يسمعنها ويُصفقْنَ لها ثم يتناولن المثلجات وهن يناقشن ويهذرن؟ هذه الأعمال لا ينبغي أن تنفذ إلا في بعض المناسبات الهامة، الرصينة، وفقط عندما نريد أن نقوم بأعمال تستجيب لتلك الموسيقا. فتُعزف ويتم ما حثّت الموسيقا على فعله. وإلا فإن الموسيقا التي تُعزف دون مراعاة للمكان والزمان، الموسيقا التي تثير طاقةً وإحساسات لن تتجسد خارجياً، إن ذلك لا يمكن إلا أن يكون مشؤوماً. إن هذا العمل الموسيقي يؤثّر فيّ، على الأقل، تأثيراً مُفجعاً: فكأنما تنفتح لي إحساساتٌ وإمكانات جديدة كنت أجهلها حتى ذلك الوقت. خُيّل إليّ أن صوتاً داخلياً يقول لي: نعم، الأمرُ كذلك: وليس كما كنت أفكر ولا كما كنت أعيش حتى الآن. أما ما هو بالضبط ذلك الشيء الجديد الذي اكتشفته، فلم أتوصل إلى فهمه، لكن الشعور بهذه الحالة الجديدة حملت الفرح إلي. وبدت لي الوجوه نفسُها، بما فيها وجه زوجتي وعازف الكمان، في ضوء جديد.

بعد هذه الحركة السريعة أنهيا المقطع المعتدل السرعة، وهو حقاً

Twitter: @ketab_n

جميلٌ جداً، لكنه دون المطلع بتنويعاته القليلة الأهمية، ثم الختام الضعيف جداً. ثم عزفا بناء على طلب المدعوّين مرثية ارنست[11]، ومقطوعات صغيرة أخرى. كل ذلك كان جميلاً لكنه لم يُحدث واحداً بالمئة من الانطباع الذي أحسست به أثناء المقطوعة الأولى. كل ذلك جرى على مهادٍ من الانفعال الذي أثارته السوناته.

أحسستُ بنفسي خفيفاً ومرحاً أثناء السهرة كلها. أما امرأتي فلم أرها قط كما ظهرت لي هذا المساء. هاتان العينان المتلألئتان، وتعبير وجهها القاسي والرصينُ أثناء العزف، وتلك العفوية، وهذه البسمة المغتبطة والمحزنة ما إن انتهت من عزفها، كل ذلك رأيتُه، لكني لم أعزُ إليه أية دلالة سوى أنها شعرت لا محالة بما شعرتُ به، وأن إحساسات جديدة، غير معهودة، ظهرت لها كما ظهرت لي، وكأنها ذكريات بعيدة. انتهت السهرة وعاد المدعوون إلى بيوتهم.

كان تروكا تشيفسكي يعلم أنني سأسافر بعد يومين إلى مؤتمر، فقال لي وهو يستأذن إنه يأمل، عند زيارته القادمة لموسكو، أن يلقى مرة أخرى المتعة التي لقيها في هذه الأمسية الرائعة. فاستنتجتُ من ذلك أنه يرى من غير الممكن التردد على بيتي، في غيابي، فسرني ذلك.

وبما أني لم أكن أنوي أن أعود قبل سفره فقد كان ذلك يعني أننا لن نلتقي بعدُ.

ولأول مرة، شددتُ على يده برضاً حقيقي، وشكرتُه على المتعة

١١- مرثية ارنست: للموسيقي الألماني «هنري ارنسيت» (١٨١٤ -١٨٦٥).

Twitter: @ketab_n

التي وجدتُها في موسيقاه. واستأذن امرأتي نهائياً أيضاً. وبدا لي وداعهما طبيعياً ولائقاً إلى أبعد حد. كان كل شيء تاماً. وكنا، زوجتي وأنا، مسرورين جداً من أمسيتنا.

- ٢٤ -

بعد يومين ودّعتُ زوجتي وسافرتُ إلى الإقليم، وأنا في أحسن نفسية.

في المؤتمر، كانت هناك طائفةٌ من الأشياء التي يجب أن تُعمل، وحياةٌ أخرى، وعالمٌ مختلف. وقضيتُ، خلال يومين، حوالي عشر ساعات في المكتب. وفي اليوم الثالث تسلمتُ رسالة من زوجتي. فقرأتها على الفور.

تحدّثت فيها عن الأولاد، وعن عمنا، وعن المربية، وعن المشتريات التي اشترتها، وذكرت، عَرَضاً، وكأنها بصدد أبسط شيء في العالم أن تروكا تشيفسكي زارها وحمل إليها الموسيقا التي وعدها بها واقترح عليها أن يعزفا معاً لكنها رفضت عرضه.

لا أتذكر شخصياً أنه وعد بأن يأتي بالموسيقا؛ وبدا لي أن وداعهما كان وداعاً نهائياً، ولذلك دُهشتُ دهشة مزعجة. لكن عملي كان كثيراً بحيث لم يتسنّ لي أن أتعمق المسألة، ولم أُعد قراءة الرسالة إلا مساءً بعد عودتي من العمل.

Twitter: @ketab_n

فضلاً عن أن تروكا تشيفسكي دخل بيتي في غيابي، بدت لي اللهجة العامة للرسالة متكلفة. أخذت الغيرةُ تزمجر في وجارها، كالوحش الذي انطلق من أغلاله، وهمّت بالوثوب، لكنني خفتُ من الوحش، وسارعتُ إلى السيطرة عليه. وقلت في نفسي: ما أبشع عاطفة الغيرة! أي شيء طبيعي أكثر مما تكتبه إلي؟

أويتُ إلى سريري، وفكّرتُ في الأعمال التي تنتظرني في اليوم التالي. والعادة أنني أمضي زمناً طويلاً قبل أن أنام، في هذه المؤتمرات، على سريري غير سرير، لكن النعاس، في هذا المساء، سرعان ما اكتسحني. ومثلما يحدث، كما تعلم، استيقظت وكأن هناك صدمةً مفاجئة، أو تفريغاً كهربائياً. وعلى الفور، فكرتُ في امرأتي، في حبي الجسدي لها، في تروكا تشيفسكي، مع يقيني أن كل شيء قد تمّ بينهما. انقبض قلبي من الهول والسعار. لكنني حاولت أن ألزم نفسي جادة الصواب. قلت في نفسي: «يا للحماقة! لا مبرر لذلك... ليس بينهما شيء، و لم يحدث شيء. وكيف يمكنني أن أذلّ نفسي وأذل امرأتي أيضاً، حين أسلّم بمثل هذه الفظائع؟ عازف كمان مأجور، رجلٌ خبيث السمعة، وامرأة محترمة، أم أسرة، زوجتي أنا! يا لها من سخافة!» هذا من جهة، لكنني فكرتُ من جهة أخرى: «وكيف يمكن لهذا الأمر ألا يكون؟ كيف لا أصدق أبسط الأشياء وأكثرها طبيعية، ذلك الشيء الذي من أجله تزوجتُها وعشتُ معها، الشيء الوحيد فيها الذي كان ضرورياً لي، يمكن له أن يكون ضرورياً لغيري، لهذا الموسيقي؟ إنه عزب، ورجل قوي البنية، (مازال أتذكر الطريقة التي كان يقضم فيها بين أسنانه غضروف ضلع، ويُلصق بها شفتيه الحمراوين النهمتين على حافة كأس الخمر) حسن التغذية، مدلّل؛ وهو لا يخلو من المبادئ

Twitter: @ketab_n

فحسب بل إنه يطبق المبادئ التي تتيح له أن ينهب اللذات المعروضة. وبينه وبينها، روابط الموسيقا، الشكل المرهف للشهوة. ما الذي يمكن أن يمنعه، هو؟ لا شيء؛ كلُّ شيء على العكس من شأنه أن يجذبه. وهي؟ وهي، في النهاية، ما هي؟ لقد ظلت سراً بالنسبة إلي. لستُ أعرفها. لست أعرف فيها غير الحيوان. والحيوان لا شيء يمكن ولا يجب أن يردعه».

في هذه اللحظة فقط، استعدتُ تعبير وجهيهما عندما عزفا، بعد «سوناته لكروتزر»، مقطوعة صغيرة لمؤلف لا أعرفه، مقطوعة شهوانيتها تكاد تكون مقذعة. وتساءلت وأنا أتذكر وجهيهما: كيف أمكنني أن أذهب؟ ألم يكن واضحاً أن كل شيء كان منتهياً بينهما، منذ هذا المساء؟ ألم يكن واضحاً أن جميع العقبات زالت بينهما، وليس هذا فحسب بل أنهما كانا كلاهما (هي على الخصوص) خجلين، على نحو غامضٍ، مما جرى لهما؟ إني لأذكر تلك البسمة المغتبطة والحزينة التي ارتسمت على وجهها المحمر الذي تلألأت فيه قطرات العرق وهي تمسحه بمنديل، في اللحظة التي دنوتُ فيها من البيانو. كانا يتحاشيان أن ينظر أحدهما إلى الآخر ولم تلتق أعينهما فيبتسما ابتسامة غير ملحوظة إلا أثناء العشاء حين كان يصب لهما تروكا تشيفسكي الماء. إني أتذكر برعب تلك النظرة المدهوشة وتلك الابتسامة. وهمس إلي صوتٌ: «نعم، انتهى كل شيء». لكن الصوت الآخر ما لبث أن أعلن العكس: «إنها لأفكارٌ غريبة، ذلك مستحيل».

خفتُ في العتمة، فأشعلتُ المصباح. وارتعبت فجأة إذ وجدتُ نفسي وحيداً في هذه الحجرة الصغيرة ببساطها الأصفر. تناولتُ

Twitter: @ketab_n

سيجارةُ وأخذت أدخّن دون انقطاع، كما يقع دائماً، عندما ندور في حلقة من التناقضات التي لا حلّ لها. كنت أدخن سيجارة بعد سيجارة لأدوخ وأذهل عن تلك التناقضات.

لم يغمض لي جفنٌ طوال الليل، وفي الساعة الخامسة صممتُ على العودة فوراً، بعد أن عزمتُ ألا أبقى في هذا التوتر المعنوي، فأيقظت الخادم الذي يخدمني وأرسلته كي يأتيني بعربة. أما المؤتمر، فقد بعثتُ إليه بكلمة أذكر فيها أني دُعيت إلى موسكو لأمر مستعجل، ولذلك رجوت عضواً آخر أن يحلّ محلي. وفي الثامنة صعدتُ العربة وسافرتُ إلى موسكو.

- ٢٥ -

دخل مراقبُ القطار حافلتنا، ورأى أن المصباح مُنتهٍ فأطفأه دون أن يستبدل غيره به. كان الفجر يطلع، في الخارج. أخلد بوزدنيشيف إلى الصمت، وأخذ يتنهد، طوال الوقت الذي ظل فيه المراقب في الحافلة. و لم يستأنف قصته إلا عندما انسحب المراقب و لم نعد نسمع شيئاً في القطار نصف المظلم سوى طقطقة الزجاج وشخير الوكيل التجاري. وفي غبش الفجر لم أكن أميز بوزدنيشيف. كنتُ أسمع رنين صوته الآخذ في الانفعال والتألم.

- كان علي أن أقطع مسافة خمسة وثلاثين فرسخاً بالعربة، ثم أن أمضي ثماني ساعات في القطار. كانت مسيرتي بالعربة ممتعة

Twitter: @ketab_n

أشد إمتاع. كان النهار خريفياً بارداً. والسماء مشمسةً، مع شيء من الجليد. أنت تعرف هذا الطقس عندما ترسم العجلات على الطريق الموحل آثارها. كانت الأرض ملساء، والنور ساطعاً، والهواء منعشاً. أحسستُ بالراحة في العربة. فعندما طلع النهار ومضيتُ في طريقي، أحسستُ بالتخفف من همومي. وأخذت أنسى الهدف من رحلتي وأنا أتأمل الجياد والحقول والمارّة. ومن لحظة إلى أخرى، كان يخيّل إليّ أنني أسافر طلباً للمتعة، وأن ليس من دافع يدفعني، وأن شيئاً من كل ذلك لم يكن وكنتُ أنتشي فرحاً وأنا أنسى نفسي على هذا النحو. وعندما كنت أتذكر إلى أين أنا ذاهب، كنت أقول في نفسي: «سنرى فيما بعد، ولا تفكّر في ذلك الآن. وعلى كل حال، حدث في منتصف الطريق حادثٌ أخّرني وأتاح لي أن أذهب عن نفسي أكثر من ذي قبل: ذلك أن العربة انكسرت وكان لابد من إصلاحها. ولقد كان لهذا الحادث الطارئ أهميةٌ كبرى، فمن جرائه لم أصل موسكو في الساعة الخامسة كما قدّرتُ، وإنما وصلتها في منتصف الليل. وبلغتُ البيت عند دقة الساعة الواحدة لأن القطار السريع فاتني فسافرت في القطار البطيء. إن البحث عن عربة، وإصلاح المركبة، ودفع الأجرة، والشاي الذي تناولته في نُزُلٍ، والحديث مع الخادم، كل ذلك شغلني عن نفسي أكثر. حل الظلام عندما فرغنا من كل شيء واستأنفت السير؛ وبدا لي سفر الليل أعظم متعة. والقمر في أوله، والصقيع خفيف، والطريق بديعة، والجياد مستريحة، والحوذي مبتهج. استمتعتُ بالسفر، دون أن أفكر فيما ينتظرني، وكأنني أفارق أفراح الحياة. لكن هذه الطمأنينة الحلوة، هذه القدرة على السيطرة على عواطفي تلاشت في اللحظة التي انتهت فيها رحلتي في العربة. فلم أكد أدخل القطار حتى

Twitter: @ketab_n

اختلفت الأشياء. هذه الساعات الثمانية في القطار كانت شيئاً مُرعباً ولن أنساها أبداً. أكان ذلك لأنني ما إن صعدت حتى رأيتُ نفسي، بعين الخيال، في بيتي، أم أن الخط الحديدي يؤثّر في الناس تأثيراً شديد التهييج، بيد أن الشيء المؤكد أني منذ جلوسي في القطار لم أستطع أن أسيطر على خيالي الذي كان يُمثل لي أبداً، بوضوح خارقٍ للعادة، رؤى داعرة تزداد دعارة، وكلها تدور على موضوع واحد، على ما كان يجري هناك، في غيابي، وكيف كانت تخدعني. كنتُ أحترق من السخط والحنق ونوع من السُكر الذي أضفاه عليّ ذلي عند مرأى هذه الصور التي لم أستطع اقتلاعها؛ لم أستطع أن أمنع نفسي من تأملها، وإثارتها. بل أكثر من ذلك: كنت كلما نظرت إلى هذه الرؤى الخيالية ازددتُ إيماناً بواقعيتها. إن الصفاء الذي كانت تعرض فيه لعينيّ كان دليلاً على حقيقتها. وكأن هناك شيطاناً يتخيل، بالرغم مني، ويوحي إلي بأسوأ الافتراضات. وعاد إلى ذاكرتي حديث جرى قديماً بيني وبين أخي تروكا تشيفسكي، وبشعور غريب من اللذة مزّقتُ قلبي بتطبيق ذلك الحديث على الموسيقي وعلى زوجتي.

جرى ذلك الحديث منذ زمن بعيد، لكني ماأزال أتذكره تماماً. فحين سُئل أخو تروكا تشيفسكي إن كان يرتاد بيوت البغاء، فأجاب: إن الرجل المحترم لا يذهب إلى هذه الأماكن القذرة، المثير للاشمئزاز، حيث يلتقط المرء الأمراض، في حين يكفيه أن يتدبر الأمر مع امرأة شريفة. وها هو ذا أخوه يتدبر أمره مع زوجتي. صحيح أنها ليست في ريعان شبابها، وأنها فقدت ضرساً من أضراسها، وأنها سمنت، لكن ما العمل، لابد من الاستفادة مما هو موجود. - قلتُ ذلك في نفسي وأنا أضع نفسي مكانه - نعم، إنه لتنازلٌ منه أن يتخذها عشيقة ولاسيما

Twitter: @ketab_n

أنها مريحةٌ للغاية بالنسبة إلى صحته الثمينة... وهتفتُ مرتعباً: لا، هذا غير ممكن. لاشيء من ذلك كله يمكن أن يكون! ليس لي أيُّ مبرر لافتراض شيء من هذا القبيل! ألم تؤكد لي أنها تحسّ بالإهانة لمجرد تفكيرها بأنني يمكن أن أغار منه؟ بلى، لكنها تكذب، وهي تكذب دائماً. هتفتُ بذلك وأنا أخاطب نفسي عوداً على بدء... لم يكن في الحافلة التي أنا فيها سوى مسافرين: عجوز وزوجها، ظلاّ صامتين حتى نزلا في موقف للقطار، وبقيتُ وحدي. كنت مثل وحش في قفص؛ فتارةً أقف وأدنو من النافذة، وتارة أخرى أذرع الحافلة، وأنا أترنح، وكأني أريد أن أسرّع مشية القطار؛ لكن العربة كانت تهتز مع مقاعدها وزجاجها، كهذه العربة التي نحن فيها الآن.

وثب بوزدنيشيف على قدميه، وخطا بضع خطوات وجلس من جديد:

- أوه! ما أكثر ما أخاف، ما أكثر ما أخاف من حافلات القطار؛ يستولي علي ذعرٌ حقيقي. نعم، هذا فظيع! - في ذلك اليوم، كنتُ أقول في نفسي: «يجب أن أفكر في شيء آخر. مثلاً، صاحب النزل الذي تناولتُ عنده الشاي. وعلى الفور تنبعث في خيالي صورة فلاحٍ بلحيةٍ طويلة وحفيده، وهو صبي من عمر «فاسيا» حبيبي فاسيا؟ سيرى الموسيقي يعانق أمه؟ ماذا سيجري حينئذ في نفسه الصغيرة المسكينة؟ لأنها لا تأبه لهذا، بكل تأكيد! إنها تحب... ويبدأ كل شيء كما كان من قبل. لا، لا... سأفكر في استشارة المستشفى. نعم، المريض الذي جاء أمس يشكو الطبيب. وشاربا الطبيب كشاربي «تروكا تشيفسكي» وبأية وقاحة... لقد خدعاني كلاهما حين

Twitter: @ketab_n

حدّثاني عن سفره. وهنا يبدأ كل شيء من جديد. كل ما كنتُ أفكر فيه كان يقودني إليه. كنتُ أتألم ألماً فظيعاً. كان عذابي يأتي بخاصة من الجهل والشك ونوع من الازدواج، لأني لم أكن أعلم هل ينبغي أن أحبها أم أكرهها. كان ألمي عظيماً جداً بحيث خطر لي، خاطرٌ فرحتُ به، وإني لأذكر ذلك، وهو أن أتمدد على السكة الحديدية وأفرغ من ذلك كله. على الأقل ستنقطع الشكوك. الشيء الوحيد الذي منعني من تنفيذ هذا المشروع هو شفقتي على نفسي، وهي شفقةٌ تلتها نوبة بغض لزوجتي. أما «تروكا تشيفسكي» فشعرت نحوه بنفور شديد اختلط فيه شعوري بالذل وشعوري بانتصاره، أما زوجتي فلم أشعر نحوها بغير الكره الشديد. وقلتُ في نفسي: «لا أستطيع أن أنتحر، وأن أتركها هكذا؛ يجب أن تتألم هي أيضاً، لكي تفهم، ولو قليلاً، مقدار ما قاسيتُ». كنت أنزل في جميع المواقف لأسرّي عن نفسي. وفي إحدى المحطات شاهدتُ رجالاً يشربون في المقصف، وسرعان ما طلبت «فودكا». وبجانبي كان يهوديٌّ يشرب أيضاً. وجّه كلامه إلي، ولكي لا أبقى وحدي في الحافلة، تبعتُه إلى عربته في الدرجة الثالثة، وكانت وسخة، ملأى بالدخان، وانتشرت فيها قشور بزر دوار الشمس.

جلست بجواره، فلم يكفّ عن الثرثرة، وحكاية القصص الطريفة. أصغيتُ إليه، لكنني لم أفهم ما كان يقوله لأني ظللتُ أفكّر في الشيء نفسه. تبيّن ذلك وطلب إليّ أن أعيره انتباهاً أكبر؛ حينئذ نهضتُ وعدت إلى مركبتي.. يجب أن أفكر: أنا بحاجة إلى أن أتحقق إن كانت شكوكي مبرّرة، إن كان هناك مسوّغٌ لتعذيب نفسي. وجلستُ وأنا أنوي التفكير بهدوء، فعدتُ إلى الشيء نفسه، فبدلاً من أن أفكّر

Twitter: @ketab_n

وأحاكم تركتُ لخيالي يطوف حيث يشاء. قلتُ في نفسي: كم من مرة تعذّبتُ مثل هذا العذاب (تذكرتُ نوبات غيرتي السابقة) و لم يكن لعذابي من داعٍ. وسيكون الأمر كذلك الآن، وربما، بل بالتأكيد، سأجدها نائمةً نوماً هادئاً؛ وستستيقظ، وستُسر برؤيتي، ومن كلماتها ونظراتها سأحسُّ بأن شيئاً ما لم يكن، وأن كل ذلك إنما هو حماقات. آه! كم سيكون ذلك رائعاً! وهتف بي صوت: - «كلا، كان ذلك في الماضي، أما هذه المرة فلن يكون الأمر كذلك». وبدأ كلُّ شيء من جديد. نعم كان هذا هو العذاب! ولو شئت أن أنفر شاباً من المرأة لما أخذتُه إلى مستشفى الأمراض الجلدية، بل لفتحتُ له نفسي حتى يرى الشياطين التي تمزقها! لأن أفظع شيء هو أنني كنتُ أعترف لنفسي بحقوق لا نزاع فيها، مطلقة، على جسد امرأتي وكأنما هو جسدي أنا، وفي الوقت نفسه، كنتُ أحسّ أنني لستُ مالك هذا الجسد، وأنه ليس لي، وأنها تستطيع أن تتصرف به على هواها، وأن استخدامها له لا يتوافق مع ما أتمنى. ولا يمكنني أن أفعل شيئاً ضدها ولا ضده. ومثل الياور «فانكا»[١٢] قبل الشنق، يستطيع أن يغني أنه قبّل شفتيها الحلوتين الخ... واسحبوا الحبل! كنتُ إزاءها أكثر عجزاً. حتى إن لم تكن قد فعلتْ شيئاً بعد، وشعرتْ بالرغبة - وأنا على علم بأنها تشعر بها، تلك الرغبة - فالأمر أسوأ، وكان الأفضل أن تنفذ رغبتها، لكي أكون على معرفة، ولكي أتخلص من ارتيابي، ثم إني كنتُ غير قادر على الإفصاح عما كنت أريد بالضبط. كنتُ أريد، في نهاية المطاف، أن تشتهي ما لابد أن ترغب فيه. كان ذلك جنوناً خالصاً.

---

١٢ - الياور فانكا: إشارة إلى أغنية شعبية يغوي فيها «فانكا» امرأة سيده الإقطاعي، ولذلك شُنق.

Twitter: @ketab_n

في الموقف قبل الأخير، عندما جال المفتش جولته ليجمع التذاكر، جمعتُ متاعي وخرجت إلى الممر. وكان شعوري بأن الحل غدا قريباً يزيد من اضطرابي. أحسستُ أني أتجمد، وأخذ فكّاي يرتجفان بحيث أن أسناني كانت تصطك. تركتُ المحطة بصورة آلية مع الجمهور، واستأجرتُ عربة، وجلستُ فيها. وطوال الطريق كنت أتفرّس في المارّة القلائل وفي البوابين، وأتابع بالنظر الظلال التي تلقيها مصابيح الطريق والعربة، تارة إلى الأمام وتارة إلى الخلف، ولا أفكر في شيء. وفي مدى نصف فرسخ، شعرتُ بالبرد في قدميّ، وتذكّرت أني خلعت جوربي الصوفيين في القطار ودستهما في كيسي. أين ذلك الكيس؟ ها هو ذا. والحقيبة؟ تذكرتُ حينئذٍ أنني نسيت متاعي تماماً، لكنني إذ رأيت الوصل في جيبي قررتُ ألا أعود إلى المحطة، وتابعتُ طريقي.

بالرغم من الجهود التي بذلتها لم أفلح في العودة إلى حالتي النفسية - وأنا أجهل ما كنت أفكر فيه وأرغب فيه. كل ما أذكره هو يقيني بأن شيئاً رهيباً وهاماً في حياتي سيحدث. ولست أدري إن كان الشيء الهام وقع لأني فكّرت فيه أم هل كان الأمر توجّساً؟ ومن الممكن أن هذه اللحظات لم تصطبغ بألوانها القاتمة إلا بعد أن تمّ الحدث. وصلت أمام مطلع الدرج. تجاوز الوقت منتصف الليل. كانت أمام مدخل البناية عربات واقفة تنتظر الزُبُن، بعد أن جذبتها الأنوار (كانت الأنوار آتيةً من شقتنا، من الصالون الصغير والصالون الكبير). صعدت الدرج وبي ذلك الانتظار لشيء فظيع، دون أن أتساءل لماذا كانت النوافذ مضاءة في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وقرعت الجرس. فتح لي

Twitter: @ketab_n

الخادم «إيغور»، وهو مخلوق طيب القلب، مُتقنٌ لعمله، مخلص، لكنه شديد الغباء. أول ما طالعه بصري هو المعطف المعلق في غرفة الانتظار، بجنب ملابس أخرى. كان يجدر بي أن أدهش، لكنني لم أدهش، لأنني كنتُ أتوقع ذلك. قلتُ في نفسي عندما أجابني «إيغور» على سؤالي وسمّي لي «تروكا تشيفسكي»: هذا ما توقعتُ. وسألت إن كان هناك مدعوون آخرون. فقال: لا أحد. وإني لأذكر أنه لفظ هذه الكلمة بلهجة مَنْ يريد أن يدخل السرور إلى قلبي ويبدد جميع الشكوك حين ينفي وجود مدعوين آخرين. وكأن صوتاً داخلياً أخذ يردّد: «طيب، طيب».. والأولاد؟ – الحمد لله. صحتهم جيدة. وهم نائمون منذ زمن طويل.

لم أستطع أن ألتقط أنفاسي، ولا أن أكبح ارتجاف فكيَّ. الأمر إذن غير ما كنتُ أظن. تصورتُ دائماً أن المصيبة قد وقعت، وأن كل شيء قد تم، أما الآن فالأمر ليس كما تصورتُ من قبل، وكل ما كنت أتصوره، كل ما لم أكفّ عن تصوره، أصبح واقعاً. تم الأمر هذه المرة...».

كدت أنتحبُ، لكن الشيطان سرعان ما همس إلي: «يُحسن بك هذا، إبكِ، أظهر عواطفك. وفي هذه الأثناء سيترك أحدهما الآخر بهدوء، وستحرم نفسك من الأدلة وسينتابك الشكُّ ستتعذب إلى الأبد. وفي الحال اختفت الحساسية الزائفة إزاء نفسي، وحلّ محلها شعورٌ غريب – لن تصدقني – إحساس بالفرح لهذه الفكرة وهي أن ألمي سينتهي، وإني سأتمكن من معاقبتها، ومن التخلص منها، ومن إطلاق العنان لهياجي. أفسحتُ المجال لحقدي وغدوتُ وحشاً

Twitter: @ketab_n

كاسراً، حيواناً شريراً وماكراً. قلتُ «لإيغور» الذي أراد أن يسبقني إلى الصالون؛ لا، لا داعي، وإليك ما ينبغي أن تفعله: خذ عربةً وأسرع إلى المحطة... خذ الوصل، واحملْ إلي متاعي. امضِ.

دلف إلى الممر ليتناول معطفه. خفتُ أن ينبههما فتبعتُه إلى حجرته وانتظرته حتى يرتدي ملابسه. ومن الصالون الصغير الذي كانت تفصلني عنه غرفة أخرى، وافتني ضوضاءُ أصوات وملاعق وصحون. كانا يأكلان و لم يسمعا قرعي للجرس. وفكرتُ: شريطة ألا يخرجا الآن. ارتدى إيغور معطفه ذا الياقة المصنوعة من الفرو ومضى. رافقته وأغلقتُ الباب وراءه. تملكني نوعُ من الخوف عندما أحسستُ أني وحدي، وعرفتُ أن عليّ أن أتصرّف في الحال. أما ما كنتُ سأفعله فقد كنتُ أجهله. ما كنتُ أعلمه هو أن كل شيء انتهى، وأنه لا مجال للشك في اقترافها للجريمة وأنني سأعاقبها وأفسخ صلتي بها نهائياً.

لقد ترددتُ قبل هذه الساعة، وكنتُ أقول في نفسي: لعل ذلك غير صحيح، لعلي مخطئٌ؛ أما الآن فلم يبق شيء من ذلك. تقرّر كل شيء قراراً لا رجعة عنه. تختبئ عني، وحدها معه، في الليل!.. تلك استهانة بجميع التقاليد. أو أسوأ من ذلك أيضاً: إنها تقصد قصداً إلى هذه الجسارة لكي تُبرّئها هذه الجسارة نفسها. كان كل شيء واضحاً. لا ريب في ذلك. لم أكن أخشى سوى شيء واحد: على شرط ألا يتسنى لهما الفرار، أن يختلقا كذبةً جديدة لينتزعا مني كل دليل، كل إمكان لمداهمته متلبساً بجرمه. ولكي أداهمهما بأسرع ما يمكن اتجهتُ إلى الصالون على أطراف أصابعي ماراً بالممر بغرف الأولاد.

Twitter: @ketab_n

كان الأولاد ينامون في الغرفة الأولى، تقلبت المربية في سريرها، وهي على وشك أن تستيقظ، تخيّلت كل ما سيدور في خلدها إن عرفت الحقيقة، فاجتاحتني نوبةُ من الشفقة على نفسي حتى إني لم أستطع أن أحبس دموعي. ولكي لا أوقظ الأولاد، انسللتُ على أطراف أصابعي إلى الممر، وركضتُ إلى مكتبي، وتهالكتُ على الأريكة وأنا أنتحب.

«أنا - أنا الرجل الشريف - الابن الجدير بآبائي، أنا الذي حلمتُ طوال عمري بحياة سعيدة في أسرتي، والذي لم أخدع امرأتي قط... وها هي ذي، وهي أمُّ خمسة أولاد، تعانق موسيقياً لأن له شفتين حمراوين!.

لا، إنها ليست كائناً بشرياً! إنها كلبةٌ، كلبة قذرة! وتفعل هذه الفعلة في غرفة ملاصقة لغرفة الأولاد الذين من أجلهم مثّلتْ، طوال حياتها، صور الحب. تكتب لي ما كتبتْ ثم ترتمي بهذه الوقاحة على عنقه! وما أدراني، في النهاية؟ ربما كانت الأشياء دائماً كذلك. ولعل الأولاد الذين أظنهم أولادي حملتهم من الخدم.

ولو لم أصل إلا في اليوم التالي لاستقبلتني بزينة شعرها، وقامتها الرشيقة، وحركاتها الوانية واللطيفة (تخيّلت وجهها الفاتن والبغيض) لاستقبلتني و لم يسكن شيطان الغيرة قلبي ليُحسن تمزيقه. ماذا ستقول المربية... وإيغور... وليز الصغيرة المسكينة! لقد بدأت تفهم كثيراً من الأشياء. يا لهذه الوقاحة، ولتلك الازدواجية! وهذه الشهوانية الحيوانية التي عهدتُها فيها! هذا ما كنتُ أقوله في نفسي.

Twitter: @ketab_n

أردتُ أن أنهض فلم أستطع. كان قلبي يخفق بحيث خذلتني ساقاي. نعم، سأموت بفعل الصدمة. هي التي تقتلني. وعلى كل حال هذا ما تطلبه هي. وماذا يهمها من قتلي؟ آه! سيكون ذلك مريحاً حقاً لها إلى أبعد حد، و لم أمنحها هذه المتعة. أأبقى هنا إذن في حين أنهما هناك يأكلان ويضحكان... من... نعم، مع أنها ليست في نضارتها الأولى إلا أنه لم يزدرها، ومع ذلك، فلا بأس بها، ولاسيما أنها مريحةٌ بالنسبة إلى صحته الغالية. قلتُ في نفسي، وأنا أستعيد ذكرى تلك اللحظة التي طردتُها فيها من مكتبي، قبل ثمانية أيام، محطّما كل ما وقع تحت يدي: ليتني خنقتُها حينئذ. واسترجعت بقوة حالتي النفسية آنذاك؛ لم أتذكر فحسب، لكني شعرت بالحاجة نفسها إلى التحطيم والتدمير. إن أتذكر تلك الرغبة العنيفة في العمل التي استولت علي، في حين تلاشت بسرعة جميع الأفكار الأخرى غير العمل، دخلت تلك المرحلة التي يعرفها الإنسان أو الحيوان بتأثير تحريض الخطر الفيزيائي عندما يباشران العمل بدقة، وبتؤدة، ودون أن يضيّعا ثانيةً واحدة، وباتجاه هدف واحد.

- ٢٧ -

أول شيء فعلته هو أن تخلّصتُ من حذائي. دنوت بجوربيّ من الأريكة التي علتها مجموعة أسلحتي. اخترتُ خنجراً دمشقياً لم أستعمله قط، وكانت شفرته مشحوذة جداً. استللتها من غمدها. وقع الغمد خلف الأريكة، على ما أذكر، فقلت في نفسي: يجب أن أعثر

Twitter: @ketab_n

عليه وإلا ضاع». بعد ذلك خلعت معطفي الذي احتفظت به حتى هذه اللحظة، وتقدمتُ بلا صوت إلى هناك. انسللت خلسةً حتى الباب وفتحته فجأة.

إن أتذكر تعبير ملامحهما. أتذكر ذلك لأنني كنتُ أشعر بفرح مؤلم من جراء ذلك. نمَّ التعبير على الرعب. وهو ما يلزمني. لن أنسى أبداً هول الرعب البائس الذي بدا على وجهيهما في الثانية التي شاهداني فيها. يُخيَّل إلي أن «تروكا تشيفسكي» كان جالساً أمام المائدة، لكنه حين رآني وسمعني، نهض وثباً مديراً ظهره للمرآة. و لم يعكس وجهه سوى تعبير الذعر. أما وجه امرأتي فقد نمّ على إحساس آخر أيضاً. ولو أنها لم تظهر سوى الرعب فلربما لم يقع شيء: لكنني لاحظتُ في تعبير وجهها - على الأقل هذا ما خُيِّل إلي أنني رأيته في هذه اللحظة الأولى - نوعاً من الضيق، والغيظ من أنها أزعجتْ في حبها، في سعادتها. كان يبدو أنها لا تتمنى سوى شيء واحد: ألا يُكدِّر أحدٌ سعادتها الراهنة. لم يدم ذلك سوى ثانية واحدة. أما هو فسرعان ما حلّ الاستفهام الصامت عنده محل الرعب: أيمكن أن يكذب، نعم أم لا؟ إن كان نعم، فيحب أن يبدأ على الفور، وإلا فعليه أن يحاول شيئاً آخر. لكن ما ذلك الشيء؟ وسألها بنظرته . وأما امرأتي، فقد تحول غيظها وضيقها، كما بدا لي، على التماسٍ له، ما إن رفعتْ بصرها إليه.

تجمّدتُ لحظة على عتبة الباب والخنجر خلف ظهري.

استغلّ هذه اللحظة ليبتسم ويقول بلهجة متجرّدة تكاد تُضحك:

- كنا مشغولين بالموسيقا...

Twitter: @ketab_n

وقالت امرأتي فوراً مقلدةً لهجةَ الموسيقي:

- إنها لمفاجأة حقاً...

لكن لم يُتمّ أي منهما جملته: فقد تملكني ذلك الغيظُ المسعور الذي أحسستُ به قبل ثمانية أيام. أحسستُ مرة أخرى بالحاجة إلى التدمير والعنف وذلك الجنون اللذيذ، واستسلمتُ لتلك الحاجة.

لم يُتمّ أيّ منهما جملته. ذلك أن شيئاً آخر بدأ وأخافهما فقطع عليهما كلامهما. وثبتُ على امرأتي، وأنا ما أزال أخفي خنجري، حتى لا يمنعني تروكا تشيفسكي من أن أطعنها في جنبها، تحت الثدي. ومنذ البدء، اخترْتُ هذا الموضع بالذات. وفي اللحظة التي ارتميتُ بها عليها، أبصر الخنجر - وما كنتُ أتوقع ذلك! - أمسكني بذراعي وهو يصرخ:

- عُد إلى رشدك... النجدة!

تخلّصت منه، وانقضضت عليه بصمت. تلاقت نظراتُنا: فشحب وجهه شحوباً شديداً، وامتقعت شفتاه، واتقدت عيناه بضياء غريب وغاب تحت البيانو قاصداً الباب - وهذا ما لم أكن أتوقعه أيضاً - أردتُ أن أجري وراءه لكن ثقلاً تشبث بذراعي اليسرى وصدّني عن اللحاق به. كانت هي التي تشبثتْ. أردتُ أن أتحرر من قبضتها لكنها تمسكت بي تمسكاً أشد وأبتْ أن ترخيني. هذا العائق غير المتوقع، هذا الثقل وهذا التماسُّ البغيض زادا من حنقي. أحسستُ أنني في ذروة سُعاري، ولابد أن منظري كان فظيعاً، فملأني ذلك

Twitter: @ketab_n

ارتياحاً. سحبتُ ذراعي اليسرى بكل قوتي، فأصابها مرفقي في وسط وجهها. فأطلقت صرخةً وأرخت ذراعي. وأردت أن أنطلق وراء «تروكاتشيفسكي» فتذكرتُ أنني سأبدو مضحكاً لو جريتُ بجوربي وراء عشيق امرأتي، و لم أشأ أن أكون مضحكاً، بل مرعباً. وبالرغم من السعار المخيف الذي كنتُ فريسةً له، كنتُ أتذكر طوال الوقت الأثر الذي يمكن أن أُحدثه في الآخرين، وحدّد ذلك سلوكي جزئياً. التفتُ إلى امرأتي. لقد تهالكت على كرسي وأخذت تنظر إليّ وهي تحمي بيدها عينيها المصابتين. كان وجهها ينطق بالخوف وبكره العدو. ذكرتني بفأرٍ صاده الفخُّ. على الأقل، لم أقرأ شيئاً في سحنتها سوى الخوف والكراهية. كان هذا الرعب وتلك الكراهية في نظري هما بالضبط ما يثيره فيها حبُّها للآخر. غير أني ربما لم أكن لأفعل شيئاً، ولكبحتُ جماح نفسي لو صمتت: أخذت تتكلم وهي تمسك بيدي المسلّحة بالخنجر.

– اهدأ! ما بك؟ ماذا حدث لك؟ ليس بيننا شيء، لاشيء، لاشيء، لاشيء... أقسم لك على ذلك!

كان يمكن أن أنتظر، دون شك، لكن كلماتها الأخيرة التي استنتجتُ منها العكس، أي أن كل شيء قد انتهى، أثارت رد فعلي الذي لا يمكن إلا أن يتطابق مع حالة السعار التي أفضيتُ إليها والتي أخذت في التصاعد دون أن تكفّ عن النمو. إن للسعار أيضاً قوانينه.

– لا تكذبي، يا قذرة، وأطبقتْ يدي اليسرى على يدها، لكنها تخلصت.

Twitter: @ketab_n

حينئذٍ أمسكتها بحنجرتها، دون أن أرخي الخنجر، ورددتها إلى الخلف وحاولت خنقها. ما كان أشدّ مقاومة عنقها!... حاولت أن تتخلص بكلتا يديها، وكأني لم أكن أنتظر سوى هذه الحركة، فأغمدتُ بكل قوتي الخنجر من جنبها الأيسر تحت الأضلاع.

عندما يقول لك الناس إنهم لا يعلمون ما يفعلون في نوبة سُعار، لا تصدِّقهم، فتلك حماقات، وذلك خطأ. كنتُ مدركاً لكل شيء، و لم يُفارقني وعيي لما أفعل ولو ثانية واحدة. وكنتُ كلما تماديتُ في سعاري ازددت صفاء ذهن؛ كنت أعلم بدقة ماذا أفعل؛ كنتُ أتبيّنه بوضوح. لا أستطيع أن أزعم أنني أعلم مسبقاً ما سأفعله. لكنني في الثانية التي باشرتُ العمل فيها، وربما قبلها بقليل، كنتُ على وعي تام بأفعالي، وكأنني أردتُ أن أهيئ نفسي للندم، وأن أقول فيما بعد: إني كنت أستطيع أن أكبح نفسي. كنتُ أعلم أني أطعن فوق الأضلاع وأن الخنجر نفذ إلى اللحم. وفي اللحظة التي كنت أفعل ذلك فيها، كنتُ أعلم أنني أفعل شيئاً وحشياً، أنني أرتكب عملاً لم أرتكبه من قبل قط، وهو عمل ستكون له عواقبه الوخيمة. لكن هذه الفكرة مرّت بذهني كالبرق، وتبعها الفعل على الفور. «نفّذتُ» فعلتي بوضوح خارق للعادة. وأذكر أني أحسستُ بمقاومة طفيفة من المشدّ، ثم نفذ النصل إلى اللحم الرخو. أمسكت امرأتي الخنجر بيديها وجرحت نفسها لكنها لم تستطع أن توقفه.

وبعد ذلك بزمن طويل، في السجن، بعد أن عانيتُ صدمتي الأخلاقية، فكّرت في هذه الدقيقة، متذكراً كل ما كنت أستطيعه ومتأملاً فيه، أذكر أنني أُوتيتُ رؤية شديدة الوضوح لما كنتُ أفعله،

Twitter: @ketab_n

في ثانية، ثانيةٍ خاطفة قبل الفعل؛ كنتُ أقتلُ، أقتلُ امرأةً، امرأة ما من مُدافع عنها، زوجتي أنا! إن هول هذه الذكرى مايزال ماثلاً في ذاكرتي؛ استنتجتُ من ذلك - وأظن أنني أتذكر - أن هذا هو السبب الذي من أجله سارعتُ إلى سحب الخنجر من الجرح، أريد أن أتدارك وأوقف ما فعلتُ. ظللتُ بلا حراك، ثانية واحدة، منتظراً ما سيأتي، متسائلاً هل من الممكن تدارك ما حدث.

نهضت واثبة وصاحت:

- يا مربية! لقد قتلني!

وقفت المربيةُ على عتبة الباب، بعد أن جذبتها الضوضاء. ظللتُ بلا حراك، منتظراً وغير مصدّق. لكن موجة من الدم تدفقت من المشدّ. حينئذ فقط أدركتُ أن لا سبيل إلى إصلاح ما جرى، وقررتُ على الفور أن ليس من الضروري ذلك الإصلاح، وأن هذا بالضبط هو ما أردتُ وما يجب أن أفعله. انتظرتُ أن تنهار وأن تُهرع إليها المربية وهي تصرخ:

- أوه! يا ربي.

بعد ذلك فقط رميتُ الخنجر وخرجتُ من الغرفة. قلتُ في نفسي دون أن ألقي نظرة على المرأتين: «يجب ألا أضطرب، ينبغي أن أعرف ماذا أفعل». كانت المربية تصرخ وتدعو الخادمة. دلفتُ إلى الممر وأرسلتُ الخادمة إلى امرأتي واتجهتُ إلى مكتبي وتساءلت: والآن ماذا أفعل؟ وفهمتُ فوراً ما بقي علي أن أفعله. وعندما دخلتُ مكتبي،

Twitter: @ketab_n

وذهبتُ رأساً إلى مجموعة الأسلحة، وتناولت مسدسي، وتحقّقتُ من أنه مُلقَم، ووضعته على الطاولة. ثم لممتُ غمد الخنجر وجلست على الأريكة.

ظللتُ زمناً طويلاً هكذا. لم أكن أفكّر في شيء، ولا أتذكر شيئاً. سمعت ضجةً هناك، شخصاً قادماً، وشخصاً آخر. وأخيراً سمعتُ ورأيت «إيغور» يحمل الحقيبة التي ذهب لإحضارها. وكأن هناك مَنْ يحتاج إليها بعد الآن. قلت له:

- هل علمت بما جرى؟ اذهب وقل للبواب أن يخبر الشرطة.

خرج دون أن يفوه بكلمة.

نهضتُ وأغلقتُ الباب، وأخذتُ أدخّن. لكني لم أستطع أن أُكمل سيجارتي، لأن النعاس هدّني. لابد أنني نمت ساعتين. وأذكر أنني حلمتُ أننا هي وأنا، صديقان، وأننا تخاصمنا لكنا سنتصالح. وكان هناك عائق طفيف أمام المصالحة ولا أدري ما هو؛ بيد أنا كنا صديقين. أيقظتني ضرباتٌ على بابي. فكرت وأنا أستيقظ: لابد أن تكون الشرطة. يُخيل إلي أنني قتلت. إلا إذا كانت «هي» التي تطرق الباب، دون أن يقع شيء.

قُرع الباب ثانية. لم أجب، إذ كنتُ مشغولاً بحلّ هذه المُعضلة: هل وقع شيءٌ، نعم أم لا؟ وقع هذا. تذكرت مقاومة المشد، ودخول النصل في اللحم، فسرتْ رعشةٌ في ظهري. نعم وقع هذا، والآن جاء دوري. قلتُ ذلك في نفسي. لكنني كنت أعلم وأنا أقوله أنني لن

Twitter: @ketab_n

أنتحر. بيد أني نهضت وتناولت المسدس. شيء غريب: أذكر جيداً أنني أوشكت عدة مرات، أن أطلق النار على نفسي: وقد بدا لي ذلك، في يوم مضى، في القطار، سهلاً جداً، وربما لأنني كنت أفكر بما يحدثه الانتحار من أثر في زوجتي. أما الآن فلا أستطيع أن أعزم على ذلك، بل ولا أن أفكر فيه تفكيراً جاداً. تساءلتُ لِمَ أفعل ذلك؟ وظل سؤالي بلا جواب. قُرع الباب من جديد. «يجب أَن أذهب أولاً لأعرف مَنْ الطارق، وفي الوقت متّسع لأقرر. وضعتُ المسدس على الطاولة وأخفيتُه تحت جريدة. ثم دنوت من الباب وسحبتُ المزلاج. كانت أخت زوجتي، وهي أرملة طيبة القلب، لكنها غبية.

قالت والدموع الجاهزة أبداً للانهمار تنساب من عينيها:

– فاسيا، ماذا فعلتَ؟

سألتُها بلهجة فظة:

– ماذا تريدين مني؟

كنت أعلم أنه ما من داعٍ يدعوني إلى الفظاظة، لكنني لم أكن أتصور لهجة أخرى.

– فاسيا، إنها تموت! إيفان زاكاريتش قال هذا.

إيفان زاكاريتش طبيبها ومستشارها.

واستعلمتُ:

– هو هنا إذن!

Twitter: @ketab_n

وارتد حينئذ حقدي عليها.

– وماذا تبغين؟

قالت:

– فاسيا، اذهب إليها. أوه! ما أفظع ذلك!

تساءلتُ: أأذهب إليها؟ وأجبتُ نفسي فوراً بالإيجاب. لعل الأمور تجري هكذا عندما يُقدم الزوج على قتل زوجته. عليّ إذن أن أذهب إليها. قلتُ في نفسي: «إن كانت هذه هي العادة فلأذهب. أما الانتحار فهناك متّسع من الوقت للتفكير فيه، إن كان ذلك ضرورياً». تبعتُ أختها. وقلتُ في نفسي أيضاً: الآن سيكون هناك كلامٌ رنان، وتكشير، لكني لن أستسلم لمشيئتهم. وقلتُ لأختها:

– انتظري، سأبدو غبياً بالجوربين، دعيني فقط أنتعل خفيّ.

– ٢٨ –

يا له من شيء غريب! فعندما خرجتُ من مكتبي واجتزتُ جملةً من الغرف المألوفة، عاودني الأمل، وتخيلتُ ثانية أن شيئاً من ذلك لم يحدث، لكن رائحة الأدوية الكريهة، اليودوفورم وحمض الفينيك اجتاحتني. لقد وقع كل شيء. وعندما مررتُ أمام غرفة الأولاد، أبصرت «ليز» الصغيرة. تفرست فيّ بأعين مرتعبة. وخُيِّل إلي أن الأولاد الخمسة هنا ينظرون إلي.

Twitter: @ketab_n

دنوت من الباب، فتحت لي الخادمة من الداخل، ثم انسحبت. أول شيء بدا لناظري فستانُها الرمادي الفاتح الذي اسود من الدم، منشوراً على كرسي. كانت المحتضرة ممدّدة على سريرنا، مكاني (وكانت هنا أقرب تناولاً) مطوية الركبتين، تسندها وسائد. وكان صدارها مفكوك الأزرار؛ وكان نوع من الضماد يُخفي الجرح. وفي الغرفة انتشرت رائحة اليودوفورم الثقيلة. ذُهلت قبل كل شيء ذهولاً شديداً بوجه امرأتي: كان متورماً، تشيع فيه زرقةٌ على قسم من الأنف وتحت العينين. وكان ذلك من أثر الضربة التي أصابها بها مرفقي عندما حاولتْ أن توقفني. لم يبق لجمالها من أثر. بل وجدتُ فيها ما ينفّر. وقفتُ على العتبة. همست إليّ أختها:

- اقترب، اقترب.

فكرتُ: «نعم، لاشك، أنها تريد أن تُعرب عن ندمها. أأصفح عنها؟ نعم، إنها تموت، ويمكن أن أصفح عنها». قررتُ ذلك لأنني أحببتُ أن أكون شهماً. وقفتُ بحذاء السرير. وبجهد شديد رفعت نحوي عينيها وكانت إحداهما متورّمة، وقالت بشيء من الألم، وهي تتوقف بين الكلمة والكلمة:

- بلغتَ غايتكَ، قتلتني...

وبالرغم من آلامها الجسدية، بالرغم من الموت الوشيك الوقوع، عبّرت ملامحها عن تلك الكراهية القديمة الباردة والحيوانية التي أعرفها جيداً.

Twitter: @ketab_n

- لكن لن أترك لك الأولاد... مع ذلك... أختي هي التي ستأخذهم.

أما ما هو أهم - خطيئتها، خيانتها - فيبدو أنها لم تر من المفيد أن تتحدث عن ذلك.

وأردفت عيناها شاخصتان إلى الباب:

- تستطيع أن تفخر بعملك.

وأخذت تنتحب.

كان الأولاد وأختها عند الباب:

- نعم، انظر إلى ما فعلت!

نظرتُ إلى الأولاد، وإلى وجه امرأتي، المرضوض والمملوء بالكدمات، ولأول مرة نسيت نفسي، نسيتُ حقوقي، وكبريائي، ولأول مرة اكتشفتُ فيها الكائن الإنساني. وفجأةً بدا لي كل ما كان يجرحني تافهاً جداً، وبدت لي غيرتي تافهة جداً، وبدا لي ما فعلته خطيراً جداً بحيث أردت أن ألصق وجهي بيدها وأن أقول لها:

«سامحيني!». لكني لم أجرؤ.

كانت صامتة، مغمضة العينين، فلا شك أنها لا تملك القدرة على الكلام. ثم ارتعش وجهها المشوّه وكشّرت. ردّتني رداً ضعيفاً:

Twitter: @ketab_n

– لماذا فعلتَ ذلك؟ لماذا؟

قلتُ لها حينئذ:

– سامحيني.

– أسامحك؟ حماقة!... شريطة ألا أموت!

هتفت بذلك وهي تستوي وتنصبّ عليّ عيناها اللامعتان من الحمّى. ثم صاحت، ولعلها كانت تهذي هذيان النهاية مرتعبة من شيءٍ عَرضَ لها:

– نعم، بلغتَ غايتكَ!... إني أكرهكَ!... آي! آه هيا، اقتلني، اقتل، لستُ أخافك!... لكن اقتل الجميع، اقتله أيضاً!... لقد ذهب!... ذهب!...

لم تكفّ عن الهذيان. ولم تعد تعرف أحداً. ولفظت أنفاسها في اليوم نفسه، حوالي الظهر. أما أنا فقد جاءت الشرطة تبحث عني قبل ذلك بكثير، في الساعة الثامنة ليقتادوني إلى مفوضية الشرطة، ثم إلى السجن. وهناك، طوال أحد عشر شهراً من السجن الوقائي إنما، فكّرتُ في نفسي، في ماضيّ، وفهمت كل شيء. بدأت أفهم منذ اليوم الثالث: ففي هذا اليوم الثالث اقتادوني إلى هناك..

أراد أن يضيف شيئاً ما، لكنه عجز عن كبح نحيبه، قطع كلامه، ولما استأنف تابع حديثه:

– بدأت أفهم فقط في اللحظة التي رأيتها في نعشها...

Twitter: @ketab_n

خنق نشيجه ثم سارع وأكمل حديثه:

– عندما رأيتُ وجهها فقط، وجه الميتة، فهمتُ ما فعلتُ. فهمتُ أنني قتلتها، وأن ذلك الكائن الحي، المتحرك، الدافئ قد غدا بخطيئتي، ذلك الشيء الذي لا حراك فيه، البارد، المصوغ في الشمع الذي لا سبيل إلى إصلاحه، أبداً، في أي مكان. مَنْ لم يعش هذه اللحظات لا يمكنه أن يُدركها.

ثم صمت.

ظللنا صامتين زمناً طويلاً. كان ينتحب ويرتجف أمامي دون أن يقول شيئاً. تطاول وجهه. وبدا كأنما غدا أنحف، وقطعه الفمُ على عرضه كله.

استأنف فجأة:

– نعم، لو كنتُ أعلم ما أعلمه الآن، لجرت الأمور على نحو مختلفٍ جداً، ولما تزوجتها إطلاقاً... لا هي ولا غيرها.

ظللنا مرة ثانية صامتين لحظة طويلة.

– سامحني...

أعرض بوجهه عني، وتمدّد على المقعد وتغطّى بمعطفه.

في الموقف الذي كان علي أن أنزل فيه – كانت الساعة الثامنة صباحاً – دنوتُ منه لأودّعه. أكان ينام حقاً أم هو يتظاهر بالنوم؟ لم يتحرك. لمستُه بحذر. فكشف الغطاء: كان واضحاً أنه غير نائم.

Twitter: @ketab_n

قلتُ له وأنا أمد يدي:

- وداعاً.

مدّ لي يده وابتسم ابتسامة خفيفة. كان مثيراً للشفقة حتى أني اشتهيت أن أبكي.

قال وهو يردّد الكلمة التي اختتم بها قصته:

- نعم، سامحني.

Twitter: @ketab_n

تذييل

تلقيتُ وما أزال أتلقى كثيراً من الرسائل التي أرسلها مجهولون يسألونني فيها أن أشرح لهم بعبارات بسيطة وواضحة رأيي في المشكلة التي أثرتُها في قصتي «سوناته لكروتزر». سأحاول أن ألبّي طلبهم، أي أن أعبر بأكبر قدرٍ ممكن من الإيجاز عن جوهر قصتي والاستنتاجات التي يمكن، بحسب رأيي، أن تُستَخلص منها.

أولاً: أردتُ أن أقول إنه تكوّن في مجتمعنا اقتناعٌ وطيدٌ، مشتركٌ بين جميع الطبقات، ويسنده علمٌ زائف، يذهب إلى أن العلاقات الجنسية تشكل فعلاً ضرورياً للصحة؛ وبما أن الزواج ليس ممكناً دائماً، فقد وجد الناس العلاقات خارج الزواج التي لا تُلزم أحداً بشيء اللهم إلا المكافأة المادية، أمراً طبيعياً بل أمراً يُشجَّع عليه. وهذا الاقتناع غدا عاماً جداً ووطيداً جداً حتى إن الأهل أنفسهم، ينظمون، بناء على نصيحة الأطباء، الدعارة لأولادهم. إن الحكومات التي يجب أن يكون مبرّر وجودها الوحيد هو الحفاظ على السلامة الأخلاقية لتابعيها، تؤسس الدعارة أي أنها تنظّم طبقة كاملة من النساء المحكوم عليهن بالهلاك جسدياً وأخلاقياً لإرواء

Twitter: @ketab_n

حاجات الإنسان المزعومة، وليتمكن العزّابُ من تعاطي الرذيلة، وضمائرهم مطمئنة.

وأردتُ أن أقول إن ذلك ليس حسناً، لأنه ليس مقبولاً أن يُضحّى بأجسام الآخرين ونفوسهم، من أجل صحة البعض، كما أنه من غير الممكن أن نقبل شرب دم القريب من أجل رفاهيتنا.

أما الاستنتاج فهذا هو الاستنتاج الذي يبدو لي طبيعياً أكثر من غيره: يجب ألا نسقط في هذا الخطأ، هذا الكذب. ولكي لا نسقط فيه، يجب ألا نؤمن، في البداية، بتلك المذاهب اللاأخلاقية، مهما تكن العلوم الوهمية التي تسندها؛ ثم يجب أن نفهم أن العلاقات الجنسية التي يُزيح فيها الرجل عن نفسه مسؤوليات العواقب الممكنة - ولادة الولد - أو يلقى وزر تلك العواقب على المرأة، أو يستخدم الوسائل الوقائية ليتفادى ولادة الولد، إن هذه العلاقات الجنسية تشكل جريمة بحق المتطلبات الأولية للأخلاق، جريمة وجبناً، ولذلك فإن على العزّاب الذي لا يريدون أن يعيشوا عيشة الجبناء، أن يتفادوها.

ولكي يستطيعوا أن يُمسكوا أنفسهم، عليهم أولاً أن يعيشوا حياةً سويةً: لا كحول، لا شراهة، لا لحم، عليهم أن يتملّصوا من العمل (لست أقصد الرياضة الجسمية، وإنما العمل الجاد والمتعب)؛ يجب أن يطردوا من أذهانهم إمكان أية علاقة جنسية مع نساء غير نسائهم، شأنهم في ذلك شأن أي رجل يأبى أن يسمح بمثل هذه العلاقات مع أمه وأخته وقريباته أو زوجة صديقه.

أما إمكان هذا التعفّف، وأما كون هذا التعفّف أقل ضرراً على

Twitter: @ketab_n

الصحة من الدعارة، فإن كل إنسان يجد حوله مئات الشواهد ا لتي لا تُدحض. هذا أولاً.

وثانياً: إن الرأي القائم في مجتمعنا، وهو أن العلاقة الغرامية ليست فقط شرطاً جوهرياً للصحة، ولذة، لكنها أيضاً غبطةٌ شعرية تسمو بالنفس؛ وبالتالي، أصبح الزنى شيئاً جارياً في جميع الأوساط (ولدى الفلاحين على الخصوص، من جرّاء التجنيد).

وأحسب أن ذلك غير حسن.

النتيجة التي تنجم عن ذلك تقول لنا: لا يجب أن يتصرف أحد هذا التصرف ولكي لا يتصرف أحد هكذا يجب أن نغيّر تصوّرنا للحب الجسدي؛ يجب أن يُربَّى الرجل والمرأة، في أسرتهما وفي الرأي العام، بحيث لا يعدّان الحب، والجاذبية الجسدية التي ترافقه، حالةً شعرية سامية، وإنما حالة حيوانية، مُذلة للكائن البشري؛ يجب أن يعاقب انتهاك قَسَم الأمانة الذي يتبادله الزوجان، من قِبل الرأي العام، على الأقل، في الحدود التي يُعاقب فيها الإخلال بالالتزامات المالية أو إساءات الاستعمال التجارية، بدلاً من الاحتفاء بها، في أيامنا، في الروايات والقصائد والأغاني والأوبرات، الخ... هذا ثانياً.

ثالثاً: وبسبب الفكرة الخاطئة التي نكوّنها عن الحب الجسدي دائماً في مجتمعنا، فقدت ولادةُ الولد معناها؛ وبدلاً من أن تكون غايةَ العلاقات الزوجية ومبررها، أصبحت عائقاً في وجه الممارسة السارة للعلاقات الغرامية.

Twitter: @ketab_n

ولذلك فإن خدّام العلم الطبي الغيورين أشاعوا داخل الزواج وخارجه، استخدام الوسائل المانعة للحمل؛ وما لم يكن موجوداً من قبل، ولا يمارس في الأسر الفلاحية الأبوية، أصبح شائع الاستعمال وعادة: الإبقاء على العلاقات الزوجية أثناء الحمل والرضاعة.

وأحسب أن هذا غير حسن.

إن استخدام الوسائل المانعة للحمل جدير باللوم، أولاً لأنه يخلص الوالدين من كل هم، من كل جهد لصالح الأولاد الذين هم مسوّغ الحب الجسدي، ثم لأنه يشكل فعلاً قريباً من القتل، وهو فعل أشد مناقضةً للوجدان الإنساني. والشبق أثناء الحمل أو الرضاع هو أيضاً جديرٌ باللوم، لأنه يدمّر قوى المرأة الفيزيائية والمعنوية خاصة.

النتيجة التي تنتج من ذلك هي أنه لا ينبغي التصرف هكذا. ولكي لا يتصرف المرء هكذا، يجب أن يُفهم أن التعفّف، وهو الشرط الجوهري للكرامة الإنسانية أثناء العزوبة، يغدو إلزامياً في الزواج. هذا ثالثاً.

رابعاً: في عالمنا الذي يكون فيه الأولاد عائقاً في وجه اللذة حيناً، وحدثاً عارضاً حيناً آخر، وفرحاً في بعض الأحيان، عندما يُحدد عدد الولادات مسبقاً، هؤلاء الأولاد لا يتلقون التربية القادرة على إعدادهم للمهمات الإنسانية التي تنتظرهم، من حيث هم كائنات مفكّرة ومحبّة؛ وهم لا يُربّون إلا بغية إرضائهم للأهل. ومن ثم فإن أولاد البشر يربون كما يُربى صغار الحيوانات، ولا يكون هم الأهل الأساسي في إعدادهم لفعالية تليقُ بالإنسان، بل في تغذيتهم بأفضل ما يمكن من الغذاء، وبتنشيط نموهم، وغسلهم بعناية ليكونوا لطفاء،

Twitter: @ketab_n

متورّدين، جميلين، مكتنزين لحماً (وهم في ذلك يستندون إلى ذلك العلم الزائف الذي يُدعى الطب). وإذا لم يُفعل كذلك في الصفوف الدُنيا، فمردّ ذلك إلى الضرورة، إذ أن وجهة النظر واحدة. وتنمو لدى الأطفال الذين أفرط الأهل في تدليلهم، كما هي الحال لدى الحيوانات التي غُذِّيت تغذية حسنة مفرطة، شهوانية سابقة لأوانها ولا سبيل إلى التغلب عليها، وهي سبب الآلام الرهيبة التي يعانونها أثناء مراهقتهم. فالزينات النسائية، والمطالعات، والعروض المسرحية، والموسيقا، والرقص، والحلويات، كل ذلك الجو الحياتي، بدءاً من الصور المرسومة على علب السكاكر حتى الروايات والقصص والقصائد، كل ذلك لا يفتأ يهيج تلك الشهوانية. ومن جرّاء ذلك، تغدو أفظع الأمراض، وأسوأ الانحلالات الجنسية، الشروط الطبيعية لنمو الأولاد من الجنسين، وهي تستمر غالباً لدى البالغ.

وأحسب أن هذا غير حسن.

والنتيجة التي تنتج من ذلك هي أنه يجب الكفُّ عن تربية الأولاد كما تُربى صغار الحيوانات. ولتربية الأولاد، يجب الاتجاه إلى أهداف أخرى، خارج الجسم اللطيف الذي أُحسن الاعتناء به. هذا رابعاً.

خامساً: وفي مجتمعنا حيث تُرفع الجاذبية المتبادلة التي يشعر الشبان والشابات، حتى عندما لا تكون مؤسسة إلا على الشهوة، إلى ذروة المطامح الشعرية للإنسانية، وهو ما تشهد به الفنون الجميلة والشعر، يكرّس الشباب أفضل سنواتهم بحثاً عن أجمل غرضٍ للحب، وسعياً إلى امتلاكه، بشكل علاقة أو زواج، وتكرّس النساء

Twitter: @ketab_n

والفتيات أفضل سنواتهن سعياً إلى إغراء الرجل وصيده ليجعلن منه عشيقاً أو زوجاً.

وبسبب ذلك يستهلك المخلوق البشري أفضل قواه لا في مهمة منتجة، وإنما في جهد ضار. ومن هنا يأتي جزءٌ كبير من الترف الجنوني الذي نعيش فيه، وفراغ الرجال، ووقاحة النساء اللواتي لا يتحرجن من تعرية أجزاء من أجسادهن أقدر من غيرها على إثارة الشهوة، محاكيات البدعة الغريزة على العاهرات.

وأحسب أن هذا غير حسن.

هذا غير حسن، لأن الاتحاد الجسدي، في الزواج أو على هامش الزواج، ليس هدفاً جديراً بالكائن الإنساني، مهما جُمِّل شعرياً، كما أنه غير جدير بالإنسان أن يعدّ سهولة الحصول على غذاء سائغ ووافرٍ السعادة القصوى، سواء بسواء.

والنتيجة التي تنتج من ذلك هي أنه يجب الكفّ عن الاعتقاد بأن الحب الجسدي هو شيء سام سمواً خاصاً. يجب أن يُفهم أن الهدف الجدير بالإنسان سواء أكان خدمة الإنسانية، أو الوطن، أو العلم أو الفنون الجميلة (بصرف النظر عن خدمة الله)، أو أي هدف نراه جديراً بالإنسان، لا يمكن أن يبلغه الإنسان بالحب الزوجي أو غير الزوجي. على العكس، (وبالرغم من العناء الذي يبذله الروائيون والشعراء ليثبتوا العكس) إن الجاذبية الجسدية والاتحاد بالمحبوب، لا تسهل أبداً إكمال المهمة الجديرة بالإنسان، وهي تضايقه دائماً. هذا خامساً.

Twitter: @ketab_n

هذا هو إذن الجوهري فيما أفكر فيه، وفيما أردت أن أقوله، وما أعتقد أنني عبرت عنه في قصتي. وبدا لي أن من الممكن مناقشة الطريقة التي نتدارك بها الشر، لا مناقشة الشر نفسه. لا تمكن مناقشته، أولاً لأن الأوضاع الموصوفة تتطابق مع تقدم الإنسانية الذي يتدرّج من الدعارة، ويطمح أبداً إلى عفةٍ أكبر؛ وهي تتطابق أيضاً مع المثل الأعلى الأخلاقي للمجتمع، مع وجداننا الخاص الذي ينبذ الانحلال ويقدّر الحشمة؛ ثم لأن هذه الأوضاع ليست سوى مجرّد استنباطات لمبادئ الإنجيل الذي نُراعي وصاياه، أو، على الأقل - وربما لا شعورياً - نعترف بها أساساً لتصوّراتنا الأخلاقية.

أما في الممارسة العملية فيحدث شيءٌ آخر.

صحيح أنه ما من أحد يجادل صراحة في أن الدعارة قبل الزواج أو بعده مذمومةٌ، وأنه لا يجب أن يوضع حدٌّ مصطنع للحمل، وأنه لا ينبغي أن يُجعل الأولاد لعبة، ولا أن يُرفع الاتحاد الغرامي فوق كل شيء، وبكلمة واحدة، لا يُناقش أحد في أن الحشمة خير من المجون. لكن يُقال: إذا كانت العزوبة أرقى من الزواج، فمن الطبيعي أن يختار الناس الأفضل؛ لكنهم لو فعلوا ذلك، لانقطع الجنس البشري، ومن غير الممكن أن يكون مثل الإنسانية الأعلى تدمير ذاتها. وبصرف النظر عن أن تدمير الجنس ليس مفهوماً مستحدثاً، لأن المؤمنين يجعلون منه عقيدة إيمانهم، ويستنبطه العلماء من نظرياتهم عن برودة الشمس، وهذا الاعتراض يحتوي على سوء تفاهم قديم، منتشر جداً.

يُقال: «إذا بلغ الناس المثل الأعلى للعفة الكلية، فسوف يختفون،

Twitter: @ketab_n

ومن ثم فهذا المثل الأعلى خاطئ». لكن الذين يحاكمون هكذا يخلطون، عن علم أو عن غير علم، مفهومين مختلفين جداً: القاعدة، والأمر والمثل الأعلى.

العفة ليست قاعدةً أو أمراً، وإنما هي مثل أعلى، أو على الأصح أحد تعاليمه.

والمثل الأعلى لا يكون مثلاً أعلى إلا عندما يكون ممكناً بالفكرة فقط، عندما يمكن بلوغه في اللانهاية فقط؛ وسبل الاقتراب منه حينئذٍ لا حصر لها. وعندما يمكن بلوغ المثل الأعلى، أو عندما نستطيع فقط أن نتصور تمامه، لا يعود مثلاً أعلى.

كذلك مَثلُ يسوع الأعلى - إقامة ملكوت الله على الأرض - الذي أعلنه لنا الأنبياء؛ وسيأتي الزمن الذي يسمع فيه الناس صوت الرب، والذي يصنعون فيه مناجل كبيرة من سيوفهم، ومناجل صغيرة من رماحهم، والذي ينام فيه الأسد قرب الحمل، والذي تتحد فيه الكائنات الحية في الحب. إن معنى الحياة الإنسانية تقوم في الحقيقة على النزوع إلى هذا المثل الأعلى، ولذلك فالتوق إلى المثل الأعلى المسيحي في مجمله وإلى العفة التي هي أحد شروطه لا يستتبع أبداً تدمير تقدمية ومن ثم إمكانية الحياة.

والزعمُ بأن الجنس البشري سينقرض إذا بذل الناس وسعهم ليكونوا أعفّاء، تأكيد أن حياتنا ستنقرض (وبعضهم يفعل ذلك) أن جنسنا سينقرض إذا بذلنا وسعنا في حب أصدقائنا وأعدائنا وكل ما يحيا، بدلاً من أن نناضل في سبيل الوجود.

Twitter: @ketab_n

هذه المحاكمات تنبع من عدم فهم الفرق بين طريقتين في التوجّه الأخلاقي.

فكما أن هناك وسيلتين. ندلّ بهما المسافر على طريقه، فكذلك هناك طريقتان تقودان الكائن الذي يبحث عن الحقيقة.

الوسيلة الأولى قوامُها أن نعيّن للإنسان الأشياء التي يلقاها في دربه والتي تصلح أن تكون له دلائل ومعالم.

أما الثانية فقوامها أن نزوده ببوصلة يحملها وتدله دائماً على الوجهة التي عليه أن يسير فيها، وتتيح له أن يبصر انحرافاته.

وطريقة التوجّه الأخلاقي هي تعليمات من نوع خارجي: يُعطى الإنسان فكرة محددة عن الأفعال التي يجب أو لا يجب أن يقوم بها: لا تسرق، لا تقتل، أحسنْ إلى الناس، ثم بصلواتك... وهي الوصايا الخارجية للمذاهب الدينية أيّاً كانت.

أما الطريقة الثانية فقوامها أن يُعين للإنسان كمال لن يبلغه أبداً، لكنه يسعى إلى بلوغه: يوكل إليه مثلٌ أعلى يستطيع دائماً أن يعاين مدى بعده عنه:

أحبّ إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل عقلك، وأحبّ قريبك كما تحب نفسك. كن كاملاً كأبيك السماوي.

هذا هو تعليم المسيح.

والامتثال للوصايا الخارجية للكنيسة وهو العمل على التوافق بين هذه الأفعال وتحديد العقيدة؛ هذا التوافق ممكن.

Twitter: @ketab_n

أما اتباع تعليم المسيح فهو الشعور بدرجة اللاكمال بالنسبة إلى المثل الأعلى (إن درجة التقارب تظل غير مرئية: والانحرافات وحدها هي التي تظهر).

إن الإنسان الذي يُطبّق الوصايا الخارجية شبيه بالإنسان الواقف في دائرة مضيئة لمصباح معلَّق بفانوس، إنه يظل في الضوء، رؤيته فيه واضحة، وليس عليه أن يذهب منه. أما الرجل الذي يطبّق تعليم المسيح فهو شبيه بمن يحمل مصباحاً أمامه، معلقاً بعصا تطول أو تقصر: الضوء يسبقه أبداً ويحثه على المضي قدماً، فيكتشف أمامه فسحات جديدة تجذبه إليها.

الفرّيسي يشكر الله على أنه أتم كل شيء. والشاب الفتي أتمّ أيضاً كل شيء منذ طفولته، وهو لا يفهم ما الذي يمكن أن ينقصه. كلاهما لا يستطيع التفكير على نحو آخر: ليس أمامهما شيء يستطيعان أن يتجهان إليه. الإحسان وُزّع، وروعيت حرمةُ السبت، وأُكرِم الوالدان، ولا زنى ولا سرقة ولا قتل، هل هناك أفضل من هذا؟ أما ذاك الذي يتبع تعليم المسيح، فكل درجة يصعدها في الكمال تدفعه إلى اجتياز درجة أخرى، يكتشف بعدها درجة أعلى، وهكذا إلى اللانهاية.

إن من يتبع تعليم المسيح يجد نفسه دائماً في وضع «الباحث». يحس أبداً أنه غير كامل، لأنه لا يرى وراءه الطريق الذي قطعه، وإنما يرى فقط الطريق الذي أمامه والذي عليه أن يقطعه أيضاً.

وفي ذلك يقوم الفرق بين تعليم المسيح وجميع المذاهب الدينية

Twitter: @ketab_n

الأخرى، وهو فرق يكمن لا في تباين المتطلبات، وإنما في الطريقة التي يرشد بها الناس.

لم يعط المسيح أية قاعدة للحياة. لم ينشئ شيئاً، لم يؤسّس شيئاً، حتى ولا الزواج. لكن الذين لم يفهموا خاصية تعليمه وتعوّدوا المذاهب الخارجية ويريدون أن يكونوا عادلين على نمط الفريسيين، بخلاف الروح المسيحية، استخدموا «الحرف» ليُحلّوا مثلاً أعلى زائفاً محل تعليم المسيح الحقيقي.

وتعليم المسيح الحقيقي لا يُقدّم شيئاً تقوم عليه مؤسسة الزواج. وينتج عن ذلك أن أبناء عالمنا هجروا ضفةً دون أن يقربوا الضفة الأخرى، أي أنهم لا يؤمنون بتعريف الزواج كما تمتدحه الكنيسة، ومن جهة أخرى فهم لا يرون أمامهم مثل المسيح الأعلى – الطموح إلى العفة التامة – ومن هنا الغياب الكلي للمرشد في مسائل الزواج. ومن أجل ذلك، فإن الجماعات الأخرى التي تحوي تعريفاً خارجياً محدداً لقوانين الزواج، كانت مبادئ الأسرة والأمانة الزوجية فيها أكثر استقراراً منها عند المسيحيين المزعومين. الناس هناك يعرفون التسري أو تعدد الزوجات وهما محدّدان بشكل دقيق. أما عندنا فالانحلال مطلق: إن التسرّي وتعدد الزوجات وتعدد الأزواج لا تخضع لأي نظام، وهي تحتجب خلف أحادية الزوجة الأسمية الخالصة. ولأن عدداً من الزيجات يكرّسها الأكليروس الذي يقوم بالطقس الديني، يظن أبناء عالمنا عن سذاجة أو نفاق، أنهم يمارسون أحادية الزوجة.

إن المثل الأعلى المسيحي هو في محبة الله والقريب، في التخلي عن

Twitter: @ketab_n

الذات، من أجل خدمة الله والقريب؛ إن الحب الجسدي، والزواج يشكّلان عبادةً للذات، ومن ثم فهما يشكلان عقبة دون خدمة الله والإنسانية؛ وإذن فهما من وجهة النظر المسيحية سقوط، خطيئة.

إن الزواج لا يمكن أن يساعد على خدمة الله والقريب، حتى في الحالة التي يقدم فيها المتعاقدان عليه بنيّة التناسل. والأبسط على هؤلاء أن يسندوا وينفذوا ملايين الحيوات الفتيّة التي تهلك من حولنا، بسبب نقص الغذاء الأرضي، دعكَ من الغذاء الروحي.

إن المسيحي لا يمكنه أن يتزوج دون الشعور بأنه يسقط، يرتكب خطيئة، ما لم يكن على يقين من أن جميع الأطفال الموجودين من قبل سيظلون على قيد الحياة.

نستطيع ألا نقبل بتعليم المسيح، ذلك المذهب الذي يطبع حياتنا بطابعه والذي هو قاعدة أخلاقنا، لكن مَنْ يقبل به عليه أن يُقرّ بأن مثله الأعلى يكمن في العفة الكاملة. لقد قيل في الإنجيل بوضوح، دون إمكان التأويل الخاطئ، إن الرجل المتزوج لا ينبغي له أبداً أن يطلق امرأته ليتزوج امرأة أخرى، لكن عليه أن يعيش مع التي تزوّجها. وأن الرجل سواء أكان متزوجاً أو لا، ينبغي ألا ينظر إلى المرأة على أنها غرض للذة وإلا ارتكب خطيئة، وأن العزب أفضل له ألا يتزوج أبداً أي أن يظل عفيفاً عفة مطلقة.

كثيرون هم الذين سيستغربون هذه الأفكار ويجدونها متناقضة. وهي متناقضة فعلاً، لا في ذاتها، بل بالقياس إلى حياتنا كلها، ونحن نتساءل: وأيهما المُحق؟ هذه الأفكار، أو حياة ملايين البشر، وحياتي أنا.

Twitter: @ketab_n

هذا الإحساس، عرفته أنا نفسي، إلى أعلى درجة، عندما توجهت نحو الاقتناع الذي أعبّر عنه اليوم؛ لم أكن أتوقّع أن يقودني فكري إلى حيث وصلتُ الآن. هالتني استنتاجاتي. أردتُ ألا أؤمن بها، لكنني لم أفلح في ذلك. ومهما تكن متناقضة مع النظام القائم، ومع ما آمنت به وقلته من قبل، إلا أني مضطر أن أسلّم بصحتها.

لكن كل هذه الأفكار العامة، التي لعلها صحيحة في ذاتها، تتعلق بتعليم المسيح، وليست إجبارية إلا بالنسبة إلى الذين يتممون واجباتهم الدينية. فالحياة هي الحياة. ولا يمكننا أن نجعل من مثل المسيح الأعلى الذي لا سبيل إلى بلوغه، مرشداً للناس ثم نتركهم يواجهون مشكلة من أشد المشكلات إثارة للقلق، مشكلة قادرة على إثارة أفدح النكبات، إذا ظل ذلك المثل الأعلى دون تعاليم أخرى.

إن الشاب المشبوب العاطفة يتلظى حماسة في البدء من أجل المثل الأعلى، لكنه لا يصمد، ويضعف، ولا يعرف قانوناً، ولا يريد أن يعترف بقانون، فيغرق في الدعارة الكلية.

هكذا يفكر الناس.

«إن مثل المسيح الأعلى لا سبيل إلى بلوغه، ولذلك فهو لا يصلح مرشداً لحياتنا؛ يمكننا أن نتكلم عنه، ونحلم به، لكنه لا يمكن السير فيه، ولذلك فيجب أن نَعزف عنه».

«لسنا بحاجة إلى مثل أعلى؛ نحن بحاجة إلى نظام، إلى قواعد على قدنا، متناسبة مع القوى الأخلاقية المتوسطة لمجتمعنا: نحن بحاجة

Twitter: @ketab_n

إلى زواج ديني شريف، وحتى غير شريف، وذلك عندما يكون أحد الزوجين - الرجل عندنا - قد عرف عدة نساء؛ أو على الأقل، إلى زواج يسمح بالطلاق، إلى زواج مدني عند اللزوم، أو (إذا أردنا أن نُبعد)، إلى زواج ياباني، زواج لأمد محدد، وحينئذ لماذا لا نقبل ببيوت البغاء.

ذلك أن الناس يزعمون أن هذا أفضل من الدعارة العامة.

أما أسوأ ما في الأمر فها هو هذا: ما إن نسمح لأنفسنا، بسبب ضعفنا، بأن ننتقص من المثل الأعلى، حتى نعجز عن اكتشاف الحدود التي يجب أن نقف عندها.

هذه المحاكمة خاطئة من الأساس: فمن الخطأ أولاً، أن نظن أن المثل الأعلى للكمال اللانهائي لا يمكن أن يكون زاد الحياة وأن من الواجب إما أن نعزف عنه بحجة أنه لا فائدة منه إذ هو لا يُنال، وإما أن ننزله إلى الدرجة التي يؤثر ضعفنا أن يبقى فيها.

إن من يحاكم الأمور كذلك يشبه الملاح الذي رأى أنه لا يمكن أن يسلك الطريق التي أشارت إليها البوصلة، فيرمي هذه البوصلة من فوق السفينة أو يكفّ عن الرجوع إليها، أي يتخلّى عن المثل الأعلى أو يوقف إبرة البوصلة على الاتجاه الذي اتّخذته السفينة في لحظة ما، وهذا ما يُعادل خط المثل الأعلى إلى مستوى الضعف البشري.

إن المثل الأعلى للكمال الذي أعطاه المسيح ليس وهماً، ولا هو موضوع لموعظةٍ بلاغية، لكنه قانون للحياة الروحية الضرورية السهلة

Twitter: @ketab_n

المنال، كما أن البوصلة ضرورية وسهلة المنال بالنسبة إلى الملاح؛ لكن ينبغي أن نؤمن به في هذه الحالة أو تلك.

مهما يكن الوضع الذي يجد الكائن البشري نفسه فيه، فإن تعليم المسيح كافٍ دائماً لإعطائه توجيهات محددة حول ما يجب أن يفعله وما لا يجب أن يفعله. لكن يجب أن يؤمن بهذا التعليم، وبه وحده، ينبغي أن يكفّ عن اتباع أي مذهب آخر، كما أن الملاح يجب أن يؤمن ببوصلته وألا يحاول التوجه حسب ما يراه من حوله.

ينبغي أن نعرف كيف نتوجه بحسب المذهب المسيحي، كما يجب أن نعرف كيف تُستخدم البوصلة. ومن أجل ذلك، إن الشيء الجوهري هو أن نفهم وضعنا الحقيقي، ألا نخاف من القياس الدقيق لأدنى انحراف عن الطريق الذي عيّنه المثل الأعلى.

مهما تكن درجة السلّم التي يُوجَد فيها الكائن البشري يمكنه دائماً أن يتقرّب من المثل الأعلى، لأنه ما من وضع يمكننا أن نعتقد فيه أننا بلغنا المثل الأعلى، ولا يمكننا فيه أن نطمح إلى مزيدٍ من التقرّب إليه.

ذلك هو نزوع المخلوق البشري إلى المثل الأعلى المسيحي على العموم، وإلى العفة على الخصوص.

إذا تصورنا مختلف مواقف الإنسان أمام المشكلة الجنسية منذ الطفولة البريئة وحتى الزواج الذي لا يُراعى فيه التعفّف، ففي كل درجة من درجات السلم يعطينا تعليم المسيح بمثله الأعلى تعيينات محددة فيما يتصل بالسلوك الذي يجب أن نسلكه في المراحل المختلفة.

Twitter: @ketab_n

ماذا ينبغي أن يفعل إذن الشاب النقي والفتاة العذراء؟ يجب أن يصونوا أنفسهم من التجارب، لكي يستطيعوا أن يكرّسوا قواهم لخدمة الله والإنسانية، ينبغي لهم أن يطمحوا إلى عفةٍ متعاظمة في الروح والرغبات.

وماذا ينبغي أن يفعل إذن الشاب النقي والفتاة العذراء اللذان سقطا في التجربة، واستغرقتهما فكرة حب بلا موضوع أو تعلق بشخص معين فقد معه، ولو جزئياً، قدرته على خدمة الله والقريب؟ الجواب واحد دائماً: عدم الاستسلام للسقوط، مع العلم أن هذا الاستسلام لا ينقذهم من التجربة، بل إنه يُفاقم منها؛ الطموح أبداً إلى نقاء أكمل من أجل إمكان خدمة قضية الله والإنسانية على نحو أكمل.

ماذا ينبغي أن يفعل إذن الذين لم يستطيعوا أن يخرجوا منتصرين من الصراع، وسقطوا؟ ينبغي ألا ينظروا إلى سقوطهم على أنه متعةٌ مشروعة، كما يفعل الناس اليوم، إذ يُجازى على السقوط المذكور بالزواج، ولا على أنه لذة طارئة، يمكن تجديدها مع شركاء آخرين، وعلى أنه مصيبة عندما يكون الشريك كائناً أدنى و لم يكرّس سقوطه أي طقس، لكن يجب، بكل بساطة، أن يكون هذا السقوط هو الأول وهو الأخير، وكأننا نعقد زواجاً لا تنفصم عراه.

إن الزواج ونتيجته الطبيعية: ولادة الأولاد، يقدم إمكانات جديدة، محدودة أكثر، لخدمة الله والقريب. ويمكن للرجل، قبل أن يتزوج، أن يغدو نافعاً، بطرق شتى؛ فيقلّص الزواج ميدان عمله، ويجبره على الإشراف على تربية ذريّته، التي تُعد لخدمة الله والإنسانية.

Twitter: @ketab_n

ماذا ينبغي أن يفعل إذن الرجل والمرأة اللذان تجمعهما روابط الزواج، واللذان من جراء ذلك، يراعيان خدمة الله والقريب الممدودة بتكريسهما نفسيهما لتربية أولادهما؟

الجواب دائماً هو نفسه: ينبغي أن يسعيا معاً إلى الاحتراس من التجربة والخطيئة، وأن يتطهروا، وأن يُحلاّ محل الحب الجسدي علاقات أخوية، وأن يُنحّيا جميع العقبات التي تُعرّض للخطر إخلاصهما لله والقريب.

ولذلك فمن الخطأ القول إننا لا نستطيع أن نسترشد بالمثل الأعلى للمسيح بحجة أنه مفرط السمو والإطلاق، صعب المنال. لا نستطيع أن نسترشد بهذا المثل الأعلى. لأننا لا نكفّ عن الكذب على أنفسنا وعن خداعها.

لأننا عندما نزعم أننا بحاجة إلى نظام أكثر قابلية للتحقق من ذلك المثل الأعلى - وإلا سقطنا في الدعارة دون أن نبلغ المثل الأعلى - فنحن لا نقول إن ذلك المثل الأعلى مفرط السمو، لكننا نقول فقط إننا لا نؤمن به ولا نريد أن نطابق بين أفعالنا وهذا المثل الأعلى.

وعندما نزعم، إذا ما سقطنا، أننا نقع في الدعارة، فنحن نؤكد فقط أننا قررنا أن الخطأ الذي ارتكبناه مع كائن أدنى ليس خطيئة، لكنه تسلية، وتدريب لا حاجة إلى إصلاحه. وإذا كنا نفهم أن السقوط خطيئة يجب ويمكن أن يكفَّر عنها بفدية وحيدة هي الزواج الذي لا سبيل إلى فصم عراه، والرعاية التي تتطلبها تربية الأولاد المنحدرين من هذا الزواج، فالسقوط الأول لا يمكن أن يكون في أصل الدعارة.

Twitter: @ketab_n

مثَلُ ذلك مَثَلُ ذلك الحرّاث الذي يخامره الشك في أمر زرع القمح لهذا السبب الوحيد وهو أنه لم يثمر، وينصرف إلى زرع حقل آخر، ثم إلى غيره أيضاً، ويعدّ البذار الحقيقي ذاك الذي أعطى نتائج، فمن الواضح أن هذا الرجل يفسد كثيراً من الأرض والبذار دون أن يتعلم كيف يزرع.

حاولوا فقط أن تطرحوا العفة مثلاً أعلى، واعتبروا السقوط الأول، أياً كان الشريك، زواجاً وحيداً لا ينقسم، وسترون حينئذ أن تعليم المسيح ليس كافياً فحسب، وإنما هو وحده ممكن أيضاً.

الإنسان ضعيف، ويجب أن يكلف مهمة متناسبة مع قواه، هذا ما يعلنون عنه. هذا كمن يقول بالضبط: يدي ضعيفة، ولا أستطيع أن أرسم مستقيماً الذي هو أقصر طريق بين نقطتين، ولذلك، ولكي أسهّل مهمتي، أتّخذ الخط المنحني أو المنكسر نموذجاً لي.

وكلما كانت يدي أضعف كان النموذج أكمل.

وإذا فهمنا التصور المسيحي للمثل الأعلى، فلا نستطيع بعد ذلك أن نتظاهر بجهله، أو أن نحلّ محله تعريفات خارجية.

إن تعليم المثل الأعلى المسيحي سهل المنال على الإنسانية، ولاسيما أنه يمكن أن يرشدها في عصرنا. لقد عبر الإنسان مرحلة التعريفات الدينية الخارجية و لم يعد أحد مؤمناً بها. إن تعليم المثل الأعلى المسيحي يمكنه وحده أن يقود الإنسانية.

لا يجوز ولا يجب أن نحلّ محل المثل الأعلى المسيحي قواعد

Twitter: @ketab_n

خارجية. يجب أن نحافظ على هذا المثل الأعلى بكل نقائه، ويجب، على الخصوص، أن نؤمن به إيماناً راسخاً.

إن الذي يُحاذي الشاطئ يمكن أن يقول لنفسه: «اتجه إلى هذه الأكمة، إلى هذا الرأس، إلى ذلك البرج» الخ... لكن قد آن الوقت الذي ينأى فيه السباحون عن الساحل، ولا دليل لهم ولا مرشد غير الكواكب البعيدة المنال، والبوصلة التي تشير إلى الاتجاه الصحيح.

ولقد أُعطينا هذين الاثنين.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المحتويات

مقدمة ٥

موت إيفان ايليتش ٢٥

ما يحتاج إليه الإنسان من الأرض ١١٣

قصة إيفان الغبي ١٣٩

العامل إميليان والطبل الفارغ ١٩١

الحبة العجيبة ٢٠٧

ثلاثة أبناء ٢١٣

نيكولا بالكين ٢١٩

سيروا مادام النور معكم ٢٣١

سوناته لكروتزر ٣٣١

تذييل ٤٥٧

Twitter: @ketab_n

سوناته لكروتزر 1889 – 1891. هذا النص الشهير والذي أثار كثيراً من المجادلات، تخيّله تولستوي بعد أن تجاوز الستين. والمؤلف يتّخذ فيه موقفاً تجاه المشكلة الزوجية وتجاه الفن الموسيقي على حد سواء. وقبل أن نتصدّى للمشكلة الأولى لِنُشر إشارةً عابرة إلى أن تولستوي أحبّ الموسيقا كثيراً منذ شبابه وفي كل زمان من حياته. لكنه بعد أزمته الدينية والأخلاقية الكبيرة التي حملته على كره الفن والأدب، ونبذ أعمال معاصريه الرئيسية، انتهى إلى الحقد على الموسيقا نفسها التي عدّها مفرطة الانفعالية. وفي «ما الفن» يسخر من أوبيرات «فاغنر»، ويتنكر لبيتهوفن مؤكّداً أن السمفونية التاسعة «تفرّق بين البشر بدلاً من أن تجمعهم». إن ما يخشاه بخاصة هو سلطان السحر في الموسيقا التي ليس تأثيرها، في رأيه، قائماً على السموّ بالنفس، ولا الهبوط بها، بل كل ما هنالك هو أنها تهيّجها وتوقظ شياطينها. ولذلك «فيا لها من شيء مروّع، تلك الموسيقا!» كما يهتف بطل سوناته لكروتزر.

الكسندر سولوفييف

لوحة الغلاف للفنان DeCamp Joseph

ISBN 978-2843090844